موسوعة عُمان
في التراث العربي

(الجزء الأول)

في عيون الأدباء

د. هلال الحجري

موسوعة عُمان في التراث العربي

(الجزء الاول)

في عيون الأدباء

المؤلف: د. هلال الحجري

بيت الغشام
للصحافة والنشر والإعلان

(سلطنة عُمان – مسقط)

هاتف: ٢٤٥٩١٦٤٦ - ٩٩٢٦٠٣٨٦
ص.ب: ٢٠٦٨ الرمز البريدي: ١٣٣
alghshamoman@gmail.com
www.takweeen.net

تصميم الغلاف: منيرة الهطالي

التصميم الداخلي: ساره العلوي

الناشر:

سلطنة عمان
وزارة الإعلام

الطبعة الأولى ٢٠١٨
جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع: ٨٤ / ٢٠١٨
رقم الإيداع الدولي (ISBN)
٩٧٨-٩٩٩٦٩-٣-٠٢٥-٦

موسوعة عُمان
في التراث العربي

(الجزء الأول)

في عيون الأدباء

د. هلال الحجري

تمهيد

لم تكن عُمان مجهولة في التراث العربي كما يجهلها، للأسف، بعض المثقفين العرب الآن. حين تقرأ مصادرَ هذا التراث، كما فعلتُ في هذا المشروع، تظهر لك عُمان جُغرافيًّا ومَعرفيًّا أولَ أرضٍ تُشرقُ فيها الشمس في خارطة العالم العربي. يمتد حضورها عميقا في مختلف مَضَانِّ الثقافة العربية القديمة؛ الشعر الجاهلي، وتفاسير القرآن الكريم، ومسانيد الأحاديث الصحيحة، وأمهات تاريخ الأدب العربي، والتاريخ، والجغرافيا، وأدَب الرحلة.

حاولتُ في هذا المشروع استقصاءَ حضور عمان، أرضا، وثقافة، ولغة، وعلماء، وشعراء؛ فكانت أهمُّ مصادر التراث العربي كريمةً في احتضان هذا الحضور. وكان الحضورُ ثَريّا ومضيئا يليق بهذا البلد الذي لم يكتف بشُغْلِ الخلفاءِ والأمراءِ فَحَسْب، وإنما شَغَل رموزَ التراث العربي بمختلف مشاربهم.

إنها لَمَفْخَرَةٌ عظيمةٌ لعُمانَ أن يأتي ذِكْرُها على لسانِ الرسول صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث، وإنه لَشَرَفٌ لها أن يتردّدَ ذِكْرُها في أفواه صحابتِه الكرام، وإنه لتَخْليدٌ لاسمِها أن يَلْهَجَ به فطاحلُ الشعراء منذ الجاهلية إلى العصر الحديث، وإنه لكَنْزٌ عظيمٌ ما خلّفه علماءُ اللغةِ، والأدبِ، والتاريخِ، والجغرافيا، والطّبِّ، وهم يتحدثون عن لُغَةِ أهلِ عُمان، وشعرائِها، وخطبائِها، وملوكِها، وأسواقِها، ونِضالِها في مُواجهة الطامعين والغُزاة، واستقلالِها، واتِّساعِها الجُغرافي، وجِبالِها، ومُدُنِها، وبِحارِها، وجَوَاهِرِها، ونَخيلِها، ونَباتاتِها الطبية.

كل ذلك سيجده القارئ في هذا العمل بأجزائه الثلاثة؛ الأول الذي يتناول حضور عمان في دواوين الشعراء، ومصادر الأدب العربي الشهيرة. والثاني الذي يتتبع حضورَها في تفاسيرِ القرآن الكريم، ومسانيدِ الأحاديثِ الشريفة والكتبِ التي شرحتها، ومعاجمِ اللغة العربية، وكتبِ الفِقْهِ الإسلامي، وبعضِ المصادر الطبّيّة. والثالث الذي يستقصي ذِكْرَ عمان في مصادر التاريخ، والأنساب، والجغرافيا، والرحلات. ولا أزعم بهذا العمل أني أحَطّتُ بكُلِّ ذِكْرٍ لعُمانَ في مصادر التراث العربي، ولكني بذلتُ قُصارى جُهْدي في استقصاء ذلك؛ ولا شكَّ عندي

أن ثَمّةَ مصادرَ أخرى تحدثتْ عن عُمانَ ولم أطّلِعْ عليها، ولَعَلّ الطّبعات اللاحقة لهذا العمل ستستدرك هذا النقص. لم يكنْ الاشتغالُ على هذا المشروع سهلا؛ فقد استغرق سنوات من الجهد في تتبع عمان في مصادر التراث، ورغم أن كثيرا من هذه المصادر أصبح متوفرا إلكترونيا مما سهّل علي عملية التحقق والنقل، فأن بعضها غير متوفر وقد استلزم ذلك وقتًا كثيرا في الكتابة والتوثيق. و كطبيعة أي عمل موسوعي، لم أشتغل في هذا العمل بتحليل النصوص الواردة فيه؛ وإنما كان وَكْدي استقصاء ذكر عمان في هذه النصوص، وحسبي منه أنه يحقق هدفين مهمين: أحدهما أنّ عُمَانَ ليستْ بلدا طارئا في خارطة العالَم العربي؛ بل هي ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، وثانيهما أنّ العُزْلة التي فرضتها الجُغرافيا على عُمان لم تكن عائقا لاتصالها بحواضر العالم الإسلامي، بل كانت نفسها حاضرة من هذه الحواضر التي اشتعلتْ بنور اللهِ وجهودِ علمائها ومثقّفيها.

ختاما، ما كان لهذا العمل أن يرى النور لولا دعم كريم من معالي الدكتور عبد المنعم من منصور الحسني، وزير الإعلام الموقّر، الذي بادر مشكورا بتمويله وطباعته.

مقدمة
صورة عُمان في الشعر العربي

صورة النأي

إن موقع عمان في أقصى جنوب شرق شبه الجزيرة العربية، جعلها مضرب المثل في البعد والنأي. وهذه الصورة تمتد على خارطة الشعر العربي منذ الجاهلية إلى العصر الحديث.

نجد صورة البعد أو النأي تتردد عند كثير من الشعراء العرب. منهم مثلا عمرو بن قميئة، وهو من فحول الجاهلية، يقول منكرا على قومه حقدهم و جورهم عليه و إضمارهم عداوته؛ حتى أن أهل عمان، على بعدهم، صاروا أقرب إليه منهم:

أُولَئِكَ قَومي آلُ سَعدِ بنِ مالِكٍ
فَمالوا عَلى ضِغْنٍ عَلَيَّ وَإِلغافِ
أَكَنَّوا خُطوباً قَد بَدَت صَفَحاتُها
وَأَفئِدَةً لَيسَت عَلَيَّ بِأَرآفِ
وَكُلُّ أُناسٍ أَقرَبُ اليَومَ مِنهُمُ
إِلَيَّ وَإِن كانوا عُمانَ أُولي الغافِ[1]

وفي عصر صدر الإسلام، نجد أبابكر الصديق، يدعو إلى الدين الجديد بقوله:

هلمّوا إلى دين النبي محمدٍ
و لو كان في أقصى جبال عُمانِ[2]

١. الضُّبَعي، عمرو بن قَمِيئة. ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق: الصيرفي، حسن كامل (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ١٩٦٥)، ص ٧٠.
٢. أبو بكر، عبد الله بن أبي قحافة. ديوان أبي بكر الصديق، تحقيق: راجي الأسمر (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٧)، ص ٤٩.

وممن تمثل ببعد عمان، القَتّال الكِلابي ؟ - ٧٠ هـ / ؟ - ٦٨٩ م، وهو شاعر صعلوك مخضرم عاش إلى خلافة عبد الملك بن مروان. يقول القتّال في قصيدة له يشير فيها إلى ما جاء في الأثر من أن حَجّة من عمان أفضل من غيرها:

حَلَفتُ بِحَجٍّ مِن عُمانَ تَحَلَّلوا
بِبِئرَينِ بِالبَطحاءِ مُلقىً رِحالُها
يَسوقونَ أَنضاءً بِهِنَّ عَشِيَّةً
وَصَهباءَ مَشقوقاً عَلَيها جِلالُها
بِها ظِعنَةٌ مِن ناسِكٍ مُتَعَبِّدٍ
يَمورُ عَلى مَتنِ الحَنيفِ بِلالُها
لَئِن جَعفَرٌ فاءَت عَلَينا صُ دورُها
بِخَيرٍ وَلَم يُردَد عَلَينا خَيالُها
فَشِئتُ وَشاءَ اللَهُ ذالَكَ لِأُعنِبَن
إِلى اللَهِ مَأدى خَلفَةٍ وَمُصالُها[1]

وتعززت هذه الصورة لبعد عمان في العصور اللاحقة، حتى أن جريرا، الشاعر الأموي الشهير، حين أراد أن يهجو جشع قوم في الأكل لم يجد لهم مكانا أقصى من عُمان. يقول:

لو يسمعون بأكلة أو شربةٍ
بعُمَانَ أصبح جَمْعُهمْ بعُمَانِ[2]

وترد صورة نأي عمان في ديوان جرير أيضا ضمن قصيدة لامية يجيب فيها الفرزدق على نقيضة من نقائضه. يقول:

١. الكلابي، القتّال. ديوان القتّال الكلابي، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٩)، ص ٧٩-٨٠.
٢. الصاوي، محمد إسماعيل. شرح ديوان جرير، ط ١ (القاهرة: مطبعة الصاوي) ص. ٥٨١.

فـي لَيلَتَيـنِ إذا حَـدَوتُ قَصيـدَةً
بَلَغَـت عُمـانَ وَطَيِّـئ الأَجبـالِ[1]

ويقول الشاعر الأموي عبد الله بن عبيد الله بن أحمد ابن الدمينة ؟ - ١٣٠ هـ / ؟ - ٧٤٧ م، مجسدا أيضا بعد عمان:

ولَـو أَنَّ أُمَّ الغَمـرِ أمسَـت مُقيمـةً
بِتَثليـثَ أَو بالخَـطّ خَـطّ عُمـانِ
تَمَنَيَّـتُ اَنّ اللّهَ جامـعُ بَينِنـا
بمـا شَـاءَ فـي الدُّنيَـا فَمُلتَقِيَـانِ[2]

وفي العصر العباسي عَبّر أبو نواس أيضا عن بعد عمان، فنراه في إحدى خمرياته يصف الخمرة بأن لها نورا مُشِعّا يكفي لإنارة الدرب من العراق إلى عمان، يقول:

وَخَمّـارٍ طَرَقـتُ بِـلا دَليـلٍ
سِـوى ريـحِ العَتيـقِ الخَسـرَواني
فَقـامَ إِلَـيَّ مَذعـوراً يُلَبّـي
وَجَـوتُ اللَيـلِ مِثـلُ الطَيلَسـانِ
فَلَمّـا أَن رَأى زِقّـي أَمامـي
تَكَلَّـمَ غَيـرَ مَذعـورِ الجَنـانِ
وَقـالَ أَمِـن تَميـمٍ قُلـتُ كَلّا
وَلَكِنّـي مِـنَ الحَـيِّ اليَمانـي
فَقـامَ بِمِبـزَلٍ فَأَجـافَ دَنّـاً
كَمِثـلِ سَـماوَةِ الجَمَـلِ الهِجـانِ

١. المصدر السابق، ص ٤٦٦.
٢. ابن الدمينة، عبدالله. ديوان ابن الدّمينة، تحقيق: أحمد راتب النفاخ (القاهرة: مكتبة دار العروبة، ١٩٥٩) ص٣٠.

فَسَـيَّلَ بِالبِـزالِ لَهـا شِـهاباً
أَضـاءَ لَـهُ الفُـراتُ إِلـى عُمـانِ[1]

و ممن أشار إلى بعد عمان الشاعر الأندلسي ابن شبرين الجذامي (٦٧٤ - ٧٤٧ هـ / ١٢٧٥- ١٣٤٦ م) و هو قاض و مؤرخ و أديب بارع، من أهل سبتة في الأندلس. يقول مادحا أحد الأمراء:

ذكـرُهُ قَـد شـاعَ فـي الأر
ض إِلـى أَقصـى عُمـانِ
لا تَـراه الدَهـرَ إِلّا
حِلـفَ سَـرج أَو عِنـانِ[2]

ومن الشعراء الذين عبّروا عن بعد عمان ومشقتها أيضا الأديب الأندلسي أبو رجال بن غَلبون توفي سنة ٥٨٩ هـ / ؟ - ١١٩٣ م، وهو كاتب من أهل مرسية. يقول متغزلا:

أَسـتَودِعُ اللَّهَ أَو رِضـاهُ
شامِـيَّةً تَستَبِـي يَـماني
وَإِن رَمَـت بـي النَّـوَى عُمانـاً
تَكُـن لـي زاداً إِلـى عُمـانِ
وَفـي ضَمـانِ اللَّيالـي مِنهـا
مـا قَـد تَعَالـى عَـنِ الضَّمـانِ[3]

١. الحكمي، الحسن بن هانئ، ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي، تحقيق إيفالد فاغنر، ط ١، ج ٣ (بيروت: دار صادر، ١٩٨٨)، ص ٣١٩.

٢. الطائية، م. م. سعد هاشم. شعر ابن شبرين الجذامي الأندلسي جمع ودراسة وتحقيق، مجلة كلية التربية، واسط، العدد ١٣ (نيسان، ٢٠١٣)، ص ١٦٠.

3. انظر موقع "الديوان العربي" على شبكة الإنترنت: http://www.aldiwanalarabi.com/poemPage.do;jsessionid=BSkg6poemId=554575?O98+w4vnsI2oYpo44y5.undefined

ومن الشعراء الذين تمثّلوا ببعد عمان أيضا أحمد بن عبد الله بن هريرة القبيسي المعروف ب «الأعمى التطيلي» (١٠٩٢ - ١١٣١ م) و هو شاعر أندلسي نشأ في إشبيلية. وقد رثى فتى من فتيان إشبيلية قُتِل غيلة، ولم يُعْلَم قاتلُه، وكان جواداً معروفاً بالكرم ومكارم الأخلاق و عيناً من أعيان البلد، فجزع عليه جزعاً شديداً، وقال يرثيه بهذه القصيدة، التي يتمثل فيها بالنأي المهلك من وراء عمان:

وأيَّامُ حـرب لا يُنـادي وَليدُهـا
أهـابَ بهـا فـي الحيِّ يـومُ رهان
فهـاب ربيـعٌ والـكلابُ تَهُـرُّهُ
ولا مثـلَ مُـودٍ مِـنْ وراءِ عُمـانِ[1]

وفي النصف الأول من القارن الثالث عشر الميلادي، نجد عليَّ بن المقرب العيوني، وهو شاعر هاجر من الأحساء إلى عمان وتوفي في طيوي من المنطقة الشرقية، يُكرّس صورة النأي هذه بقوله:

عَلـى مَ وَفـي مَ ظُلمـاً تَلحَيانـي
ذَرانـي لا أَبـا لَكُمـا ذَرانـي
وَحَسـبُكُما فَمـا سَـمعي بِمُصغٍ
وَلا واعٍ لِمـا تَتَحَدَّثـانِ
فَلـي هِمَـمٌ إِذا جاشَـت أَرَتنـي
قُـرى عَمّـان مِيـلاً مِـن عُمانِ[2]

وفي العصر الحديث نجد الشاعر الموريتاني محمد ولد ابن ولد أحميدا الشقروي (١٨٩٧-١٩٤٣ م) يجسد صورة نأي عمان حين يمدح قصائده ويرى أنها ما إنْ يُنشدْها حتى تتلقفها الركبان من فاس في المغرب العربي إلى عُمان في المشرق. يقول:

١. باقر، محمد. ديوان أبي العباس الأعمى التطيلي (بيروت: مكتبة الرائد العلمية، ٢٠٠٤)، ص٨١.
٢. العيوني، علي بن المقرب. ديوان جمال الدين أبي عبد الله علي بن المقرب العيوني (بومبي: مطبعة دير ساد، ١٨٩٢)، ص ٥٣٥.

إِذَا رُمـتُ قَطـفَ الشِّـعرِ أدنَى قُطُوفَهُ
إِلـيَّ فَأَجِنـي مِنـهُ مَـا أنَـا جَـانِ
فَقَاصِيـهِ دَانٍ لِـي وعَاصِيـهِ دائـنٌ
وأعينُـهُ شَـوقاً إلـيَّ رَوَانِ
ولَـم أكُ فـي أخـذِي لَـهُ مُتَكَلِّفـاً
فَمَـا هُـو إلاَّ مُختَـفٍ بِلِسَـانِي
تَنَاشَـدَهُ الرُّكبَـانُ فـي كُلِّ مَوكِـبٍ
وَتَقذِفُـهُ فَـاسٌ لأرضِ عُمَـانِ[1]

وفي العصر الحديث أيضا نجد أمير الشعراء أحمد شوقي يُكرّس الصورة نفسها حين يعبر عن وحدة الألم التي تجمع العرب من المغرب إلى المشرق. يقول في قصيدة له:

قَـد قَضـى اللهُ أَن يُؤَلِّفَنـا الجُـر
حُ وَأَن نَلتَقـي عَلـى أَشـجانِه
كُلّمـا أَنَّ بِالعِـراقِ جَريـحٌ
لَمَـسَ الشَـرقُ جَنبَـهُ فـي عُمانِـه[2]

صورة الملاذ الآمن

ربما لبعدها ونأيها عن نفوذ السلطات المستبدة خاصة في العصرين الأموي والعباسي، كانت عمان ملاذا آمنا لبعض الشعراء العرب الذين فرّوا إليها خوفا من البطش والظلم. ولعل أول شاعر هاجر إلى عمان حقنا للدماء وطلبا للأمن هو قيس بن زهير العبسي الذي هاجر إلى عمان بعد حرب داحس والغبراء في الجاهلية. ذكر هجرته هذه ابن منظور في لسان العرب،

١. الشقروي، محمد ولد ابن ولد أحميدا. ديوان الشاعر الموريتاني محمد ولد ابن ولد أحميدا. رسالة مادستير غير منشورة، تحقيق: أحمد ولد حبيب الله (القاهرة: كلية دار العلوم، ١٩٨٨)، ص ٨٦٥.
٢. شوقي، أحمد. الشوقيات، الجزء الثاني (بيروت: دار العودة، ١٩٨٨)، ص ١٩٣.

حيث يقول: « وشاعَكم السلامُ كما تقول عليكم السلامُ، وهذا إنما يقوله الرجل لأَصحابه إذا أَراد أَن يفارقهم كما قال قيس بن زهير لما اصطلح القوم: يا بني عبس شاعكم السلامُ فلا نظرْتُ في وجهِ ذُبْيانية قَتَلْتُ أَباها وأَخاها، وسار إِلى ناحية عُمان وهناك اليوم عقِبُه وولده».[1] و يؤكد هجرة قيس أيضا ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» و لكن بتفصيل آخر. يقول:

«وقيل: إن قيس بن زهير لم يسر مع عبس إلى ذبيان وقال: لا تراني غطفانيةٌ أبداً وقد قتلت أخاها أو زوجها أو ولدها أو ابن عمها، ولكني سأتوب إلى ربي، فتنصر وساح في الأرض حتى انتهى إلى عمان فترهب بها زماناً، فلقيه حوج بن مالك العبدي فعرفه فقتله وقال: لا رحمني الله إن رحمتك»[2].

وفي العصر الأموي كثر الشعراء الذين فروا من بطش الحجاج بن يوسف وغيره من ولاة بني أمية، فكان الملاذَ الآمنَ لهم في الغالب عُمَانُ وإن طالتهم أيدي الحجاج أحيانا. من هؤلاء الشعراء عِمْرَان بن حطّان، وهو شاعر كما ذكر أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه خرج من العراق «فنزل بعُمان بقوم يكثرون ذكر أبي بلال مرداس بن أدية ويثنون عليه ويذكرون فضله فأظهر فضله ويسر أمره عندهم وبلغ الحجاج مكانه فطلبه فهرب فنزل في روذميسان- طسّوج من طساسيج السواد إلى جانب الكوفة - فلم يزل به حتى مات وقد كان نازلاً هناك على رجل من الأزد فقال في ذلك:

نزلت بحمد الله في خير أسرةٍ
أسر بما فيهم من الإنس والخفرْ
نزلت بقومٍ يجمع الله شملهم
وما لهم عودٌ سوى المجد يعتصر
من الأزد، إن الأزد أكرمُ أسرةٍ
يمانيةٍ قربوا إذا نُسب البشر

١. انظر: ابن منظور. لسان العرب. مادة "شيع".
٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ج١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧)، ٤٦٢.

وأصبحت فيهم آمناً لا كمعشرٍ
بدوني فقالوا من ربيعة أو مضر
أو الحيِّ قحطانٍ وتلك سفاهةٌ
كما قال لي روحٌ وصاحبه زفر
وما منهم إلا يُسرُّ بنسبةٍ
تقربني منهم وإن كان ذا نفر
فنحن بنو الإسلام والله واحدٌ
وأولى عباد الله بالله من شكر[1].

ومنهم سَوّار بن المِضَرَّب السعدي من بني سعد بن زيد مناه بن تميم. عارض الحكم الأموي أيام الحجاج بن يوسف الثقفي في الكوفة، فطلبه الحجاج ليقتله، فاستطاع أن يهرب وينجو منه إلى عُمَان كما يؤكد ذلك المبرد في كتابه الكامل. وهو يقول في ذلك:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي
وقومي تميمٌ والفلاة ورائيا[2]

وقد أورد الأخفش الأصغر في «كتاب الاختيارين» لسوّار بن المضرب هذه القصيدة التي يحن فيها إلى المواطن التي وجد فيها السكن والأمن في عُمان:

ألم تَرَني وَإِن أَنبَأتُ أَنّي
طَوَيتُ الكَشحَ عَن طَلَبِ الغَواني
أُحِبُّ عُمانَ مِن حُبّي سُلَيمى
وَما طِبي بِحُبِّ قُرى عُمانِ

١. الأصفهاني، أبو الفرج. كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، ج١٨ (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٨)، ص ٨٢-٨٣.
٢. المبرد، أبو العباس. الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ج٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩)، ص ١٣٠.

عَلاقَـةَ عاشِـقٍ وَهَـوىً مُتاحـاً
فَمـا أَنـا وَالهَـوى مُتَدانِيـانِ
تَذَكَـرُ مـا تَذَكَّـر مِـن سُـلَيمى
وَلَكِـنَّ المَـزارَ بِهـا نَآنـي
فَـلا أَنسـى لَيالِـيَ بِالكَلَنـدى
فَنيـنَ وَكُلُّ هَـذا العَيـشِ فـانِ
وَيَومـاً بِالمَجـازَةِ يَـوم صِـدقٍ
وَيَومـاً بَيـنَ ضَنـكَ وَصَومَحـانِ
أَلا يَـا سَـلمَ سَـيِّدَةَ الغَوانـي
أَمـا يُفـدى بِأَرضِـكِ تِلـكَ عانِ
وَمـا عَانيـكِ يـا اِبنَـةَ آلِ قَيـس
بِمَفحـوشٍ عَلَيـهِ وَلا مُهـانِ
أَمِـن أَهـلِ النَّقـا طَرَقَـت سُـلَيمى
طَريـداً بَيـنَ شُـنظُبَ وَالثَمـانِ
سَـرى مِـن لَيلِـهِ حَتّـى إِذا مـا
تَدَلّـى النَجـمُ كَالأُدمِ الهِجـانِ
رَمـى بَلَـدٌ بِـهِ بَلَـداً فَأَضحـى
بِظَمـأى الريـحِ خاشِـعَةَ القِنـانِ[1]

ومن هؤلاء الشعراء الذين هربوا إلى عمان ساعةَ المِحْنة والخوف على النفس كعب بن معدان الأشقري. قال أبو الفرج في أغانيه: «ونسخت من كتاب النضر بن حديد لمّا عُزِل يزيدُ

١. الأخفش الأصغر، كتاب الاختيارين، تحقيق: فخر الدين قباوة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤)، ص ١٠٥.

بن المهلب عن خراسان ووليها قتيبة بن مسلم مدحه كعب الأشقري ونال من يزيد وثلبه ثم بلغته ولاية يزيد على خراسان فهرب إلى عُمان على طريق الطبسين وقال:

وإنِّـي تـارِكٌ مَـرْواً ورائـي
إلـى الطَّبَسَـيْنِ معتـامٌ عُمانـا
لآوِي معقِـلاً فيهـا وحِـرْزاً
فَكُنَّـا أهـلَ ثروتهـا زمانـا[1]

ومنهم أيضا السَمْهَري العُكلي، وهو شاعر فتّاك كانت له غارات على القوافل، وقبض عليه وسجن أكثر من مرة وانتهى أمره بالقتل، له قصائد في أشعار اللصوص وأخبارهم. يقول في أبيات يمتدح فيها حاجب بن المفضل بن المهلب بن أبي صفرة عامل عُمان لعمر بن عبد العزيز، حيث ضاقت به الدنيا فلم يجد متسعا يفر فيه من ملاحقة الشرطة له:

أَقـولُ لأَدنَـى صاحِبَـيَّ نَصيحَـةً
وَلِلأَسْـمَرِ المِغـوارِ مَـا تَرَيـانِ
فَقالَ الَّذِي أَبدَى لِـي النُّصـحَ مِنهُمَا
أَرَى الرَّأيَ أَن تَجتـازَ نَحوَ عُمانِ
فَإِن لا تَكُن فِي حاجِـبٍ وَبِـلادِهِ
نَجـاةٌ فَقَـد زَلَّـت بِـكَ القَدَمـانِ
فَتًى مِن بَنِي الخَطَّابِ يَهتَزُّ لِلنَّدى
كَمـا اهتَـزَّ عَصـبُ الشَّـفرَتَينِ يَمانِ
هُـوَ السَّـيفُ إِن لا يَنتَـهُ لانَ مَسُّـهُ
وَغَربـاهُ إِن خَاشَـنتَهُ خَشِـنانِ

١. أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج١٤، ص ١٨٥.

صورة الرزق و طيب العيش

ثَمّة حديث مُتَدَاوَل في مصادر التراث العربي و هو «مَنْ تَعذّر عليه الرزقُ فعليه بعُمان»[1]. ونجد في ديوان الشعر العربي أمثلة عديدة تؤكد أن بعض الشعراء العرب جاء إلى عُمان طلبا للرزق ونشدانا للحياة الكريمة. ولعل الشاعر الجاهلي أعشى قيس كان أول الشعراء العرب الذين فاءوا إلى عُمان طلبا للرزق والحياة الكريمة؛ فقصائده تثبت أنه زار الجلندى بن كركر ملك عمان أواخر الجاهلية ومدحه طلبا في كرمه وعطاياه. وهذا ليس بمستبعد لأن الجلندى كان أيضا شاعرا وملكا مشهورا شأنه شأن المناذرة في العراق والمنذر بن ساوى في البحرين، وكانت سيطرته على سوقي دَبَا وصُحار، وهما من أسواق العرب الشهيرة آنذاك، فكان يعشر التجّارَ فيهما، ولا يَبيع الناس في هاتين السوقين حتىّ يبيع الجلندى ما لديه من بضاعة. يقول الأعشى:

وَصَحِبنا مِن آلِ جَفنَةَ أَملاكاً
كِراماً بِالشامِ ذاتِ الرَفيفِ
وَبَني المُنذِرِ الأَشاهِبِ بِالحيرَةِ
يَمشونَ غُدوَةً كَالسُيوفِ
وَجُلُنداءَ في عُمانَ مُقيماً
ثُمَّ قَيساً في حَضرَموتَ المُنيفِ[2]

وفي قصيدة ميمية من بحر المتقارب يمدح بها قيسَ بن معدي كرب، يدور هذا الحوار بين الأعشى وابنته:

تَقولُ اِبنَتي حينَ جَدَّ الرَحيلُ
أَرانا سَواءً وَمَن قَد يَتِم

١. الحديث رواه الطبراني في الكبير عن شرحبيل الجعفي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تعذرت عليه الصنعة، فعليه بعمان". وجاء بروايات مختلفة منها الرزق، ومنها التجارة.

٢. الأعشى، ميمون بن قيس. ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: محمود الرضواني، ج٢ (قطر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، ٢٠١٠)، ص ٢٠٠.

أَبانـا فَـلا رِمـتَ مِـن عِندِنـا
فَإِنّـا بِخَيـرٍ إِذا لَـم تَـرِم
وَيـا أَبَتـا لا تَـزَل عِندَنـا
فَإِنّـا نَخـافُ بِـأَن تُختَـرَم
أَرانـا إِذا أَضمَرَتـكَ البِـلا
دُ نُجفـى وَتُقطَـعُ مِنّـا الرَحِـم
أَفي الطَوفِ خِفتِ عَلَيَّ الرَدى
وَكَـم مِـن رَدٍ أَهلَـهُ لَـم يَـرِم
وَقَـد طُفـتُ لِلمـالِ آفاقَـهُ
عُمـانَ فَحِمـصَ فَأوريشَـلِم[1]

وفي عهد البويهيين الذين حكموا عمان خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادي وبداية القرن الحادي عشر، نجد أهم شاعرين وصفا رخاء العيش وطيبه، وإن كان مقتصرا في ظننا على بلاط بني مُكْرم، وهما أبزون العماني ومهيار الديلمي. يقول أبزون معبرا عن هناء عيشه في عمان تحت ظل السلطان أبي القاسم مؤيد الدولة:

ها إنّ أرضَ عمـانَ أنفَـسُ بقعَةٍ
ومؤيَّـدُ السـلطان أكـرم صاحـبِ
مـا زال إمّـا فـي صـدور مجالـسٍ
يبنـي العُـلاء وفـي قلوب مواكـبِ
والـى أياديـه صرفـتُ مطامعـي
وعلـى مَعاليـه وقفـتُ مطالبـي[2]

١. المصدر السابق، ج١، ص ١٧٩.
٢. أبزون. ديوان أبزون العماني، تحقيق: هلال ناجي، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، عدد٧، ١٩٨٤، ص ١١٩.

وكان مهيار الديلمي أكثر وضوحا في وصف هذا الرخاء الذي اتسم به بلاط بني مكرم في عمان. ومن قصائده الرائعة التي مدحهم بها هذه البائية:

وحبُـلـكَ مـن وفـيّ العهـدِ بـاقٍ
على بعـدٍ يُحيـلُ أو اقتـرابِ
هوىً لـلـكَ فـي جبـالِ أبانَ ثـاوٍ
وأنـتَ على جبـالِ عُمانَ صابي
وكان المجـدُ أعـودَ حيـن يهـوي
عليـكَ مـن المهفهفـة الكعـابِ
وإن وراء بحـر عمـانَ ملـكاً
رطيـبَ الظـلّ فضفـاضَ الرحـابِ
رقيـقٌ عيشـهُ عطـرٌ ثـراهُ
بطـرّاقِ الفضائـلِ غيـرُ نابـي
متـى تنـزلْ بـه تنـزلْ بـوادٍ
مـن المعـروفِ مرعـيّ الجنـابِ
يقـول لـيَ الغنـى ورأى قعـودي
عـن السـعي المُمـوِّلِ والطـلابِ
أمـا لـلـكَ فـي بحـارِ عُمـانَ مـالٌ
يسـدُّ مفاقـرَ الحـاجِ الصعـابِ[1]

١. الديلمي، مهيار، ديوان مهيار الديلمي، تحقيق أحمد نسيم، ط ١، ج ١ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٥)، ص ٣٦-٣٧.

ويقول مهيار في موضع آخر يمدح به أبا القاسم مؤيد الدولة:

ورأت عُمانُ وأهلُها بكَ ما
أغنى الفقيرَ وأمّنَ المشري
صارت بجودكَ وهي موحشةٌ
أُنسَ الوفودِ وقِبلةَ السَّفْرِ[1]

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر نجد شاعرا عراقيا اسمه جعفر القزويني ؟ - ١٢٦٥ هـ / ؟ - ١٨٤٨ م، واسمه السيد جعفر بن باقر بن أحمد بن محمد الحسيني القزويني. من مشاهير شعراء عصره. وُلِد بالنّجَف ونشأ بها، ولكن تكالبت عليه الدنيا فأُثْقِل بالديون، فرحل إلى مسقط مادحاً سلطانها السيد سعيد بن سلطان، فأدركته منيتُه فيها. يقول معبرا عن الدَّيْن الذي أثقل كاهله، ودعاه إلى عمان مادحا سلطانها:

لما رماني الدهر بالنوب
الشدائد والهزاهزْ
وألان صعدتي التي
صلبت وما لانت لغامزْ
ودعاني الزمن الخؤون
بأهله هل من مبارزْ
قالت لي الآراء والفِكَرُ
الثواقبُ في الغرائزْ
شرق وسل عن ماجد
يعطي الجواهر بالجوائزْ

١. المصدر السابق، ص ٣٧٣.

فـإذا بلغـت إلـى سـعيد
فـي عُمَـانَ فـلا تجـاوزْ
واعلـم بـأن أبـا هـلال
عـن مـرادكَ غيـر عاجـزْ
يوليـك مـا ترجـو ولا
يثنيـه عنـه غمـز غامـزْ
فتعـود مقضـيَّ الديـون
إلـى العـراق وأنـت فائـزْ
ويجيـز مـا ترجـو ببـذل
صـادق الدفعـات ناجـز[1]

ومن الشعراء الذين جاءوا إلى عمان نشدانا للحياة الكريمة أيضا الشاعر العراقي عبد الغفار بن عبد الواحد بن وهب، الملقب بالأَخْرَس لعقدة في لسانه، (١٨١٠ - ١٨٧٣ م) . وهو شاعر مجيد، كان معاصرا للبارودي، ولد في الموصل، ونشأ في بغداد، وتوفي في البصرة. له ديوان يسمى (الطراز الأنفس في شعر الأخرس) مطبوع في إستنبول سنة ١٨٨٧. يظهر من هذا الديوان أن الأخرس عاش في كنف السلطان سالم بن ثويني الذي دام حكمه سنتين فقط خلال الفترة (١٨٦٦-١٨٦٨). ومن المحتمل أيضا أنه التقى بالسيد سالم في الهند التي آوى إليها بعد الانقلاب الذي قام به عزان بن قيس والشيخ سعيد بن خلفان الخليلي عليه؛ إذ نجد في سيرة الأخرس أيضا أن داود باشا والي بغداد أرسله إلى الهند لعلاج الخَرَس الذي أصابه، وإن كنا نرجح الاحتمال الأول وهو عيشه في كنف السيد سالم أثناء حكمه؛ لما توحي به القصيدتان من معايشة الشاعر الأخرس للأحداث السياسية في عمان آنذاك. يمدح عبد الغفار الأخرس السلطان سالم ويدافع عنه، منكرا على أعدائه أنه قتل أباه السيد ثويني. يقول في القصيدة الأولى:

١. شُبّر، جواد. أدب الطفّ: شعراء الحسين عليه السلام، ج٧ (بيروت: دار المرتضى، ١٩٨٨) ص٣٩-٤١.

انْظُـر إلـى الأَشـراف كيف تسـودُ
وإلـى أُبـاة الضَّيـم كيـف تريـدُ
إذ يدَّعـي بالملـكُ مـن هـو أهله
والحـزم يقضـي والسـيوف شـهود
يـوم ثـوى فيـه ثويني في الثرى
يـوم بسـالم للبريَّـة عيـد
مـا للـذي عبـد الصخور من الَّذي
عَبـد الإِلـه ودينُـه التوحيـد
قـل للـذي ذمَّ الإِمـام بشـعره
قـد فاتـكُ المطلـوب والمقصـود
ولقد عميتَ عن الهُدى فيمن له
نظـرٌ بغايـات الأُمـور حديـد
السَّـيّد السـند الرفيـع مقامـه
ومقامـه الممـدوح والمحمـود
أنَّـى تحقّـر بالفهاهـة سـيِّداً
مـن حقّـه التعظيـم والتمجيـد
سـخط الحسـود بمـا بـه مـن سـالم
رضـي الإِلـه الواحـد المعبـود
مـن لام سـالم فـي أبيـه فلومـه
حُمْـقٌ لعمـري مـا عليـه مزيـد

مـا عَـقَّ والِـدَه ولا صـدق الَّـذي
نَسَـبَ العقـوقَ إليـه وهـو جحـود
وافى ثويني في الفـراشِ حمامُه
وأتـى عليـه يومُـه الموعـود
هـذا قضـاء الله جـلَّ جلالـه
لا والـدٌ يبقـى ولا مولـود
رأي رأى فيـه الإصابـة سـالمٌ
بـالله أُقسِـمُ إنَّـه لسـديد
فلـه يصـحّ الاجتهـاد بعلمـه
فـي شـأنه ولغيـره التقليـد
لمـا تيقَّـظ عزمـه مـن غفلـةٍ
فيهـا عقـول الجاهليـن رقـود
وأرابـه أمـرٌ يعـمُّ وبالُـه
وعلـى عمـان بمـا يسـوء يعـود
وَلـيَ الأُمـور بنفسـه فتصَرَّمَـتْ
تلكَ الحـوادث والخطوب السـود
وأقـرَّ هاتيـكَ الممالـكَ بعدمـا
كادت تمـور بأهلهـا وتميـد
ولقـد حماهـا بالصـوارم والقنـا
فعمـان غيـل والرجـال أُسُـود

لا خيـر فـي ملـك إذا لـم يحمـه
بـأس يـذوب لـه الحديـد شـديد
تـرد الطغـاة الحتـفَ مـن صمصامـه
هـذا ومنهـل جـوده مـورود
مـه يـا عـذول مفنّـداً مـن جهلـه
مـاذا يفيـد العـذل والتفنيـد
ولقـد قضـى نحبـاً أبُـوه وقـد مضـى
مـا لامـرئٍ فـي الكائنـات خلـود
خيـر مـن المفقـود عنـد وفاتـه
هـذا الإمـام السـالم الموجـود
أبقـى لـه الذكـرَ الحميـدَ فصيتـه
قـد يخلـق الأَعمـار وهـو جديـد
سـفهاً لهنـديّ أراد بنصحـه
غِشًّـا وكلّ مقالـه مـردود
نظـم القريـض ليسـتميل قلوبنـا
عنـه وذاك مـن المريـد بعيـد
خَفِيَـتْ علـى فهـم البغـيّ مقاصد
فيهـا ومـا عـرف المـرامَ بليـد
متوعـد الإسـلام مـن أعدائـه
مـا ضمنـه التقريـع والتهديـد

ليكيد فيها المسلمين بخدعة
لا يعرف الشيطان كيف يكيد
ليست عمان ولا صحار ومسقط
هنداً ولا العرب الكرام هنود
لو تقرب الأَعداءُ منها لاصطلت
ناراً لها في الملحدين وقود
وإمام مسقط لا يروع جنابَه
عند اللّقاء بوارقٌ ووعود
قد بايعته على عمان رجاله
أكْرِمْ بهم فهمُ الرجال الصيد[1]

ويقول عبد الغفار الأخرس في قصيدة ميمية، مادحا فيها السيد سالم بن ثويني ومنتصرا له ضد عمه السيد تركي بن سعيد الذي كان معارضا لحكمه:

اليومَ أصبح فيكُ الوقتُ منتظماً
وهوَّنَ الله أمراً كان قد عظما
أمست عمان وأنت الشهم سيدها
لا يُستباح لها في الحادثات حمى
مدت إليها يد الجاني فما ظفرت
إلاَّ بما أعقب الخسران والندما
من بعد ما هاج شراً من مكانته
وكاد يوقد في أطرافها ضرما

١. الأخرس، عبد الوهاب. الطراز الأنفس في شعر الأخرس (إستنبول: مطبعة الشركة المرتبية، ١٨٨٧)، ص ١٢٩.

تمسكاً بجبال الشمس من طمع
ومورداً من سراب لا يبلّ ظما
فلم يوفَّقْ إلى نجح يؤمِّله
والمرء إنْ فقد التوفيق أو عدما
لم يهده الرأي إلاّ للضلال ولا
يزيده عدم التوفيق غير عمى
أضلَّ مسعاه تركي في غوايته
كأنه اختار عن وجدانه العدما
نصحته وبذلتَ النصح تنذره
مستعملاً بالنذير السيف والقلما
فما ارعوى لكَ عن وهم توهمه
كأنَّ في أذنه عن ناصح صمما
أراد في زعمه أنْ يستطيل على
عمان قهراً فلم يظفر بما زعما
وكان غايته الحرمان يومئذٍ
ولو أطاعكَ واسترضاكَ ما حرما
خيَّرته قبل هذا اليوم في نعم
ولم يكن ثمَّ ممن يشكر النعما
وجاء يطلب مُلكاً منكَ ليس له
فقيل خصمان في إرث العلى اختصما

حتى ذا كان لا يصغي إلى حكم
حكمتما الصارم الهندي بينكما
قضى لك السيف فيما قد قضى ومضى
فيا له حكمٌ عدلٌ إذا حكما
وما تجاوزت الإنصاف شفرته
وما أضلَّ بمظلوم وإن ظلما
وقالت الناس باديها وحاضرها
ما جار سالم في حكم ولا ظلما
أنزلته من منيعات الحصون ولو
تركت تركي رهين الحصن ظما
أراد مستعصماً فيه ومعتصماً
وما رأى في منيع الحصن معتصما
ولم يجد سلَّما يرقى السماء به
ولو رمى نفسه في البحر لالتقما
وإنَّه قبلَ إعطاء الأمان له
ما استشعر الموت حتى استشعر الندما
وغرَّه مَن دعاه في خيانته
فجاءها عقبات الموت واقتحما
أذقته العفو حلواً عن جنايته
وكان عفوك عمَّن قد جنى كَرَما

عفَـوْت عنـه ولكـن عفـوَ مقتـدرٍ
والعفـو أقـرب للتقـوى كمـا علمـا
ومـا هتكـت وأيـم الله حرمتـه
وكان عنـدك حتـى زال محترمـا
وربمـا لامـك اللّـوام عـن سـفهٍ
وقـد يلومـك بين الناس من لؤما
أمـا وربِّـك لو أربى طغى وبغى
ومـا عفـا مثلمـا تعفـو بـل انتقمـا
رحمتـه ولـو اسـتولى عليـك لمـا
أبقى عليك ولـم يلحق بمن رحما
أراد ربُّـك أنْ تعفـو بقدرتـه
ليظهـر الفضـل والتمييـز بينكمـا
والله يَعْلَـمُ والدنيـا بأجمعهـا
لـو نـال مـن سـالمٍ تركـي لمـا سـلما
لا زال يولـي جميـلاً مـن صنائعـه
وهكـذا كـرم الشـهم الـذي كرمـا
مـن سـيّدٍ بالـغٍ رشـد الشـيوخ نهـىً
رضيـع ثـدي المعالـي قبـل أن فطما
تبـارك الله مـا أبهـى سـناه فتـىً
كالنجـم يهـدي سـبيل الرشـد مـذ نجمـا

الثابت الجأش في سِلْم ومعترك
في موطن الفخر قد أرسى له قدما
الباسم الثغر والهيجاء عابسة
والسيف يقطر من هام الكماة دما
فمن صدور العوالي ما يرى وصباً
ومن نفوس المعالي ما شفى سقما
تساهما هو والجد السعيد بما
حازاه من كرم الأخلاق واقتسما
ويا له ولد أعنيه من ولدٍ
أحيى له ذكره الماضي وإنْ قدما
تحفُّه من عمان سادةٌ نجبٌ
تسمو لهم في سماوات العلاء سما
يحمون سيّدهم من كلّ نازلة
بفيصل يغلق الهامات والقمما
ولم يكن غيره الحامي لحوزتها
إذا أذلهَمّ من الأخطار ما دهما
تبيت لا كملوك الهند تكلأها
ندعو من الله فيها فاغرين فما
لولا وجودك هذا الداء ما حسما
وذلك الصدع لولا أنت ما التأما

لطف من الله فيك أظهره
من بعد ما كان سر اللطف مكتتما
وافت إلينا فوافت بالسرور كما
ندعو من الله فاغرين فما
سرّت بها البصرة الفيحاء وابتهجت
منها النفوس وأنف الصند قد رغما
بشارة عمَّت الدنيا مسّرتها
واهتز منها العلى والمجد وابتسما
قد يسَّرَ الله أمراً أنت فاعله
وإن لله في تقديره حِكَما
لا زلت بالجود والإحسان مبتدراً
كالغيث حيث همى والبحر حيث طمى
فمن مزاياك ما تكسو النجوم سناً
ومن عطاياك ما قد يخجل الديما
ولم أزل كلماتي فيك أنظمها
كما تتابع قطر المزن وانسجما[1]

١. المرجع السابق، ص ٣٧٤.

صورة جواهر بحر عمان

يعود التنويه بلآلئ عمان وجواهرها في متون التراث العربي إلى العصر العباسي حين فتح الجاحظ بابا بعنوان «باب ما يعتبر من الجواهر النفيسة ومعرفتها وقيمتها» في رسالته «التبصرة بالتجارة»، وينوه الجاحظ فيها باللؤلؤ العماني. يقول:

«وخير اللؤلؤ الصافي العماني المستوي الجسد الشديد التدحرج والاستواء وإذا كانت حبتان متساويتين في الشكل والصورة واللون والوزن كان أرفع لثمنهما والعماني أنفس وأرفع من القلزمي لأن العماني عذب نقي صاف والقلزمي فيه ملوحة مع عيب كثير»[1].

ولعل أقدم الصور التي استعانت باللؤلؤ العماني في الشعر العربي تعود إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، حيث نجد الشاعر الدمشقي درويش محمد بن أحمد الطالوي الأرتقي أبا المعالي (١٥٤٣-١٦٠٥) يقول واصفا قصائد مديحه ومشبها إياها بجواهر عمان:

قَـلَّـدتَـها دُرَّ الـمَـدائِـحِ لُـؤلُـؤاً
رَطبـا يَـكاد يَفـوقُ دُرَّ عُمانِـهِ
وَكَـسَـوتَها وَشـيَ الثَّنـاءِ مُـحـبّـرا
بُـرداً يَفـوحُ المسـكُ مِـن أَردانِـهِ[2]

وفي القرن التاسع عشر تبرز صورة جواهر بحر عمان أكثر جلاء في قصائد بعض الشعراء العرب، ومنها قول محمد بن اسماعيل المكي (١٧٩٥-١٨٥٧) المعروف بشهاب الدين. أديب ولد بمكة، وانتقل إلى مصر، فنشأ بالقاهرة، وساعد في تحرير جريدة (الوقائع المصرية) وتولى تصحيح ما يطبع من الكتب في مطبعة بولاق. يقول مادحا إبراهيم باشا:

يَـمّم اليـمَّ وردْ مـا تـشـتـهي
وعـلى الـمـوردِ يـا صـاحِ الضمـانْ

١. الجاحظ، عمرو بن بحر. التبصرة بالتجارة، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب (القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٩٣٥)، ص ١٢.
٢. الطالوي، درويش محمد بن أحمد. سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر، تحقيق: محمد مرسي الخولي، ج١ (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٣)، ص ٣١٧.

لـم يكـنْ فـي كلِّ بحـرٍ لؤلـؤٌ
إنمـا اللؤلـؤُ فـي بحـرِ عُمَـانْ[1]

ويقول مُقَرِّظا كتاب «روح البيان»:

فـــديتُ بـــروحيَ روحَ الـبـيانْ
فـــفي طيِّـه نـشـــرُ روحِ الجِنـانْ
هـــو البـحرُ تـخرج منـــه اللآلـي
و كـــم لؤلـؤٍ قـد أتـى مـن عُمَـانْ[2]

وفي النصف الأول من القرن العشرين نجد بعض الشعراء العرب يتخذ من لآلئ بحر عمان صورة للنفيس من الأشعار والأفكار. يقول حافظ إبراهيم (١٨٧٢-١٩٣٢) مثلا واصفا قصائده:

أغريتُ بالغوص أقلامي فما تركتْ
فـي لُجّـةِ البحـرِ مـن دُرٍّ ومَرْجـانِ
شـكا عُمَـانُ و ضـجّ الغائصـون بـه
على اللآلي و ضجّ الحاسـدُ الشاني[3]

ويقول أيضا راثيا الشاعر إبراهيم صبري:

لـيـهـدأ عُـمـــانُ فـغـوّاصُـــه
أصيـب وأمسـى رهيـنَ الحُفَـرْ
فـقـــد كـــان يـعتـاده دائـمـــا
بـــكورا رؤوحـا لنَهْـبِ الـدُّرَرْ[4]

١. المكي، محمد بن إسماعيل، ديوان محمد شهاب الدين (القاهرة: مطبعة محمد جاهين، ١٨٦٦)، ص ٣٦.
٢. المرجع السابق، ص ٢٨٤.
٣. إبراهيم، حافظ، ديوان حافظ إبراهيم، ط ٣ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧)، ص ٢٨
٤. المرجع السابق، ص ٥٢٣.

ويقول راثيا جورجي زيدان سنة ١٩١٤:

ويـا قبـرَ زيـدانٍ طويـتَ مؤرخـا
تجـلّى لـه مـا أضمـر الفتَيَـانِ
وعقـلا وَلُوعـا بالـكنـوزِ فإنـه
علـى الـدُّرِّ غـوّاصٌ ببحـر عُمَـانِ[1]

ويقول الشاعر المصري علي الجارم (١٨٨١-١٩٤٦) في مديح أحمد شوقي:

ينثـر الـدُّرَّ عبقريـا عجيبـا
ليس من مسْـقطٍ و لا من عُمَانِ
أنـا بالـدُّرِّ أخبـرُ النـاسِ لكـنْ
ذلـكَ النـوعُ نَـدّ عـن إمكانـي[2]

و من الشعراء المحدثين الذين أشاروا إلى جواهر بحر عمان أيضا الشاعر اللبناني أبو الفضل الوليد ١٨٨٦ - ١٩٤١ م، و هو شاعر من أدباء المهجر الأميركي، ولد بقرنة الحمراء في لبنان، وهاجر إلى أميركا الجنوبية ١٩٠٨ فأصدر جريدة الحمراء بالبرازيل، واتخذ لنفسه هذا الاسم المستعار (أبو الفضل الوليد) سنة ١٩١٦، بينما اسمه الحقيقي إلياس عبد الله طعمة. يقول متغزلا:

جمـانةُ لاقَتنـي بسـمطِ جمـانِ
وفـي ثغرِهـا منـهُ عَـددت ثمانـي
فقالـت تُرى أيُّ الجمـانِ مفضَّلٌ
فقلـتُ جمـانُ الثَّغـرِ خيـرُ جمـانِ

١. المرجع السابق، ص ٤٩٩.
٢. الجارم، علي. ديوان علي الجارم (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٠)، ٣٥٥.

عرفتُ من الدرّ الثمينِ صنوفَهُ
وما كنتُ غوّاصاً ببحرِ عُمَان
سميّةُ ما في ثَغرها ونظامها
شآميّةٌ زهراءُ أختُ يمان[1]

صورة أزد عمان

تتردد في الشعر العربي أيضا صورة أزد عمان؛ إذ كانوا مثالا للعز ومنبت الكرامة، ويفرق الشعراء بينهم وبين أزد شنوءة في العراق. ومن أوائل الأشعار التي نجد فيها هذه الصورة، قول الشاعر النجاشي الحارثي، الذي اشتهر بهجائه في الجاهلية والإسلام:

وَكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلِ سَوِيَّةٍ
وَرِجلٍ بهَا رَيْبٌ مِنَ الْحَدَثَانِ
فَأَمَّا الَّتِي شَلَّتْ فَأَزْدُ شَنُوءَةٍ
وَأَمَا التِي صَحَّتْ فأَزْدُ عُمَانِ[2]

ومن الأشعار التي تمجد أزد عمان أبيات للشاعر إسماعيل بن محمد بن يزيد الحميري، المعروف بلقب «السيد الحميري». يقول فيها:

---

١. طعمة، إلياس عبدالله. ديوان أبي الفضل الوليد (بيروت: دار الثقافة للطباعة والنشر)، ٤٣٥.

٢. الحارثي، النجاشي، ديوان النجاشي الحارثي، تحقيق صالح البكار وآخرين (بيروت: مؤسسة المواهب، ١٩٩٩)، ص ٦٤.
أُفاجأ أحيانا في معرض اشتغالي على هذا الكتاب بأن بعض المصادر تعكس البيت على هذا النحو:
فَأَمَّا الَّتِي صَحَّتْ فَأَزْدُ شَنُوءَةٍ، ... وَأَمَّا الّتِي شَلَّتْ فَأَزْدُ عُمَانِ
وظللتُ حائرا من هذا التناقض رغم أن محققي ديوان النجاشي أثبتوا الصورة الأولى التي أوردتها هنا. وقد زال شكي حين اطلعتُ على تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) بتحقيق العَلّامة الكبير أحمد محمد شاكر، الذي انتبه لغلط هذه الرواية التي ساقها الطبري في كتابه، وعلق عليها في الهامش قائلا: "لم أعرف نسبة هذا الشعر إلى ابن مفرغ، وهو بلا شك للنجاشي الحارثي، من قصيدته في معاوية وعلي، وأكثرها في الوحشيات لأبي تمام، ووقعة صفين....وأزد شنوءة، وأزد عمان، كانا من القبائل التي قاتلت يوم صفين، وكانت أزد شنودة مع أهل الشام، وأزد عُمان في أهل العراق. ورواية الشعر: "وكنتم كذي رجلين ... "، والخطاب لبني تميم وغطفان في قوله قبل ذلك: أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... تَمِيمًا، وَهَذَا الحَيَّ مِنْ غَطَفَانَ
بيد أن رواية البيت: فَأَمَّا التي شَلَّتْ فَأَزْدُ شَنُوءةٍ ... وأَمَّا التي صَحَّتْ فَأَزْدُ عُمَانِ
لأن النجاشي كان مع علي، وكانت أزد عُمان معه. أما أزد شنوءة فكانت مع معاوية." انظر: الطبري. جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠)،ج٦، ص٢٣٢.

إن تسألينى بقومى تسألى رجلاً
فى ذُرْوة العز من أحياء ذى يمنِ
حولى بها ذو كَلاعٍ فى منازلها
وذو رَعينٍ وهمدانٌ وذو يزنِ
والأزد أزدُ عُمانَ الأكرمون إذا
عُدتْ مآثرُهم فى سالف الزمن[1]

ويقول أبو نواس مادحا ندماءه من أزد عمان:

طربتُ إلى خمرٍ وقصفِ الدساكرِ
ومنزلِ دُهقانٍ بها غير دائرِ
بفتيانِ صدقٍ من سَراة ابن مالكٍ
و أزدِ عُمان ذي العُلى و المفاخرِ[2]

وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي نجد أيضا ابن المقرّب العيوني ٥٧٢ - ٦٢٩ هـ / ١١٧٦ - ١٢٣١ م، يقول مادحا أزد عمان:

فَالأَزْدُ أَجلوا قَبلَكُم عَن مَأرِبٍ
وَهُمُ جِبالُ العِزِّ مِن كَهلانِ
فَبَقُوا مُلُوكاً بِالعِراقِ وَيَثرِبٍ
وَالشامِ وَانفَرَدُوا بِمُلكِ عُمانِ[3]

١. الأصفهاني، أبو الفرج. الأغاني، تحقيق سمير جابر، ط ٢، ج ٧، (بيروت: دار الفكر،)، ص. ٢٨٤.
٢. الحكمي، الحسن بن هانئ، ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي، تحقيق إيفالد فاغنر، ط ١، ج ٣ (بيروت: دار صادر، ١٩٨٨)، ص ١٤٨.
٣. العيوني، علي بن المقرب. ديوان جمال الدين أبي عبد الله علي بن المقرب العيوني، ص ٥٥٤.

صورة الجِمَال العمانية الأصيلة

في الشعر العربي تتردد أيضا صورة النوق العمانية العربية الأصيلة التي تفنن في وصفها كبار الشعراء من أمثال ذي الرمة، وجرير.

الشاعر الأموي ذو الرمة، وهو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر، من فحول الطبقة الثانية في عصره، وقد قال عنه أبو عمرو بن العلاء: فُتِح الشعر بامرئ القيس وخُتِم بذي الرمة. يقول ذو الرمة في وصف ناقته:

عُمانِيَّـةٌ مَهرِيَّـةٌ دَوسَـرِيَّةٌ
عَلـى ظَهرِهـا لِلحِلـسِ وَالكـورِ مِحمَلُ
مُفَرَّجَـةٌ حَمـراءُ عَيسـاءُ جَونَـةٌ
صُهابِيَّـةُ العُثنـونِ دَهمـاءُ صَنـدَلُ
تَراهـا أَمـامَ الرَكـبِ فـي كَلِّ مَنـزِلٍ
وَلَـو طـالَ إِيجـافٌ بِهـا وَتَرَحُّـلُ
تَرى الخِمسَ بَعدَ الخِمسِ لا يَفتِلانِها
وَلَـو فـارَ لِلشِـعرى مِـنَ الحَـرِّ مِرجَـلُ
تُقَطِّـعُ أَعنـاقَ الـرِكابِ وَلا تَـرى
عَلـى السَـيرِ إِلاّ صِلدِمـاً مـا تُزَيِّـلُ
تَـرى أَثَـرَ الأَنسـاعِ فيهـا كَأَنَّـهُ
عَلـى ظَهـرِ عـادِيٍّ يُعاليـهِ جَنـدَلُ
وَلَـو جُعِـلَ الكـورُ العِلافِـيُّ فَوقَهـا
وَراكِبُـهُ أَعيَـت بِـهِ مـا تُحَلحِـلُ

يَـرى المَوتَ إن قامَت وَإن بَرَكَت بِهِ
يَـرى مَوتَـهُ عَـن ظَهرِها حينَ يَنـزِلُ
تُـرى وَلَهـا ظَهـرٌ وَبَطـنٌ وَذُروَةٌ
وَتَشـرَبُ مِن بَردِ الشَـرابِ وَتَأكُلُ[1]

ويقول ابن المقرب العيوني واصفا نوقه التي ارتحلت به من موطنه في الأحساء إلى عمان:

وَجازَت قُرى البَحرَينِ عِيسـي وَأَصبَحَت
عُمانِيَّـةً وَاِسـتَبهلَتها سَـواحِلُه
وَأَصبَـحَ فـي الحَـيِّ اليَمانـيّ رَحلُهـا
وَحَفَّـت بِـهِ أَقيالُـهُ وَمَقاوِلُـه[2]

وفي العصر الحديث نجد عبد الجليل الطبطبائي (١٧٧٦-١٨٥٣)، وهو شاعر، من أهل البصرة، رحل إلى قطر، فسكنها إلى أن استولى عليها آل سعود، فانتقل إلى البحرين، وظل فيها إلى سنة ١٢٥٩هـ، ثم استوطن (الكويت) وتوفي بها. يقول:

أَتَيتُـكَ أَطـوي البيـدِ وَالقَصـدُ زورَة
وَأَزكـي تَحِيّـات أَبلِغهـا تَتـرى
فَلَمّـا حَطَطْنـا الرحـل فـي دارِكَ الَّتي
عَلـى ربعِها المَأهولِ سَـحبُ الرِضى دَرا
جَـرى قَـدرُ الرَحمـنِ أن مطيّتي
تَكـونُ لَهـا البَطحـاءُ يـا سـالِماً قَبـرا

١. ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٦)، ص ٢٠٨.
٢. العيوني، علي بن المقرب. ديوان جمال الدين أبي عبد الله علي بن المقرب العيوني، ص ٣٦١.

وَما هِيَ إِلّا فِرعُ كُلّ نَجيبَة
عمانية قَوداءَ مُهرية شَقرا
أَلا فَلتَهبْ لي يا حَبيبَي مَطِيّةً
يَلَذُ بِها عَيشي لَدى السَيرِ وَالمِسْرى
عُمانية تَسوي المَثينَ سَنامُها
بَعيد عَلى مَن رامَ ذَروَتَها حَمرا
وَحاشاكَ تَرضى أَن أَرى دونَ رِفقَتي
عَلى ناقَةٍ سَوداءَ جَرباءَ أَو دَبرا[1]

وفي الشعر العربي لا تتردد الناقة العمانية الأصيلة فحسب، وإنما الجمل العماني أيضا؛ فقد كان مفضلا في شبه الجزيرة العربية منذ القدم. هذا الشاعر الأموي جرير يصف جمله:

أَلا طَرَقَت شَعثاءُ وَاللَيلُ مُظلِمٌ
أَحَمَّ عُمانِيّاً وَأَشعَثَ ماضِيا
لَدى قَطَرِيّاتٍ إِذا ما تَغَوَّلَت
بِنا البيدُ غاوَلنَ الحُزونَ الفيافيا
تَخَطّى إِلَينا مِن بَعيدٍ خَيالُها
يَخوضُ خُدارِيّاً مِنَ اللَيلِ داجِيا[2]

١. الطبطبائي، عبد الجليل. روض الخل والخليل ديوان السيد عبد الجليل، تحقيق: ياسين الشريف (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، ١٩٦٤)، ص ١٢٥.
٢. الصاوي، محمد إسماعيل. شرح ديوان جرير، ط ١ (القاهرة: مطبعة الصاوي) ص ٦٠٣.

الأصمعيات للأصمعي

من الشعراء الذين اختار لهم الأصمعي، الشاعر العماني سوّار بن المضرّب:

قال سَوَّار بن المُضَرَّب:

ألـمْ ترَنـي وإنْ أُنبـأتَ أنّـي
طويْتُ الكشـحَ عَنْ طلَبِ الغوانِي
أحبُّ عُمَانَ مِنْ حُبِّي سُليمى
ومَـا طِيّـي بِحُـبِّ قُـرَى عُمَـانِ
علاقَـةَ عاشـقٍ وهـواً مُتاحـاً
فمَـا أنَـا والهَـوى مُتدانيـانِ
تَذَكَّـرُ مَـا تَذَكَّـرُ مِـنْ سُـليمى
ولكِـنَّ المـزارَ بهَـا نآنِـي
فـلا أنسَـى ليالـي بالكَلَنْـدَى
فنيـنَ وكُلُّ هـذَا العيـشِ فـانِ
ويومـاً بالمجـازةِ يـومَ صِـدقٍ
ويومـاً بيـنَ ضنـكَ وصومَحَـانِ
ألا يـا سَـلْمَ سيِّـدَةَ الغـوانِـي
أمَـا يُفـدَى بأرضِـكِ تلـكَ عانِ

ومَـا عانيـكِ يـا ابنـةَ آلِ قيـسٍ
بمفحُـوشٍ عليـهِ ولا مُهـانِ
أِمـنْ أهـلِ النقَـا طرقَـتْ سُـليمى
طَريـداً بيـنَ شُـنْظُبَ والثَّمَـانِ
سـرَى مِـنْ ليلـهِ حتَّـى إذَا مَـا
تَدَلَّـي النجْـمُ كالُأدْمِ الهِجَـانِ
رمَـى بلـدٌ بـهِ بلـداً فأضحَـى
بظمـأَى الريـحِ خاشـعَةِ القِنَـانِ
تمُـوتُ بنـاتُ نَيْسَـبِها ويَغْبـى
عَلـى رُكبانِهـا شَـرَكُ المِتـانِ
يُطـوِّي عنُـدَ رُكبَـةِ أرحَبـيٍ
بعيـدِ العَجْـبِ مِنْ طَرَفِ الجِرانِ
مَـطيَّةِ خـائِفٍ ورجيـعِ حـاجٍ
شـموذِ الـذيلِ مُـنـطلِقِ اللَبـانِ
قـذيفَ تنـائِفٍ غُـبْـرٍ وحـاجٍ
تقحَّـمَ خـائِفاً قُحَـمَ الجَبـانِ
كأنَّ يديـهِ حيـنَ يُقـالُ سـيرُوا
عَلَـى مَتـنِ التنُوفَـةِ غَضْبَتـانِ
يقيسـانِ الفـلاةَ كَمَـا تَغـالَا
خلِـيـعَا غـــايَـــةٍ يـتـبـــادرَانِ

كأنَّهُمَـا إذَا حُـثَّ المطايَـا
يَـدَا يَسـرِ المُتاحَـةِ مُسـتَعانِ
شـبُوبَا الرَجْـعِ مائِرَتَـا الأعالـي
إذَا كَلَّ المَطـيُّ سـفيهَتَانِ
وهَـادٍ شَعْشَـعٍ هجمَـتْ عليـهِ
تَـوالٍ مَـا يُـرَى فيهَـا تَـوانِ
أعاذِلَـتَـيَّ فـي سَـلْمَى دَعَانِـي
فَـإنِّي لا أُطـاوِعُ مَـنْ نَهانِـي
ولَـوْ أَنِّـي أُطِيعُكُمَـا بِسَـلْمَى
لَكُنْـتُ كبَعْـضِ مِنْ لا تُرْشِـدَانِ
دَعَانـي مِـنْ أَذَاتِكُمَـا ولكِـنْ
بـــذِكْرِ الـمَـذْحـــجِيَّةِ عَلِّلَانِـي
فـإنَّ هَـوايَ مـا علِمَـتْ سُـلَيْمى
يَمَـانٍ إنَّ مـنْزِلَها يَمَـان
تَكِـلُّ الرِيـحُ دُونَ بِـلادِ سَـلْمي
وسِـرّاتِ المُنَوَّقَـةِ الهِجـانِ
بـكُلِّ تَنُوفـةٍ للرِّيـحِ فيهَـا
حفيـفٌ لا يَـروعُ التُّـرْبَ وانِ
إذَا مـا المُسْـنَفاتُ علَـوْنَ منْهـا
رَقـاقاً أو سَمـاوةَ صَحْصَـحـانِ

يخِـدْنَ كأنَّهـنَّ بـكُلِّ خَـرْقٍ
وإغْسـاءَ الظـلامِ علـى رِهـانِ
وْإن غَـوَّرْنَ هاجِـرَةً بفَيْـفٍ
كاَنَّ سَـرابَها قِطَـعُ الدُّخَـانِ
وضَعْـنَ بـهِ أجِنَّـةَ مُجهضـاتٍ
وُضِعْـنَ لثالـثٍ عَلَقـاً وثـانِ
وليـلٍ فيـهِ تَحْسـبُ كلَّ نَجْـمٍ
يدُلُّـلـكَ مِـنْ خَصاصَـةِ طَيْلسـانِ
نعَشْـتُ بـهِ أزِمَّـةَ طاوِيـاتٍ
نـوَاجٍ لا تَبيـنُ علَـى اكْتنـانِ
تُثيـرُ عَـوازِبَ الكُـدْريِّ وهْنـاً
كأنَّ فِراخَهـا قُمْـرُ الأَفانـي
يَطَـأْنَ خُـدودَهُ متَشـمِّعاتٍ
علَـى سُـمْرٍ تَفُضُّ حَصَى المِتانِ
سَـرَيْنَ جَميعَـهُ حتَّـى تولَّـى
كمَـا انكَـبَّ المُعَبَّـدُ للجِـرانِ
وشَـقَّ الصُبْـحُ أُخـرَى اللَيْـلِ شـقَّاً
جِمـاحَ أغَـرَّ مُنْقَطـعِ العنـانِ
ومَـا سَـلْمَى بسَـيِّئَةِ المُحَيَّـا
ولا عَسْـراءَ عـاسِيةِ البَنـانِ

أَلَا قـدْ هاجَنـي فـازْدَدْتُ شَـوْقاً
بُـكاءُ حَمَامتيْـنِ تَجَاوَبـانِ
تنَـادى الطائـرانِ بِصُـرْمِ سـلْمى
علـى غُصْنَيْنِ منْ غَرْبٍ وبانِ
فكانَ البانُ أنْ بانَتْ سُـليْمى
وبالغَـرْبِ اغْتِـرابٌ غَيْـرُ دانِ
ولـوْ سـألَتْ سـراةَ الحـيِّ عنِّـي
عَلَـى أنِّـي تلَـوَّنَ بـي زَمانِـي
لنبَّأهَـا ذَوُو أحسـابِ قومِـي
وأعدَائـي فـكُلٌّ قَـدْ بَلانـي
بدَفـعِ الـذَمِّ عَـنْ حسـبِي بمَالـي
وزَبُّونـاتِ أشـوَسَ تَيَّحَـانِ
وأنِّـي لا أزالُ أخَـا حِفـاظٍ
إذَا لَـمْ أجنِ كُنْتُ مِجَنَّ جَانِ.[1]

١. أبو سعيد الأصمعي، الأصمعيات. تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ)، ص ٢٣٩-٢٤٣.

وصايا الملوك لدعبل الخزاعي

من الملوكِ الذين ذكرَهم دِعْبل الخُزاعي في هذا الكتاب الجلندى بن المستكبر، ملك عمان قبل الإسلام. يقول عنه:

وحدّثني علي بن محمد، عن جده الدعبل بن علي، أن مازن بن الأزد جرد أخاه نصر بن الأزد إلى الشّحْر في الخيلِ والعدد، وكتب له إليهم كتاباً يقول فيه: «من البسيط»

مِنْ مازنٍ مُهْرَقٌ فيهِ الأُلوكُ إلى
من حَلَّ بالشَّحرِ من عُجمٍ ومَن عَرَبِ
أن اسمعوا وادفعوا الخَرْجَ الوفيَّ إلى
نَصْرٍ ودِينوا ولا تعْصوه في سَبَبِ
يوماً وإلا فلُومُوا فيهِ أنفُسكُمْ
إذا مُنِيتُم لنا بالجحفلِ اللَّجِبِ

قال علي بن محمد: قال الدعبل بن علي: فيقال: إن نصرَ بن الأزد سار إلى الشّحْرِ حتى نزل بها، وسَمِع له مَنْ بالشّحْر وأطاع، ودفعوا إليه الإتاوة. ويقال: إن الجُلَنْدى بن كَرْكَر بن المُسْتَكبِر بن مسعود الذي كان يأخذ كُلَّ سفينةٍ غَصْباً من بني نَصْرِ بن الأزد، وذلك المُلْكُ ثابتٌ إلى اليوم في آل الجُلَنْدى بن كَرْكَر، يُجْبَى إليهم في دار مملكتِهم ما كان يُجْبى إلى الجُلَنْدى من البَرِّ والبَحر.

وآلُ الجُلَنْدَى هم الذين يقول فيهم الشاعر: «من الخفيف»

إنَّ خيرَ المُلوكِ آلُ الجُلُنداء
عشيراً وَمَحْتِداً وجُدُودا

مَلَكُـوا البحـرَ بعـدَما ملكُـوا
البَـرَّ إلـى اليـومِ وسجـودا
وتـرى الكُـرْدَ فـي الجُمـوعِ وفـي
السَّـيْفِ لهـا اليـومَ سُـوَّقاً وعَبيـدا
تلـكَ أبناؤهـمْ تحِـنُّ لهـا الفُـرْسُ
وسـادُوا المُـلُوكَ نُـبْـلاً وجُـودا
غلـبُوا النَّـاسَ بالمـكارِمِ والفضـلِ
وعنـدَ اللِّـقـاءِ فاقُـوا الأُسُـودا[1]

ويرد ذكر عمان في هذا الكتاب أيضا حين يتحدث دعبل الخزاعي عن الملك عمرو بن ماء السماء، وإرهاصات خراب سد مأرب، وقصة نزوح قومه وانتشارهم في البلاد:

قال: فأقاموا ما أقاموا في أزال وربذه حتى اسْتَمْخَرَتْ خيلُهم ونعمهم وماشيتهم، وصلح لهم طلوع الجبال، فطلعوها، وهبطوا منها في تهامة على ذُوَال وغلبوا غافقاً عليها. وأقاموا بتهامة ما أقاموا، فلم يغتبطوا بها، ولم تقع منهم بالموافقة، فساروا منها إلى الحجاز، وافترقوا من الحجاز فرقاً، فصار كل فخذ منها إلى بلد، فمنهم من نزل السَّروات، ومنهم من تخلف بمكة وما حولها، ومنهم من سار إلى الشام، ومنهم من سار إلى عُمان. وفي ذلك يقول جماعة البارقي حيث يقول: «من الخفيف»

حلَّـتِ الأزدُ بعـدَ مأربِهـا الغَـوْرَ
فـأرضَ الحِجـاز فالسَّـراواتِ
ومضـتْ مِنهُـمُ كتائـبُ صِـدقٍ
مُنجِـداتٍ تجُـوبُ أرضَ الفـلاةِ

١. دعبل الخزاعي. وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود، تحقيق: نزار أباظة (دمشق: دار البشائر، ١٩٩٧)، ص٧٦-٧٧.

فأتـتْ ساحةَ اليمامـةِ بالأظْعـانِ
والخيـلِ والقَنَـا والرُّمـاةِ
فأنافـتْ علـى سـيوفٍ لطَسْـمٍ
وجَدِيـسٍ لـدى العِظَـامِ الرُّفـاةِ
وأنابـت تـؤم قافيـة البَحْرَيْـنِ
بالحـور بيـن أيـدي الرعـاةِ
فأقـرَّتْ قرارهـا بعُمـانٍ
فعُمـانٌ محـلُّ تلـكَ الجهـاتِ
وأتـتْ مِنهُـمُ الخَوَرْنَـقَ أسـدٌ
فاحتـووا مُلكلَهـا ومُلـكَ الفُـراتِ
وسـمتْ منهُـمُ مُلُـوكٌ إلـى الشَّـامِ
علـى الأعوجِيَّـةِ المُضمـراتِ
فاحتوَوهـا وشـيَّدُوا المُلـكَ فيهـا
فلهُـم مُلـكُ سـاحةِ الشَّـاماتِ
تِلكُـمُ الأكرمـونَ مـن ولـدِ الأزْدِ
لغسَّـانَ سـادةُ السَّـاداتِ
والمِقُـيمُـون بالـحِـجـازِ بـجمعٍ
أرغمُـوا مِنهُـمُ أنـوفَ العِـدَاةِ
ملكُـوا الطَّـودَ مـن شـروم إلـى
الطَّائـفِ بالعـدلِ منهـم والثَّبـاتِ

واحتـوتْ مِنهُـمْ خُزاعتُهـا
الكَعْبـةَ ذاتَ الرُّسـومِ والآيـاتِ
أخرجـتْ جُرهُـمَ بـن يشـجبَ منها
عُنـوةً بالكتائِـبِ المُعْلَمَـاتِ
فـولاةُ الحجيـجِ مِنهَـا ومِنهَـا
قُـدوةٌ فـي مِنـىً وفـي عَرَفَـاتِ
وإليهـا رفـادةُ البيـتِ والمِربـاعُ
تُجبَـى لهـا مـنَ الغـاراتِ
وبنُـو قيلـةَ الَّذيـنَ حـووا يثْـرِبَ
بالقُـوَّد الأُسـودِ العُتـاةِ
زحفُـوا لليهـودِ وهـيَ أُلـوفٌ
مـن دُهـاةِ اليهُـودِ أيَّ دُهـاةِ
فأبـادوا الطِّعَـان مِنهَـا ولمَّـا
يَفشـلُوا فـي لِقـاءِ تلـكَ الطُّغَـاةِ
فأذلُّـوا اليهُـودَ فيهـا وأَخلَـوا
مِنهُـمُ الحرَّتيـنِ فالألبـاتِ
أصبـح المـاء والفشـيل لقـومٍ
تحـت آطامِهـا مـع الثَّمَـرَاتِ
ولهُـمْ مِـنْ بنـي اليهُـودِ عبيـدٌ
حُـوَّلٌ مـن نواظِـرٍ وبَنَـاتِ

ورحَـابٌ لهـم تسـيم سُـرُوجاً
وسـقاة قـوارب وطهـاةِ
أسَـرُوها مـن اليهُـودِ لـدى شـتِّيتِه
ا فـي القـرى وفـي الفلـواتِ
أيُّهـذا الَّـذي يُسـائِلُ عنَّـا
كيـفَ يخفـى عليـكَ نُـورُ الهُـداةِ
نحـنُ أهـلُ الفخـارِ مـن وَلَـدِ الأزْدِ
نحـنُ أهـلُ الضِّيـاءِ والظُّلُمـاتِ
هـل تـرى اليـومَ فـي البـلادِ سِـوانَا
مِـنْ مُلُـوكٍ وسـادةٍ ووُلاةِ

قال: فأما من سكن عُمَان من الأزد فيَحْمَدُ والحَدَّانُ ومالكٌ والحارثُ وعبيد. وأما من سكن العراق فجُذيمة الوضّاح. وأما من سكن الشام فجفنة. وأما من سكن المدينة فالأوس والخزرج. وأما من سكن مكة ونواحيها فخزاعة. وأما من سكن السروات فبُجَيْلة وخثعم والحجر ونهد وغامد وشكر وبارق وسنجاب ودوس ونمر وخواله واليهوم وشمران وعمرو.

ويقال: إنه لما خرج عمرو بن عامر بكُلِّيّة قومِه الأزد من أرض مأرب في كافة ولده، وخرب سدُّ مأرب، وتعطلت الأعمالُ التي تقلدها عمرو بن عامر، واشتغلت ملوك كندة بأعمالها التي كانت تتولاها من الأطراف والثغور وقبائل العرب، وكذلك اشتغلت مَذْحِج وهَمْدان بما في أيديهما من البلاد والأعمال، وبعدت لَخْمٌ وجُذَام، واشتغلت ببلادهما وبما هما فيه من مقاساة الأطراف والثغور، وصارت أولادُ نصر بن الأزد في أرض فارس وجانبِ الشّحْر - وهم عشيرة الجُلَنْدى بن كَرْكَر وقد تقدم خبره في هذا الكتاب- وانتشرت قضاعة في الشامِ وأكنافِ الحجاز، ونزلت في الحجر منهم عذرة، وفي جنبها ورضوى نزلت جهينة. قال: وأقبلت أولاد عمرو بن عامر تلتهم البلادَ التهاماً، تشقُّ العربَ بطناً بطناً لا يدخلون بلداً إلا غلبوا أهل ذلك البلد عليه.

أما خزاعة فغلبت جُرْهُمَ على مكة، وأما الأوس والخزرج فغلبوا اليهودَ على المدينة، وأما المناذرة فغلبوا أهلَ العراق على العراق. وأما جفنة فغلبوا أهلَ الشام على الشام وملكوها. وأما ولد عِمْرَانَ بن عامر فغلبوا أهلَ عُمَان عليها. إلا أن الجميع من هؤلاء في طاعة الملوك من حِمْيَر، وذلك عند انتقال المُلْكِ من يشدد بن زرعة إلى ابن عمه الحارث الرائش، وخبره قد تقدم في هذا الكتاب. وهو أبو التبابعة السيارة في شرق البلاد وغربها، وخبره قد تقدم، وكذلك أخبار المثامنة قد تقدمت في هذا الكتاب.[1]

١. المصدر السابق، ص٩٢-٩٥.

طبقات فحول الشعراء لابن سَلّام الجمحي

يرد اسم عمان في طبقات فحول الشعراء حين يتحدث ابنُ سلام عن الشاعر متمم بن نويرة:

والمقدم عندنا مُتَمِّمُ بن نُوَيْرَة، ويكنى أبا نَهْشَل، رثى أخاه مالكَ بن نويرة، وكان قبله خالد بن الوليد بن المغيرة، حين وجهه أبو بكر، رضي الله عنه، إلى أهل الرِّدّة. فمن الحديث ما جاء على وجهه، ومنه ما ذهب معناه علينا، للاختلاف فيه. وحديث مالك مما اخْتُلِف فيه فلم نقف منه على ما نريد. وقد سمعت فيه أقاويلَ شتى، غير أن الذي استقر عندنا أن عمر أنكر قتله، وقام على خالد فيه وأغلظ له، وأن أبا بكر صفح عن خالد وقبل تأَوُّلَه.

وكان مالك رجلاً شريفاً فارساً شاعراً، وكانت فيه خيلاء وتقدم، وكان ذا لِمّة كبيرة، وكان يقال له الجَفول. وقدِم على النبي صلى الله عليه وسلم فيمن قدم من أمثاله من العرب، فولاه صدقات قومه بني يربوع. فلما قُبِض النبي صلى الله عليه اضطرب فيها فلم يُحْمَد أمرُه، وفرق ما في يديه من إبل الصدقة، فكلمه الأقرع ابن حابس المجاشعي والقعقاع بن معبد بن زرارة الدارمي، فقالا له: إن لهذا الأمر قائماً وطالباً، فلا تعجل بتفرقة ما في يديك. فقال:

أرانـي اللهُ بالنِعَـمِ المنـدّى
ببرقـةَ رحرَحـانَ وقـد أرانـي
تَمشّـى يابـنَ عـوذةَ فـي تميـمٍ
وصاحبـكَ الأقيـرع، تَلْحيَانـي
حويـتُ جميعَهـا بالسـيف صلَتـاً
ولـم ترعَـشْ يـدايَ ولا بنانـي

عوذة: يعني أم القعقاع، وهي معاذة بنت ضرار بن عمرو .

وقال:

وقُـاتُ: خُـذُوا أَمْوَالكـم غيـر خائـفٍ
ولا ناظـرٍ فيمـا يَجِـيءُ مـن الغَـدِ
فَـإن قـامَ بالأمـر المُخَـوّفِ قائِـمٌ
مَنَعْنـا وقلنـا: الدِّيـنُ دِيـنُ مُحَمَّـد

فطرق خالد مالكاً وقومه - وهم على ماءٍ لهم يقال له البعوضة تحت الليل -، فذَعَرهم، وأخذوا السلاح. فكان في حجة خالد عليهم، أنه أنظرهم إلى وقت الأذان فلم يسمع أذانا. وتقول بنو تميم: إنه لما هجم عليهم خالد قال: من أنتم؟ قالوا: المسلمون. قال: ونحن المسلمون، فما بال السلاح؟ قالوا: ذَعَرْتمونا! قال: فضعوا السلاح.

والمجتمع عليه: أن خالداً حاوره ورَادّه، وأن مالكاً سمح بالصلاة والتوى بالزكاة. فقال خالد: أما علمتَ أن الصلاة والزكاة معاً، لا تُقبل واحدة دون الأخرى؟ قال :قد كان يقول ذلك صاحبكم! قال: وما تراه لك صاحباً؟ والله لقد هممت أن أضرب عنقك. ثم تحاولا، فقال له خالد: إني قاتلك. قال: وبذا أمرك صاحبك؟ قال: وهذه بعد! والله لا أُقيلك.

فيقول من عذر مالكاً: إنه أراد بقوله: "صاحبك" أنه أراد القرشية. وتأول خالد غير ذلك فقال: إنه إنكار منه للنبوة. وتقول: بنو مخزوم: إن عمرو بن العاص قال لخالد - وقد كان لقيه وهو منصرف من عُمان، وكان النبي صلى الله عليه وجهه إلى ابن الجُلَنْدَى - فقال لخالد: يا أبا سليمان، إن رأتْ عينُك مالكاً فلا تزايله حتى تقتله.

وكان خالد يحتج على مالك بأشعاره التي كتبنا. وكلم أبو قتادة الأنصاري خالداً في ذلك كلاماً شديداً فلم يقبله، فآلى يميناً أن لا يسير تحت راية أميرها خالد أبدا. وقال له عبد الله بن عمر،وهو في القوم يومئذ: يا خالد، أبعد شهادة أبي قتادة؟ فأعرض عنه. ثم عاوده، فقال :يا أبا عبد الرحمن، اسكت عن هذا، فإني أعلم مالا تعلم. فأمر ضرار بن الأزور الأسدي بضرب عنقه، ففعل.[1]

١. محمد بن سلام الجمحي. طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، ج١ (جدة: مطبعة المدني، ١٩٨٠)، ص ٢٠٤-٢٠٨.

ويرد اسم عمان أيضا في هذا الكتاب حين يتحدث ابن سلام عن أسباب قلة الشعر:

قال ابن سلام: وبالطائف شِعْرٌ وليس بالكثير، وإنما كان يَكثُر الشِّعْرُ بالحُروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوْس والخَزْرَج، أو قوم يُغيرون ويُغَار عليهم. والذي قَلّل شِعْرَ قريش أنه لم يكن بينهم نائِرَة، ولم يُحاربوا، وذلك الذي قَلّلَ شِعْرَ عُمَانَ.[1]

ويرد اسم عمان أيضا في هذا الكتاب حين يتحدث ابن سلام عن الشاعر الجاهلي أبي زبيد الطائي:

ويُقالُ إن أَزْدَ عُمَانَ قتَلتْ رَجُلا من طيء، فقال في ذلك أبو زُبَيْد:

بلِّغا طيِّئًا جميعًا وشتّى
ولسَعْدٍ ممّا أقول نَصيبُ
إنّهمْ إخْوَةٌ أبوهمْ أبونا
غيرَ دَعوى، والنائباتُ تَنوبُ
قتلتْنا سيوفُ أزدِ عُمَانٍ
سَفَهًا والدهورُ فيها العَجيبُ
مِنْ دَمٍ ضائعٍ تَغيّب عنه
أقْرَبوه إلا الصَّدَى والجَبوبُ
يابنَ سلمى، وللنجيبةِ سَلمى
ولقد يَنْجُلُ النجيبَ النجيبُ
ليتني مِتُّ إذ دَعَوْنَكَ، إذْ تَدْعو
تميمًا ولا حَميمٌ يُجيبُ

١. المصدر السابق، ج١، ص ٢٥٩.

ليت شِعْري بكَ ابنَ أمِّ عُمَيْسٍ!

إنَّ قَلبي ممّا شـهِدتَ مُريبُ

غِبْتُ عنه، وأنتَ لم تكُ عنه

غائبا، والمليكُ رَبٌّ حَسِيبُ

ركِبوا ما تهيّب النّاسُ منّا!

قد عَمِرْنا، وعِزُّنَا مَرْهوبُ[1]

١. المصدر السابق، ج٢، ص ٦١٣-٦١٤.

التبصرة بالتجارة للجاحظ

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب في فقرة بعنوان «باب ما يعتبر من الجواهر النفيسة ومعرفتها وقيمتها»، و ينوّه الجاحظ فيها باللؤلؤ العماني. يقول:

زعموا أن معرفة جوهر اللؤلؤ أنك تجد مذاقته عل ضربين: عذب المذاقة عُمَاني، وملح المذاقة قلزمي كلاهما يرسب في الماء، والمعمول منه تجده مُرّ المذاق مع دسومة فيه، وهو خفيف الوزن يطفو على الماء.

وزعموا أن اللؤلؤة إذا كان في باطنها دودة فإنك تجدها حارّةَ المص واللمس فإن ذلك للعلة النفسانية، وإذا لم يكن بها دودة كانت باردة المص واللمس وامتحانُها بذلك.

وزعم البحريون أن اللؤلؤ الكبار المتغير اللون تُلفُّ عليه الأَلْيَة الطرية المشرحة وتؤخذ في جوف عجين ويُدخل التنورَ ويُبالغ في إحمائه، فإنه يصفو ويحسن ويعود إليه الماء وإذا بُخّر بكافور كان ذلك، وإذا عُولِج بمُخِّ العظم وبماء البطيخ فإنه يصفو.

ومعرفة اللؤلؤ اللحمي الجوهري من الصدفي العظمي هو أن الجوهري يكون مستوى الصورة ليناً أملس والعظمي يكون خشناً غير مستوي الهيكل.

وخير اللؤلؤ الصافي العُماني المستوي الجسد الشديد التدحرج والاستواء، وإذا كانت حبتان متساويتين في الشكل والصورة واللون والوزن كان أرفع لثمنهما، والعُمَاني أنفس وأرفع من القلزمي لأن العُماني عَذْبٌ نقي صاف والقلزمي فيه ملوحة مع عيب كثير: وإذا بلغت الحبة نصفَ مثقال سُمِّيتْ دُرّة، والمدحرجة المعتدلة في التدور إذا بلغ وزنها نصف مثقال ربما بلغت في الثمن ألف مثقال ذهباً، والبيضية دون ذلك في الثمن، وأثمانها ترتفع على زيادة وزنها وتدحرجها، وإذا بلغ وزنها مثقالين إن شئتَ جعلت ثمنها عشرة آلاف دينار وإن شئتَ مائة ألف دينار، والمدحرجة على هذا الوزنِ والصفةِ لا قيمة لها، وهي فريدة، وكلما كانت أصفى وأنقى كان أرفعَ لثمنها وأنفسَ. والدرة اليتيمة قلزمية، زعموا أن وزنها ثلاثة مثاقيل والصغار من اللؤلؤ مرجانه.[1]

١. الجاحظ. التبصرة بالتجارة، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب (القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٩٣٥)، ص ١١-١٣.

الحيوان للجاحظ

يرد ذكر عمان في كتاب الحيوان حين يفرق الجاحظ بين علقمة الفحل وعلقمة الخصي:

وإنما قيل لعلقمةَ بن عَبَدَةَ الفحلُ، حين وقعَ على هذا اسمُ الخَصيّ، وكان عبداً صالحاً، وهو كان جَلبَ الجدِيلَ وداعراً، الفحلين الكريمين، إلى عُمَانَ، وكان من نازليها، وهو كان أحدَ الشهودِ على قُدامة بنِ مَظْعونٍ في شرب الخمر، وهو الذي قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أتَقبَلُ شهادةَ الخصيِّ؟ قال: أما شهادتك فأقبَلُ، وهو عَلقمةُ بن سهْلِ بن عمارة، فلمَّا سمّوه الخصيّ، قالوا لعلقمةَ ابن عَبَدة: الفحل. وعلقمةُ الخصيّ، الذي يقول:

فلـن يَعْـدَمَ الباقـون قبـراً لجثَّتـي
ولـن يعـدَم الميـراثَ منِّـي الموالـيا
حِراصٌ على مـا كنـت أجمـعُ قَبْلَهم
هَنِيئـاً لهـمْ جَمْعِـي ومـا كنـتُ والِيـا
ودُلِّيـتُ فـي زَوْراءَ ثُمَّـتَ أعنَقـوا
لشـأنِهِمُ قَـدْ أَفْرَدُونِـي وشَـانِيا
فأصبـح مالـي مـن طريـفٍ وتالـدٍ
لغيري، وكانَ المـالُ بالأمس ماليـا[1]

ويرد ذكر عمان أيضا في هذا الكتاب حين يتحدث الجاحظ عن بعد بلاد الزنج والصين عن البصرة:

وهم يزعمون أنّ الذي بين البصرة والزِّنج، أبعَدُ مما بين الصِّين وبينها.

١. الجاحظ. كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ج١ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٦٥) ص ١٢٠-١٢١.

وإنما غلط ناسٌ فزعموا أنّ الصِّين أبعد، لأن بحرَ الزِّنج حفرةٌ واحِدة عميقَة واسعة، وأمواجها عِظام، ولذلك البَحْرِ ريحٌ تهبُّ من عُمانَ إلى جهة الزِّنج شهْرَين، وريحٌ تَهُبُّ من بلاد الزِّنج تريدُ جِهَة عُمان شهْرين، على مقْدَارٍ واحدٍ فيما بينَ الشِّدَّة واللِّين، إلاّ أنّها إلى الشدِّةِ أقْرَب، فلما كان البَحْرُ عميقاً والرِّيحُ قَوِيَّةً، والأمْواجُ عظيمَة، وكان الشِّراعُ لا يحطُّ، وكان سيرهم مع الوَتَر ولم يكن مع القَوْس، ولا يَعْرفون الخِبَّ والمكلّأَ، صارت الأيَّامُ التي تسير فيها السُّفن إلى الزِّنْجِ أقل.[1]

ويورد الجاحظ أيضا في كتابه هذا، حين يتحدث عن الذّبَان، قصّة لتميمي مع أناس من الأزد :

وقدكان عندنا أُنَاسٌ من الأزد، ومعهم ابن حزن، وابن حزن هذا عَدَوِيٌّ من آل عموج، وكان يتعصّب لأصحابه من بني تميم وكانوا على نبيذ، فسقط ذبابٌ في قدَح بعضهم، فقال له الآخر: غطِّ التميمي، ثمَّ سقط آخر في قدَح بعضهم، فقال الباقون: غطِّ التميميّ فلمَّا كان في الثالثة قال ابن حزن: غطِّه فإنْ كان تميمياً رسَبَ، وإن كان أزْديّا طفا، فقال صاحب المنزل: ما يسرُّني أنَّه كان نقصكم حرفاً، وإنما عَنى أنَّ أزْدَ عُمان مَلاَّحون.[2]

ويورد الجاحظ أيضا شعرا فيه ذكر عمان، حين يتحدث عن النسور:

وشبّه العُجيرُ السّلوليّ شُيوخاً على باب بعضِ الملوك بالنسور، فقال:

فمنهن إسآدي على ضوء كوكبٍ
له من عُمانيّ النُّجوم نظيرُ
ومنهن قرْعي كلَّ بابٍ كأنّما
به القومُ يرْجونَ الأذين نُسورُ
إلى فَطِنٍ يستخرج القلبَ طرْفُه
له فوق أعواد السَّريرِ زئيرُ.[3]

١. المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٢.
٢. المصدر السابق، ج٣، ص ٣١٣.
٣. المصدر السابق، ج٦، ص ٣٢٩.

ويورد الجاحظ في كتاب الحيوان أيضا قولا للصحابي والخطيب العماني الشهير صحار العبدي عن الإيجاز:

قال معاويةُ بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، لصُحَارٍ العبدي: ما الإيجاز؟ قال: أَن تجيبَ فلا تبطئ، وتقولَ فلا تخطئ، قال معاوية: أو كذلك تقول!! قال صحار: أَقِلْنِي يا أمير المؤمنين لا تخطئ ولا تبطئ.

فلو أنَّ سائلاً سأَلك عن الإيجاز فقلت: لا تخطئ ولا تبطئ وبحضرتك خالد بنُ صفوان لما عرَفَ بالبديهة وعندَ أَوَّل وهلة أَنَّ قولَك لا تخطئ متضمِّنٌ بالقول وقولَك لا تبطئ متضمِّن بالجواب وهذا حديثٌ كما ترى آثروه ورَضُوه ولو أن قائلاً قال لبعضنا: ما الإيجاز لظننتُ أنّه يقول: الاختصار .

والإيجاز ليس يُعنَى به قلَّةُ عددِ الحروفِ واللفظ وقد يكونُ البابُ من الكلام مَنْ أتى عليه فيما يسع بطن طُومارٍ فقد أوجز وكذلك الإطالة وإنَّمَا ينبغي له أن يحذف بقدرِ ما لا يكون سبباً لإغلاقه ولا يردِّد وهو يَكتفي في الإفهام بشِطره فَما فضَل عن المقدار فهو الخطل.[1]

وذكر الجاحظ صحار العبدي أيضا حين تحدث عن الألوان:

وإذا قال الناس: ثوب أزرق فإنهم يذهبون إلى لون واحد، وإذا وصفوا بذلك العينَ وَقَعَ على لونين؛ لأن البازيّ يسمى أزرق وكذلك العُقاب، والزُّرَّقُ، وكل شيء ذهبيُّ العَين، فإذا قالوا: سنور أزرق لم يُدْرَ، أذهبوا إلى ألوان الثياب أم إلى ألوانِ عيون البزاة.

وقد قال صُحَارٌ العبديُّ حين قال له معاوية: يا أزرق قال: البازيُّ أزرَق، وأنشد:

ولا عَيْبَ فيها غيرَ شُكْلَةِ عينِها
كذاك عِتاقُ الطيرِ شُكْلٌ عيونُها

والذهب قد يقال له أصفر، ويقال له أحمر.

وقال بعض بني مَرْوَانَ لبعض ولد متمِّم بن نُويرة: يا أحمر قال: الذهَب أحمر، فلذلك زعم أن عِتاقَ الطير شُكلٌ عيونها.

١. المصدر السابق، ج١، ص ٩٠-٩١.

وقال الأخطل:

وما زالت القَتْلَى تمُورُ دماؤُهم
بدِجْلَةَ حتى ماءُ دِجلة أشكلُ

فالشُّكلة عندهم تقع على الصُّفرة والحمرة إذا خالطا غيرهما.

فمن الزرق من الناس صُحارٌ العبديُّ، وعبدُ الرحمن ابنُه، وداوُد بن متمِّم بن نويرة، والعباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ومرون بن محمد بن مروان، وسعيد بن قيس الهمداني، وزرقاءُ اليمامة، وهي عَنْز، من بنات لُقمان بن عادِيا.

ومن الزُّرق ممن كانوا يتشاءمون به: قيس بن زهير، وكان أزرق وكان بكراً وابن بِكْرين، وكانت البسوسُ زَرْقَاءَ وبكراً بنتَ بِكرين، ولها حديث لا أحقّه.

وكانت الزّبّاء زرقاء، والزرْق العيون، من بني قَيس بن ثعلبةَ، منهم المرقِّشان، وغيرهما.[1]

١. المصدر السابق، ج٥، ص ٢٣٠-٢٣١.

رسائل الجاحظ

نجد الجاحظ في رسائله يذكر عمان حين يتحدث عن حُبِّ الوطن والتعلُّق به:

ومحبة الوطن شيءٌ شامل لجميع الناس، وغالب على جميع الجيرة. ولكن ذاك في التُّرْكِ أغلب، وفيها أرسخ؛ لما معها من خاصة المشاكلة والمناسبة، واستواء الشَّبَه، وتكافي التركيب. ألا ترى أن العبدي يقول: «عَمّر الله البلدانَ بحُبِّ الأوطان»، وأن ابن الزبير قال: «ليس الناسُ بشيءٍ من أقسامِهم أقنعَ منهم بأوطانهم»، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لولا تفرُّقِ أهواءِ العباد لما عمَّر الله البلاد»، وأن جمعة الإيادية قالت: «لولا ما أوصى الله به العباد من قَفْرِ البلاد، لما وسعهم وادٍ ولا كفاهم زاد». وذكر قتيبة بن مسلم الترك فقال: «هم والله أحَنُّ من الإبِل المُعَقَّلة إلى أوطانها»؛ لأن البعيرَ يحن إلى وطنه وعَطَنه، وهو بعُمَان، من ظهر البصرة، فهو يخبط كلَّ شيءٍ ويستبطن كلَّ وادٍ، حتى يأتي مكانه؛ على أنه طريقٌ لم يسلكه إلا مرةً واحدة، فلا يزال بالشّمِّ والاسترواح وحُسْنِ الاستدلال، وبالطبيعة المخصوص بها حتى يأتي مَبْرَكَه، على بعد ما بين عُمَانَ والبصرة.[1]

وفي رسالة «فخر السودان على البيضان» يرد ذكر عمان في هذا القول:

«ومنّا الذي ضرب عُنُقَ عيسى بن جعفر بعُمَانَ، بمِنْجَلٍ بَحْرَاني، بعد أن لم يَجْسُرْ عليه أحد».[2]

وفي رسائل الجاحظ أيضا نجد ذكرا لعمان في «كتاب البغال» حين يتحدث عن بريد كسرى ملكِ فارس إلى الجُلندى و غيرِه من ملوك العرب. يقول:

وبُرُد كُتب الملوك كانت ما بين فرْغانة القُصْيا إلى السُّوس الأقصى، وكانت البُرُد منظومة إلى كسرى، من أقصى بلاد اليمن إلى بابه، أيام وَهْرِز، وأيام قُتل مسروقٌ عظيم الحبشة. وكذلك كان عظيم الروم. قال امرؤ القيس:

---

١. أبو عثمان الجاحظ. رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ج١ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٤)، ص٦٤.
٢. المصدر السابق، ج١، ص ١٩٥.

ونادمـتُ قَيْصَـرَ فـي مُلْكِـه
فأوْجهنـي وركبْـتُ البريـدا
إذا مـا ازدحمنـا علـى سِـكَّةٍ
سـبقتُ الفُرَانِـقَ سـبقاً بعيدا

وكذلك كانت بُرُد كسرى إلى الحيرة: إلى النعمان وإلى آبائه. وكذلك كانت بُرُده إلى البحريْن: إلى المُكَعْبَر مَرْزَبان الزَّارة، وإلى مِشكاب، وإلى المُنْذر بن ساوى، وكذلك كانت بُرُدُه إلى عُمان، إلى الجُلَنْدَى ابن المستكبر. فكانت بادية العرب وحاضرتها مغمورتين ببُرُده، إلاّ ما كان من ناحية الشام؛ فإنَّ تلك الناحية من مملكة ختعم وغسَّان إلى الروم، إلاّ أيّام غلبت فارس على الروم. ولذلك صرنا نرى النواويس بالشَّامات إلى قُسطنطينية.

وهل كانت بُرُد كسرى إلى وَهْرِزَ، وباذامَ، وفيروز بنِ الدَّيْلميّ، وإلى اليمن، وإلى المُكَعْبَر مَرْزَبان الزارة، وإلى النُّعمان بالحيرة، إلاّ البغال؟ وهل وجدوا شيئاً لذلك أصلح منها؟ ومما ذكروا به شأن البِغَالَ في الشعر وغيره، قول الشاعر:

جعـل ابـنُ حـزْمٍ حاجبيـن لبابـه
سُـبْحانَ مَنْ جعل ابنَ حزْمٍ يُحْجَبُ
وعجبتُ أنْ ركب ابنُ حـزْمٍ بغلةٍ
وركوبُـه فـوقَ المنابـرِ أعْجَـبُ[1]

وفي رسالة «مفاخرة الجواري والغلمان»، يرد ذكر عمان أيضا حين يورد الجاحظ مناظرة بين بصريٍّ وكوفيٍّ تفاخرا بعدد أشراف أهل البصرة وأشراف أهل الكوفة، فقال البصريّ للكوفيّ:

هات في أربع قبائل الكوفة مثل أربعة رجالٍ بالبصرة في أربع قبائل: في تميم الكوفة مثل الأحنف، وفي بكر الكوفة مثل مالك بن مسمع، وفي قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم، وفي أزد الكوفة مثل المهلب.

١. المصدر السابق، ج٢، ص ٢٩٠-٢٩٣.

فقال الكوفيّ: مخنف بن سُليم من أزد السَّراة، وهم أشرف من أزد عُمان.

فقال البصريّ: إنا لم نكن في شرف القبائل وفرق ما بينهما، فإنما ذكرنا المهلب بنفسه، وما علمت أن أحداً يبلغ من جهله أن يفخر بمخنف بن سليم فيفضّله على المهلب. وأخْمل رجل من ولد المهلّب أشهر في الولايات وفي الفرسان وفي الناس من مخنف. والمهلّب رجلٌ ليس له بالعراق نظيرٌ يقاومه، ومناقبه وأيّامه وفتُوحُه أكثر وأشهر من أن يجوز لنا أن نجعله إزاء مخْنف. وما زالوا يقولون: "بصرة المهلّب". ولو لم يكن للمهلّب إلاّ أنه ولد يزيد بن المهلّب كان كافيا. ونحن إذا قلنا: ليس في قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم، قال قائل: فزارة أشرف من باهلة. قلنا: ليس هذه معارضة؛ فإنّما المعارضة أن تذكر أسماء بن خارجة ثم تقول ونقول، فنذكر فتوح قتيبة العظام، والشَّهامة والنفس الأبية، والشَّجاعة والحزم والرأي، والوفاء، وشرف الولاية، ونذكر سُودد أسماء، وجوده ونواله. فأمّا أن نتخطّى أنفسهما إلى قبائلهما كما تخطَّيت بدن المهلَّب وبدن مخنف إلى أزْدِ عمان وأزدِ السَّراة، فهذا ليس من معارضة العلماء.[1]

ويرد ذكر عمان في رسائل الجاحظ أيضا حين يتحدث عن ارتباط الحماسة و النجدة بالتدين. يقول:

وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس، وتشددوا في الدين، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال واستحسان الغصب؛ فلما تركوا الغزو لم تبق مكسبة سوى التجارة، فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم، وإلى النجاشي بالحبشة، وإلى المِقَوْقِس بمصر، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء، وبانوا بالديانة والتحمس، فحمسوا بني عامر بن صعصعة، وحمسوا الحارث بن كعب، فكانوا - وإن كانوا حمساً - لا يتركون الغزو والسبي ووطء النساء، وأخذ الأموال، فكانت نجدتهم - وإن كان أنقص - فإنها على حال النجدة، ولهم في ذلك بقية.

وتركت قريش الغزو بتة، فكانوا - مع طول ترك الغزو - إذا غزوا كالأسود على براثنها، مع الرأي الأصيل، والبصيرة النافذة.

أفليس من العجب أن تبقى نجدتهم، وتثبت بسالتهم، ثم يعلون الأنجاد والأجواد، ويفرعون الشجعان؟ ! وهاتان الأعجوبتان بينتان.

---

١. المصدر السابق، ج٢، ص١١٧-١١٩.

وقد علم أن سبب استفاضة النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدمهم في ذلك، إنما هو بسبب الديانة، لأنا نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم، يقاتلون مثل قتالهم، ونجد السجستاني وهو عجمي، ونجد اليمامي والبحراني والخوزي وهم غير عرب، ونجد إباضية عمان وهي بلاد عرب، وإباضية تاهرت وهي بلاد عجم، كلهم في القتال والنجدة، وثبات العزيمة، والشدة في البأس سواء. فاستوت حالاتهم في النجدة مع اختلاف أنسابهم ويلدانهم. أفما في هذا دليل على أن الذي سوى بينهم التدين بالقتال، وضروب كثيرة من هذا الفن؟ ! وذلك كله مصور في كتبي، والحمد لله.[1]

١. المصدر السابق، ج٤، ص١٢٧-١٢٨.

الشعر والشعراء لابن قتيبة

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يترجم ابن قتيبة للعُماني الراجز:

العماني، هو محمد بن ذؤيب الفقيمي، ولم يكن من أهل عُمان، وإنما قيل له «عمانيٌ» لأنّ دكيناً الراجز نظر إليه وهو يسقي الإبل ويرتجز، فرآه غُلَيْماً مُصْفَرَّ الوجه ضريراً مَطْحولاً، فقال من هذا العُمانيُّ؟ فلزمه الاسم. وإنما نسبه إلى عُمان لأنّ عمان وَبِيّة، وأهلُها مُصْفَرّةٌ وجوهُهم مطحولون، وكذلك البحرانِ. قال الشاعر:

ومَنْ يَسْكُنِ البَحْرَيْنِ يَعْظُمْ طِحَالُهُ

ويُغْبَطْ بما في بَطْنِهِ وهْوَ جائِعُ

ودخل على الرشيد لينشده، وعليه قَلَنْسُوة، طويلة وخُفٌّ ساذج، فقال له إياك أن تنشدني إلا وعليك عِمامة عظيمة الكورِ وخُفّان دِلْقَمَان، فبكر عليه من الغد وقد تزيا بزي الأعراب، ثم أنشده وقبّل يده، وقال يا أمير المؤمنين، قد- والله- أنشدتُ مروانَ ورأيتُ وجهه وقبلتُ يده وأخذتُ جائزته، ثم يزيدَ بن الوليد، وإبراهيمَ بن الوليد، ثم السفاحَ، ثم المنصورَ، ثم المهديَّ، كل هؤلاء رأيت وجوههم وقبلت أيديهم وأخذت جوائزهم، إلى كثيرٍ من أشباه الخلفاء وكبار الأمراء والسادة الرؤساء، لا والله ما رأيت فيهم أبهى منظراً ولا أحسن وجهاً ولا أنعم كفاً ولا أندى راحةً منك يا أمير المؤمنين. فأعظم له الجائزة على شعره، وأضعف له على كلامه، وأقبل عليه فبسطه، حتى تمنى جميع من حضر أنه قام ذلك المقام.

وكان العُماني يحيد وصف الفرس، فمما أخذه أو أخذ منه قوله:

كَأَنَّ تَحْتَ البَطْنِ منه أَكْلُبَا

بِيضاً صِغاراً يَنْتَهِشْنَ المَنْقَبَا

وقال آخر:

كَأَنَّ أَجْراءَ كِلابٍ بِيضِ
دُونَ صِفاقَيْهِ إِلى التَّعْرِيضِ

وقال آخر:

كَأَنَّ قِطًّا أَوْ كِلاباً أَرْبَعَا
دُونَ صِفَاقَيْهِ إِذا ما ضبَعَا[1]

ويرد اسم عمان أيضا حين يترجم ابن قتيبة للشاعر علقمة الفحل:

علقمة بن عبدة هو من بني تميمٍ جاهلي، وهو الذي يقال له علقمة الفحل، وسمي بذلك لأنه احتكم مع امرىء القيس إلى امرأته أم جندب لتحكم بينهما، فقالت: قولا شعراً تصفان فيه الخيل على روي واحد وقافية واحدة، فقال امرؤ القيس:

خَلِيلَّي مُرَّا بِي على أُمِّ جُنْدَبِ
لنَقْضِيَ حاجاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

وقال علقمة:

ذَهَبْتَ منَ الهجْرَانِ في كُلّ مَذْهَبِ
ولم يَلكُ حَقّاً كُلُّ هذا التَّجَنُّبِ

ثم أنشداها جميعاً، فقالت لامرىء القيس: علقمة أشعر منك، فقال: وكيف ذاك؟ قالت: لأنك قلت:

فللسَّوْطِ أُلْهُوبٌ وللساقِ درَّةٌ
وللزَّجْرِ منه وَقْعُ أَخْرَجَ مُهْذِبِ

١. ابن قتيبة. الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨)، ص ٧٥٥-٧٥٦.

فجهدت فرسَك بسوطك، ومَرَيْتَه بساقك، وقال علقمة:

فأَدْرَكَهُنَّ ثانِياً مِن عِنانِهِ
يَمُرُّ كمَرِّ الرائِحِ المُتَحَلِّبِ

فأدرك طريدته وهو ثانٍ من عِنان فرسه، لم يضربه بسوط، ولا مَرَاه بساقٍ، ولا زجره، قال: ما هو بأشعر مني ولكنكِ له وامقٌ! فطلقها فخلف عليها علقمةُ، فسمي بذلك الفحل.....

ويقال إنه قيل له الفحل لأن في رهطه رجلاً يقال له علقمة الخصي، وهو علقمة بن سهلٍ، أحد بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، ويكنى أبا الوضاح، وكان بعُمان، وسبب خصائه أنه أسر باليمن فهرب، فظفر به، ثم هرب مرة أخرى، فأخذ فخصي، فهرب ثالثةً، وأخذ جملين يقال لهما عوهجٌ وداعرٌ، فصارا بعُمَان، فمنها العوهجية والداعرية، وكان شَهِد على قُدَامة بن مظعون، وكان عاملَ عمر على البحرين، بشرب الخمر، فحدّه عمر.

وهو القائل:

يقول رجالُ مِن صَديقٍ وحاسِدٍ
أَراكَ أَبا الوَضَّاحِ أَصْبَحْتَ ثاوِيَا
فلا يَعْدَمِ البانُونَ بَيْتاً يُكِنُّهُم
ولا يَعْدَمِ الميراثَ مِنِّي المَوَالِيَا
وجَفَّتْ عُيُونُ الباكياتِ وأَقْبَلُوا
إلى ما لِهِمْ قد بِنْتُ عنه ومالِيَا
حَراصاً على ما كُنْتُ أَجْمَعُ قَبْلَهم
هَنِيئاً لهم جَمْعِي وما كُنْتُ وانِيَا[1]

١. المصدر السابق، ج١، ص ٢١٨-٢٢٢.

ويرد أيضا حين يترجم ابن قتيبة للشاعر الجاهلي المساور بن هند العبسي:

المساور بن هند، وكنيته أبو الصمعاء هو المساور بن هند بن قيس بن زهير بن جذيمة العبسي. وقيس بن زهيرٍ جد المساور هو صاحب الحرب بين عبسٍ وفزارة، وهي حرب داحسٍ والغبراء، وكان المساور يهاجي المَرّارَ الفقعسي ويهجو بني أسدٍ، قال الشاعر:

شَقِيَت بَنُو أَسَدٍ بِشِعْرِ مُسَاوِرِ
إِنَّ الشَّقِيَّ بِكُلِّ حَبْل يُخْنَقُ

وهو القائل للمَرّار:

ما سَرَّنى أَنَّ أمي من بنى أَسَدٍ
وأَنَّ ربىَ يُنْجِينِى مِنَ النارِ

وأَنَّهم زَوَّجُونى من بَناتِهمُ
وأَنَّ لِي كلَّ يَوْمٍ أَلْفَ دِينارٍ

فقال له المَرّار:

لَسْتَ إلى الأُمِّ من عبْسٍ ومن أَسَدٍ
وإنما أَنْتَ دِينَارُ بن دِينَارِ
وإنْ تَكُنْ أَنْتَ من عَبْسٍ وأُمِّهِمِ
فأُمُّ عَبْسِكُمُ من جارَةِ الجَارِ

وقال له الحجاج: لم تقول الشعر بعد الكِبَر؟ قال: أُسْقى به الماءَ، وأُرْعى به الكلأ، وتُقضى لي به الحاجة، فإن كفيتَني ذلك تركتُه، وعُمِّر طويلا.

وهو القائل:

بَلِيتُ وعِلْمِى فِي البِلادِ مَكانَهُ
وأَفْنَى شَبَابى الدَّهْرُ وهْوَ جَدِيدُ

وأَدْرَكَنـي يـوْمٌ إِذَا قُلْـتُ قـد مَضَـى
يَعُـودُ لَنـا أَو مِثْلُـهُ فَيَعُـودُ
وأَصْبَحْـتُ مِثْلَ السَّـيفِ أَخْلَقَ جَفْنَهُ
تَقَـادُمُ عَهْـدِ القَيْـنِ وهْـوَ جَدِيـدُ
أَلَـمْ تَعْلَمُـوا يـا عَبْـسُ لـو تَشْـكُرُونني
إِذَا الْتَفَّـتِ الـذُّوَّادُ كَيْـفَ أَذُودُ
أَلَـمْ تَعلَمُـوا أَنـي ضَحُـوكٌ إِليكـمُ
وعِنْـدَ شَـدِيدَاتِ الأُمُـور شَـدِيد

وهلك المُسَاوِرُ بعُمَان.[1]

١. المصدر السابق، ج١، ص ٣٤٨-٣٤٩.

الكامل في اللغة والأدب للمُبَرِّد

يرد ذكر عمان في كتاب الكامل حين يشرح المبرد أبياتا لجرير يهجو بها آلَ المهلب بن أبي صفرة:

قال أبو العباس: وقرأتُ على عمارةَ بن عقيل بن بلال بن جرير قصيدةَ جرير التي يهجو فيها آلَ المهلب بن أبي صفرة، ويمدح هلالَ بن أحوزَ المازني، ويذكر الوقعة التي كانت لهم عليهم بالسند في سلطانِ يزيدَ بنِ عبد الملك، بسبب خروج يزيدَ بنِ المهلب عليه:

أقُولُ لهَا مِنْ لَيْلَةٍ لَيسَ طُولُها
كطول الليالي ليتَ صبحكِ نَوّرا
أخافُ على نَفْسِ ابنِ أحْوَزَ إنّه
جلا حُمَمًا فوق الوجوهِ فأسْفرا
جَعَلْتَ، لقَبْرٍ للخِيَارِ وَمالِكٍ،
وَقَبْرِ عَدِيٍّ في المَقَابِرِ، أقْبُرَا
و أطفأتَ نيرانَ المَزونِ وأهلِها
وَقَدْ حاوَلُوها فِتْنَةً أنْ تُسَعَّرَا
فلمْ تبقِ منهمْ رايةً يرفعونها
و لمْ تبقِ منْ آلِ المهلبِ عسكرا
ألا رُبّ سامي الطرْفِ من آلِ مازِنٍ،
إذا شمّرتْ عنْ ساقها الحربُ شمّرا

فهذا نظير ذلك. والمَزُون: عُمان. قال الكميت:

فأمّـا الأزْدُ أزْدُ أبـي سـعيد
فأكْـره أن أسَـمّيها المَزُونـا[1]

ومما جاء في كتاب الكامل للمبرد وفيه ذكر لعمان، خبر عن المختار بن أبي عبيد الثقفي. يقول:

وأما قول ابن الرُّقيّات:

وَالَّـذي نَغَّـصَ اِبـنَ دومَـةَ مـا تـو
حـي الشَـياطينُ وَالسُـيوفُ ظِمـاءُ
فَأَبـاحَ العِـراقَ يَضرِبُهُـم بِـال
سَـيفِ صَلتـا وَفـي الضِـرابِ غَـلاءُ

فإنما يريد بابن دَوْمَةَ المُختارَ بن أبي عُبيدٍ الثقفي، والذي نَغّصَه مصعب بن الزبير، وكان المختار لا يوقف له على مذهب، كان خارجياً، ثم صار زُبَيْرياً، ثم صار رافضياً في ظاهره.

وقوله: ما توحي الشياطين، فإن المختار كان يدعي أنه يُلْهَم ضرباً من السجاعة لأمور تكون، ثم يحتال فيوقعها، فيقول للناس: هذا من عند الله عز وجل.

فمن ذلك قوله ذات يوم: لتنزلنّ من السماء نارٌ دهماء، فلتحرقنّ دارَ أسماء. فذُكِر ذلك لأسماء بن خارجة، فقال: أقد سجع بي أبو إسحاق! هو والله مُحْرِقُ داري! فتركه والدار وهرب من الكوفة. وقال في بعض سجعه: أما والذي شرع الأديان، وجنّب الأوثان، وكره العصيان، لأقتلنّ أزدَ عُمَان، وجُلَّ قيس عيلان، وتميماً أولياء الشيطان، حاشا النجيبَ ظبيان![2]

١. أبو العباس المبرد. الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ج٣ (المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والإرشاد، ١٩٩٨)، ص٥٨-٥٩.
٢. المصدر السابق، ج٣، ص٨٨-٨٩.

ومما ذكره المبرد في الكامل وفيه ذكر لعمان خبره عن حرب المهلب بن أبي صفرة للخوارج. يقول:

قال أبو العباس: فأقام المهلب في ذلك العاقول ثلاثة أيام ثم ارتحل، والخوارج بسِلّى وسَلّبْرى.

قال الأخفش: سلى وسلبرى بفتح السين فيهما: موضعان بالأهواز، وسِلّى بكسر السين موضع بالبادية. وكذا ينشد هذا البيت:

كأنّ غديرَهم بجنوب سِلّى
نَعَامٌ قاق في بلدٍ قِفَارِ

فنزل قريباً منهم، فقال ابن الماحوز لأصحابه: ما تنتظرون بعدوكم وقد هزمتموهم بالأمس وكسرتم حدهم؟ فقال له واقد مولى أبي صُفْرَة: يا أمير المؤمنين، إنما تفرق عنهم أهلُ الضعف والجبن، وبقي أهل النجدة والقوة. فإن أصبتَهم لم يكن ظفراً هنيئاً. لأني أراهم لا يُصابون حتى يصيبوا. فإن غلبوا ذهب الدين، فقال أصحابه، نافق واقد!، فقال ابن الماحوز: لا تعجلوا على أخيكم؛ فإنه إنما قال هذا نظراً لكم، ثم توجه الزبير بن علي إلى عسكر المهلب لينظر ما حالهم، فأتاهم في مائتين. فحَزَرَهم ورجع. وأمر المهلب أصحابَه بالتحارس، حتى إذا أصبح ركِب إليهم على تعبية صحيحة، فالتقوا بسَلّى وسَلّبْرى فتصافّوا. فخرج من الخوارج مائة فارس، فركزوا رماحهم بين الصفين واتكأوا عليها. وأخرج إليهم المهلبُ عِدَادَهم، ففعلوا مثل ما فعلوا، لا يَريمون إلا لصلاة حتى أمسوا، فرجع كل قوم إلى معسكرهم ففعلوا هذا ثلاثةَ أيام.

ثم إن الخوارج تطاردوا لهم في اليوم الثالث، فحمل عليهم هؤلاء الفرسان يجولون ساعة. ثم إن رجلاً من الخوارج حمل على رجل فطعنه فحمل عليه المهلب فطعنه، فحمل الخوارج بأجمعهم، كما صنعوا يوم سُولاف، فضعضعوا الناس، وفُقِد المهلب، وثبت المغيرة في جمع أكثرُهم أهلُ عُمَان، ثم نَجَم المهلبُ في مائة فارس، وقد انغمستْ كفّاه في الدماء، وعلى رأسه قَلَنْسُوَة مربّعة فوق المغفر، محشوة قزاً، وقد تمزقت، وإن حَشْوها ليتطاير، وهو يلهث، وذلك في وقت الظهر، فلم يزل يحارهم إلى الليل، حتى كثر القتل في الفريقين.[1]

١. المصدر السابق، ج٣، ص١٣٠-١٣١.

وفي موضع آخر من الكامل يروي المبرد حرب المهلب للخوارج في أرجان، ويأتي في الخبر ذكر مزون وهي عمان. يقول:

واجتمعت الخوارج بأرجان، فبايعوا الزبير بن علي، وهو من بني سليط بن يربوع من رهط ابن الماحوز، فرأى فيهم انكساراً شديداً وضعفاً بيناً، فقال لهم: اجتمعوا، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أقبل عليهم فقال: إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر، وهو على الكافرين عقوبة وخزي، وإن يُصَبْ منكم أمير المؤمنين فما صار إليه خير مما خلّف، وقد أصبتم فيهم مسلمَ بن عبيس وربيعاً الأجذم، والحجاج بن باب، وحارثة بن بدر، وأشجيتم المهلب، وقتلتم أخاه المُعارِك، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين: «إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ»، فيومُ سَلّى كان لكم بلاء وتمحيصاً، ويوم سَولافَ كان لهم عقوبة ونكالاً، فلا تُغْلَبُنّ على الشكر في حينه، والصبر في وقته، وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض، والعاقبة للمتقين.

ثم تحمل لمحاربة المهلب، فنفحهم المهلب نفحة، فرجعوا، فأكْمَنَ للمهلب في غَمْضٍ من غموض الأرض، يقرب من عسكره، مائة فارس ليغتالوه، فسار المهلب يوماً يطوف بعسكره ويتفقد سوادَه، فوقف على جبل فقال: إن من التدبير لهذه المارقة أن تكون قد أكمنت في سفح هذا الجبل كميناً، فبعث عشرة فوارس، فاطلعوا على المائة، فلما علموا أنهم قد علموا بهم قطعوا القنطرة ونجوا، وكسفت الشمس، فصاحوا بهم: يا أعداء الله! لو قامت القيامة لجددنا في جهادكم، ثم يئس الزبير من ناحية المهلب، فضرب إلى ناحية أصبهان، ثم كرّ راجعاً إلى أرْجَان، وقد جمع جموعاً، وكان المهلب يقول: كأني بالزبير وقد جمع جموعاً، فلا ترهبوهم فتخبثَ قلوبكم، ولا تغفلوا الاحتراس فيطمعوا فيكم، فجاءوه من أرجان فألفوه مستعداً آخذاً بأفواه الطرق، فحاربوه فظهر عليهم ظهوراً بيناً. ففي ذلك يقول رجل من بني تميم، أحسبه من بني رياح بن يربوع:

سقى اللهُ المُهلّبَ كلَّ غَيْثٍ
من الوَسْميِّ ينتحر انتحارا
فما وَهَنَ المهلبُ يومَ جاءت
عوابسُ خيلِهم تبغي الغوَارا

وقال المهلب يومئذ: ما وقعتُ في أمر ضيق من الحرب إلا رأيتُ أمامي رجالاً من بني الهجيم بن عمرو بن تميم يجالدون، وكأن لِحاهم أذنابُ العَقَاعِق. وكانوا صبروا معه في غير موطن.

وقال رجل من بني تميم، من بني عبشمس بن سعد:

ألا يـا مَنْ لصَبٍّ مُسْـتَحنٍّ
قريحِ القلبِ قد صَحِبَ المَزونا
لهانَ على المهلبِ مـا لقينا
إذا مـا راح مسـروراً بَطينـا
يجرُّ السابريَّ ونحنُ شُعْثٌ
كأنّ جلودَنـا كُسِـيتْ طحينـا

المزون: عُمان. وهو اسم من أسمائها.[1]

ومما جاء فيه ذكر عمان أيضا في الكامل حديث المبرد عن مراسلة شديدة اللهجة كانت بين الحجاج بن يوسف الثقفي والمهلب بن أبي صفرة. يقول:

وقد كان الحَجّاج في كل يوم يتفقد العصاة ويوجه الرجال، فكان يحسبهم نهاراً، ويفتح الحبس ليلاً، فينسلُّ الناس إلى ناحية المهلب، وكأن الحجاج لا يعلم، فإذا رأى إسراعهم تمثل:

إنَ لهـا لسـائقاً عَشَـنْزَرا
إذا وَنِيـنَ وَنْيَـةً تَغْشَـمَرا

العَشَنْزَرُ: الصلب، والغَشْمَرَة: ركوب الرأس. والمتغشمر: الجاد على ما خَيّلَتْ.

وكتب إلى المهلب من قبل الوقعة: أما بعد، فإنه بلغني أنكَ أقبلتَ على جِباية الخَرَاج، وتركتَ قتالَ العدو، وإني ولّيتُك وأنا أرى مكانَ عبد الله بن حكيم المُجاشي وعباد بن حصين الحَبَطي. واخترتُك وأنت من أهل عُمَان، ثم رجلٌ من الأزد، فالْقَهم يوم كذا في مكان كذا، وإلا

١. المصدر السابق، ج٣، ص١٣٧-١٣٨.

أشرعتُ إليك صدرَ الرمح!

فشاور بنيه فقالوا: إنه أمير، فلا تغلظ عليه في الجواب.

فكتب إليه المهلب: ورد عليّ كتابُكَ تزعم أني أقبلتُ على جباية الخراج وتركتُ قتال العدوّ، ومن عجز عن جباية الخراج فهو عن قتال العدو أعجز، وزعمتَ أنك وليتني وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم المجاشعي وعباد بن حصين الحبطي، ولو وليتهما لكانا مستحقِيْنِ لذلك في فضلهما وغنائهما وبطشهما، واخترتَني وأنا رجل من الأزد، ولعمري إن شراً من الأزد لقبيلة تنازعها ثلاث قبائل، لم تستقر في واحدة منهن، وزعمتَ أني إن لم ألقهم في يوم كذا، في مكان كذا، أشرعتَ إلي صدر الرمح، فلو فعلتَ لقبلتُ إليك ظهرَ المِجَنّ، والسلام.[1]

١. المصدر السابق، ج٣، ص١٦٦-١٦٧.

كتاب الاختيارين للأخفش الأصغر

من الشعراء العمانيين الذين وردت لهم قصائد في هذا الكتاب سَوّار بن المُضَرَّب السعدي من بني سعد بن زيد مناه بن تميم، وقد أورد الأخفش الأصغر له هذه القصيدة المشهورة:

أَلَم تَرَني وَإِن أَنبَأتُ أَنّي
طَوَيتُ الكَشحَ عَن طَلَبِ الغَواني
أُحِبُّ عُمانَ مِن حُبّي سُلَيمى
وَما طِبّي بِحُبِّ قُرى عُمانِ
عَلاقَةَ عاشِقٍ وَهَوىً مُتاحاً
فَما أَنا وَالهَوى مُتَدانِيانِ
تَذَكَرُ ما تَذَكَّر مِن سُلَيمى
وَلَكِنَّ المَزارَ بِها نَآني
فَلا أَنسى لَيالِيَ بِالكَلَندى
فَنينَ وَكُلُّ هَذا العَيشِ فانِ
وَيَوماً بِالمَجازَةِ يَوم صِدقٍ
وَيَوماً بَينَ ضَنكَ وَصَومَحانِ
أَلا يَا سَلمَ سَيِّدَةَ الغَواني
أَما يُفدى بِأَرضِكِ تِلكَ عانِ؟

وَما عَانيلكِ يا اِبنَةَ آلِ قَيسِ
بِمَفحوشٍ عَلَيهِ وَلا مُهانِ
أَمِن أَهلِ النَقا طَرَقَت سُلَيمى
طَريداً بَينَ شُنظُبَ وَالثَمانِ
سَرى مِن لَيلِهِ حَتّى إِذا ما
تَدَلّى النَجمُ كَالأُدمِ الهِجانِ
رَمى بَلَدٌ بِهِ بَلَداً فَأَضحى
بِظَمأى الريحِ خاشِعَة القِنانِ
تَموتُ بَناتُ نَيسَبِها وَيَغبى
عَلى رُكبانِها شَرَكُ المِتانِ
يُطَوّي عِندَ رُكبَةِ أَرحَبِيٍّ
بَعيدِ العَجبِ مِن طَرَفِ الجِرانِ
مَطِيَّةِ خائِفٍ وَرَجيعِ حاجٍ
شَموذِ الذَيلِ مُنطَلِقِ اللَبانِ
قَذيفِ تَنائِفٍ غُبرٍ وَحاجٍ
تَقَحَّمَ خائِفاً قُحَمَ الجَبانِ
كَأَنَّ يَدَيهِ حينَ يَقالُ سيروا
عَلى مَتنِ التَنوفَةِ غَضبَتانِ
يَقيسانِ الفَلاة كَما تَغالى
خَليعا غايَةٍ يَتَبادَرانِ

كَأَنَّهُما إِذا حُثَّ المَطايا
يَدا يَسَرٍ المتاحَةِ مُستَعانِ
سَبوتا الرَجعِ مائِرَتا الأَعالي
إِذا كَلَّ المَطِيُّ سَفيهَتانِ
وَهادٍ شَعشَعٍ هَجَمَت عَلَيهِ
تَوالٍ ما يُرى فيها تَوانِ
أَعاذِلَتَيَّ في سَلمى دَعاني
فَإِنّي لا أُطاوِعُ مَن نَهاني
وَلَو أَنّي أُطيعُكُما بِسَلمى
لَكُنتُ كَبَعضِ مَن لا تُرشِدانِ
دَعاني مِن أَذاتِكُما وَلَكِن
بِذِكرِ المَذحِجِيَّةِ عَلِّلاني
فَإِنَّ هَوايَ ما عَلِمَت سُلَيمى
يَمانٍ إِنَّ مَنزِلَها يَمانِ
تَكِلُّ الريحُ دونَ بِلادِ سَلمى
وَسِرّاتُ المُنَوَّقَةِ الهِجانِ
بِكُلِّ تَنوفَةٍ لِلريحِ فيها
حَفيفٌ لا يَروعُ التُربَ وانِ
إِذا ما المُسنِفاتُ عَلَونَ مِنها
رِقاقاً أَو سَماوَةَ صَحصَحانِ

يَخِدنَ كَأَنَّهُنَّ بِكُلِّ خَرِقٍ
وَإِغساءَ الظَلامِ عَلى رِهانِ
وَإِن غَوَّرنَ هاجِرَةً بِفَيفٍ
كَأَنَّ سَرابَها قِطَعُ الدُخانِ
وَضَعنَ بِهِ أَجِنَّةَ مُجهِضاتٍ
وُضِعنَ لِثالِثٍ عَلقاً وَثانِ
وَلَيلٍ فيهِ تَحسَبُ كُلَّ نَجمٍ
بَدا لَكَ مِن خَصاصَةِ طَيلَسانِ
نَعَشتُ بِهِ أَزِمَّةَ طاوِياتٍ
نَواجٍ لا تَبينُ عَلى اِكتِنانِ
تُثيرُ عَوازِبَ الكُدرِيِّ وَهناً
كَأَنَّ فِراخَها قُمرُ الأَفانِي
يَطَأنَ خُدودَهُ مُتَشَمِّعاتٍ
عَلى سُمرٍ تَفُضُّ حَصى المِتانِ
سَرَينَ جَميعَهُ حَتّى تَوَلّى
كَما اِنكَبَّ المُعَبَّدُ لِلجِرانِ
وَشَقَّ الصُبحُ أُخرى اللَيلِ شَقّاً
جِماحَ أَغَرَّ مُنقَطِعِ العِنانِ
وَما سَلمى بِسَيِّئَةِ المُحَيّا
وَلا عَسراءَ عاسِيَةِ البَنانِ

أَلا قَد هاجَني فَازدَدتُ شَوقا
بُكاءُ حَمامَتَينِ تَجاوَبانِ
تَنادى الطائِرانِ بِصرمِ سَلمى
عَلى غُصنَينِ مِن غَربٍ وَبانِ
فَكانَ البانُ أَن بانَت سُلَيمى
وَبِالغَربِ اِغتِرابٌ غَيرُ دانِ
وَلَو سَأَلَت سَراةَ الحَيِّ عَنّي
عَلى أَنّي تَلَوَّنَ بي زَماني
لَنَبَّأَها ذَوو أَحسابِ قَومي
وَأَعدائي فَكُلٌّ قَد بَلاني
بِدَفعِ الذَمِّ عَن حَسَبي بِمالي
وَزَبّوناتِ أَشوَسَ تَيَّجانِ
وَأَنّي لا أَزالُ أَخا حِفاظ
إِذا لَم أَجنِ كُنتُ مِجَنَّ جانِ(١)

١. الأخفش الأصغر. كتاب الاختيارين المفضليات والأصمعيات، تحقيق: فخر الدين قباوة (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٩)، ص١٠٥-١١٣.

العِقْد الفريد لابن عَبْد ربه

يذكر ابن عبد ربه عمان في معرض حديثه عن النزعات الشعوبية التي أخذت تطعن في العرب وتعلي من شأن العجم، وتصدي بعض الشعراء العرب لذلك. يقول:

فلما أتى الله بالإسلام كان للعجم شَطْر الإسلام، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الأحْمر والأسْود من بني آدم، وكان أوّلَ من تَبعه حُرّ وعَبْد، واختلف الناس فيهما، فقال: قَوم: أبو بَكْر وبلال، وقال قوم: عليّ وصُهَيب. ولما طُعِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَدّم صُهَيباً على المهاجرين والأنصار، فصلّى بالناس وقيل له: استخلف؛ فقال: ما أجد من أَسْتخلف، فذُكر له السّتة من أهل حِراء، فكُلّهم طَعن عليه، ثم قال: لو أَدركت سالماً مولى أبي حُذيفة حيّاً لما شَكَكْت فيه، فقال في ذلك شاعر العرب:

هـذا صُهَيـب أمّ كُلَ مُهاجـر
وعَـلاَ جَميـعَ قبائـل الأنْصـار
لـم يَـرْضَ مِنهـم واحـداً لصَلاتنا
وهـمِ الهُـداة وَقـادةُ الأخْبـار
هـذا ولـو كان المُثَـرّم سـالمٌ
حيّـا لنَـال خِلافـة الأمْصـار
مـا بال هذي العُجْـم تَحْيـا دوننا
إن الغَوِيّ لَفي عَمًى وخَسَار

وقال بُجير يُعيِّر العرب باختلافها في النَّسب واستلْحاقها للأدْعياء:

زَعمتـم بـأنّ الهِنْـد أولاد خِنْـدفٍ
وبينكـم قُرْبـى وبيـن البرابـرِ
وَدَيلـم مِـن نَسْـل ابـن ضَبَّـة باسـل
وبُرْجـان مـن أولاد عمـرو بن عامر
فقـد صَـار كلُّ النـاس أولادَ واحـد
وصـاروا سـواءً فـي أصـول العنَاصـر
بنـو الأصْفـر الامْـلاك أكـرمُ مِنكـمٍ
وأولـى بقُرْبانـا مُلـوك الأكاسِـر
أتُطْمِـع بـي صِهْـراً دَعيّـاً مُجاهـراً
ولـم تَـر سِـتْراً مـن دَعـيّ مُجاهـر
وَتَشـتم لُؤمـا رَفطَـه وقَبيلـه
وتَمْـدَح جهـلاً طاهِـراً وابـن طاهـر

وقد ذكرتُ هذا الشعر تامّاً في كِتاب النِّساء والأدْعياء والنُّجباء. وقال الحسن بن هانيء على مَذهب الشعوبية:

وجـاورت قومـاً ليـس بَيْنـي وبَيْنهم
أَوَاصـرُ إلا دَعْـوةٌ وظُنـونُ
إذا مـا دَعـا باسـمي العريـفُ أجبتُـه
إلـى دَعْـوة ممّـا علـيَّ تَهُـون
لأزْد عُمَـان بالمُهلّـب نَـزْوةٌ
إذا افتخـر الأقـوامُ ثُـمَّ تَلِيـن

وبَكْرٌ تَرى أن النُبوة أنْزِلت
على مِسْمَع في البَطْن وهو جَنِين
وقالت تَمِيم لا نَرى أن واحداً
كأحْنَفِنا حتى الممات يَكُون
فلا لَمْتُ قَيْساً بعدها في قُتيبة
إذا افتخروا إنّ الفَخار فُنون[1]

و نجد في كتاب العقد الفريد أيضا ذكرا لعمان حين يتحدث ابن عبد ربه عن الوليد بن يزيد و تعسفه على بني هشام و نفيه لسليمان بن هشام إلى عمان. يقول:

كان الوليدُ صاحبَ لهو وصَيْد وشرِاب ولذَّات. فلما وَلي الأمرَ جعل يَكره المواضعَ التي يراه الناسُ فيها، فلم يدخل مدينةَ من مدائن الشام حتى قُتل، ولم يزل يتنقلِ ويتصيّد حتى ثَقُل على الناس وعلى جُنده. واشتد على بني هشام وأضرّ بهم، وضرب سليمانَ بن هشام مائة سوط، وحلق رأسه ولِحيته، وغرّ به إلى عُمان، فلم يزل محبوساً حتى قُتل الوليد.[2]

و في موضع آخر من كتاب العقد الفريد يروي ابن عبد ربه عن ساحرة عمانية وقعت في يد عامل الخليفة عمر بن عبد العزيز. يقول:

قال عبد الصمد بن همام: كتب عامل عُمان إلى عمر بن عبد العزيز: إنا أُتِينا بساحرة فألقيناها في الماء، فطفَتْ على الماء. فكتب إليه: لسنا من الماء في شيء، إن قامت عليها بيّنة وإلا خلِّ عنها.[3]

١. ابن عبد ربه. العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ج٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ٣٥٥-٣٥٦.
٢. المصدر السابق، ج٥، ص ٢٠٦.
٣. المصدر السابق، ج٧، ص ٢٩٤.

أخبار أبي القاسم الزجاجي

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يفسر الزجاجي كلمة «الحج»:

قال أبو القاسم: يقال حج الإنسان حِجْةً بالكسر ولا يجوز غيره، والمعنى أنه قصد به عمل سُنّة، وأما الحَجَّة بالفتح فالمرة الواحدة من العمل نحو الركبة والضربة وليس يراد بالحجة ذلك إنما يراد بها جميع الأعمال في سننها. وأصل الحج: القصد، تقول حَجِجْتُ فلانا حَجّةً أي قصدته. فان أردت المرة الواحدة قلت حججته حجة كما تقول قصدته قصدة واحدة. ويقال هو حج البيت وحج البيت لغتان فصيحتان. والحج أيضا بالكسر الحجاج أنفسهم.

أنشد ابن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي: (من الرجز)

كأنما أصواتها بالوادي

أصوات حج من عُمان غادي[1]

ويرد أيضا حين يروي الزجاجي خبر سامة بن لؤي في عمان:

أخبرنا ابن دريد قال أخبرني عمي عن ابن الكلبي قال أخبرني أبو حاتم عن أبي عبيدة قالا: خرج سامة ابن لؤي بن غالب من مكة حتى نزل بعُمان فأنشأ: (من الخفيف)

بَلِّغَا عَامِراً وَكَعْباً رسُولا

أَنَّ نَفْسِي إِلَيْهِمَا مُشْتَاقَةْ

إِنْ تَكُنْ فِي عُمَانَ دَارِي فَإِنِّي

ماجِدٌ ما خَرَجْتُ مِنْ غَيْرِ فَاقَةْ

ثم خرج يسير حتى نزل على رجل من الأزد فقراه وبات عنده. فلمام أصبح قعد يستنّ،

١. عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي. أخبار أبي القاسم الزجاجي، تحقيق: عبد الحسين المبارك (دمشق: دار الرشيد للنشر ١٩٨٠)، ص ٣٩-٤٠.

فنظرت إليه امرأة الأزدي فأعجبها. فلما رمى قصمة سواكه أخذتها فمصّتها، فنظر إليها زوجها فحلب ناقة ووضع في حلابها سُمّاً وقدمه إلى سامة، فغمزته المرأة فهراق اللبن وخرج يسير. فبينما هو في موضع يقال له جوف الخميلة هوت ناقته إلى عرفجة فانتشلتها وفيها أفعى ففتحتها فرمت بها على ساق سامة، فنهشته فمات. فقالت الأزدية تبكيه حين بلغها أمره: (من الخفيف)

عَيـنُ بكّـي لِسَـامَة بنُ لُؤَيٍّ
عَلَقَـتْ سـاقَ سـامةَ العَلاَّقـهْ
لا أَرَى مِثْلَ سَـامَة بنُ لُؤَيٍّ
حَمَلـتْ حَتْفَـه إليـه النّاقَـهْ
رُبَّ كَأسٍ هَرَقْتَها ابْنَ لُؤَيٍّ
حَـذَرَ الْمَوْتِ لَـمْ تَكُنْ مِهْرَاقَهْ
وَحـدوسِ السَّـرَى تَرَكَـتْ رَديًّا
بَعْـدِ هجْـرٍ وجُـرْأةٍ وَرَشَـاقَهْ
وتعاطيـتَ مَفْرَقـاً بحُسَـامٍ
وتَجَنَّبْـتَ قالـةَ العَوّاقَـه[1]

ويرد أيضا حين يروي الزجاجي خبر عبد الله بن ظبيان:

أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا أبو حاتم قال أخبرنا أبو عبيدة عن يونس ابن حبيب قال: قتل مصعب بن الزبير نابئ بن ظبيان أحد بني عايش ابن مالك بن قيس بن ثعلبة، وكان أخوه عبيد الله فاتكا شريرا؛ فنذر ليقتلن به مائة من قريش، فقتل ثمانين ثم قتل مصعبا فأتى برأسه عبد الملك، فلما نظر إليه عبد الملك سجد فهم أن يفتك به ثم ارتد عنه وأنشأ: (من الطويل)

هممـتُ ولـم أفعـل وكـدتُ وليتنـي
تركتُ على مـروانَ تبكـي حلائلُهْ

١. المصدر نفسه، ص ٥٩-٦٠.

وقال أيضا: (من الطويل)

يرى مصعب إني تناسيتُ ما بيا
وليس لعمر الله ما ظن مصعبُ
فو الله لا أنساه ما مرّ طارق
وما لاح في داجٍ من الليل كوكبُ
وثَبْتُ عليه ظالما فقتلتُه
فقطرك مني يوم شرٍّ عَصَبْصَبُ
قتلتُ به من حَيّ فِهْرِ بن مالك
ثمانين منهم ناشبون وأشهبُ
وكفي لهم رهن بعشرين أو يُرى
عليَّ مع الأصباح نوحٌ مسلّبُ
أ أرفع رأسي وسط بكر بن وائل
ولم أرِو سيفي من دمٍ يتصبّبُ؟

ثم ضاقت به البصرة فهرب إلى عُمان فاستجار بسليمان بن سعيد بن الصمر بن سعيد بن الجُلندي فلما أخبر بفتكه خشيه وتذمم أن يقتله علانية؛ فبعث إليه بنصف بطيخة قد سمّها وكان يعجبه البطيخ فقال له: هذا أول شيء رأيناه من البطيخ، وقد أكلتُ نصفها، وأهديتُ إليك بنصفها. فلما أكله أحس بالموت، ثم دخل عليه سليمان يعوده فقال: أيها الأمير ادنُ مني أسرّ إليك قولا، فقال له: قل ما بدا لك. قال: عليك لعُمانَ أذنٌ واعية، ويروى راعية، فمات بها.[1]

١. المصدر نفسه، ص: ٩٢-٩٣.

الأمالي للزجاجي

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين نقل الزجاجي عن ابن دريد خبر قدوم سامة بن لؤي إلى عمان. يقول:

أخبرنا أبو بكرٍ محمد بن الحسن بن دريدٍ قال أخبرني عمّي عن ابن الكلبي. قال وأخبرني به أبو حاتمٍ عن أبي عبيده قالا: خرج سامة بن لؤيٍ ابن غالبٍ من مكة حتى نزل بعُمان وأنشأ يقول:

بَلِّغا عامرا وكَعْبا رسولا
أنّ نفسي إليهما مُشْتاقهْ
إنْ تكنْ في عُمَانَ داري فإني
ماجِدٌ ما خرجتُ من غير فاقَهْ

فما برح يسير حتَّى نزل على رجلٍ من الأزد، فقَرَاه وبات عنده، فلمَّا أصبح قعد يستنّ، فنظرت إليه زوجة الأزديِّ فأعجبها، فلما رمى قِصْمة سِوَاكه أخذتها فمصّتها، فنظر إليها زوجها فحلب ناقةً وجعل في حِلابها سُمّاً وقدّمه إلى سامَة، فغمزته المرأة فهراق اللبنَ وخرج يسير، فبينما هو في موضعٍ يقال له جَوْف الخميلة هوَتْ ناقتُه إلى عرفجةٍ فانتشلتْها وفيها أفعى، فنفحتها فرمت بها على ساق سامة فنهشتها فمات، فقالت الأزدية حين بلغها أمره تُبكّيه:

عَيْنُ بَكّيْ لِسَامَةَ بْنِ لُؤَيّ
عَلِقَتْ سَاقَ سَامَةَ الْعَلّاقَهْ
لَا أَرَى مِثْلَ سَامَةَ بْنِ لُؤَيّ
حمَلتْ حَتْفَه إليه النّاقَهْ

رُبّ كَأْسٍ هَرَقْتَ يَا بْنَ لُؤَيّ
حَذَرَ الْمَوْتِ لَمْ تَكُنْ مُهْرَاقَهْ
وَخَرُوسَ السّرَى تَرَكْتَ رَدِيّا
بَعْدَ جِدٍّ وَجُرْأَةٍ وَرَشَاقَهْ
وتعاطيتَ مَفْرِقا بحُسامٍ
وتجنّبتَ قالةَ العَوّاقَهْ[1]

١. أبو القاسم الزجاجي. أمالي الزجاجي، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧) ص ٤٨-٥٠.

الأغاني لأبي الفرَج الأصفهاني

مما ورد في الأغاني عن عمان، ما ذكره أبو الفرج في ترجمة الشاعر بشار بن برد. يقول:

كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة يقال لها عبيدة، فخرجت عن البصرة إلى عُمان مع زوجها، فقال بشار فيها:

هوى صاحبي ريحُ الشمالِ إذا جرَتْ
وأشفى لقلبي أن تَهُبَّ جَنوبُ
وماذاكَ إلا أنها حين تنتهي
تَناهى وفيها من عُبيْدةَ طِيبُ
عذيري من العُذّالِ إذ يعذلونني
سَفاهاً وما في العاذلين لبيبُ
يقولون لو عزّيتَ قلبَكَ لارعوى
فقلتُ وهل للعاشقين قلوبُ
إذا نطق القومُ الجلوسُ فإنني
مُكِبٌّ كأني في الجميع غريبُ.[1]

وفي كتاب الأغاني أيضا نجد قصة طريفة يوردها أبو الفرج في معرض ترجمته للشاعر إسماعيل بن محمد بن يزيد الحميري، المعروف «بالسيد الحميري». يقول الأصفهاني:

١. أبو الفرج الأصفهاني. كتاب الأغاني. تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، ج٣ (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٨)، ص ١٢٢-١٢٣.

ومما يحكى عنه أنه اجتمع في طريقه بامرأة تميمية إباضية، فأعجبها وقالت: أريد أن أتزوج بك ونحن على ظهر الطريق. قال: يكون كنكاح أم خارجة قبل حضور وَلِيٍّ وشهودٍ. فاستضحكت وقالت: ننظر في هذا، وعلى ذلك فمن أنت ؟ فقال:

إن تسألينـي بقومي تسألي رجلاً
في ذِرْوة العِزِّ من أحياء ذي يَمَنِ
حولي بها ذو كَلاعٍ في منازلها
وذو رُعَيْنٍ وهمدانٌ وذو يَزَنِ
والأزدُ أزدُ عُمانَ الأكرمونَ إذا
عُدتْ مآثرُهم في سالفِ الزمَنِ
بانت كريمتُهم عني فدارهمُ
داري وفي الرَّحْبِ من أوطانهم وطني
لي منزلان بلَحْجٍ منزلٌ وسطٌ
منها ولي منزلٌ للعز في عَدَنِ
ثم الولاء الذي أرجو النجاة به
من كَبّةِ النار للهادي أبي حَسَنِ

فقالت: قد عرفناك، ولا شيء أعجب من هذا: يمانٍ وتميميةٌ، ورافضيٌّ وإباضية، فكيف يجتمعان!. فقال: بحسن رأيك في تسخو نفسك، ولا يذكر أحدنا سلفاً ولا مذهباً. قالت: أفليس التزويج إذا عُلِم انكشف معه المستور، وظهرتْ خفياتُ الأمور! قال: فأنا أعْرِضُ عليك أخرى. قالت: ما هي؟ قال: المُتْعة التي لا يعلم بها أحد. قالت: تلك أختُ الزِّنا. قال: أعيذكِ بالله أن تكفري بالقرآن بعد الإيمان! قالت: فكيف؟ قال: قال الله تعالى: " فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ".

فقالت: أستخِير اللّٰهَ وأقلِّدكَ أن كنتَ صاحبَ قياس. ففعلت . فانصرفت معه وبات مُعْرِساً بها. وبلغ أهلَها من الخوارجِ أمرُها، فتوعدوها بالقتل وقالوا: تزوجتِ بكافر! فجحدتْ ذلك ولم يعلموا بالمُتعة. فكانت هذه تختلف إليه على هذه السبيل من المتعة وتواصله حتى افترقا.(١)

ومما أورده الأصفهاني عن عُمان أيضا، ترجمته للشاعر كعب بن معدان الأشقري. يقول:

هو كعبُ بن مَعْدان الأشقري، والأشاقر: قبيلة من الأزد، وأمُّه من عبد القيس، شاعر فارس خطيب معدود في الشجعان، من أصحاب المُهلّب والمذكورين في حروبه للأزارقة، وأوفده المهلب إلى الحجاج، وأوفده الحجاج إلى عبد الملك.

أخبرني محمد بن خلف وكيع قال: حدثنا أحمد بن أبي خيثمة قال: حدثنا أبي قال حدثنا وهب بن جرير قال: حدثنا أبي عن قتادة قال: سمعت الفرزدق يقول: شعراء الإسلام أربعة: أنا وجرير، والأخطل، وكعب الأشقري.

أخبرني وكيع قال: حدثني أحمد بن أبي خيثمة قال: حدثنا أبي قال: حدثنا وهب بن جرير قال: حدثنا أبي عن المتلمس قال: قلت للفرزدق: يا أبا فراس، أشعرت أنه نبغ من عُمان شاعر من الأزد يقال له كعب؟ فقال الفرزدق: "إيْ والذي خَلَق الشِّعْر".

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال: حدثنا محمد بن يزيد، وأخبرني عمي، قال: حدثنا الكُرّاني قال: حدثنا العُمَريُّ عن العُتْبي واللفظ له وخبره أتمّ قال: أوفد المُهلَّب بن أبي صفرة كعباً الأشقري ومعه مُرّةُ بن التليد الأزدي إلى الحَجّاج بخبرِ وَقْعةٍ كانت له مع الأزارقة، فلما قدِما عليه ودخلا دارَه بَدَرَ كعبُ بنُ مَعْدانَ فأنشد الحجّاجَ قولَه:

يـا حَفْصَ إنّي عَدَاني عنكـمُ السَّـفَرُ
وقـد سـهِرتُ فـآذى عينـيَ السّـهَرُ
عُلِّقْـتَ يـا كَعْبُ بعْـدَ الشـيبِ غانيةً
والشـيْبُ فيـه عـن الأهـواءِ مُزْدَجَـرُ

١. المصدر السابق. ج٧. ص ٢٠١.

أمُمْسِكٌ أنتَ منها بالذي عهِدتْ
أمْ حَبْلُها إذ نأتْكَ اليومَ مُنْبَتِرُ
ذكرتُ خَوْداً بأعلى الطّفِّ منزلُها
في غُرفةٍ دونها الأبوابُ والحَجَرُ
وقد تركتُ بشَطِّ الزّابِيَيْنِ لها
دارًا بها يسْعَدُ البادون والحَضَرُ
واخترتُ دارًا بها قومٌ أسَرُّ بهم
ما زال فيهم لمن تختارهم خِيَرُ
أبا سعيدٍ فإنّي سرتُ منتجِعاً
وطالبُ الخَيْرِ مُرْتادٌ ومُنتظِرُ
لولا المُهلَّبُ ما زُرْنا بلادَهمُ
ما دامت الأرضُ فيها الماءُ والشَّجَرُ
وما مِن الناسِ من حَيٍّ علمتُهمُ
إلا يُرى فيهمُ من سَيْبكمْ أثَرُ

وهي قصيدة طويلة قد ذكرها الرواةُ في الخبر، فتركتُ ذكرَها لطولها، يقول فيها:

فما يُجاوِزُ بابَ الجِسْرِ من أحدٍ
قد عَضّت الحَرْبُ أهلَ المِصْرِ فانجحروا
كنّا نُهوِّنُ قبلَ اليومِ شأنَهمُ
حتى تفاقم أمْرٌ كان يُحتَقَرُ
لما وَهَنّا وقد حلّوا بساحتِنا
واستنفَر الناسُ تاراتٍ فما نفروا

نـادى امـرؤٌ لا خِـلافٌ في عشـيرتِه
عنـه وليـس بـه عـن مثلِهـا قِصَـرُ

حتى انتهى إلى قوله بعد وصفه وقائعَهم مع المهلب في بلدٍ بلد، فقال:

خَبُّـوا كمينَهـمُ بالسّـفْحِ إذ نزلـوا
بـكازَرُونَ فمـا عـزّوا ومـا نُصِـروا
باتـت كتائبُنـا تَـرْدي مُسَـوَّمةً
حـول المُهلّـبِ حتـى نَـوّرَ القَمَـرُ
هنـاكَ وَلّـوا خزايـا بعدمـا هُزِمـوا
وحـال دونهـمُ الأنهـارُ والجُـدُرُ
تأبـى علينـا حـزازاتُ النفـوسِ فمـا
نُبقـي عليهـم ولا يُبقـون إن قَـدَروا

فضحك الحجاج وقال له: إنك لمنصف يا كعب،ثم قال الحجاج: أخطيب أنت أم شاعر؟ فقال: شاعر وخطيب. فقال له: كيف كانت حالكم مع عدوكم؟ قال: كنا إذا لقيناهم بعفونا وعفوهم، فعفوهم تأنيس منهم، فإذا لقيناهم بجهدنا وجهدهم طمعنا فيهم، قال:فكيف كان بنو المهلب؟ قال: حُمَاة للحريم نهاراً، وفرسانٌ بالليل أيقاظاً، قال: فأين السماع من العِيان؟ قال: السماع دون العِيان، قال: صفهم رجلاً رجلاً،قال: المغيرة فارسهم وسيدهم، نارٌ ذاكية،وصَعْدة عالية، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، ليث غاب،وبحرٌ جَمُّ العُباب، وجوادهم قَبيصة،ليث المَغار،وحامي الذِّمَار، ولا يستحي الشجاع أن يفرَّ من مُدرك، فكيف لا يفرُّ من الموت الحاضر،والأسدِ الخادر، وعبد الملك سُمٌّ ناقع، وسيف قاطع، وحبيب الموتُ الذُّعَاف، إنما هو طوْدٌ شامخ، وفخرٌ باذخ، وأبو عيينة البطلُ الهُمام، والسيف الحُسام،وكفاك بالمفضّلِ نجدة،ليثٌ هدّار، وبحر موّار، ومحمد ليث غاب، وحسامُ ضِراب، قال: فأيهم أفضل؟ قال:هم كالحلقة المُفرّغة لا يُعرف طرفاها، قال :فكيف جماعة الناس؟ قال:على أحسن حال، أدركوا

ما رجوا، وأمِنوا مما خافوا، وأرضاهم العدل، وأغناهم النَّفْل، قال :فكيف رضاهم عن المهلّب؟ قال: أحسن رضا، وكيف لا يكونون كذلك وهم لا يعدمون منه رضا الوالد، ولا يعدم منهم بِرَّ الولد؟ قال: فكيف فاتكم قَطَري؟ قال: كِدْناه فتحوّل عن منزله وظن أنه قد كادنا، قال: فهلا تبعتموه! قال: حال الليل بيننا وبينه،فكان التحرّز-إلى أن يقع العِيان، ويعلم امرؤٌ ما يصنع- أحزمَ،وكان الحدُّ عندنا آثرَ من الفَلِّ،فقال له المهلب :كان أعلم بك حيث بعثك وأمر له بعشرة آلاف درهم،وحمله على فرَس، وأوفده على عبد الملك بن مروان فأمر له بعشرة آلاف أخرى.

أخبرني أحمد بن عُبيد الله بن عمّار قال: حدثني أبو عمرو بُنْدار الكرجيّ قال: حدثنا أبو غسان التميمي عن أبي عبيدة قال: كان عبد الملك بن مروان يقول للشعراء: تُشبّهوني مرّةً بالأسد، ومرّة بالبازيّ، ومرّةً بالصّقْر، ألا قلتم كما قال كعب الأشقري في المهلب وولده:

بَـرَاكَ الله حيـن بـراكَ بَحْـرًا
وفجّـرَ منـكَ أنهـارًا غِـزَارًا
بنـوكَ السـابقون إلـى المعالـي
إذا مـا أعظـمَ النـاسُ الخِطَـارا
كأنّهـمُ نجـومٌ حـول بَـدْرٍ
دِرَاريٌّ تكمّـلَ فاسـتدارا
ملـوكٌ ينزلـون بـكلِّ ثَغْـرٍ
إذا مـا الهـامُ يـومَ الـرّوْعِ طـارا
رِزَانٌ فـي الأمـورِ تـرى عليهـم
مـن الشـيخِ الشـمائلَ والنِّجَـارا
نجـومٌ يُهتـدى بهـمُ إذا مـا
أخـو الظلمـاءِ فـي الغَمَـراتِ حـارا

وهذه الأبيات من القصيدة التي أولها:

طرِبْتُ وهاجَ لي ذاك ادّكارا

التي فيها الغناء.

أخبرني محمد بن الحسين الكندي قال: حدثنا غسان بن ذَكْوَانَ الأهوازي قال :ذكر العُتْبيّ أن زياداً الأعجم هاجى كعباً الأشقري،واتصل الهجاء بينهما،ثم غلبه زياد،وكان سبب ذلك أن شراً وقع بين الأزد وبين عبد القيس،وحرباً سكّنها المهلبُ وأصلح بينهم،وتحمّل ما أحدثه كلُّ فريق على الآخر،وأدى دياتِه،فقال كعبٌ يهجو عبدَ القيس:

إني وإنْ كنتُ فرعَ الأزدِ قد علِموا
أخزى إذا قيل عبدُ القيس أخْوالي
فَهْمٌ أبو مالِكٍ بالمجدِ شرّفني
ودَنّس العبدُ عبدُ القيسِ سِرْبالي

قال: فبلغ قولُه زيادا الأعجم فغضِب وقال: يا عجباً للعبدِ بن العبدِ بن الحيتانِ والسرطان، يقول هذا في عبد القيس، وهو يعلم موضعي فيهم! والله لأدعنّه وقومَه غرضاً لكل لسان، ثم قال يهجوه:

نُبِّئتُ أشْقَرَ تهجونا فقلتُ لهمْ
ما كنتُ أحْسَبُهم كانوا ولا خُلِقوا
لا يَكثرون وإنْ طالتْ حياتُهمُ
ولو يبولُ عليهمْ ثعلبٌ غَرِقوا
قومٌ من الحَسَبِ الأدنى بمنزلةٍ
كالفَقْعِ بالقاعِ لا أصْلٌ ولا وَرَقُ
إنّ الأشاقِرَ قد أضحوا بمنزلةٍ
لو يُرهنون بنَعْليْ عبدِنا غَلِقوا

قال: وقال فيه أيضا:

هـل تسـمعُ الأزدُ مـا يُقـالُ لهـا
فـي سـاحةِ الـدَّارِ أمْ بهـا صَمَـمُ؟
اخْتَتَـنَ القـومُ بعـد مـا هرِمـوا
واسـتعربوا ضَلّـةً وهـمْ عَجَـمُ

قال: فشكاه كعب إلى المهلب وأنشده هذين البيتين، وقال: والله ما عنى بهما غيرَك، ولقد عمّ بالهجاء قومَك، فقال المهلب: أنتَ أسمعتَنا هذا وأطلقتَ لسانَه فينا به، وقد كنتَ غنيا عن هجاء عبد القيس وفيهم مثل زياد، فاكففْ عن ذِكْره، فإنك أنتَ بدأتَه، ثم دعا بزيادٍ فعاتبه، فقال: أيها الأمير، اسمع ما قال في وفي قومي فإن كنتُ ظلمته فانتصر، وإلا فالحُجّة عليه، ولا حُجّةَ على امرىء انتصر لنفسه وحسبه وعشيرته، وأنشده قولَ كعب فيهم:

لعـلَّ عُبيْـد القيـسِ تحسَـبُ أنَّهـا
كتَغْلِـبَ فـي يـومِ الحَفيظـةِ أو بَكْـرِ
يُضَعْضِعُ عبدَ القيسِ في النَّـاس منصبٌ
دَنِيءٌ وأحسـابٌ جُبِرْنَ على كَسْرِ
إذا شـاع أمـرُ النَّـاس وانشـقَّت العصـا
فـإنَّ لُكَيْـزاً لا تَريـشُ ولا تَبْـري

فقال المهلب: قد قلتَ له أيضاً، قال: لا والله ما انتصرتُ، ولولاك ما قصرتُ، وأي انتصار في قولي له:

يأيهـا الجاهـلُ الجـاري ليُدرَكَنـي
أقْصِـرْ فإنـكَ إن أدركـتَ مَصْـروعُ
يا كَعْبُ لاتَكُ كالعَنْزِ التي بَحَثَتْ
عـن حَتْفِهـا وجنَابُ الأرضِ مَرْبـوعُ

وقولي :

لئن نَصَبْتَ لي الرَّوْقَيْنِ مُعترضاً
لأرْمينّكَ رمياً غيرَ تَرْفيعِ
إنّ المآثِرَ والأحسابَ أورثني
منها المجَاجيعُ ذِكْراً غيرَ موضوعِ

يعني مَجاعة بنَ مرّة الحنفي، ومجاعةَ بن عمرو بن عبد القيس، فأقسم عليهما المهلبُ أن يصطلحا، فاصطلحا وتكافّا، ومما هجا كعب الأشقري عبدَ القيس به قولُه:

ثَوى عامينِ في الجِيَفِ اللواتي
مُطرَّحَة على بابِ الفصيلِ
أحَبُّ إليَّ من ظِلٍّ وكِنٍّ
لعبدِ القيسِ في أصلِ الفسيلِ
إذا ثار الفُسَاءُ بهم تَغنّوا
ألم تربعْ على الدِّمِنِ المُثولِ
تظلُّ لها ضَبَابَات علينا
موانعُ من مَبِيتٍ أو مَقِيلِ

قال أبو الفرج: ونسختُ من كتاب للنضر بن حديد: كانت ربيعةُ واليمنُ متحالفة، فكان المهلب وابنُه يزيد ينزلان هاتين القبيلتين في محلتهما، فقال كعب الأشقري ليزيد:

لا تَرْجوَنَّ هِنائيًّا لصالحةٍ
واجعلهمُ وهَدَاداً أسوةَ الحُمُرِ
حيّانِ مالهما في الأزد مَأثُرَةٌ
غيْرُ النَّوَاكةِ والإفراطِ في الهَذَرِ

واجْعَـلْ لُكَيْـزًا وراءَ النّـاسِ كلِّهِـمِ
أهـلَ الفُسَـاء وأهـلَ النَّتْـنِ والقَـذَرِ
قـومٌ علينـا ضَبَـابٌ مـن فُسَـائِهِمُ
حتّـى تَرانـا لـه مِيـداً مـن السُّـكُرِ
أبْلِـغْ يَزيـدَ بأنّـا ليـس ينفعُنـا
عَيْـشٌ رغيـدٌ ولا شـيءٌ مـن العِطَرِ
حتـى تُحِـلَّ لُكيْـزًا فـوق مَدْرَجَـةٍ
مـن الريـاحِ على الأحيـاءِ من مُضَرِ
ليأخـذوا لِنِـزَارٍ حـظَّ سُـبَّتِها
كمـا أخذنـا بحَـظِّ الحِلْـفِ والصِّهـرِ

أخبرني محمد بن خلف وكيع قال: حدثنا أحمد بن زهير بن حرب قال: حدثنا أبي قال: كتب الحجاج بن يوسف إلى المهلب يأمره بمناجزة الأزارقة ويستبطئه ويضعِّفه، ويعجِّزه في تأخيره أمرَهم ومطاولتَهم، فقال المهلب لرسوله: قل له: إنما البلاء أنّ الأمرَ إلى من يَملِكُه لا إلى من يعرفه، فإنْ كنتَ نصبتَني لحرب هؤلاء القوم على أن أدبِّرَها كما أرى، فإن أمكنتْني الفرصة انتهزتُها، وإن لم تُمكّني توقفت، فأنا أدبِّرُ ذلك بما يُصلحه، وإن أردتَ مني أن أعملَ وأنا حاضر برأيك وأنت غائب، فإن كان صواباً فلك، وإن كان خطأ فعلي، فابعث من رأيتَ مكاني، وكتب من فوره بذلك إلى عبد الملك، فكتب إليه عبد الملك: لا تعارض المهلب فيما يراه ولا تُعْجله، ودعْه يُدبّر أمرَه، وقام الأشقري إلى المهلب فأنشده بحضرة رسول الحجاج:

إنّ ابنَ يُوسُـفَ غَـرّه من غزوِكمْ
خَفْـضُ المُقَـامِ بجانِـبِ الأمصـارِ
لـو شـاهد الصَّفّيْـنِ حيـن تلاقيـا
ضاقـتْ عليـه رحيبـةُ الأقطـارِ

مِـنْ أرضِ سـابُورِ الجنـودِ، وخيلُنـا
مثـلُ القِـدَاح بريتَهـا بشِـفَارِ
مِـن كُلِّ خِنْذيـذٍ يُـرى بلَبَانِـه
وَقْـعُ الظُّبَـاةِ مـع القنـا الخَطّـارِ
ورأى مُعـاوَدَةَ الرِّبَـاعِ غنِيمـةً
أزمـانَ كان مُحالِـفَ الإقْتـارِ
فـدَعِ الحـروبَ لشِـيبِها وشـبابِها
وعليـكَ كلَّ خَريـدةٍ مِعْطـارِ

فبلغت أبياتُه الحجاج، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقري إليه، فأعلم المهلبُ كعباً بذلك، وأوفده إلى عبدِ الملك من تحت ليلته، وكتب إليه يستوهبه منه، فقدِم كعبُ على عبد الملك، واسنشده فأعجبه ما سمع منه، فأوفده إلى الحجّاج، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفوَ عنه ويُعرِضَ عما بلغه من شعره، فلما وصل إليه ودخل عليه قال: إيه يا كعب.

(ورأى مُعاوَدةَ الرِّبَاعِ غنيمة) فقال له: أيها الأمير، والله لقد وددتُ في بعض ما شاهدتُه في تلك الحروب وأزماتِها، وما يُورِدُناه المهلبُ من خطرِها، أن أنجوَ منها وأكونَ حَجّاماً أو حائكاً، فقال له الحجاج: أولى لك، لولا قسمُ أمير المؤمنين لما نفعك ما أسمع، فالحق بصاحبك، وردّه من وقته.

قال أبو الفرج: ونسخت من كتاب النضر بن حديد: لما عُزِل يزيدُ بن المهلب عن خراسان ووَلِيَها قتيبة بن مسلم، مدحه كعب الأشقري، ونال من يزيدَ وثَلَبَه، ثم بلغته ولاية يزيدَ على خُرَاسان، فهرب إلى عُمَان على طريق الطَّبَسَيْن وقال:

وإنّـي تـارِكٌ مَـرْواً ورائـي
إلـى الطَّبَسَـيْنِ مُعْتَـامٌ عُمَانـا

لآوي مَعْقِلاً فيها وحِرْزاً
فكنّا أهلَ ثروتِها زَمَانا

فأقام بعُمَان مُدّة ثم اجتواها، وساءت حالُه بها، فكتب إلى المهلب معتذراً:

بِئْسَ التّبَدُّلُ مِنْ مَرْوٍ وساكِنِها
أرْضُ عُمَانَ وسُكْنى تحتَ أطوادِ
يُضحي السّحَابُ مطيراً دون مُنْصِفِها
كأنّ أجْبالَها عُلّتْ بِفِرْصَادِ
يا لَهْفَ نفسي على أمرٍ خَطِلْتُ به
وما شَفيْتُ به غِمْري وأحقادي
أفنيتُ خمسينَ عاماً في مديحِكمُ
ثم اغتررتُ بقولِ الظالمِ العادي
أبْلِغ يزيدَ قَرينَ الجُودِ مَأْلُكةً
بأنّ كعباً أسيرٌ بين أصفادِ
فإنْ عفوتَ فبيتُ الجودِ بيتُكمُ
والدّهْرُ طَوْرانِ مِنْ غَيٍّ وإرشادِ
وإنْ مَنَنْتَ بصفحٍ أو سمحتَ به
نزعتُ نحولَكَ أطْنَابي وأوتادي

وذكر المدائنيُ أن يزيدَ بنَ المهلب حبسه ودسّ إليه ابنَ أخٍ له فقتله.

قال أبو الفرج: ونسختُ من كتاب النضر أيضاً أن الحجاج كتب إلى يزيدَ بن المهلب يأمره بقتل بني الأهتم، فكتب إليه يزيد: إنّ بني الأهتم أصحابُ مَقالٍ وليسوا بأصحاب فَعَال، فلا تُقَدِّرْ أن نُحْدِثَ فيهم ضرراً، وفي قتلهم عارٌ وسُبّة؛ واستوهبَهم منه، فتغافل عنهم، ثم انضموا

إلى المفضل بن المهلب، فكتب إليه الحجاج يأمره بقتلهم، فكتب إليه بمثل ما كتب به أخوه، فأعفاهم، ثم وَلِي قتيبةُ بن مسلم، فخرجوا إليه والتقوا معه، وذكروا بني المهلب فعابوهم، فقبلهم قتيبة واحتوى عليهم، فكانوا يُغْرون الجُنْدَ عليه ويحملونهم على سوء الطاعة، فكتب يشكوهم إلى الحجاج، فكتب إليه يأمره بقتلهم، فقتلهم جميعاً، فقال كعب الأشقري في ذلك:

قُـلْ للأهاتِـمِ مَـنْ يعـود بفضلِـه
بعـد المُفَضَّـلِ والأغـرِّ يَزيـدِ
رَدّا صحائـفَ حَتْفِكـم بمَعـاذرٍ
رجعـتْ أشـائمَ طيركـم بسُـعودِ
رَدّا علـى الحَجّـاج فيكـم أمـرَه
فجَزيتـمُ إحسـانَه بجحـودِ
فاليـومَ فاعتبـروا فَعـالَ أخيكـمُ
إنّ القيـاسَ لجاهـلٍ ورشـيدِ

قال أبو الفرج: ونسخت من كتابه أيضاً قال: وَلّى يزيدُ بنُ المهلب رجلاً من اليَحْمَدِ يقال له عمرو بن عُميْر الزَّمَّ، فلقيه كعب الأشقري فقال له: أنت شيخ من الأزد يُولّيك الزَّمَّ. ويُولّي ربيعةَ الأعمالَ السنِيّة، وأنشده:

لقـد فـازتْ ربيعـةُ بالمَعالـي
وفـاز اليحمـديُّ بعَهْـدِ زَمِّ
فـإن تـلـكُ راضيـاً منهـم بهذا
فـزادَكَ ربُّنـا غَمًّـا بغَـمِّ
إذا الأزديُّ وَضّـح عارضـاه
وكانـت أمُّه من حَيِّ جَـرْمِ
فثَـمَّ حَمَاقـةٌ لا شـكَّ فيهـا
مُقابلَـةٌ فمِـنْ خـالٍ وعَـمِّ

فرد اليحمدي عهدَ يزيد عليه، فحلف لا يستعمله سنة، فلما أجحفتْ به المئونة قال لكعب:

لوكنـتَ خلّيتنـي يـا كعـبُ مُتّكِئـاً
فـي دُورِ زَمٍّ لمـا أقفرتُ من عَلَفِ
ومِـنْ نبيـذٍ ومِـنْ لَحْـمٍ أعَـلُّ بـه
لكـنّ شِـعْرَكَ أمرٌ كان من حِرَفي
إنّ الشـقيَّ بمَـرْوٍ مَـنْ أقـام بهـا
يُقارِعُ الشـوقَ من بَيْعٍ ومن حَلَفِ

أخبرني أبو الحسن الأسدي قال: حدثني الرياشي عن الأصمعي قال: قال كعب الأشقري يهجو زياداً الأعجم:

وأقْلـفَ صلّـى بعـدَ مـا نـاكَ أمَّـه
يَرى ذاك في دِين المجوسِ حلالاً

فقال له زياد: يا بنَ النمّامة أهي أخبرتْك أني أقلف؟ فغلبَه زياد.

والقصيدة التي أولها:

طرِبْتُ وهاج لي ذاك ادّكارا

وفيه الغناء المذكور بذكره خبر كعب الأشقري، يمدح بها المهلب بن أبي صفرة ويذكر قتاله الأزارقة، وفيها يقول بعد الأبيات الأربعة التي فيها الغناء:

غَرِضْنَ بمجلسي وكرِهْنَ وَصْلي
أوانَ كُسِيتُ من شَـمَطٍ عِذَارا
زَرَيْنَ عليَّ حين بَـدَا مَشـيبي
وصـارتْ سـاحتي للهـمِّ دارا

أتانـي والحديـثُ لـه نَمـاءُ
مقالـةُ جائـرٍ أحْفـى وجـارا
سـلوا أهلَ الأباطحِ من قُريشٍ
عـن العِـزِّ المُؤبَّـدِ أين صـارا
ومَنْ يحمي الثغورَ إذا اسـتحرّتْ
حـروبٌ لا يَنـون لهـا غِـرارا
لَقَوْمـي الأزْدُ في الغَمـراتِ أمضى
وأوفـى ذِمّـةً وأعـزُّ جـارا
هـمُ قـادوا الجيـادَ علـى وَجاهـا
مـن الأمصـارِ يَقْذِفْنَ المِهـارا
بـكلِّ مَفـازةٍ وبـكلِّ سَـهْبٍ
بسـابسَ لا يَـرون لهـا منـارا
إلى كِرْمَـانَ يَحْملْنَ المنايا
بـكلِّ ثَنيّـةٍ يُوقِـدْنَ نـارا
شـوازبَ لم يُصِبْنَ الثـارَ حتى
رددناهـا مُكلَّمـةً مِـرارا
ويشـجرْنَ العوالي السُّمْرَ حتى
ترى فيها عـن الأسَـلِ ازْوِرَارا
غـداةَ تَركْـنَ مصـرعَ عَبْدَ رَبٍّ
يُثِـرْنَ عليه من رَهَـجٍ عِصَـارا

ويـومَ الزّحْـفِ بالأهـواز ظِلْنـا
نُـروّي منهـمُ الأسَـلَ الحِـرَارا
فقـرّتْ أعيـنٌ كانـت حديثا
ولـم يـلـكُ نومُهـا إلا غِـرَارا
صنائعنـا السـوابغُ والمَذاكـي
ومَنْ بالمِصْـرِ يحتلب العِشَـارا
فهُنّ يُبِحْنَ كلَّ حِمىً عزيزٍ
ويحميـن الحقائـقَ والذِّمَـارا
طِـوَالاتُ المُتونِ يُصَنَّ إلا
إذا سـار المُهلّـبُ حيث سـارا
فلـولا الشـيخُ بالمِصْرَيْنِ ينفي
عَدوَّهـمُ لقـد تركـوا الديـارا
ولكـنْ قـارَع الأبطـالَ حتّـى
أصابـوا الأمْـنَ واجتنبـوا الفِـرَارا
إذا وَهَنـوا وحـلَّ بهـم عظيـمٌ
يدقُّ العظـمَ كان لهـم جُبَـارا
ومُبْهَمَـةٍ يحيـد النـاسُ عنهـا
تشـبُّ الموتَ شـدّ لهـا الإزارا
شِـهابٌ تنجلـي الظلمـاءُ عنه
يـرى فـي كلِّ مُبهمـةٍ مَنـارا

بـل الرحمـنُ جـارُكَ إذ وهنّـا

بدَفْعِكَ عن محارِمنا اختيـارا

بـراكِ الله حين بـراكِ بَحْـرًا

وفجّـرَ منـكِ أنهـارا غِـزارا

وقد مضت هذه الأبيات متقدمة فيما سلف من أخبار كعب وشعره.

أخبرني عمي قال: حدثنا محمد بن سعد الكُرّاني قال: حدثني العُمَريّ عن العُتْبي قال: قال عبد الملك بن مروان: يا معشرَ الشعراء، تُشبّهوننا بالأسد الأبخر، والجَبل الوَعْر، والملح الأُجَاج؟ ألا قلتم كما قال كعب الأشقري في المهلب وولده:

بـراكِ الله حين بـراكِ بَحْـرًا

وفجّـرَ منـكِ أنهـارا غِـزارا

شِـهابٌ تنجلـي الظلمـاءُ عنه

يـرى فـي كلِّ مُبهمـةٍ مَنـارا

قال النّضْر: وكان لكعب الأشقري ابنُ أخٍ شاعر فمدح رجلا من بني عِجْل كان مع يزيد بن المهلب يقال له عمرو. فأمر له بشعير فقال ابن أخي كعب يهجوه:

لقـد خـاب أقـوامٌ سَـرَوا ظُلَـمَ الدُّجَـى

يؤمّـون عَمْـرًا ذا الشـعيرِ وذا البُـرِّ

يؤمّـون مَنْ نـال الغنى بعـد شـيبه

وقاسـى وليـدا مـا يُقاسـي ذوو الفَقْـرِ

فقـل للجُيْـمِ يـا لَبَكْـرِ بـنِ وائـلٍ

مَقالـةَ مَنْ يَلْحى أخاه ومَنْ يُزْري

فلـو كنتـمُ حيًّـا صميمًـا نَفيتـمُ
بخيلَكـمُ بالرّغْـمِ منـه وبالصُّغْـرِ
ولكنّكـم يـا آلَ بَكْـرِ بـنِ وائـلٍ
يسـودُكمُ مَنْ كان فـي المـالِ ذا وَفْرِ
هـو المانـعُ الكلـبَ النُّبـاحَ وضيفُـه
خميصُ الحشـا يرعى النجومَ التي تَسْري

قال: وكان بين كعب وبين ابن أخيه هذا تباعد وعداوة، وكانت أمه سوداء فقال يهجوه:

إنّ السّـوَادَ الـذي سُـرْبِلْتَ تعرفُـه
ميـراثُ جَـدِّكَ عـن آبائـه النُّوبِ
أشـبهتَ خالَـكَ خـالَ اللـؤم مُؤتسـياً
بهَدْيـه سـالِكاً فـي شَـرِّ أسـلوبِ

قال المدائني في خبره: وكان ابن أخي كعب هذا عدوّاً له يسعى عليه، فلما سأل مَجْزأةُ بنُ زيادِ بنِ المهلب أباه في كعبٍ فخلّاه، دسّ إليه زيادُ بنُ المهلب ابنَ أخيه الشاعر، وجعل له مالاً على قتله، فجاءه يوماً وهو نائم تحت شجرة، فضرب رأسَه بفأس فقتله، وذلك في فتنة يزيدَ بنِ المهلب وهو بعُمَانَ يومئذ، وكان لكعبٍ أخٌ غيرُ أخيه الذي قتله ابنه، فلما قُتِل يزيدُ بن المهلب فرّق مسلمةُ بنُ عبد الملك أعمالَه على عُمّالٍ شتى فولّى البصرةَ وعُمانَ عبدَ الرحمن بنَ سليمان الكلبي، فاستخلف عبدُ الرحمن على عمانَ محمدَ بنَ جابر الراسبي، فأخبر أخو كعب الباقي ابنَ أخيه الذي قتل كعباً، فقدّمه إلى محمد بن جابر، وطلب القَوَدَ منه بكعب، فقيل له: قُتِل أخوك بالأمس، وتقتل قاتله وهو ابن أخيك اليوم! وقد مضى أخوك وانقضى، فتبقى فرْداً كقَرْن الأعضب ! فقال: نعم إنّ أخي كعباً كان سيدَنا وعظيمَنا ووجهَنا، فقتله هذا، وليس فيه خير، ولا في بقائِه عز، ولا هو خلَفٌ من كعب فأنا أقتله به، فلا خيرَ في بقائه بعد كعب، فقدّمه محمد بن جابر فضرب عنقَه والله أعلم.

أخبرنا أبو بكر محمد بن خلف بن المَرْزُبان قال: حدثنا أحمد بن الهيثم قال: حدثنا العمري، عن الهيثم بن عدي ولقيط وغيرهما، قالوا: حاصر يزيدُ بن المهلب مدينةَ خُوارَزْمَ في أيام ولايته، فلم يقدر على فتحها، واستصعب عليه، ثم عُزِل ووُلّيَ قتيبةُ بنُ مسلم، فزحف إليها، فحاصرها ففتحها، فقال كعب الأشقري يمدحه ويهجو يزيد بن المهلب بقوله:

رمتـلـكَ فيـلٌ بمـا فيهـا ومـا ظلمـتْ
مـن بعـد مـا رامهـا الفَجْفاجَـةُ الصَّلِفُ
قيسٌ صريحٌ وبعضُ الناس يجمعهمْ
قُـرى وريـفٌ ومنْسـوبٌ ومُقْترِفُ
منهـمْ شُـنَاسٌ ومَـرْداذاءُ نَعْرِفُـه
وفَسْـخَرَاءُ، قبـورٌ حَشْـوها القُلُـفُ
لـم يركبـوا الخيـلَ إلا بعدمـا هرِمـوا
فهـمْ ثِقـالٌ علـى أكتافِهـا عُنُـفُ

قال: الفيل الذي ذكره هو حصن خُوارَزْمَ يقال له والكُهُنْدُر: الحصن العتيق، والفَجْفاجَة: الكثير الكلام. وشُنَاس: اسم أبي صُفرة، فغيّره، وتسمى ظالِماً، ومرداذاء: أبو أبي صفرة، وسموه بسُرَاق لما تعرّبوا، وفَسْخرَاء: جدُّه، وهم قوم من الخُوز من أهلِ عُمان، نزلوا الأزد، ثم ادعوا أنهم صَليبةٌ صُرَحاء منهم.[1]

ويقول الأصفهاني واصفا فخّارة من القوارير جلبت إلى الخليفة هارون الرشيد:

أخبرني علي بن صالح بن الهيثم قال: حدثني أحمد بن أبي فنن الشاعر، قال: حدثني من لا أحصي من الجلساء أن ربيعة الرَّقيّ كان لا يزال يعبث بالعبّاس بن محمد بحضرة الرشيد، العبثَ الذي يبلغ منه، منذ جرى بينهما في مديحه إياه ما جرى، من حيث لا يتعلق عليه فيه بشيء، فجاء العباسُ يوماً إلى الرشيد ببَرْنِيّة فيها غاليه، فوضعها بين يديه، ثم قال: هذه يا أميرَ المؤمنين غالية، صنعتُها لك بيدي، اختير عَنبرُها من شِحْر عُمان، ومِسْكها من مَفاوز التُّبَّت،

١. المصدر السابق، ج١٤، ص ١٧٩-١٩٠.

وبانُها من قعر تهامة؛ فالفضائل كلها مجموعة فيها، والنعتُ يقصر عنها.

فاعترضه ربيعة، فقال: ما رأيتُ أعجبَ منك، ومن صفتِك لهذه الغالية، عند من إليه كل موصوفٍ يُجْلَب، وفي سوقِه يَنْفُق، وبه إليه يُتقرّب، وما قدْرُ غاليتِكَ هذه، أعزّك الله، حتى بلغ في وصفها ما بلغتَ؟، أأجريتَ بها إليه نهراً، أم حملتَ إليه منها وِقراً؟ إن تعظيمَكَ هذا عند من تُجبى إليه خزائنُ الأرض وأموالُها من كل بلدة، وتَذِلُّ لهيبته جبابرةُ الملوك المطيعة والخالفة، وتُتحفه بطُرَفِ بلدانها، وبدائعِ ممالكها، حتى كأنك قد فقتَ به على كل ما عنده، أو أبدعتَ له ما لا يعرفه، أو خصصتَه بما لم يَحْوِه ملكُه، لا تخلو فيه من ضَعْفٍ أو قِصَرِ هِمّة.[1]

ويذكر الأصفهاني عمان أيضا في معرض ترجمته للشاعر عمران بن حطان الذي هرب من بطش الحجاج والأمويين إلى عمان. يقول:

هو عِمْرَانُ بنُ حِطّان، بن ظَبْيان بن لَوْذان، بن عمرو، بن الحارث، بن سَدُوس، بن شَيْبان، بن ذُهْل، بن ثعلبة، بن عُكَابة، بن صَعْب، بن علي، بن بكر، بن وائل.

وقال ابن الكلبي: هو عمران بن حطان بن ظبيان بن معاوية بن الحارث بن سدوس.

ويكنى أبا شهاب. شاعر فصيح من شعراء الشُّرَاة ودعاتِهم والمُقدَّمين في مذهبهم وكان من القَعَدَة؛ لأن عمرَه طال فضعف عن الحرب وحضورها فاقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه. وكان أصلُه من البصرة فلما اشتهر بهذا المذهب طلبه الحجّاجُ فهرب إلى الشام فطلبه عبدُ الملك فهرب إلى عُمَانَ وكان يتنقل إلى أن مات في تواريه.

حدثنا أبو عبيدة معمر بن المثنى عن أخيه يزيد بن المثنى: أن عِمْرانَ بنَ حِطّان خرج هارباً من الحجاج فطلبه وكتب فيه إلى عُمّاله وإلى عبدِ الملك فهرب ولم يزل يتنقل في أحياء العرب وقال في ذلك:

حَلَلْنا في بني كَعْبِ بنِ عمرٍو
وفي رِعْلٍ وعامرِ عَوْثَبانِ

١. المصدر السابق، ج١٦، ص

وفـي جَـرْمٍ وفـي عَمْـرِو بـنِ مُـرٍّ
وفـي زيـدٍ وحَـيِّ بنـي الغُـدَانِ

ثم لحق بالشام فنزل برَوْحِ بنِ زِنْباع الجُذامي فقال له رَوْح: مِمّن أنت؟ قال: من الأزْدِ أزدِ السّرَاة قال: وكان رَوْح يسمر عند عبد الملك فقال له ليلة: يا أميرَ المؤمنين إنّ في أضيافنا رجلاً ما سمعتُ منكَ حديثاً قط إلا حدّثني به وزاد فيما ليس عندي قال: مِمّن هو قال: من الأزد قال: إني لأسمعك تصف صِفَة عِمْرَان بنِ حِطّان لأنني سمعتُك تذكر لغة نِزارية وصلاةً وزهداً ورواية وحفظاً وهذه صفتُه فقال روح: وما أنا وعِمْرَان!

ثم دعا بكتاب الحجّاج فإذا فيه: أما بعد: فإنّ رجلا من أهلِ الشِّقَاقِ والنِّفاقِ، قد كان أفسد علي أهلَ العراق وحبّبَهم بالشِّرَاية، ثم إني طلبتُه، فلما ضاق عليه عملي تحول إلى الشام، فهو ينتقل في مدائنها، وهو رجلٌ ضَرْبٌ طِوالٌ أفْوَهُ أزْوَقُ, قال: قال رَوْح: هذه والله صفةُ الرجلِ الذي عندي، ثم أنشد عبدُ الملك يوماً قولَ عمران يمدح عبدَ الرحمن بنَ مُلْجَم، لعنه الله بقتله عليَّ بن أبي طالب، صلوات الله عليه :

يـا ضَرْبَـةً مـن كريـمٍ مـا أراد بهـا
إلا ليبلـغَ مـن ذي العَـرْشِ رِضْوانـا
إنّـي لأُفْكِـرُ فيـه ثـم أحسَـبُه
أوفـى البَريّـةِ عنـد الله مِيزانـا

ثم قال: عبدُ الملك من يعرف منكم قائلَها ؟ فسكت القومُ جميعا، فقال لرَوْح: سَلْ ضيفَك عن قائلها، قال: نعم أنا سائله، وما أراه يَخْفى على ضيفي، ولا سألتُه عن شيء قطُّ فلم أجده إلا عالما به، وراح رَوْح إلى أضيافه، فقال: إن أمير المؤمنين سألنا الذي يقول :

يا ضربة من كريم ما أراد بها

ثم ذكر الشعر، وسألهم عن قائله، فلم يكن عند أحد علم، فقال له عمران: هذا قول عِمْرَان بن حِطّان في ابن مُلْجَم قاتلِ علي بن أبي طالب، قال: فهل فيها غير هذين البيتين تُفيدُنِيه ؟ قال: نعم:

لله دَرُّ المُـرَاديِّ الـذي سَـفَكَتْ
كفّـاه مُهْجـةَ شَـرِّ الخَلْـقِ إنسـانا
أمسـى عشـيّةَ غشّـاه بضربتِـه
مِمّـا جنـاه مـن الآثـامِ عُرْيانـا

صلوات الله على أمير المؤمنين، ولعن الله عمران بن حطان وابن ملجم، فغدا رَوْح فأخبر عبد الملك، فقال: من أخبرك بذلك، فقال: ضيفي، قال: أظنه عمران بن حطان، فأعلمه أني قد أمرتُك أن تأتيني به، قال: أفعل، فراح رَوْح إلى أضيافه فأقبل على عمران، فقال له: إني ذكرتُك لعبد الملك، فأمرني أن آتيه بك، قال: كنتُ أحِبُّ ذلك منك، وما منعني من ذكره إلا الحياءُ منك، وأنا مُتّبعُكَ، فانطلقْ، فدخل رَوْح على عبد الملك، فقال له: أين صاحبك ؟ فقال، قال لي: أنا متبعك، قال: أظنك والله سترجع فلا تجده، فلما رجع روح إلى منزله إذا عمرانُ قد مضى، وإذا هو قد خلّفَ رُقْعة في كَوْةٍ عند فراشه، وإذا فيها يقول :

يـا رَوْحُ كم من أخي مثوى نزلتُ
به قد ظنّ ظنّكَ من لَخْمٍ وغَسّانِ
حتـى إذا خفتُـه فارقـتُ منزلَـه
مـن بعـد ما قيل: عِمْرَانُ بنُ حِطّانِ
قـد كنـتُ ضيفَـكَ حـولاً لا تُروِّعُني
فيـه الطـوارقُ من إنسٍ ولا جانِ
حتى أردتَ بي العُظْمى فأوحشني
ما أوحشَ الناسَ من خَوْفِ ابنِ مَـرْوانِ
فاعْـذِرْ أخـاك ابـنَ زِنْبـاعٍ فـإنّ لـه
فـي الحادثـات هَنَاتٍ ذاتَ ألوانِ

يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ
وإن لقيتُ مَعدّياً فعَدْناني
لو كنتُ مُسْتغْفِرًا يوماً لطاغيةٍ
كنتُ المُقَدَّمَ في سِرّي وإعلاني
لكن أبتْ ذاكَ آياتٌ مطهّرَةٌ
عند التلاوةِ في طه وعِمْرَانِ

قال: ثم أتى عمران بن حطان الجزيرة فنزل بزُفَر بن الحارث الكلابي بقَرْقِيسيا فجعل شبابُ بني عامر يتعجّبون من صلاتِه وطولِها وانتسب لزُفَر أوزاعياً فقدِم على زُفَر رجلٌ من أهل الشام قد كان رأى عمران بن حطان بالشام عند رَوْح بن زِنْباع فصافحه وسلم عليه فقال زفر للشامي: أتعرفه؟ قال: نعم هذا شيخٌ من الأزد فقال له زُفَر: أزديٌّ مرة وأوزاعيٌّ أخرى! إن كنتَ خائفاً آمنّاك وإن كنتَ عائلاً أغنيناك فقال: إن الله هو المغني، وخرج من عنده وهو يقول:

إن التي أصبحت يعيا بها زفرُ
أعيت عياءً على رَوْحِ بنِ زِنْباعِ
أمسى يسائلني حولاً لأُخْبِرَه
والناسُ من بين مخدوعٍ وخدّاعِ
حتى إذا انجذمتْ مني حبائلُه
كفّ السؤالَ ولم يُولَعْ بإهلاعي
فاكففْ كما كفّ رَوْحٌ إنني رجلٌ
إما صريحٌ وإما فَقْعَةُ القاعِ
أما الصلاةُ فإنّي غيرُ تاركِها
كلُّ امرىءٍ للذي يُعنى به ساعي

فاكففْ لسانَكَ عن هَزّي ومسألتي
ماذا تريد إلى شيخٍ لأوزاعِ!
أكْرِمْ بـرَوْحِ بـنِ زِنباعٍ وأسرتِه
قوماً دعا أوّليهمْ للعُلا داعي
جاورتُهم سنةً فيما دعوتُ به
عِرْضي صحيحٌ ونومي غيرُ تَهْجَاعِ
فاعملْ فإنكَ مَنْعيٌّ بحادثةٍ
حسْبُ اللبيبِ بهذا الشيب من ناعِ

ثم خرج فنزل بعُمَانَ بقوم يُكثرون ذكرَ أبي بلال مِرداس بن أُدَيّة ويُثنون عليه ويذكرون فضله فأظهر فضلَه ويسّر أمرَه عندهم وبلغ الحجاجَ مكانُه فطلبه فهرب فنزل في روذّمَيْسان، طسّوجٌ من طاسيج السّوَاد إلى جانب الكوفة - فلم يزل به حتى مات. وقد كان نازلاً هناك على رجل من الأزد فقال في ذلك:

نزلتُ بحَمدِ اللهِ في خيرِ أسرةٍ
أُسَرُّ بما فيهم من الإنس والخَفَرْ
نزلتُ بقومٍ يجمعُ اللهُ شملَهم
وما لهمُ عُودٌ سوى المَجْد يُعْتَصَرْ
من الأزْدِ إنّ الأزدَ أكرمُ أسرةٍ
يمانيّةٍ قَرْبوا إذا نُسِبَ البَشَرْ

قال اليزيديُّ: الإنسُ بالكسر: الاستئناس. وقال الرِّياشيُّ: أراد قَرُبوا فخفّف. قال:

وأصبحتُ فيهم آمناً لا كمعشرٍ
بَدَوْني فقالوا من رَبيعةَ أو مُضَرْ

أو الحـيِّ قحطـانٍ وتلـكَ سـفاهةٌ
كمـا قـال لـي رَوْحٌ وصاحبُـه زُفَـرْ
ومـا منهـمُ إلا يُسـرُّ بنسـبةٍ
تقرِّبنـي منهـمْ وإن كان ذا نَفَـرْ
فنحـن بنـو الإسـلام واللهِ واحـدٌ
وأولـى عبـادِ اللهِ بـاللهِ مَـنْ شَـكَرْ.[1]

ومما ذكره أبو الفرج عن عمان أيضا حديثه عن شهاب بن عبد الملك بن مسمع الذي انتهى به العمر في عمان، حسبما تؤكد أبيات الشاعر سَلْم الخاسر. يقول الأصفهاني:

أخبرني هاشم بن محمد الخزاعي، قال: حدثنا عيسى بن إسماعيل، عن القَحْذَميّ، قال: كان مالكٌ وشهابٌ ابنا عبدِ الملك بنِ مِسْمَع ومعنُ بنُ زائدة مُتواخين، لا يكادون يفترقون. وكان سَلْمُ الخاسر ينادمهم ويمدحهم، ويُفْضِلون عليه ولا يُحْوِجونه إلى غيرهم، فتوفي مالك ثم أخوه ثم معن في مدة متقاربة، فقال سَلْم يرثيهم:

عيـنُ جـودي بعَبْـرَةٍ تَهْتَـانِ
وانْدُبي مَنْ أصاب ريـبُ الزمانِ
وإذا مـا بكيـتِ قومـاً كرامـاً
فعلـى مالـكٍ أبـي غَسّـانِ
أيـن مَعْـنٌ أبـو الوليـد ومَـنْ
كان غِياثـاً للهالِـكِ الحَيْـرانِ
طرَقَتْـكَ المَنُـونُ لا واهـيَ الحَبْـلِ
ولا عاقـداً بحِلْـفِ يَمَـانِ

١. المصدر السابق، ج ١٨، ص ٧٩-٨٣.

وشِـهابٌ وأين مِثلُ شِهابٍ
عنـد بَذْلِ النَّدَى وحَرِّ الطعانِ
رُبّ خِـرْقٍ رزئتُه من بني قَيْسٍ
وخِـرْقٍ رُزِئْتُ من شَـيْبانِ
دَرَّ دَرُّ الأيّـامِ مـاذا أجنّـتْ
منهـمُ فـي لفائفِ الكَتّانِ!
ذاك مَعْنٌ ثوى ببسْتَ رهيناً
وشـهابٌ ثوى بأرض عُمانِ
وهُمَـا مـا هُمَـا لبَـذْل العَطايـا
ولِلَـفِّ الأقْـرانِ بالأقـرانِ
يَسْـبقانِ المَنونَ طعنـاً وضرباً
ويَفـكّانِ كُلَّ كَبْـلٍ وعَـانِ[1]

ومما ورد ذكره عن عمان في كتاب الأغاني لأبي الفرج أيضا، حديث عن الشاعر ابن أبي عُيَيْنَة. يترجم له الأصفهاني قائلا:

وابنُ أبي عُيَيْنَة هو محمد بن أبي عيينة بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرة. وقال أبو خالد الأسلمي: هو أبو عُيَيْنة بنُ المِنْجاب بن أبي عُيَيْنة وهو الذي كان يهجو ابن عمه خالداً.

واسمُ أبي صُفْرَةَ ظالِمُ بنُ سَرّاق، وقيل: غالِبُ بن إسْراق، بنُ صُبْح، بن كِنْدي، بن عمرو، بن عُدَيّ، بن وائل، بن الحارث، بن العَتيك، بن الأسد، بن عِمْران، بن الوضّاح، بن عمرو، بن مُزَيْقِياء، بن حارثة الغِطْريف، بن امرئ القيس البِطْريق، بن ثعلبة البُهلول، بن مازن زاد الراكب، بن الأزد .

هذا النسب الذي عليه آلُ المُهلّب، وذكرَ غيرُهم أن أصلهم من عَجَم عُمَان وأنهم تولوا

١. المصدر السابق، ج١٩، ص ٢٠١-٢٠٢.

الأزد، فلما ساد المهلب وشرُف وعلا ذكره استلحقوه. وممن ذكر ذلك الهيثم بن عدي وأبو عبيدة وابن مزروع وابن الكلبي وسائر من جمع كتاباً في المَثالب وهَجتْهم به الشعراءُ فأكثرتْ.

أخبرني محمد بن عِمْرانَ الصيرفي قال: أخبرني الحسن بن عليل العَنَزي قال: حدثني أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حميد بن سليمان العدوي قال: أخبرني الهيثم بن عَدِيّ، عن عبد الله بن عَيّاش الهَمْدَاني قال: وَفَد ابنُ الجُلَنْدي في الأزد، أزدِ عُمان ومواليهم وأحلافِهم، فكان فيمن وَفَد منهم أبو صُفْرة، وكان يُلقّب بذلك، لأنه كان يُصفِّر لحيتَه، فدخل على عُمَرَ مع ابن الجلندي ولحيتُه مخضوبة مُصْفرّة، فقال عمر لابن الجلندي: أكلُّ من معكَ عربي؟ قال: لا، فينا العربي وفينا غير ذلك، فالتفت عمر -رحمه الله- إلى أبي صُفْرة، فقال له: أعربيٌّ أنت؟ قال: لا، أنا ممن مَنّ الله عليه بالإسلام.

قال: وقدِم الحكمُ بنُ أبي العاصي الثَّقَفي أخو عُثمانَ بأعلاجٍ من شَهْرَكَ في خلافة عُمَرَ قد أسلموا، فأمر عمرُ عُثْمانَ بنَ أبي العاصي أن يَخْتِنَهم، وقد كان أبو صُفْرة حاضراً فقال: ما لهؤلاء؟ يُطهّرون ليُصَلّوا؟ قال: إنهم يُخْتَنون.

قال: إنا والله هكذا مثلهم، قال: فسمِع ذلك عثمانُ بن أبي العاصي، فأمر بأبي صُفْرَة فأُجْلِس على جَفْنَة فخُتِن، وإنه لشيخٌ أشمطُ فكان بها مَنْ قال: لسنا نشكُّ في أنّ زوجتَه كذلك، فأُحْضِرتْ وهي عجوزٌ أدماء، فأمر بها القابلةَ فنظرتْ إليها وكشفتْها، وإذا هي غيرُ مَخْتونة، وذلك منها قد أحْشَف، فأُمِر بها فخُفِضَتْ.

وقال في ذلك زياد الأعجم، وقد غضب على المهلّب:

نحنُ قطعْنا من أبي صُفْرَه
قُلْفَتَه كي يَدخُلَ البَصْره
لمّا رأى عثمانُ غُرْمُولَه
أحْنى على قُلْفَتِه الشَّفْرَه

وليس هذا من الأقوالِ المُعَوّلِ عليها، لأنّ أصلَ المَثالِبِ زيادٌ لعنه الله، فإنه لما ادُّعِي إلى أبي سفيان، وعَلِم أن العرب لا تُقِرُّ له بذلك مع علمها بنسبه ومع سوءِ آثاره فيهم، عَمِل كتابَ

المَثَالِب، فألصق بالعرب كلِّها كلَّ عيبٍ وعار، وحقٍّ وباطل، ثم بنى على الهيثمُ بنُ عَدِيّ -وكان دَعِيّاً- فأراد أن يَعُرَّ أهلَ البيوتات تَشفّياً منهم، وفعل ذلك أبو عبيدة مَعْمَرُ بنُ المُثنّى، وكان أصلُه يهودياً، أسلم جدُّه على يدي بعض آل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فانتمى إلى ولاء بني تميم فجَدّد كتابَ زياد وزاد فيه، ثم نشأ غيلانُ الشعوبي لعنه الله، وكان زِنْدِيقاً ثَنَوِيّاً لا يُشكُّ فيه، عُرِفَ في حياته بعضُ مذهبه، وكان يُورِّي عنه في عوراته للإسلام بالتشعّب والعصبيّة، ثم انكشف أمرُه بعد وفاته، فأبدع كتاباً عمله لطاهر بن الحسين، وكان شديدَ التشعّبِ والعصبيّة، خارجاً عن الإسلام بأفاعيله، فبدأ فيه بمثالِب بني هاشم وذكر مناكحَهم وأمهاتِهم وصنائعَهم، وبدأ منهم بالطيّب الطاهر، رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فغَمَصه وذكره، ثم والى بين أهل بيته الأذكياء النجباء عليهم السلام، ثم ببطون قريش على الولاء، ثم بسائر العرب، فألصق بهم كلَّ كذب وزور، ووضع عليهم كلَّ خبرٍ باطل، وأعطاه طاهرُ على ذلك مائتي ألف درهم فيما بلغني.

وإنما جَرّ هذا القولَ، ذِكْرُ المهلّب وما قيل فيه، وأني ذكرتُه فلم أجد بداً من ذكر ما رُوي فيه؛ وفيما مر عن أهل النسب، ثم قلتُ ما عندي.

أخبرني حبيب بن نصر قال: أخبرني عمر بن شَبّة قال: حدثني محمد بن يحيى أبو عثمان عن أبيه قال: دخل بعضُ الناس على عبد الملك بن مروان فقال له: هل عندك كتابُ زيادٍ في المثالب؟ فتلكّأ، فقال له: لا بأسَ عليك، وبحَقّي إلا جئتَني به. فمضى فجاء به، فقال له: اقرأ علي، فقرأه وجعل عبدُ الملك يتغيّظ ويَعْجَبُ مما فيه من الأباطيل، ثم تمثَل قولَ الشاعر:

وأجـرأُ مَـنْ رأيـتُ بظَهْـرِ غَيْـبٍ
علـى عَيْـبِ الرجـالِ أولـو العُيـوبِ

ثم أمر بالكتاب فأُحْرِق.

وهو شاعرٌ مطبوعٌ ظريفٌ غَزِل هَجّاء. وأنْفَدَ أكثرَ أشعاره في هِجاءِ ابنِ عمِّه خالد. وأخبارُهما تُذكر على أثر هذا الكلام وما يَصلح تصديرُ أخبارِه به. وكان من شعراء الدولة العباسية من ساكني البصرة.

حدثني عمي والصُّوليُّ قالا: حدثنا أحمد بن يزيد المهلبي قال: حدثني أبي قال: أبو عيينة اسمُه كنيتُه، وهو ابنُ محمد بن أبي عُيَيْنة بن المُهلّب بن أبي صُفْرة.

وأخبرني محمد بن عمران الصيرفي قال: حدثني العَنَزيّ قال: حدثني أبو خالد الأسلمي قال:

أبو عيينة الشاعر هو أبو عيينة بن المنجاب بن أبي عيينة بن المهلب، وكان محمد بنُ أبي عُيَيْنة أبو أبي عُيَيْنة الشاعرِ يَتولّى الرَّيَّ لأبي جعفر المنصور، ثم قبض عليه وحبسه وغرّمه.

وأخبرني محمد بن خلف بن المَرْزَبان قال: حدثني يزيد بن محمد المهلبي قال: قال وهب بن جرير: رأيت في منامي كأن قائلاً يقول لي:

ما يلقى أبو حَرْبٍ
تعالى اللهُ مِنْ كَرْبِ

فلم ألبث أن أخذ المنصورُ أبا حَرْب محمدَ بن أبي عُيَيْنة المهلبي فحبسه، وكان ولاه الرَّيَّ فأقام بها سنين.

أخبرني عيسى بن الحسين الورّاق ومحمد بن يحيى الصولي وعمي قالوا: حدثنا الحَزَنْبَل الأصبهاني قال: حدثني الفيض بن مخلد مولى أبي عيينة بن المهلب قال: كان أبو عيينة بن محمد بن أبي عيينة يهوى فاطمةَ بنتَ عمر بنِ حفص الملقب هَزَارَ مَرْدَ، وكانت امرأةً نبيلةً شريفة، وكان يخاف أهلُها أن يذكرَها تصريحاً، ويرهب زوجها عيسى بن سليمان، فكان يقول الشعر في جاريةٍ لها يقال لها: دُنْيَا، وكانت قيِّمةَ دارِها، ووالِيةَ أمورِها كلها. وأنشدنا لابن أبي عيينة فيها، ويَكنى باسم دنيا هذه:

ما لِقلبي أرَقَّ مِنْ كلِّ قَلْبِ
ولِحُبّي أشدَّ مِنْ كلِّ حُبِّ!
ولِدُنْيا على جُنُوني بدنيا
أشتهي قُرْبَها وتكره قُرْبي
نزلتْ بي بَلِيّةٌ من هَواها
والبَلايا تكون من كلِّ ضَرْبِ

قـل لِدُنيـا إنْ لـم تُجِبْـكِ لمَـا بـي
رَطْبَـةً مـن دمـوعِ عَيْنَـيّ كُتْبـي
فعَـلامَ انْتَهَـرْتِ بـالله رُسْـلي
وتَهَدّدتِـمْ بحَبْـسٍ وضَـرْبِ
أيُّ ذنْـبٍ أذنبتُـه ليْـتَ شِـعْري
كان هـذا جـزاءه أيُّ ذنْـبِ؟

أخبرني علي بن سليمان قال حدثني محمد بن يزيد قال: كان أبو عيينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذاً، من غير أدب موصوف ولا رواية كثيرة، وكان يُقرِّب البعيد، ويَحذف الفضول، ويُقِلُّ التكلف. وكان أصغر من أخيه عبد الله ومات قبله.

وقيل لعبد الله: أنت أشْعَرُ أم أخوك؟ فقال: لو كان له علمي لكان أشْعَرَ منّي، وكان يتعشق فاطمة بنت عمر بن حفص هَزَارَ مَرْدَ التي تزوجها علي بن سليمان، ويُسِرُّ عِشْقَها، ويُلقّبها بدُنيا كتماناً لأمرها. وكانت امرأة جليلة نبيلة سَريّة من النساء، وكان أبوها من أشدِّ الفرسان وشجعانِهم، فذكر عيسى بن جعفر أن عيسى بن موسى قال للمهلب بن المغيرة بن المهلب: أكان يزيد بن خالد أشجعَ أم عمر بن حفص هزار مرد؟ فقال المهلب: لم أشهد من يزيدَ ما شهدته من عمر بن حفص، وذلك أني رأيتُه يركب في طلب حِمارٍ وحشي حتى إذا حاذاه جمع جَرَاميزَه وقفز، فصار على ظهره، فقمص الحمارُ، وجعل عمر بن حفص يَحُزُّ معرفتَه إما بسيفٍ وإما بسكينٍ معه حتى قتله.

قال محمد بن يزيد: وحُدِّثتُ عن محمد بن المهلب أنه أنكر أن يكون أبو عيينة يهوى فاطمة، وقال: إنما كان جندياً في عِدَاد الشُّطّار، وكانت فاطمة من أنبل النساء وأسراهن، وإنما كان يتعشّق جاريةً لها، وهذه الأبيات التي فيها الغناء من قصيدة له جيدة مشهورة من شعره، يقولها في فاطمة هذه أو جاريتها، ويَكني عنها بدُنيا، فمما اختير منها قوله:

وقالـوا تَجَنّبْنَـا فقلـتُ أبْعدَمـا
غَلَبتُـمْ علـى قلبـي بسُـلطانكم غَصْبـا

غِضابٌ وقد مَلّوا وقوفي ببابهمْ
ولكنّ دُنْيا لا ملولاً ولا غَضْبى
وقد أرسلَتْ في السِّرِّ أني بَريَّة
ولم تَرَ لي فيما تَرى منهمُ ذَنباً
وقالت لكَ العُتبى وعِندي لكَ الرِّضَا
وما إن لهمْ عندي رِضاءٌ ولا عُتبى
ونُبِّئْتُها تلهو إذا اشتدَّ شوقُها
بشِعْري كما تُلهي المُغنِّيةُ الشَّربا
فأحببتُها حُبّاً يقَرّ بعينِها
وحُبِّي إذا أحببتُ لا يُشبه الحُبّا
فيا حسرتا نَغّصتُ قُربَ ديارها
فلا زُلفةً منها أرجّي ولا قُرْبا
لقد شَمِتَ الأعداءُ أن حِيلَ بينه
وبيني ألاَ للشامِتينَ بنا العُقْبَى

ومما قاله فيها وغُنِّيَ فيه: صوت

ضيّعتِ عهدَ فتى لِعَهْدِكِ حافظٍ
في حفظِه عَجَبٌ وفي تضييعكِ
ونأيتِ عنه فما له من حِيلة
إلا الوقوفُ إلى أوانِ رجوعكِ

مُتخشِّعاً يُذْري عليكِ دموعَهُ
أسفاً ويَعجَب من جُمودِ دُموعِكِ
إن تقتليه وتذهبي بفؤاده
فبِحُسن وَجهِكِ لا بحُسْنِ صنيعكِ

عروضه من الكامل، الغناء في هذه الأبيات من الثقيل الأول بالوسطى. ذكر عمرو بن بانةَ أنه له، وذكر الهشاميُّ أنه لمحمد بن الحارث بن بسختر، وذكر عبد الله بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام أنه لإبراهيم الموصلي.

فذكر العتّابي ومحمد بن الحسن جميعاً، أن محمد بن أحمد بن يحيى المكي حدثهما قال: حدثني عمرو بن بانة قال: ركبتُ يوماً إلى دار صالح بن الرشيد، فاجتزتُ بمحمد بن جعفر بن موسى الهادي -وكان معاقراً للصَّبوح- فألفيتُه في ذلك اليوم خالياً منه، فسألتُه عن السبب في تعطيله إياه، فقال: نيرانُ عليَّ غَضْبى -يعني جاريةً لبعض النخّاسين ببغداد- وكانت إحدى المحسنات، وكانت بارعةَ الجَمال ظريفةَ اللسان، وكان قد أفرط في حُبِّها حتى عُرِف به، فقلتُ له: فما تُحب؟ قال: تجعل طريقَكَ على مولاها فإنه يستخرجها إليك، فإذا فعل دفعتَ رُقعتي هذه إليها- ودفع إلي رقعة فيها:

ضيعتِ عهدَ فتىً لعهدِكِ حافظٍ
في حفظِه عَجَب وفي تضييعكِ
إن سُمتِه أن تذهبي بِفؤاده
فبِحُسن وجهِكِ لا بحُسْنِ صنيعكِ

فقلتُ له: نعم، أنا أتحمّل هذه الرسالةَ وكرامةً، على ما فيها، حفظاً لروحك عليك، فإني لا آمن أن يتمادى بك هذا الأمر. فأخذتُ الرقعة وجعلتُ طريقي على منزل النخاس، فبعثتُ إلى الجارية: اخرجي، فخرجتْ، فدفعتُ إليها الرقعة، وأخبرتُها بخبري فضحكتْ، ورجعتْ إلى الموضع الذي أقبلتْ منه فجلستْ جلسة خفيفة، ثم إذا بها قد وافتني ومعها الرقعة، فيها:

صوت

وما زلتَ تعصيني وتغُري بيَ الـرَّدَى
وتهجُرني حتى مَرنتَ على الهَجْرِ
وتَقطع أسبابي وتنسى مَودّتي
فكيف تَرى يا مالِكي في الهوى صبري
فأصبحتُ لا أدري أيأساً تصبُّري
على الهجر أم جِدَّ البصيرة لا أدري

غنى في هذه الأبيات عمر بن بانة، ولحنه ثقيل أول بالبنصر، ولمقاسةَ بنِ ناصح فيها ثقيل آخر بالوسطى. لحن عمرو في الأول والثالث بغير نشيد.

قال: فأخذتُ الرقعة منها وأوصلتُها إليه، وصرتُ إلى منزلي، فصنعتُ في بيتي محمد بن جعفر لحناً وفي أبياتها لحناً، ثم صرت إلى الأمير صالح بن الرشيد، فعرفته ما كان من خبري، وغنيته الصوتين، فأمر بإسراج دوابّه فأُسْرِجتْ، وركب فركبتُ معه إلى النخاس مولى نيران، فما برحنا حتى اشتراها منه بثلاثة آلاف دينار، وحملها إلى دار محمد بن جعفر فوهبها له، فأقمنا يومنا عنده.

أخبرنا محمد بن يحيى الصولي قال: حدثني يزيد بن محمد المهلبي قال: دخلتُ على الواثق يوماً وهو خليفة وربابُ في حِجْرِه جالسة، وهي صبيّة، وهو يلقي عليها قوله:

ضيعتِ عهدَ فتىً لعهدِك حافظٍ
في حفظِه عَجَب وفي تضييعكِ

وهي تغنيه ويردده عليها، فما سمعت غناء قط أحسن من غنائهما جميعاً، وما زال يردده عليها حتى حفظته.

أخبرني علي بن سليمان قال: حدثنا محمد بن يزيد قال: قال عبد الله بن محمد بن أبي عيينة أخو أبي عيينة في فاطمة، التي كان يُشبِّبُ بها أخوه، بنت عمر بن حفص لما تزوجها

عيسى بن سليمان بن علي، وكان عيسى مبخّلا، وكانت له محابس يَحبس فيها البِياحَ ويَبيعه، وكانت له ضيعة تُعرف بدالية عيسى يبيع منها البقولَ والرياحين، وكان أولَ من جمع السماد بالبصرة وباعه، فقال فيه أبو الشمقمق:

إذا رُزِقَ العِبادُ فإنّ عيسى
له رِزْقٌ من استاه العِبَادِ

فلما تزوج عيسى فاطمةَ بنتَ عمر بن حفص قال عبد الله بن محمد بن أبي عيينة في ذلك:

أفاطَم قد زُوِّجْتِ عيسى فأبشري
لديه بِذُلٍّ عاجلٍ غير آجلِ
فإنكِ قد زُوّجتِ عن غير خبرة
فتىً من بني العبّاس ليس بعاقلِ
فإن قُلتِ مِن رَهط النبي فإنّه
وإن كان حُرَّ الأصلِ عبدُ الشمائلِ
وقد قال فيه جعفرٌ ومحمد
أقاويلَ حتى قالها كلُّ قائلِ
وما قلتُ ما قالا لأنكِ أُختُنا
وفي البيتِ منّا والذُّرا والكواهلِ
لَعَمْري لقد أثبتّه في نِصابه
بأن صِرْتِ منه في مَحلٍّ الحلائلِ
إذا ما بَنُو العباسِ يوماً تنازعوا
عُرا المجد واختاروا كرامَ الخصائلِ

رأيـتَ أبـا العبـاس يسـمو بِنفسِـه
إلـى بَيـع بَيّاحاتِـه والمَباقـلِ

قال مؤلف هذا الكتاب: وكان عبد الله، أخو أبي عيينة شاعراً، وكان يقدم على أخيه، فأخبرني جحظة قال: حدثني علي بن يحيى المُنجّم، قال: قال إسحاق الموصلي: شِعْر عبد الله بن أبي عيينة أحبُّ إلي من شِعْر أبيه وأخيه. قال: وكان عبد الله صديقا لإسحاق.

قال محمد بن يزيد: ومما قاله في فاطمة وصرّح بذكر القرابة بينهما، وحقق على نفسه أنه يعنيها قوله:

دعَوتُـلـكِ بالقرابـةِ والجِـوار
دعـاءَ مصـرِّحٍ بـادي السِّـرارِ
لأنـي عنـلـكِ مشـغولٌ بِنفسـي
ومحتـرِقٌ عليـلـك بغيـرِ نـارِ
وأنـتِ تَوقَّريـن وليـس عنـدي
علـى نـار الصّبَابـةِ مِـن وَقَـارِ
فأنـتِ لأن ما بلـكِ دونَ ما بي
تُداريـن العـدوَّ ولا أداري
ولَـوْ واللهِ تشـتاقين شـوقي
جَمحْـتِ إلـى مُخالعـة العِـذارِ
ألا يـا وهـبُ فيـمَ فضحْـتَ دُنيـا
وبُحـتَ بسِـرِّها بيـن الجـواري
أمـا والراقصـاتِ بـكلِّ واد
غـوادٍ نحـوَ مكـةَ أو سَـواري

لقـد فضلتْـكِ دُنيـا فـي فـؤادي
كفضـل يَـدِي اليميـن عَلَـى اليسـار
فقُولـي مـا بـدا لـك أن تقولـي
فإنـي لا ألومُـكِ أن تُضـاري

قال: وقال فيها وهو من ظريفِ أشعاره:

رَقَّ قلبـي لـكِ يـا نـورَ عَينـي
وأبـى قلبُـك لـي أن يَرِقَّـا
فـأَراكِ اللهُ موتـي فإنِّـي
لسـتُ أرضى أن تموتي وأبقى
أنـا مِـن وجـدِ بدنيـايَ منهـا
ومِـنَ العُـذَّال فيهـا مُلَقَّـى

صوت

زعمـوا أنـي صديـقٌ لدُنيـا
ليـت ذا الباطـلَ قـد صـار حقّـا

في هذا البيت ثم الذي قبله ثم الأول لإبراهيم لحنٌ ماخوري بالوسطى عن الهِشامي.

قال وقال فيها أيضاً في هذا الوزن وفيه غناءٌ مُحْدَث رَمَل طُنبوري:

عَيشُـها حُلـو وعيشُـك مُـرُّ
ليـس مسـرورٌ كمـن لا يُسَـرُّ
كَمَـدٌ فـي الحـبّ تَسـخُن فيـه
عينُـه أكثـرَ ممـا تَقَـرُّ

قلتُ للآئِم فيها الّهُ عنها
لا يَقعْ بيني وبينك شَرُّ
أتُراني مُقْصراً عن هواها
كلُّ مملوكٍ إذا لِيَ حرُّ

وقال فيها أيضاً وأنشدناه الأخفش عن المُبرِّد وأنشدناه محمد بن العباس اليزيدي قال أنشدني عمي عبيد الله لأبي عيينة:

حين قالتْ دنيا عَلامَ نهاراً
زُرتَ هلا انتظرتَ وقتَ المساءِ
إن تكنْ مُعْجَباً برأيك لا تَفْ
رَقَ فاستحْي يا قليلَ الحياءِ
ذاك إذ رُوحها ورُوحي مِزا
جانِ كأصفى خمرٍ بأعذَب ماءِ

قال محمد بن يزيد وقد أخذ هذا المعنى غيرُه منه ولم يسمِّه، وهو البحتري، فقال:

صوت

جَعلتُ حبَّكِ من قلبي بمنزلة
هي المصافاةُ بين الماء والراحِ
تهتزّ مثلَ اهتزاز الغصن حرّكه
مرورُ غيثٍ من الوَسْميّ سَحّاحِ

الغناء في هذين البيتين لرذاذ ثقيل أول مطلق في مجرى البِنْصر.

ومما قاله أبو عيينة في فاطمة هذه، وكنّى فيه بدنيا قوله:

صوت

ألـمْ تَنْـهَ قلبَـكَ أن يعشَـقا
ومالـكَ والعشـقَ لـولا الشّـقا
أمِـن بَعـدِ شُـربِكَ كأسَ النُّهـى
وشَـمِّكَ ريحـانَ أهـلِ التُّقـى
عَشِـقتَ فأصبحـتَ في العالمين
أشـهرَ مِـن فـرسٍ أبلَقـا
أدُنيـايَ مـن غَمـر بَحْـر الهـوى
خـذي بِيـدي قبـل أن أغرقَـا
أنـا ابـنُ المهلَّـب مـا مثلـه
لـو أنَّ إلـى الخُلْـد لـي مُرْتقـى

غنى فيه أبو العَنْبَس بن حمدون ولحنُه ثاني ثقيل مُطلَق، وفيه لعَريب ثقيل أول رواه أبو العَنْبَس عنها.

وهذه قصيدة طويلة يذكر فيها دنيا ويفخر بعقب النسيب بأبيه ويذكر مآثر المهلّب بالعراق ولكن مما قاله في دنيا منها قوله :

أدُنيـاي مـن غَمـر بحـرِ الهـوى
خُـذي بِيـدي قبـل أن أغرَقـا
أنـا لـكِ عبـدٌ فكونـي كمَـن
إذا سـرّه عبـدُه أعتقَـا
ألـم أخـدعِ النـاسَ عـن وصلِهـا
وقـد يَخـدعُ العاقـلُ الأحمقَـا

بلـــى فسبـــقتُهمُ إنـــــني
أُحـبّ إلـى الخيـرِ أن أسـبقَا
ويـومَ الجـــنازةِ إذ أرسـلَتْ
علـى رُقعـةٍ أن جُـزِ الخَندقَـا
وعُـجْ ثَـمَّ فانظـر لنـا مجلِساً
برفـق وإيـاكَ أن تَخرَقـا
فجئنـا كغُصنَيـن مِـن بانـةٍ
قرِينَيـن خِدْنيـن قـد أورقَـا
فقالـتْ لأختٍ لهـا استنشـدِيه
مـن شِـعْرِه المُحْكَـمِ المُنْتقـى
فقلْـتُ أمـرتِ بكتمانِـه
وحـذَّرتِ إن شـاعَ أن يُسـرَقَا
فقالـت بِعيشِـلكِ قولـي لـه
تمنَّـع لعلـكَ أن تنفُقَـا

ومن مشهور قوله في دنيا، وهو مما تهتّك فيه وصرّح وأفحش، وهي من جيد قوله قصيدته التي يقول فيها:

أنـا الفـارغُ المشـغولُ والشـوقُ آفتـي
فلا تسألوني عن فَراغي وعن شُغلي
عجبْـتُ لِتـركِ الحُـبِّ دنيـا خليـةً
وإعراضـه عنهـا وإقبالـه قُبْلـي
ومـا بالهُـا لمـا كتْبـتُ تهاونـتْ
بكُتْبي وقد أرسلْتُ فانتهزتْ رُسلي

وقـد حلفَـتْ ألاّ تَخـطّ بكفّهـا
إلـى قابـلٍ خطـا إلـيّ ولا تُملـي
أبخْـلاً علينـا كلُّ ذا وقطيعـةً
قضيـتِ لدَينـا بالقطيعـة والبُخْـلِ
سـلُوا قلـبَ دُنْيـا كيـف أطلقَه الهوى
فقـد كان في غُـلٍّ وثيقٍ وفي كَبْلِ
فـإن جَحَـدَتْ فاذكـرْ لهـا قصْـرَ مَعبَـد
بمَنْصَـفِ مـا بيـن الأُبُلّـة والحَبْـلِ
ومَلعَبنـا فـي النهـرِ والمـاءُ زاخـرٌ
قَرينَيـن كالغصنَين فَرْعين فـي أصْلِ
ومـن حولِنَـا الرّيحـانُ غَضّـاً وفوقَنـا
ظِـلالٌ مـن الكَـرْمِ المعـرّش والنّخْـلِ
إذا شـئتُ مالـتْ بـي إليها كأنني
إلى غصن بانٍ بين دِعْصَين من رَمْلِ
ليالـيَ ألقانـي الهـوى فاسـتضفتهُا
فكانـت ثناياهـا بِـلا حِشـمة نُزْلـي
وكـم لـذّةٍ لـي فـي هواهـا وشـهوةٍ
ورَكْضـي إليهـا راكبـاً وعلـى رِجْـلِ
وفـي مأتـمِ المهـديّ زاحمْـتُ ركنَهَا
برُكنِي وقد وطَّنتُ نفسي على القتلِ

وبِتنَا عَلَى خوفٍ أُسكَن قلبها
بِيُسراي واليمنى علَى قائمِ النَّصْل
فيا طيبَ طعمِ العيش إذ هي جارةٌ
وإذ نفسُها نفسي وإذ أهلُها أهلي
وإذ هي لا تعتلّ عني بِرقبَةٍ
ولا خوفِ عينٍ من وُشاةٍ ولا بَعْلِ
فقد عَفَت الأثارُ بيني وبينها
وقد أوحشَت مني إلى دارِها سُبْلي
ولما بلوتُ الحُبَّ بعد فِراقها
قضَيتُ عَلَى أمِّ المحبين بالثُّكل
وأصبحْتُ معزولاً وقد كنت والياً
وشتّانَ ما بين الولاية والعزْلِ

ومما قاله فيها وفيه غناء:

صوت

ألا في سبيل اللهِ ما حلّ بي منكِ
وصبرُكِ عنّي حين لا صبرَ لي عنكِ
وتركُكِ جِسمي بعد أخذكِ مهجتي
ضئيلاً فهلاً كَان من قَبْل ذا تركي
فهل حاكِمٌ في الحُبِّ يَحكُم بيننا
فيأْخذَ لي حقي ويُنصفَني منكِ

لسليم في هذه الأبيات هزَجٌ مُطْلَق في مجرى الوسطى، وفي هذه القصيدة يقول يصف قصرا كانوا فيه، وهي من عجيب شعره:

لقد كنتُ يومَ القَصْرِ مما ظَنَنْتَ بي
بريئاً كما أني بريءٌ من الشِّرْكِ
يذَكَّرني الفِردَوسَ طوراً فأرعَوِي
وَطوراً يُواتيني إلى القَصْفِ والفَتْكِ
بِغَرسٍ كأبكارِ الجواري وتُرْبةٍ
كأنّ ثراها ماءُ وَردٍ على مِسْكِ
وسِرْبٍ من الغِزلان يَرتعْن حولهَ
كما استُلّ منظوم من الدُّر من سِلْكِ
وورقاءَ تحكي المَوصِليّ إذا غَدت
بِتغريدها أحبِبْ بها وَبمَن تحْكِي
فيا طِيبَ ذاكَ القصرِ قصراً ومنزلاً
بأفيحِ سهلٍ غيرِ وَعْر ولا ضَنْكِ
كأن قصورَ القومِ ينظرن حولَه
إلى مَلِكٍ مُوفٍ عَلَى مِنبر المُلْكِ
يُدِلّ عليها مستطيلاً بِظِله
فيَضحكُ منها وهي مُطرقةٌ تبكي

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال حدثني علي بن عمرو الأنصاري قال سمعت الأصمعي يذكر أن الفضل بن الربيع قال لجلسائه: من أشعر أهل عصرنا؟ فقالوا فأكثروا فقال الفضل بن الربيع: أشعر أهل زماننا الذي يقول في قصر عيسى بن جعفر بالخُرَيْبة

يعني أبا عُيَيْنة:

زُرْ وادِيَ نِعْمَ القَصْرُ والوادي
وحبّذا أهلُه من حاضر بادي
تُزْفاً قَراقيرُه والعِيسُ واقفة
والضبّ والنونُ والملاّح والحادي

أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا محمد بن مجمع قال: تزوج سعيد بن عباد بن حبيب بن المهلب بنتَ سفيان بن معاوية بن المهلب -وقد كان تزوجها قبله رجلان فدفنتهما، فكتب إليه أبو عيينة:

رأيتَ أتاتَها فرَغِبْتَ فيه
وكم نصبتْ لغيرك بالأثاثِ
إلى دارِ المَنون فجهّزَتْهمْ
تَحثُّهمُ بأربعةٍ حِثَاثِ
فصَيِّرْ أمرَها بيَدَيْ أبيها
وعَيْشِكَ من حِبالِكَ بالثلاثِ
وإلا فالسلامُ عليكِ منّي
سأبدأ من غدٍ لكِ بالمَراثي

أخبرني محمد بن مزيد الصولي قال: حدثنا حماد بن إسحاق عن أبيه، قال: كان علي بن هشام قد دعاني وداعا أبا عيينة وتأخرتُ عنه حتى اصطبحنا شديداً، وتشاغلتُ برجل كان عندي من الأعراب، وكان فصيحاً لأكتبَ عنه، وكان عنده بعض من يعاديني، قال حماد: كأنه يُومئ بهذا القول إلى إبراهيم بن المهدي، فسأل أبا عيينة أن يعاتبني بشِعْر ينسبني فيه إلى الخُلْف فكتب إلي:

يـا مَليئـاً بالوَعْـدِ والخُلْـفِ والمَـطْ
لِ بطيئـاً عـن دعـوة الأصحـابِ
لهِجـاً بالأعْـرابِ إنّ لدينيـا
بعضَ مَـنْ تشـتهي مِن الأعرابِ
قـد عَرَفْنـا الـذي شُـغِلْتَ بـه عنّـا
وإنْ كان غيـرَ مـا فـي الكِتَـابِ

قال: فكتبتُ إلى الذي حمل أبا عيينة على هذا، يعني إبراهيم بن المهدي:

قد فهمتُ الكتابَ أصلحكَ الله وعندي إليكَ ردُّ الجوابِ

ولعمـري مـا تُنصفـون ولا كان
الـذي جـاء منكـمُ فـي حِسـابي
لسـتُ آتيـكَ فاعلمـنّ ولا لـي
فيـكَ حـظٌّ من بعـد هـذا الكتابِ

أخبرني عيسى بن الحسين الوراقي قال حدثني عبد الله بن أبي سعد قال: حدثني إبراهيم بن إسحاق العمري قال: حدثنا أبو هاشم الإسكندراني، عن ابن لَهِيعة قال: حُفِرَ حَفْرٌ في بعض أفنية مكة، فوُجِد فيه حجرٌ عليه منقوش:

مـا لا يكـونُ فـلا يكـون بحيلـةٍ
أبـداً، ومـا هـو كائـنٌ سـيكونُ
سـيكونُ مـا هـو كائـنٌ فـي وقتِـهِ
وأخـو الجهالـةِ مُتعَـبٌ محـزونُ
يسـعى القـويُّ فـلا ينـالُ بسـعيه
حظـا ويحظـى عاجـزٌ ومَهيـنُ

قال ابن أبي سعد: هكذا في الحديث، وقد أنشدني هذه الأبيات جماعة لأبي عيينة.

حدثني عمي قال، حدثني عمر بن محمد بن عبد الملك، قال: حدثني علي بن عمروس الأنصاري عن الأصمعي قال: قال لي الفضل بن الربيع: يا أصمعي، من أَشْعَرُ أهلِ زمانك؟ فقلتُ: أبو نواس قال: حيث يقول ماذا؟ قلتُ: حيث يقول:

أما ترى الشمسَ حَلّت الحَمَلا
وقام وزنُ الزمان فاعتدلا

فقال: والله إنه لذهن فطن، وأشعر عندي منه أبو عيينة .

حدثني عمي، قال: حدثني فضل اليزيدي: عن إسحاق أنه أنشده لأبي عيينة في دنيا التي كان يُشبِّب بها، وقد زُوِّجتْ وبلغه أنها تُهدى إلى زوجها، وكان إسحاق يستحسن هذا الشعر ويستجيده:

أرى عهدَها كالوردِ ليسَ بدائمٍ
ولا خيرَ فيمَن لا يدومُ لهُ عهدُ
وعهدي لها كالآسِ حسناً وبهجةً
لهُ نضرَةٌ تبقى إذا ما انقضى الوردُ
فما وجد العُذرِيُّ إذ طال وجدهُ
بعفراء حتّى سلّ مهجَتَه الوجدُ
كوَجدي غداةَ البينِ عندَ التِفاتِها
وقد شَفَّ عنها دون أترابِها البُرْدُ
فقُلتُ لأصحابي هي الشمس ضوؤها
قريبٌ ولكن في تناولها بُعْدُ

وإنّـي لمَـن تهـدى إليـهِ لحاسِـدٌ
جـرى طائـري نحسـاً وطائِـرهُ سَـعْدُ

أخبرني عمي قال حدثني أحمد بن يزيد المهلبي قال: سألت أبي عن دنيا التي ذكرها أبو عيينة بن محمد بن أبي عيينة في شعره، وقلت: إن قوماً يقولون: إنها كانت أَمَة لبعض مغني البصرة، فقال: لا يا بني، هي فاطمة بنت عمر بن حفص هَزَارَ مَرْدَ بن عثمان بن قبيصة أخي المهلب، وكان عيسى بن سليمان بن علي أخو جعفر ابن سليمان تزوجها، وهجاه عبد الله بن محمد بن أبي عيينة، أخو أبي عيينة فقال:

أفاطـمَ قـد زُوِّجتِ عيسـى فأبشـري
لديـه بـذُلٍّ عاجـلٍ غيـرِ آجِـلِ
فإنّـكِ قـد زُوِّجتِ عن غيـر خبـرةٍ
فتـى من بني العباس ليس بعاقِلِ

وذكر باقي الأبيات، وقد مضت متقدماً.

قال أحمد بن يزيد: ثم أنشدني أبي لأبي عيينة يصرح بنسبه الجامع له ولفاطمة من أبيات له:

ولأَنْـتِ إنْ مـتُ المصابـةُ بـي
فتجنّبنـي قتلـي بـلا وِتْـرِ
فلئـن هلكـتُ لتلطمـنْ جزعًـا
خديـلكِ قائمـةً علـى قبـري

قال أحمد: وأنشدني أبي أيضاً في تصديق ذلك، وأنه كان يَكني بدنيا عن غيرها:

مـا لدُنيـا تجفـوكَ والذنـبُ منهـا
إنّ هـذا منهـا لَخَـبٌّ ومَكْـرُ

عرفتْ ذنبَها إليّ فقالتْ
ابدأوا القومَ بالصياحِ يَفِرّوا
قد أمرتُ الفؤادَ بالصبرِ عنها
غيرَ أنْ ليس لي مع الحُبِّ أمْرُ
وكتمتُ اسمَها حِذارًا من النّاس
ومن شَرِّهمْ وفي الناسِ شَرُّ
ويقولون بُحْ لنا باسْمِ دُنيا
واسْمُ دُنْيا سِرٌّ على الناسِ ذُخْرُ
ثم قالوا ليعلموا ذاتَ نفسي
أَعَوانٌ دُنْياكَ أم هي بِكْرُ ؟
فتنفّسْتُ ثم قلتُ أبِكْرٌ
شَبَّ يا إخوتي عن الطوْقِ عَمْرو

أخبرني جعفر بن قدامة قال: حدثني هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال: حدثني أبو خالد الأسلمي قال: كان ابن أبي عيينة المهلبي صديقي، وهو أبو عيينة بن المنجاب بن أبي عيينة، فجاءه رجل من جيرانه كان يستثقله، فسأله حاجة فقضاها، ثم سأله أخرى فوعده بها، ثم سأله ثالثة فقال:

خَفِّفْ على إخوانِكَ المُؤَنَا
إنْ شِئْتَ أنْ تَبْقى لهم سَكَنا
لا تُلْحِفَنّ إذا سألتَ ففي ال
إلْحافِ إجْحافٌ بهمْ وعَنَا

فقام الرجل وانصرف.

أخبرني أبو دُلَف هاشمُ بن محمد، قال: حدثني المُبرِّد قال: وَفَد ابنُ أبي عُيَيْنة إلى طاهر بن الحسين يسأله أن يَعْزِلَ أميرَ البصرة، وكان من قِبَلِه فدافعه، وعرض عليه عوضاً خطيراً من حاجته، ووعده أن يستصلح له ذلك الأمير ويُزيلَه عما كرهه، فأبى عزله وأجزل صلته، فقال ابن أبي عيينة فيه:

يـا ذا اليَمِينَيْـنِ قـد أوْقَرْتَنـي مِنَنًـا
تَثْـرَى هـي الغاية القُصْوى من المِنَنِ
ولسـتُ أسْـطيعُ من شـكرٍ أجيء به
إلا اسْـتطاعةَ ذي رُوحٍ وذي بَـدَنِ
لـو كنـتُ أعرفُ فـوق الشُّـكرِ منزلة
أوفـى من الشـكرِ عند الله في الثَّمَنِ
أخْلصتُهـا لـك مـن قلْبـي مُهَذَّبَـةً
حذواً على مِثْلِ ما أوليتَ من حَسَـنِ

أخبرني محمد بن القاسم الأنباري قال: حدثني أبي عنه أبي عكرمة عامر بن عمران، وأخبرني به عمي عن أحمد بن يزيد المهلبي عن أبيه قال: كان إسماعيل بن سليمان والياً على البصرة خليفة لطاهر بن الحسين، فأساء مجاورة ابن أبي عيينة حتى تباعد بينهما وقبح، وأظهر إسماعيل تنقصه وعيبه، فخرج إلى طاهر ليشكو إسماعيل، ويسعى في عزله عن البصرة، فبعد ذلك عليه بعض البعد، وسافر طاهر بن الحسين إلى وجه أمر بالخروج إليه، فصحبه ابن أبي عيينة في سفره، فتذمم من ذلك، وأمر بإيصاله إليه، فلما دخل ابن أبي عيينة إليه سأله عن حوائجه وأدناه، وأمره برفعها فأنشده:

مـن أوحشـته البـلادُ لَـمْ يَقُـم
فِيهَـا ومـن آنسـته لَـمْ يَـرِمِ

ومـن يَبِـتْ والهمـومُ قَادِحَـةٌ
فِـي صَـدره بالسُّـهَاد لَـمْ يَنَـمِ
ومـن يـرى النّقْـصَ فِـي مواطِنه
يَـزل عَـنِ النقـص مَوْطِـئَ القَـدَمِ
والقـربُ ممـن ينـأى بحاجتـه
صَـدْعٌ عَلَـى الشـعب غيـرُ مُلتَئِـمِ
وربَ أمـرٍ يعيـا اللبيـبُ بِـهِ
يَحَـارُ مِنْـهُ فِـي حيـرة الظُّلُـم
صَبْـرٌ عَلَيْـهِ كَظْـمٌ عَلَـى مَضَـضٍ
وتَرْكُـه مـن مواقـع النّـدَمِ
يـا ذا اليمينيـن لَـمْ أَزُرْكَ ولَـمْ
آتِـكَ مـن خَلَّـةٍ ولا عَـدَمِ
إِنِّـي مـن اللَّه فِـي مَـرَاح غِنـى
ومُغْتَـدى واسـعٍ وفـي نِعَـم
زَارَتْـكَ مِنِّـي همَّـةٌ منازِعـةٌ
إلـى الْعُـلا مـن كرائـمِ الْهِمَـمِ
وإننـي للجميـلِ مُحْتَمِـلٌ
فِي القدر من منصبي ومن شيمي
وقـد تعلّقْـتُ منـكَ بِالذِّمـم
الْكُبْـرى التي لا تخيبُ فِي الذِّمم

فـإنْ أنـل بُغْيتـي فأنـت لَهَـا
فِـي الحَـقِّ حـقِّ الإخـاء والرَّحـمِ
وإن يَعُـق عائقٌ فلسـتَ عَلَى
جميـلِ رأيٍ عنـدي بمُتّهَـمِ
فِـي قـدر اللّه مَـا أُحَمِّلـه
تعويـقُ أمـري فـي اللـوح والقَلَـمِ
لَـمْ يَضِـقِ الصّبْـرُ والفِجَـاجُ عَلَـى
حُـرٍّ كريـم بالصَّبْـر مُعْتَصِـمِ
مـاضٍ كحَـدِّ السـنان فِـي طرف
العَامِـل أَوْ حَـدِّ مُصْلَـتٍ خَـذِمِ
إِذَا ابتـلاه الزمـان كَشَّـفَهُ
عَـنْ ثَـوْب حُرّيـةٍ وعـن كَـرَمِ
مَـا سـاء ظَنِّـي إلا بواحـدة
فِـي الصَّـدر مَحْصـورةٍ عَـنِ الكَلِـمِ
لِيَهْـنَ قَـوْمٌ جُـزْت المَـدَى بهـم
ولـم تُقَصِّـر بهـم ولـم تُلَـمِ
وليـس كلُّ الـدلاء راجعـة
بالنصـف مـن مَلْئِهـا إلـى الـوَذِمِ
ترجـع بالحمـأة القليلـة أحيانـا
ورَنْـقِ الصُّبابـة الأَمَـمِ

مَـا تُنبـتُ الأَرْضُ كلَّ زهرتهـا
ولا تَعُـمُّ السَّـمَاءُ بالدِّيَـم
مَـا بِـي نقـصٌ عَـنْ كلِّ منزلـةٍ
شَـرِيفةٍ والأمـور بالقِسَـمِ

فأجابه طاهر:

مـن تسـتضفْه الهمـومُ لَـمْ ينَـمِ
إلا كنـومِ المريـضِ ذي السَّـقَمِ
ولا يـزلْ قلبُـه يكابـد مَـا
تُولِـدُ الهمـومُ فِيـهِ مـن أَلَـمِ
وقـد سَـمِعتُ الَّـذِي هتفـتَ بِـهِ
ومـا بأذنـي عَنْـكَ مـن صَمَـمِ
وقـد علمنـا أن لَسْـتَ تصحبنـا
لفاقـةٍ فيـكَ لا ولا عَـدَمِ
إلا لحَـقٍّ وحُرْمـةٍ وعلـى
مثلـكَ رَعْـيُ الحقـوقِ والذِّمَـمِ
أنـت امـرؤ لا تـزولُ عَـنْ كَـرَمٍ
إلا إلـى مثلِـه مـن الكَـرَمِ
وأنـتَ مـن أسْـرةٍ جَحَاجِحَـةٍ
فـازوا بحُسْـنِ الفَعـال والشِّـيَمِ
فمـا تَـرُمْ مـن جسـيم منزلـةٍ
فالحكـمُ فِيـهِ إِلَيْـكَ فاحتكـمِ

إن كنت مستسقيًا سماحتَنا
مِنّا تَجُدْكَ اليَدانِ بالدِّيَمِ
أَوْ تَرمِ فِي بحرنا بدلوك لا
نُعْدِمْكَ مَلْأ لها إلى الوَذِمِ
إنا أناسٌ لَنَا صنائعُنا
فِي العُرْبِ معروفةٌ وفي العَجَمِ
مُغْتَنِمو كسْبِ كلِّ مَحْمَدَةٍ
والكسبُ للحمدِ خَيْرُ مُغتنَمِ

فاحتكم عليه أبو عيينة في عزل إسماعيل بن جعفر عن البصرة، فعزله عنها وأمر له بمائة ألف درهم.

فقال أبو عيينة في عزله إسماعيل بن جعفر عن إمارة البصرة:

لا تَعْدَمِ العزلَ يا أَبَا حَسَنِ
ولا هُزالا فِي دولةِ السِّمَنِ
ولا انتقالا من دارِ عافيةٍ
إلا إلى ديارِ البلاء والفِتَنِ
أَنَا الَّذِي إنْ كفرتَ نعمتَه
أذبتُ مَا فِي جنبيكَ من عُكَنِ

حدثني عيسى بن الحسين قال: حدثني محمد بن عبد الله الحَزَنْبَل الأصبهاني قال: كان ابن أبي عيينة قد هجا نزاراً بقصيدة له مضهورة، وفضّل عليها قحطان، فقال ابن زَعْبَل يهجوه ويرد عليه، واسمه عمرو بن زَعْبَل:

بُنَـيَّ أبـي عُيَيْنـةَ مـا
نطقـتَ بـه مـن اللَّغَـطِ؟
علـى مـا أنـتَ مُلتحِـفٌ
مـن الأوجـاعِ فـي الوَسَـطِ
لمـا فـي الدُّبْـرِ مـن نَغَـلٍ
وما في العِرْضِ من سَـقَطِ
أتَتْنـا الخَمْـسُ والمائتـانِ
بـالـنَّـعْـمـاء والـغـبَـطِ
أميـرٍ مـن هِـلالٍ
مسـتطيلِ البـاعِ مُنبسِـطِ
شـريفٍ ليـس بالمَدْخـولِ
فـي عِـرْضٍ ولا رَهَـطِ
أظنُّـكَ مـن يديْـه
واقعـاً لا شـكَّ فـي وَرَطِ
ووالـى الخَـرْجِ فيّـاضُ
اليديـن بنائـلٍ سَـبِطِ
لـه نِعَـمٌ حبَـاكَ بهـا
فلـم تَحفـظْ ولـم تَحُـطِ
وقـاضٍ مـن أميـرِ
المؤمنيـن يقـوم بالقِسَـطِ

يَسـرُّكَ أنّـه مـن
آلِ قحطـانٍ علـى شَـحَطِ
وأنّـكَ إن ذُكِـرْتَ يُقـالُ
شـيخٌ فاسـقُ الشَّـمَطِ
أعَبْـدٌ مِـنْ عبيـدِ عُمَـانَ
عـاب مناقـبَ السّـبطِ
وتهجـو الغُـرَّ مـن مُضَـرٍ
كفـى هـذا مـن الشَّـطَطِ
تيَمّـمْ فـي مُقَيَّـرَةٍ
مسـيراً غيـرَ مغتبـطِ
مُجَوَّفـةٍ مُزيَّنـةٍ
بـوَذْعٍ لاحَ كالرَّقَـطِ
بنُـوكَ تجرُّهـا بالقَلْـسِ
مُؤتزريـنَ بالفُـوَطِ
متـى غَمَسـوا مَراديَهـمْ
لِجِـدِّ السـيرِ تَحْتلِـطِ
وأنـتَ بموضـع السُـكّانِ
يُمْسِـكُه بـلا غَلَـطِ
عليـكَ عَبَـاءةٌ مشـكوكةٌ
بالشـوكِ لـم تُخَـطِ

فطيَّـبَ ريـحَ بَلْدَتِنـا
فـرارُكَ خِيفـةَ الشُّـرَطِ
وأنّـكَ قـد عُرِفـتَ بكثـرةِ
التخليـطِ والغَلَـطِ
ترى الخُسْـرانَ إنْ لم تَزْنِ
فـي يـوم ولـم تَلُـطِ

قال: وكان ابن أبي عيينة لما هجا نزاراً بلغ شعرُه المأمونَ، فنذر دمَه، فهرب من البصرة وركب البحر إلى عُمان، فلم يزل بها متواريا في نواحي الأزد حتى مات المأمون.

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال: حدثني ابن مَهْرُوَيْه عن أبيه بقصة ابن أبي زَعْبَل، فذكر نحو الخبر المتقدم.

حدثني عمي قال: حدثني أحمد بن يزيد المهلبي؛ قال: حدثني أبي قال: كان ابن أبي عيينة يشبب بوهبةَ جاريةِ القَرَويّ، وهي التي يقول فيها فروج الزنى قوله:

يا وَهْبَ لم يبقَ لي شـيء أسَـرُّ به
إلا الجلـوس فتسـقيني وأسـقيكِ

ثم عدل عن التشبيب بها إلى دُنيا، وذكرهما جميعاً في شِعْرِه فقال:

أرسـلتْ وَهْبَـةُ لمّـا رأتْنـي
بعـد سُـقْمٍ مـن هواهـا مُفيقـا
أتَغيّـرْتَ كأنْ لـم تكـنْ لـي
قبْـلَ أن تعـرفَ دُنيـا صديقـا
قـد لعمـري كان ذاك ولكـنْ
قطعـتْ دُنيـا عليـكِ الطريقـا

أخبرني عمي قال: حدثني أحمد بن يزيد عن أبيه قال: لما ولي عمر بن حفص هَزَارَ مَرْدَ بالبصرة، قال ابن أبي عيينة في ذلك وفي دنيا يكني بها عن فاطمة بنت عمر بن حفص صاحبته:

هنيئـاً لدنيـا هنيئـاً لهـا
قـدومُ أبيهـا علـى البصـره
علـى أنهـا أظهـرتْ نخـوة
وقالـت لـي الملـكُ والقـدره
فيـا نـورَ عينـي كـذا عاجـلاً
علـي تطاولـتِ بالإمـره

قال: وهذا دليل على أنه كان يَكني عن فاطمة بدنيا، لا أنه كان يهوى جاريتها دنيا.

قال أحمد بن يزيد: وفيها يقول أيضاً:

يـا حُسـنَها لمّـا قالَـت لـي مُوَدِّعَـةً
لا تنـسَ ما قلتَ، مِنْ فيهـا إلى أُذُني
كأنَّنـي لـم أصِـلْ دُنيـا علانيـةً
ولَـم أَزُرْ أهـلَ دنيـا زورَةَ الختَـنِ
جسـمي معي غيرَ أنّ الـروحَ عندكُمُ
فالروحُ في وطنٍ والجسمُ في وطنِ
فليَعجَبِ الناسُ منّي إنّ لـي جسَـداً
لا روحَ فيـه ولـي روحٌ بـلا بَـدَنِ

وفي هذه الأبيات هزج طنبوري محدث.

أخبرني عمي قال: حدثني أحمد بن يزيد عن أبيه قال: ورد على ابن أبي عيينة كتاب من بعض أهله بأن أخاه داود خرج إليه ببريد، فمات بهمذان، فقال ابن أبي عيينة عند ذلك يرثيه:

أنائحـةَ الحمَـامِ قفـي فنوحـي
على داودَ رهنـا فـي ضريـحِ
لـدى الأجيال من هَمذان راحتْ
بـه الأيـام للمـوت المُريـحِ
ولـم يَشْـهَدْ جنازتَـه البواكـي
فتبكيـه بمُنْهَـلٍّ سَـفُوحِ
وكونـي مثْلَـه إذ كان حَيّـا
جـواداً بالغَبُـوقِ وبالصَّبُـوحِ
أنائحـة الحمـام فـلا تَشـحّي
عليـه فليـس بالرجـلِ الشـحيحِ
ولا بمُثَمِّـرٍ مـالاً لدُنيـا
ولا فيهـا بمِغْمـار طَمُـوحِ
يبيـعُ كثيـرَ مـا فيهـا بباقٍ
ثميـنٍ مـن عواقبـه ربيـحِ
ومِـنْ آلِ المُهَلَّـبِ فـي لُبَـابٍ
لُبـابِ الخالـصِ المَحْـضِ الصريحِ
همـو أبنـاء آخِـرةٍ ودُنيـا
وأهـدافُ المَراثـي والديـحِ

أخبرني عمي، قال: حدثنا أحمد بن يزيد عن أبيه قال: قدم أبو عيينة إلى الكوفة في بعض حوائجه، فعاشره جماعة من وجوه أهلها، وأقام بها مدة، وألف فيها قينة كان يعاشرها وأحبها حباً شديداً، فقال فيها:

لَعَمْـري لقـد أعطيـتُ بالكوفةِ المُنَى
وفـوق المُنَـى بالغانيـات النّواعِـمِ
ونادمتُ أختَ الشـمس حسـناً فوافقتْ
هـوايَ ومثْلـي مثْلَهـا فَلْيُنـادِمِ
وأنشـدتُها شِـعْري بدُنْيـا فعَزْبَـدَتْ
وقالـتْ: مَلُـولٌ عَهْـدُه غيـرُ دائـمِ
فقلـتُ لهـا يـا ظبيـةَ الكوفـة اغفـري
فقـد تبـتُ مِمّـا قلـتُ توبـةَ نـادِمِ
فقالـتْ قـد اسـتوجبْتَ منّـا عقوبـةً
ولكنْ سنرعى فيكَ روحَ ابنِ حاتِمِ

قال أحمد بن يزيد، قال لي أبي: كان لابن أبي عيينة بستان وضيعة في بعض قطائع المهلب بالبصرة، فأوطنها وصيرها منزله، وأقام بها، وفيها يقول:

يـا جَنّـةً فاقـتِ الجِنَـانَ فمـا
تبلغهـا قيمـةُ ولا ثمـنُ
أَلِفْتُهـا فاتخذتُهـا وطنـاً
إنّ فـؤادي لأهلهـا وطـنُ
زُوِّجَ حيتانُهـا الضِّبـابَ بهـا
فهـذه كَنّـةٌ وذا خَتَـنُ
فانظـرْ وفكّـرْ فيمـا نطقـتُ بـه
إنّ الأريـبَ المُفكِّـرُ الفَطِـنُ

مِـنْ سُـفُنٍ كالنّعَـامِ مقبلـةٍ
ومِـنْ نَعَـامٍ كأنّهـا سُـفُنُ

أخبرني عيسى بن الحسين قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الموصلي، أن أبا عيينة أنشده لنفسه:

صوت

لا يكنْ منكِ ما بدا لي بعينيكِ من اللحظِ حيلةً واختداعا
إن يكنْ في الفؤاد شيء وإلا
فدعِيني لا تقتليني ضَياعا
فلعلي إذا قربتُ تباعدتِ
وأظهرتِ جَفْوةً وامتناعا
حين نفسي لا تستطيع لما قد
وقعتْ فيه من هواها ارتجاعا

في هذه الأبيات رَمَل مطلق مُحْدَث.

أخبرني عمي قال: حدثني أحمد بن يزيد قال: حدثني أبي قال: كان عبد الله بن محمد بن أبي عيينة أخو أبي عيينة شاعراً، وهو القائل يعاتب محمد بن يحيى بن خالد البرمكي بأبيات رائية أولها:

اسْلَمْ وإن كان فيكَ عنّي
قَبْضٌ لكفيكَ وازْوِرَارُ
تلحظني عابساً قَطوبًا
كأنما بي إليك ثارُ

لـو كان أمـرٌ عتبـتَ فيـه
يجـوز منـه لـيَ اعتـذارُ
أو كنـتُ سَـآلةً حريصـا
لحـان منـي لـكَ الفـرارُ
أو كنـتُ نـذلاً عديـمَ عقـل
لا منصـبٌ لـي ولا نِجَـارُ
أولـم أكـن حامـلاً بنفسـي
مـا تحمـل الأنفـسُ الكبـارُ
وأننـي مـن خيـار قومـي
وكل أهلـي فتـى خِيَـارُ
عـذرتُ إن نالنـي جفـاء
منـكَ وإن نالنـي ضِـرَارُ
لكـنّ ذنبـي إليـك أني
قحطـانُ لـي الجَـدُّ لا نِـزَارُ
عليـكَ منـي السـلامُ، هـذا
أوانَ ينـأى بـي المَـزَارُ
مـا كنـتُ إلا كلَحْـمِ مَيْـتٍ
دعـا إلـى أكلـه اضطـرارُ
راحت على الناس لابن يحيى
محمـدٍ ديمـةٌ غِـزَارُ
ولـم يكـن مـا أنلـتُ منـه
بقـدر مـا ينجلـي الغُبَـارُ

قـد أصبح الناس في زمان
أعلامُـه السِّـفْلَةُ الشِّـرَارُ
يسـتأخر السـابقُ المذكِّـي
فيـه ويسـتقدم الحِمَـارُ
وليـس للمـرء مـا تمنّـى
يومـاً ومـا إن لـه اختيـارُ
مـا قـدّر اللهُ فهـو آتٍ
وفـي مقاديـرِه الخيـارُ

أخبرني عمي قال: حدثنا أبو هَفّان، قال: كان ابن أبي عيينة قد قصد ربيعة بين قَبيصة بن روح بن حاتم المعلبي واستماحه، فلم يجد عنده ما قدر فيه، فانصرف مغاضباً، فوجه إليه داود ابن مزيد بن حاتم بن قبيصة، وبلغ ما أحبه ورضيه من بره، ومعونته، فقال يمدحه ويهجو قبيصة:

أقبيصَ لستَ وإن جهدتَ بمدرِكٍ
سَـعْيَ ابنِ عمِّكَ ذي العُـلا داودِ
شـتّانَ بينـكَ يـا قبيـصَ وبينَـه
إن المُذَمَّـمَ ليـس كالمحمـودِ
اختـار داودٌ بنـاءَ محامـدٍ
واختـرتَ أكلَ شـبارقٍ وثَريـدِ
قـد كان مجـدُ أبيـكَ لـو أحببتَـه
رَوْحٍ أبـي خَلَـفٍ كمجـد يزيـدِ

لكـن جـرى داود جَـرْيَ مُبـرِّزٍ
فحوى المدى وجريتَ جريَ بليدِ
داودُ محمـودٌ وأنـتَ مذمَّـمٌ
عجبـاً لـذاك وأنتمـا مـن عُـودِ
ولـرُبَّ عُـودٍ قـد يُشَـقُّ لمسـجدٍ
نصفـاً وسـائرُه لحُـشِّ يهـودِ
فالحُـشُّ أنـتَ لـه وذاك لمسـجدٍ
كـم بيـن موضـع مَسْـلَحٍ وسـجودِ
هـذا جـزاؤك يـا قبيـصَ لأنـه
جـادتْ يـداه وأنـتَ قفـلُ حديـدِ

حدثني جعفر بن قدامة قال: حدثنا حماد بن إسحاق قال: حدثني أبي قال: كانت لأبي حذيفة مولى جعفر بن سليمان جارية مغنية يقال لها: بستان، فبلغه أن أبا عيينة بن محمد بن عيينة ذكر لبعض إخوانه محبته لها ولاستماع غنائها فدعاه، وسأله أن يطرح الحشمة بينه وبينه، فأجابه إلى ذلك، وقال لما سكر وانصرف من عنده في ذلك:

ألـم تَرَنـي علـى كسَـلي وفَتـري
أجبـتُ أبـا حذيفـة إذ دعانـي
وكنـتُ إذا دُعِيـتُ إلـى سَـمَاعٍ
أجبـتُ ولـم يكـن منـي توانـي
كأنـا مـن بَشاشـتِنا ظَلِلْنـا
بيـومٍ ليـس مـن هـذا الزمـانِ

أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا محمد بالقاسم بن مهرويه قال: حدثني محمد بن عمثان قال: كانت لعيسى بن موسى ضيعة إلى جانب ضيعة ابن أبي عيينة بالبصرة، وكان له إلى جانب ضيعته سماد كثير، فسأله أن يعطيه بعضه ليعمر ابن أبي عيينة به ضيعته، فلم يفعل فقال فيه:

رأيتُ الناسَ همهمُ المعالي
وعيسى همُّه جمعُ السَّمَادِ
ورِزْقُ العالمين بكفِّ ربّي
وعيسى رزقُه في اسْتِ العِبَادِ

هكذا ذكره ابن مهرويه، وهذا بيت فاسد، وإنما هو:

إذا رزق العباد فإن عيسى
له رزق من استاه العبادِ

ولابن أبي عيينة مع ابن عمه خالد أخبار جمّة أذكرها هاهنا والسبب الذي حمله على هجائه: أخبرني علي بن سليمان الأخفش ببعضها، عن محمد بن يزيد المُبرِّد، وببعضها عن أحمد بن يزيد المهلبي عن أبيه، وقد جمعت روايتهما فيما اتفقا عليه، ونسبت كل ما انفرد به أحدهما أو خالف فيه إليه، وذكرت في فصول ذلك وخلاله ما لم يأتيا به مما كتبته عن الرواة، قالا جميعاً: وَلِيَ خالدُ بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب جُرْجَان، فسأل يزيد بن حاتم أبا عيينة أن يصحبه ويخرج معه، ووعده الإحسان والولاية، وأوسع له المواعيد. وكان أبو عيينة جندياً، فجرد اسمه في جريدته، وأخرج رزقه معه، فلما حصل لجرجان أعطاه رزقه لشهر واحد، واقتصر على ذلك، وتشاغل عنه وجفاه، فبلغه أنه قد هجاه وطعن عليه، وبسط لسانه فيه، وذكره بكل قبيح عند أهل عمله ووجوه رعيته، فلم يقدر على معاقبته، لموضع أبيه وسنه ومحله في أهله، فدعا به، وقال له: إنه قد بلغني أنك تريد أن تهرب فإما أن أقمت لي كفيلاً برزقك أو رددته، فأتاه بكفيل فأعنته، ولم يقبله، ولم يزل يردده حتى ضجر، فجاءه بما قبض من الرزق فأخذه.

ولجّ أبو عيينة في هجائه وأكثرَ فيه حتى فضحه، فقال في هذا عن أحمد بن يزيد المهلبي:

دُنيا دعوتُكِ مسرعاً فأجيبي
وبما اصطفيتُك في الهوى فأثيبي
دومي أدمْ للكِ بالصفاء على النوى
إني بعهدكِ واثقٌ فثِقي بي
ومن الدليل على اشتياقي عَبْرتي
ومشيبُ رأسي قبلَ حين مشيبي
أبكي إليكِ إذا الحَمَامة طرّبَتْ
يا حُسْنَ ذاكِ إليَّ من تطريبِ
تبكي على فَنَنِ الغصون حزينةً
حزنَ الحبيبةِ من فراق حبيبِ
وأنا الغريبُ فلا ألام على البُكا
إن البُكا حَسَنٌ بكل غريبِ
أفلا يُنادَى للقفولِ برحْلةٍ
تَشفي جَوىً من أنفُسٍ وقلوبِ
ما لي اصطفيتُ على التعسُّف خالداً
والله ما أنا بعدها بأريبِ
تبّاً لصُحْبةِ خالِدٍ من صُحْبة
ولخالدِ بنِ يزيدَ من مَصْحوبِ
يا خالد بن قبيصةٍ هيّجْتَ بي
حرباً فدونكَ فاصطبرْ لحُروبي

لمّـا رأيـتُ ضميـر غِشّـكَ قـد بـدا
وأبيـتَ غيـرَ تَجَهُّـمٍ وقُطـوبِ
وعرفـتُ منـكَ خلائقًـا جرّبْتُهـا
ظهـرتْ فضائحُهـا علـى التَّجريـبِ
خلّـتُ عنـكَ مُفارِقًا لكَ عن قِلًى
ووهبـتْ للشـيطانِ منكَ نَصيبي
فلَئِـنْ نظـرتُ إلـى الرُّصَافـةِ مَـرّةً
نظـراً يُفـرِّجُ كُرْبـةَ المَكْـروبِ
لأُمَزِّقَنّـكَ قائمـاً أو قاعـداً
ولأرويـنّ عليـكَ كلَّ عجيـبِ
ولَتَأتيَـنَّ أبـاكَ فيـكَ قصائـدٌ
حبَّرتُهـا بتَشَـكُّرٍ مَقْلـوبِ
ولَيَنشَـدَنّ بهـا الإمـامُ قصيـدة
ولَتُشْـتَمَنّ وأنـتَ غيـر مَهيـبِ
ولأُوذِيَنّـكَ مثلَمـا آذيتَنـي
ولأُشْـلِيَنّ علـى نِعَاجِـكَ ذِيبـي

قال أحمد بن يزيد في خبره: حدثني أبي قال: أعرس داود بن محمد بن أبي عيينة أخو أبي عيينة بالبصرة، وأخوه غائب يومئذ مع ابن عمه خالد بجرجان، فكتب داود إلى أخيه يخبره بسلامته وسلامة أهل بيته، وبخبر نقله أهله إليه، فقال أبو عيينة في ذلك:

ألا مـا لِعينـكَ مُعْتلّـهْ
ومـا لدموعـكَ مُنهلّـهْ

وكيف بجُرْجانَ صَبرُ امْرئٍ
وحيدٍ بها غيرِ ذي خُلّهْ
وأطْوِلْ بليلِكَ أطْوِلْ به
إذا عَسْكرَ القومُ بالأَثْلَهْ
وراعكَ من خيلِه حائرٌ
من القومِ ليستْ له قِبْلهْ
يسوقُكَ نحوهمُ مُكْرَهاً
وداودُ بالمِصْرِ في غَفْلَهْ
غروسٌ ينعّم من تحته
سريرٌ ومن فوقه كِلّهْ
وما مُدْنَفٌ بين عُوّادِه
يُنادَى وفي سمعِه ثَقْلَهْ
بأوجعَ منّي إذا قيل لي:
تأهّبْ إلى الريِّ بالرِّحْلَهْ
ومالي وللرّيِّ لولا الشقا
ءُ إنْ كنتُ عنها لفي عُزْلَهْ
أُكلَّفُ أجبالَها شاتيا
على فرَسٍ أو على بَغْلَهْ
وأهْونُ من ذاكَ لو سَهّلوه
ركوبُ القَراقيرِ في دِجْلَهْ

تـروحُ إلينـا بهـا طَرْبـةً
رواحَ النّدامـى إلـى دَلَّـهْ
أخالـدُ خُـذْ مـن يـدي لَطْمَةً
تغيـظُ ومـن قَدَمـي رَكْلَـهْ
جمعتَ خِصـالَ الرّدى جُمْلةً
وبعـتَ خِصـالَ النَّدَى جُمْلَهْ
فمالَكَ في الخيـرِ من خَلّةٍ
وكم لكَ في الشّـرِّ من خلّهْ
ولمّـا تَناضَـلَ أهـلُ العُـلا
نُضِلْـتَ فأذعنـتَ للنّضْلَـهْ
فما لَكَ فـي المجـدِ يـا خالدٌ
مُقَرْطَسَـةٌ لا ولا خَصْلَـهْ
وأسـرعتَ في هـدمِ ما قد بنى
أبـوكَ وأشـياخُه قَبْلَـهْ
وكانـت مـن النّبْـعِ عيدانُهـم
نُضَـاراً وعـودُكَ مـن أَثْلَـهْ
فيـا عجبـاً نَبْعـةٌ أنبتـتْ
خلافـاً ورَيْحانـةٌ بَقْلَـهْ
ثيابُـكَ للعبـدِ مطويّـةٌ
وعِرْضُـكَ للشّـتْم والبِذْلَـهْ

أجَعْـتَ بنيـكَ وأعرّيتَهـم
ولم تُؤتَ في ذالكَ من قِلّهْ
إذا مـا دُعينـا لقبـضِ العطـاءِ
وهيّـأتَ كيسَـكَ للغَلّـهْ
وجُلّـة تَمْـرٍ تُغـادى بهـا
فتأتـي علـى آخِـر الجُلّـهْ
وتُقصـي بَنيـكَ وهـمْ بالعَـرا
ءِ نُزْلُهـمُ المِلْـحُ والمَلّـهْ
ولـو كان خبـزٌ وتمـر لديـكَ
لمـا طمِعـوا منـكَ فـي فَضْلَهْ
وتُصبـحُ تَقْلِـسُ عـن تُخْمـةٍ
كأنّ جُشَـاءَكَ عـن فُجْلَـهْ
إذا الحَـيُّ راعَهـمُ رائـعٌ
فأوْهَـنُ مـن غـادةٍ طِفْلَـهْ
وليْـثٌ يصـول علـى قِرْنـه
إذا مـا دُعِيـتَ إلـى أكْلَـهْ
فللّٰه دَرُّكَ عنـد الخُـوَا
نِ مـن فارِسٍ صـادقِ الحِمْلَهْ
وإن جـاءكَ الناسُ فـي حاجةٍ
تفكّـرْتَ يوميـن فـي العِلّهْ

وتلقاهـمُ أبـداً كالحـاً

كأنْ قـد عَضَضْـتَ على بَصْلَهْ

فهـذا نصيبـيَ مـن خالـدٍ

لكـم هَنَـة بَتّـةٌ بَتْلَـهْ

وإنـي لصُحبتِـه مُبْغِـضٌ

ولا خيـرَ فـي صُحْبـةِ السِّـفْلَهْ

حدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار الثقفي قال: حدثني أبو الحسن بن المنجم قال: رأيت مسلم بن الوليد الأنصاري يوماً عند أبي، ثم خرج من عنده، فلقيه ابن أبي عيينة، فسلم عليه وتحفى به، ثم قال له: ما خبرك مع خالد؟ قال: الخبر الذي تعرفه، ثم أنشده قوله فيه:

يـا حَفْصُ عـاطِ أخـاكَ عاطِهْ

كأسـاً تُهيّـجُ مـن نشـاطِهْ

قال: ومسلم يتبسم من هجائه إياه حتى مر فيها كلها، ثم ختمها بقوله:

وإذا تطاولـتِ الـرؤ

وسُ فغـطِّ رأسَـكَ ثـم طاطِهْ

فقال مسلم: مَه، إنا لله! هتكتَه والله وأخزيتَه، وإنما كنت أظن أنك تمزح وتهزل إلى آخر قولك حتى ختمته بالجد القبيح، وأفرطت فيما خرجت به إليه، ثم مضى وهو يقول: فضحتَه والله، هتكتَه والله!.

أخبرني عمي قال: حدثني أحمد بن يزيد قال: حدثني أبي قال: لقي دِعْبل أبا عيينة فقال له: أنشدني قولك في ابن عمك فأنشده:

يـا حفصُ عـاطِ أخـاكَ عاطِه

كأسـاً تهَيِّـجُ مـن نشـاطِه

صِرْفاً يعود لوقعِها
كالظَبي أطلَقَ من رباطِه
صبّاً طوت عنه الهمو
مُ نعيمَهُ بعد انبساطِه
فبَكى وحُقَّ له البُكا
لشَقائِهِ بعد اغتباطِه
جزعَ المخَنَّثُ خالِدٌ
لمّا وقَعتُ على قِماطِه
فانظُر إلى نزواتهِ
من منطقي وإلى اختِلاطِه
دعني وإيّا خالدٍ
فلأقطعنّ عُرى نياطِه
إنّي وجدتُ كلامهُ
فيه مشابِهُ من ضُراطِه
رجُلٌ يُعِدُّ لكَ الوعي
دَ إذا وطِئتَ على بساطِه
وإذ انتظَرتَ غداءهُ
فخَفِ البوادِرَ من سياطِه
يا خالِ صدَّ المجدُ عن
كَ فلَن تجوزَ على صراطِه

وعريـتَ من حُلَـلِ الندى
عُـريَ اليتيـم ومـن رياطِـه
فـإذا تطاوَلـتِ الـرؤو
سُ فَغَـطِّ رأسـكَ ثـمّ طاطِـه

قال له دعبل: أغرقتَ والله في النزع وأسرفتَ، وهتكتَ ابنَ عمك وقتلتَه وغضضتَ منه، وإنما استنشدتُك وأنا أظن أنك قلتَ كما يقول الناس قولاً متوسطاً، ولو علمتُ أنك بلغتَ به هذا كله لما استنشدتُك .

أخبرني بهذا الخبر الحسن بن علي وعمي قالا: حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه، قال: حدثني الحسين بن السري قال: لقي دعبل أبا عيينة فقال له: أنشدني بعض ما قلت في ابن عمك، ثم ذكر الخبر مثل ما ذكره أحمد بن يزيد، وقال فيه: إنما ظننتُ أنك قلتَ فيه قولاً أبقيتَ معه عليه بعض الإبقاء، ولو علمتُ أنك بلغتَ به هذا كله وأغرقتَ هذا الإغراق ما استنشدتك، وجعل يعيد "فغط رأسك ثم طاطه"، ويقول: قتله الله!

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال: حدثني محمد بن يزيد قال: ومن مختار ما قاله في خالد قوله:

قُـل لدُنيـا بـاللهِ لا تقطَعينـا
واذكُرينـا فـي بعـضِ مـا تَذكُرينـا
لا تخونـي بالغَيـبِ عهـدَ صديـقٍ
لَـم تخافيـهِ سـاعَةً أن يخونـا
واذكُـري عيشَـنا وإذ تنفُـضُ الـري
حُ علَينـا الخِيـريَّ والياسَـمينا
إذ جعَلنـا الشَّاهِسْـفَرام فِراشـاً
مـن أذى الأرضِ والظـلالَ غُصونـا

حَفِـظَ اللهَ إخوَتـي حيـثُ كانـوا
مـن بـلادٍ سـارينَ أم مدلجينـا
فتيَـةٌ نازِحـونَ عـن كُلِّ عيـبٍ
وهـمُ فـي المـكارم الأوّلونـا
وهـم الأكثـرونَ يعلـمُ ذالـكَ الـن
اس والأطيبـونَ للأطيبينـا
أزعَجَتنـي الأقـدارُ عنهُـم وقَـد كُـن
ـتُ بقُربـي منهُـم شـحيحاً ضنينـا
وتَبَدَّلـتُ خالِـداً لعنَـةُ الـلَ
هِ علَيـهِ ولعنـةُ اللاعنينـا
رَجُـلٌ يقهَـرُ اليتيـمَ ولا يـؤ
تـي زكاةً وينهَـرُ المسـكينا
ويصـونُ الثيـابَ والعـرضُ بـالٍ
ويُرائـي ويمنَـعُ الماعونـا
نَـزَعَ اللهُ منـه صالِـحَ مـا أع
طـاهُ آميـنَ عاجِـلاً آمينـا
فلَعَمـرُ المُبادريـنَ إلـى مـكّـ
ـةَ وفـداً غاديـنَ أو رائحينـا
إنّ أضيـافَ خالـدٍ وبَنيـهِ
ليجوعـون فـوقَ مـا يشـبَعونا

وتَراهُـم مـن غيـرِ نُسـكٍ يصومـو
نَ ومِـن غيـرِ عِلَّـةٍ يحتَمونـا
يـا بنـي خالـدٍ دعـوهُ وفِـرّوا
كَـم علـى الجـوعِ ويحكُـم تصبِرونـا

قال محمد بن يزيد: ومن مشهور شعره فيه قصيدته التي أولها:

ألا خبّـروا إن كان عندَكـمُ خبَـرْ
أنقفـل أم نثـوي علـى الهـمِّ والضجَـرْ؟
نَفى النـومَ عَن عيني تَعَرُّضُ رحلَةٍ
بهـا الهَـمُّ واسـتولى بهـا بعـدَهُ السـهَرْ
فإن أشـكُ من ليلي بجُرجانَ طولَهُ
فقـد كنـتُ أشـكو منـهُ بالبصـرةِ القِصَـرْ
فيـا نفـسُ قـد بُدِّلـتِ بؤسـاً بنِعمَـةٍ
ويـا عيـنُ قـد بُدِّلتِ مـن قُـرَّةٍ عبَرْ
فيـا حبّـذا بطـنُ الخريـرِ وظهـرُهُ
ويـا حسـنَ واديـهِ إذا مـاؤهُ زخَـرْ
ويـا حبَّـذا نهـرُ الأُبُلَّـةِ منظَـراً
إذا مَـدَّ فـي إبّانِـهِ النّهْـرُ أو جـزَرْ
وفتيـانِ صدقٍ همُّهُم طلبُ العُلى
وسـيماهُم التحجيـلُ فـي المجـدِ والغُـرَرْ

لعمري لقد فارقتُهم غيرَ طائعٍ
ولا طيِّبٍ نفساً بذاكَ ولا مُقِرْ
وقائِلَةٍ ماذا نأى بكَ عنهُمُ
فقلتُ لها لا علمَ لي فسَلي القدَرْ
فَيا سَفَراً أودى بلهوي ولَذَّتي
ونَغَّصَني عيشي عدِمتُكَ من سَفَرْ
دعوني وإيّا خالدٍ بعدَ ساعةٍ
سيَحمِلهُ شِعْري على الأبلَقِ الأغَرْ
كأني بصِدقِ القولِ لمّا لقيتهُ
وأعلَمتهُ ما فيه ألقَمتهُ الحجَرْ
دَنيءٌ به عَن كلّ خيرٍ بلادَةٌ
لكل قبيحٍ عن ذراعيه قد حسَرْ
له منظَرٌ يُعمي العيونَ سماجةً
وإن يُختَبَرْ يوماً فيا سُوءَ مختبَرْ
أبولكَ لنا غيثٌ يُعاشُ بوَبْلِ
وأنتَ جرادٌ لس يُبقي ولا يَذَرْ
لهُ أثَرٌ في المكرماتِ يسرُّنا
وأنتَ تُعَفّي دائماً ذلك الأثَرْ
لَقَد قُنّعَتْ قحطانُ خِزياً بخالِدٍ
فهَل لكَ فيه يُخزِكِ اللهُ يا مُضَر

أخبرني عيسى بن الحسين قال: حدثني الزبير بن بكار قال: حدثني عمي قال: أنشد الرشيد قول بن أبي عيينة:

لَقَـد قُتّعَـتْ قحطـانُ خِزيـاً بخالِـدٍ
فهَـل لـلـكِ فيـه يُخـزِلـكِ اللهُ يـا مُضَـر

فقال الرشيد: بل يُوَقَّرون ويُشكرون.

أخبرني محمد بن يحيى الصولي قال: قال لنا أبو العباس محمد بن يزيد: لم يجتمع لأحد من المُحْدَثِين في بيت واحد هجاء رجل ومديح أبيه كما اجتمع لابن عيينة في قوله:

أبـوكَ لنـا غيـثٌ يُعـاشُ بوَبْلِـه
وأنـتَ جـرادٌ لـس يُبقـي ولا يَـذَرْ

وقال محمد بن يزيد: ومن جيد قوله أيضا يهجو خالدا هذا:

علـى إخوتـي منّـي السـلامُ تحيَّـةً
تحِيَّـةَ مُثـنٍ بالأُخـوَّةِ حامـدِ
وقُـل لهـمُ بعـدَ التحيَّـةِ أنتُـمُ
بنَفسـي ومالي من طريـفٍ وتالدِ
وعَـزَّ عليهِـم أن أقيـمَ ببَلـدَةٍ
أخـا سَـقَمٍ فيهـا قليـلَ العوائـدِ
لئِن ساءَهُم ما كان من فعـلِ خالِدٍ
لَقَـد سـرَّهُم مـا قـد فعَلـتُ بخالـدِ
وقـد علِمـوا أن ليسَ مِنّي بمُفلتٍ
ولا يومـه المسـكين منـي بواحـدِ

أخالِدُ لا زالتْ من الله لعنَةٌ
عليكَ وإن كنتَ ابن عمّي وقائِدي
أخالدُ كانتْ صُحْبتيكَ ضلالةً
عصَيتُ بها ربّي وخالَفتُ والدي
وأرسَلَ يبغي الصلحَ لمّا تكتّفَتْ
عوارِضَ جنبَيه سياطُ القصائدِ
فأرسَلتُ بعد الشرِّ أنّي مُسالِمٌ
إلى غيرِ ما لا تشتهي غيرُ عائدِ

أخبرني عمي قال: حدثنا الكراني قال: زعم القحذمي أن الرشيد قال للفضل بن الربيع: من أهجى المحدثين عندك يا فضل في عصرنا هذا؟ قال: الذي يقول في ابن عمه:

لو كما ينقُصُ يَزدا
دُ إذن نال السماء
خالِدٌ لولا أبوهُ
كانَ والكلبُ سواءَ
أنا ما عشتُ علَيهِ
أسوَأ الناس ثَناءَ
إنّ مَن كان مُسيئاً
لحقيقٌ أن يُساءَ

فقال الرشيد: هذا ابن أبي عيينة، ولعمري لقد صدقت.

أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه قال: حدثني أبي قال: كان ابن أبي عيينة مع ابن عمه خالد بجرجان، فأساء به وجفاه، وكان لابن أبي عيينة صديقان

من جند خالد من أهل البصرة، أحدهما مهلبي والآخر مولي للأزد، وكلهم شاعر ظريف، فكانوا يمدحون السراة من أهل جرجان فيصيبون منهم ما يقوتهم. وولى موسى الهادي الخلافة فكتب ابن عيينة إلى من كان في خدمة الخلفاء من أهله بهذه القصيدة:

كيفَ صبري ومنزلي جُرْجانُ
والعراقُ البلادُ والأوطانُ؟
نحنُ فيها ثلاثةٌ حُلفاءٌ
ونَدامى على الهوى إخوانُ
نتَساقى الهوى ونَطرَبُ للذّكرِ
كما تُطرِبُ النشاوى القيانُ
وإذا ما بكى الحَمامُ بكَينا
لبُكاهُ كأنّنا صِبْيانُ
يا زَماني الماضي ببِغدادَ عُد لي
طالَما قد سرَرتَني يا زَمانُ
يا زماني المُسيءَ أحسن فقداً
كان عندي من فعلكَ الإحسانُ
ما يريدُ العُذّالُ منّي أما يت
ركُ أيضاً بغَمِّهِ الإنسانُ
ويقولون أملِكْ هواكَ وأقصِر
قُلتُ ما لي على الهوى سلطانُ
أيّها الكاتمُ الحديثَ وقد طا
لَ به الأمرُ وانتهى الكِتمانُ

قـد لعَمري عرّضتَ حيناً فبَيّن
ليسَ بعد التعريض إلّا البيانُ
واتّخِـذ خالِـداً عـدُوّاً مُبينـاً
ما تعادى الإنسانُ والشـيطانُ
والـهُ عنـه فمـا يضُـرُّكَ منـهُ
عضُّ كلبٍ ليسَت لهُ أسنانُ
ولعَمـري لـولا أبـوه لنالَـتْ
هُ بسـوءٍ منّـي يـدٌ ولِسـانُ
قُـل لفتيانِنـا المقيميـنَ بالبـا
بِ ثِقـوا بالنجـاحِ يـا فتيـانُ
لا تخافوا الزمانَ قد قام موسى
فلكُـم من رَدَى الزمان أمـانُ
أولَـم تأتـهِ الخلافـةُ طوعـاً
طاعَـةٌ ليـسَ بعدهـا عصيانُ
فهـيَ منقـادَةٌ لموسـى وفيهـا
عَـن سـواهُ تقاعُسٌ وجِرَانُ
قُل لموسـى يا مالِكَ الملـك طوعاً
بِقيـادٍ وفـي يديكَ العنانُ
أنـت بحـرٌ لنـا ورأيُـكَ فينـا
خَيـرُ رأيٍ رأى لنا سـلطانُ

فاكفِنـا خالداً فقَد سـامَنا الخس
فَـ رمـاهُ لحَتفِـهِ الرحمـانُ
كم إلى كم يُغضى على الـذُلِّ مِنهُ
وإلى كَم يكونُ هذا الهوانُ

قال: فلما قرأ هذه القصيدة موسى الهادي أمر له بصلة، وأعطاه ما فات من رزقه، وأقفله من جيش خالد إليه.[1]

ويرد ذكر عمان في كتاب الأغاني أيضا حين ترجم أبو الفرج للشاعر كعب بن مشهور، المعروف بالمُخَبّل القيسي. يقول:

قال: ونزل الرجل ووضع رحلة حتى جاء إخواتهما، فأخبراهم الخبر، وكانوا مهتمين بكعب، وكان كعب أظرفهم وأشعرهم، فأكرموا الرجل وحملوه على راحلة ودلوه على الطريق، وطلبوا طعباً فوجدوه بالشام، فأقبلوا به، حتى إذا كانوا في ناحية ماء أهلهم إذا الناس قد اجتمعوا عند البيوت، وكان كعب ترك بنياً له صغيراً، فزحمه غلام منهم في ناحية الماء، فقال له كعب: ويحك يا غلام! من أبوك؟ فقال: رجل يقال له: كعب، قال: وعلى أي شيء قد اجتمع الناس؟ وأحس قلبه بالشر. قال: اجتمعوا على خالتي ميلاء. قال: وما قصتها؟ قال: ماتت. فزفر زفرة مات منها مكانه، فدفن حذاء قبرها.

من شعره في الشام: قال: وقال كعب وهو بالشام:

أحقّـا عبـادَ الله أَن لسـتُ ماشـيا
بمِرْحَـابَ حَتَّـى يُحْشَـرَ الثَّقَـلانِ
ولا لاهيًـا يومـا إِلَـى الليـلِ كلِّـه
ببيـضٍ لطيفـاتِ الخُصـورِ رَوَانـي
يُمَنِّينَنـا حَتَّـى تَريـعَ قلوبُنـا
ويَخْلِطْـنَ مَطْـلا ظاهـرًا بلَيَـانِ

١.المصدر السابق، ج٢٠، ص ٢٧-٥٨.

فعينـيَّ يـا عينـيَّ حَتَّـامَ أنتمـا
بهجـران أمِّ العَمْـرِو تَخْتلِجـانِ
أمـا أنتمـا إلا عَلِـيّ طليعـةٌ
عَلَـى قُـرْبِ أعدائـي كمـا تَرَيانـي
فلـو أَنّ أمَّ العمـرو أضحـتْ مقيمـةً
بِمِصْـرَ وجثمانـي بِشِـحْرِ عُمَـانِ
إذا لرجـوتُ اللهَ يجمـعُ شـملَنا
وإنّـا عَلَـى مـا كَانَ ملتقيـانِ[1]

ومما ذكره أبو الفرج عن عُمان أيضا، حديثه عن شاعر عباسي ظريف اسمه المَسْدود. يقول الأصفهاني:

المسدودُ من أهل بغداد، وكان منزله في ناحية درب المفضّل، في الموضع المعروف بخَراب المسدود، منسوبٌ إليه.

وأخبرني جحظة أن اسمه الحسن، وكنيته أبو علي، وأن أباه كان قصّاباً، وأنه كان مسدودَ فَرْدِ مَنْخِر ومفتوحَ الآخر، وكان يقول: لو كان مَنْخِري الآخَرَ مفتوحاً لأذهلتُ بغنائي أهلَ الحلوم وذوي الألباب، وشغلتُ مَنْ سمعه عن أمر دينه ودنياه ومعاشه ومعاده.

قال جحظة: وكان أشجى الناس صوتاً وأحضرهم نادرة، ولم يكتسب أحد من المغنين بطنبور ما كسبه، وكان مع يساره وقلة نفقته يُقْرِض بالعِينة. وكانت له صنعة عجيبة، أكثرها الأهزاج. قال جحظة: قال لي مُخارق غلامه: قال لي، وقد صنع هذين البيتين وهما جميعاً هَزَج:

مَنْ رأى العِيسَ عليهـا الرِّحَالْ
إضَـمٌّ قصدُهـا أم أثَـالُ؟

١.المصدر السابق، ج٢٠، ص ١٦٧.

لستُ أدري حيث حَلّوا ولكنْ
حَيْثُما حلوا فثَمّ الجَمَالُ

والآخر:

عج بنا نجْنِ بطرف
العين تفاحَ الخدودْ

ونسلِّ القلبَ عَمّنْ
حَظُّنا منه الصُّدودْ

ثم قال: والله لا تركت بعدي من يهزج. قال جحظة: والله ما كذب!

أخبرني جحظة، قال: كان الواثق قد أذن لجلسائه ألا يرد أحدٌ نادرةً عن أحد يلاعبه، فغنى الواثق يوماً:

نظرتُ كأني من وراء زُجَاجةٍ
إلى الدارِ من ماءِ الصَّبَابةِ أنظرُ

وقد كان النبيذ عمل فيه وفي الجلساءِ فانبعث إليه المسدودُ فقال: أنت تنظر أبداً من وراء زجاجة، إن كان في عينيك ماء صبابة أو لم يكن، فغضب الواثق من ذلك وكان في عينيه بياض، ثم قال: خذوه، فسحب من بين يديه. ثم قال: يُنفى إلى عُمان الساعة، فنفي من وقته وحُدّر ومعه المُوكَّلون . فلما سلموه إلى صاحب البصرة، سأله أن يقيم عنده يوماً ويغنيه، ففعل.

فلما جلسوا للشراب ابتدأ فقال: احذروني يا أهل البصرة على حُرَمكم، فقد دخلتُ إلى بلدكم وأنا أزنى خلق الله. قال: فقال له الجَمّاز: أمَا يعني أنه أزنى خلقِ الله أُمّا؟ فغضب المسدود، وضرب بطنبوره الأرض وحلف ألا يغني، فسأله الأمير أن يقيم عنده وأمر بإخراج الجَمّاز وكل من حضر، فأبى ولج فأحدره إلى عُمَان.

ومكث الواثق لا يسأل عنه سنة، ثم اشتاقه فكتب في إحضاره، فلما جاءه الرسول ووصل

إلى الواثق قبّل الأرضَ بين يديه، فاعتذر من هفوته وشكر التفضل عليه. فأمره بالجلوس ثم قال له: حدثني بما رأيت بعدي. فقال: لي حديث ليس في الأرض أظرف منه، وأعاد عليه حديثه بالبصرة. فقال له الواثق: قبّحكَ الله ما أجهلك! ويلك! فأنت سُوقة وأنا ملك، وكنتَ صاحياً وكنتُ منتشياً وبدأتَ القوم فأجابوك، فبلغ بك الغضب ما ذكرتَه وما بدأتُك فتجيبني، وبدأتَني -من المزح- بما لا يحتمله النظير لنظيره، ويلك! لا تعاودْ ممازحةَ خليفة وإن أذن لك في ذلك، فليس كل أحد يحضره حلمُه كما حضرني فيك.[1]

ومما ورد في كتاب الأغاني عن عمان أيضا حديث أبي الفرج عن الشاعر الفرزدق و قصةِ زواجه على النّوَار. يقول:

قال الحِرْمازيّ: ومكثتْ النَّوَارُ عنده زماناً، ترضى عنه أحياناً، وتخاصمه أحياناً، وكانت النوار امرأة صالحة، فلم تزل تشمئز منه، وتقول له: ويحك! أنت تعلم أنك إنما تزوجتَ بي ضُغْطَةً وعلى خُدعة، ثم لا تزال في كل ذلك، حتى حلفتَ بيمين مؤثة، ثم حنِثْتْ. وتجنّبتْ فراشَه، فتزوج عليها امرأة يقال لها جُهَيْمة من بني النمر بن قاسط حلفاء لبني الحارث بن عباد بن ضبيعة وأمها الخميصة من بني الحارث بن عبّاد، فنافرته الخميصة، واستعدت عليه فأنكرها الفرزدق وقال: إنها مني بريء طالق وطلّق ابنتَها، وقال:

إنّ الخميصة كانت لي ولابنتها
مثل الهَرَاسة بين النعل والقدمِ
إذا أتتْ أهلَها مني مطلقة
فلن أردَّ عليها زفرةَ الندم

جعل يأتي النَّوَارَ وبه ردع الخَلوق وعليه الأثر فقالت له النوار: هل تزوجتَها إلا هَدَاديّة - تعني حياً من أزد عُمان - فقال الفرزدق في ذلك:

تُريكَ نجومَ الليل والشمسُ حيّةٌ
كرامُ بناتِ الحارثِ بن عُبَادِ

١.المصدر السابق، ج٢٠، ص ١٨٣-١٨٤.

أبوها الذي قاد النّعَامةَ بعدما
أبتْ وائلٌ في الحرب غيرَ تَمَادِ
نساءٌ أبوهن الأعزُّ ولم تكنْ
من الأزد في جاراتها وهَدَادِ
ولم يلكُ في الحي الغَموضِ محلُّها
ولا في العُمانيِّينَ رهطِ زِيَادِ
عدلتُ بها ميلَ النوار فأصبحتْ
وقد رَضِيتْ بالنصف بعد بِعَادِ

قال: فلم تزل النوار تُرقِّقه، وتستعطفه، حتى أجابها إلى طلاقها، وأخذ عليها ألا تفارقه ولا تبرح من منزله، ولا تتزوج رجلاً بعده، ولا تمنعه من مالها ما كانت تبذله له، وأخذت عليه أن يُشهد الحسن البصري على طلاقها، ففعل ذلك.[1]

ويذكر أبو الفرج خبرا آخر عن الفرزدق ورد فيه اسم عمان. يقول:

أخبرني عبد الله بن مالك. قال: حدثني محمد بن موسى، قال: حدثني القحذمي قال: استعمل الحجاجُ الخيارَ بن سبرة المجاشعي على عُمان، فكتب إليه الفرزدق يستهديه جارية فكتب إليه الخيار:

كتبتَ إليّ تستهدي الجواري
لقد أنعظتَ من بلدٍ بعيدِ

فأجابه الفرزدق:

ألا قال الخيارُ وكان جهلاً
قد استهدى الفرزدقُ من بعيدِ

١.المصدر السابق، ج٢١، ص ٢٠٢-٢٠٣.

فلـولا أن أمَّـكَ كان عمّـي
أباهـا كنـتَ أخـرسَ بالنشـيدِ
وأن أبـي لَعـمُّ أبيـك لَجَّـا
وأنـك حين أغضبُ من أسـودي
إذاً لشـددتُ شـدّةَ أعْوجـيٍّ
يـدقُّ شـكيمَ مجـدولِ الحَديـدِ[1]

ومن الشعراء العمانيين الذين ترجم لهم أبو الفرج في أغانيه وذكر أخبارهم الشاعر ثابت قطنة.

يقول عنه:

هو ثابت بن كعب، وقيل ابن عبد الرحمن بن كعب، ويكنى بأبي العلاء، أخو بني أسد بن الحارث بن العَتيك، وقيل: بل هو مولى لهم، ولقب قطنة لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه فذهب بها في بعض حروب الترك، فكان يجعل عليها قطنة، وهو شاعر فارس شجاع من شعراء الدولة الأموية، وكان في صحابة يزيد بن المهلب، وكان يوليه أعمالاً من أعمال الثغور، فيحمد فيها مكانه لكفايته وشجاعته.

أخبرني إبراهيم بن أيوب قال: حدثنا عبد الله بن مسلم بن قتيبة، وأخبرني علي بن سليمان الأخفش قال: حدثنا محمد بن يزيد قال: كان ثابت قطنة وقد ولي عملاً من أعمال خراسان، فلما صعد المنبر يوم الجمعة رام الكلام، فتعذر عليه وحُصِر، فقال: « سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا"، وبعد عِيٍّ بياناً، وأنتم إلى أمير فعّال، أحوجُ منكم إلى أمير قوّال:

وإلا أكُـنْ فيكـمْ خطيبـاً فإننـي
بسـيفي إذا جَـدّ الوغـى لَخطيـبُ

فبلغت كلماته خالدَ بن صفوان ويقال الأحنفَ بن قيس فقال: والله ما علا ذلك المنبرَ

١.المصدر السابق، ج٢١، ص ٢٥٣-٢٥٤.

أخطبُ منه في كلماته هذه، ولو أن كلاماً استخفني، فأخرجني من بلادي إلى قائله استحساناً له، لأخرجتني هذه الكلماتُ إلى قائلِها، وهذا الكلام بخالد بن صفوان أشبه منه بالأحنف.

أخبرني محمد بن خلف وكيع قال: حدثني أحمد بن زهير بن حرب، عن دعبل بن علي، قال: كان يزيد بن المهلب تقدم إلى ثابت قطنة في أن يصلي بالناس يوم الجمعة، فلما صعد المنبر ولم يطق الكلام، قال حاجب الفيل يهجوه:

أبـا العَـلاءِ لقـد لُقّيـت مُعضلـةً
يـومَ العَروبـة مـن كَـربٍ وتخنيـقِ
أمّـا القُـرَانُ فلـم تُخلـق لمُحكَمـه
ولـم تُسـدّدْ مـن الدنيـا لتوفيـقِ
لمـا رمتـكَ عيـونُ النـاسِ هبتَهـمُ
فكِـدتَ تَشْـرَقُ لمـا قُمتَ بالريقِ
تلوي اللسـانَ وقـد رُمـتَ الـكَلام به
كمـا هوى زلِقٌ من شـاهقِ النِّيقِ

أخبرني عمي قال: حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال: حدثني علي بن الصباح قال: كان سبب هجاء حاجب بن ذبيان المازني وهو حاجب الفيل، والفيل لقب لقبه به ثابتُ قطنة وكعبُ الأشقري أن حاجباً دخل على يزيد بن المهلب، فلما مثل بين يديه أنشده:

إليـكَ امتطيتُ العِيسَ تسـعين ليلةً
أرجّي نـدى كفيّلـكَ يا ابنَ المُهلَّبِ
وأنـتَ امـرؤٌ جـادت سـماءُ يمينـهِ
علـى كُل حيٍّ بين شـرقٍ ومَغْرِبِ
فُجُـدْ لـي بطِـرْفٍ أعوجـيٍّ مُشـهَّرٍ
سـليمِ الشَّـظا عَبْـلِ القوائـم سَـلْهَبِ

سَبوحٍ طموحِ الطَّرْفِ يَسْتَنُّ مِرجمٍ
أُمِرَّ كإمْرارِ الرِّشَاء المُشُذَّبِ
طوى الضُمرُ منه البطنَ حتى كأنّه
عقاب تدلّتْ من شماريخِ كَبْكبِ
تُبادر جُنح الليل فَرخين أقويا
من الزادِ في قفرٍ من الأرض مُجْدبِ
فلما رأت صَيداً تدلّت كأنّها
دلاةٌ تهاوى مَرقباً بعد مَرقبِ
فشكّت سوادَ القلب من ذِئبِ قفرةٍ
طويلِ القرا عاري العظام مُعَصَّبِ
وسابغةٍ قد أتقن القَيْنُ صنعَها
وأسمرَ خطيٍّ طويل مُحرَّبِ
وأبيضَ من ماء الحديد كأنه
شهابُ متى يلقَ الضريبة يَقضِبِ
وقل لي اذا ما شئتَ في حومة الوغى
تقدّمْ أو اركبْ حومةَ الموتِ اركبِ
فإني امرؤٌ من عُصبةٍ مازنيةٍ
نماني أبٌ ضخمٌ كريمُ المُركَّبِ

قال: فأمر له يزيد بدرع وسيف ورمح وفرس، وقال له: قد عرفتَ ما شرطت لنا على نفسك؟ فقال: اصلح الله الأمير، حجتي بينة، وهي قول الله عز وجل: "والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون". فقال له ثابت قطنة: ما أعجب ما وفدت

به من بلدك في تسعين ليلة! مدحت الأمير ببيتين، وسألته حوائجك في عشرة أبيات، وختمت شعرك ببيت تفخر عليه فيه، حتى إذا أعطاك ما أردت حدت عما شرطت له على نفسك فأكذبتها كأنك كنت تخدعه، فقال له يزيد: مه يا ثابت، فإنا لا نُخدع، ولكنا نتخادع، وسوغه ما أعطاه، وأمر له بألفي درهم. ولجّ حاجبٌ يهجو ثابتاً فقال فيه:

لا يَعرِفُ الناسُ منه غيرَ قُطنتهِ
وما سواها من الأنساب مَجهولُ

قال: ودخل حاجب يوماً على يزيد بن المهلب، وعنده ثابت قطنة وكعب الأشقري وكانا لا يفارقان مجلسه فوقف بين يديه فقال له: تكلم يا حاجب، فقال: يأذن لي الأمير أن أنشده أبياتاً، قال: لا حتى تبدأ فتسأل حاجتك، قال: أيها الأمير، إنه ليس أحد ولو أطنب في وصفك موفيك حقك، ولكن المجتهد محسن، فلا تهجني بمعنى الإنشاد، وتأذن لي فيه، فإذا سمعت فجودك أوسع من مسألتي . فقال له يزيد: هات، فما زلت مجيداً محسناً مجملاً. فأنشده:

كم من كميٍّ في الهياج تركتَه
يَهوي لفيه مُجدَّلاً مقتولا
جلّلتَ مَفْرِقَ رأسِه ذا رونقٍ
عضَبَ المهزَّةِ صارماً مصقولا
قُدتَ الجيادَ وانت غرُّ يافعُ
حتى اكتهلتَ ولم تزل مأمولا
كم قد حَرَبْتَ وقد جبرتَ معاشراً
وكم امتننتَ وكم شفيتَ غليلا

فقال له يزيد: سل حاجتك، فقال: ما على الأمير بها خفاء، فقال: قل، قال: إذاً لا أقصر ولا أستعظم عظيماً أسأله الأمير أعزه الله مع عظم قدره، قال: أجل، فقل يفعل، فلستَ بما تصير إليه أغبط منا، قال: تُحملني وتُخدمني وتُجزل جائزتي، فأمر له بخمسة تخوت ثياب وغلامين

وجاريتين وفرس وبغل وبِرْذَوْن وخمسة آلاف درهم، فقال حاجب:

شِمِ الغيثَ وانظرْ وَيْلكَ أين تبعّجَتْ
كُلاه تجدها في يَدِ ابنِ المُهلَّبِ
يداه يدٌ يُخْزي بها اللهُ من عصى
وفي يدِه الأخرى حياةُ المُعَصَّبِ

قال: فحسده ثابت قطنة وقال: والله لو على قَدْر شِعْركَ أعطاك لما خرجتَ بملء كفكَ نوى، ولكنك أعطاك على قدره، وقام مغضبا، وقال لحاجب يزيد بن المهلب: إنما فعل الأمير هذا ليضع منا بإجزاله العطية لمثل هذا، وإلا فلو أنا اجتهدنا في مديحه ما زادنا على هذا، وقال ثابت قطنة يهجو حاجباً حينئذ:

أَحاجِبُ لَولا أَن أَصلُكَ زَيِّفٌ
وَأَنَّكَ مَطبوعٌ عَلى اللُؤمِ وَالكُفرِ
وَأَنّي لَو أكثَرتُ فيكَ مُقَصِّرٌ
رَميتُكَ رَمياً لا يَبيدُ يَدَ الدَهرِ
فَقُل لي وَلا تَكذِب فَإِنّي عالِمٌ
بِمِثلِكَ هَل في مازِنٍ لَكَ مِن ظَهرِ؟
فَإِنَّكَ مِنهُم غَيرُ شَكلٍ وَلَم يَكُن
أَبوكَ مِنَ الغُرِّ الجَحاجِحَةُ الزُهْرِ
أَبوكَ دِيَافيٌّ وَأُمُّكَ حُرَّةٌ
وَلكِنَّها لا شَكَّ وافِيَةُ البَظْرِ
فَلَستُ بِهاجٍ إبنَ ذبيانَ إِنَّني
سَأُكرِمُ نَفسي عَن سَبابِ ذَوي الهُجْرِ

فقال حاجب: والله لا أرضى بهجاء ثابت وحده، ولا بهجاء الأزد كلها، ولا أرضى حتى أهجو اليمن طرا؛ فقال يهجوهم:

دعونـي وقحطانـاً وقولـوا لثابـتٍ
تَنَـحَّ ولا تَقْـرَبْ مُصاولـةَ البُـزْلِ
فَلَلزِّنْـجُ خيـرٌ حيـن تُنْسَـب والـداً
مـن ابنـاءِ قحطـانَ العفاشـلةِ الغُـرْلِ
أنـاسٌ إذا الهيجـاءُ شَـبّتْ رأيتَهـمْ
أذلَّ علـى وطء الهَـوَانِ مـن النّعْـلِ
نسـاؤهمُ فوضـى لمـن كان عاهـراً
وجيرانُهـم نهْـبُ الفـوارسِ والرَّجْـلِ

أخبرني وكيع قال: حدثنا أحمد بن زهير قال: وحدثني دعبل قال: بلغني أن ثابت قطنة قال هذا البيت في نفسه وخطر بباله يوماً فقال:

لا يَعـرِفُ النـاسُ منـه غيـرَ قُطْنتِـه
ومـا سـواها مـن الأنسـابِ مجهـولُ

وقال: هذا بيت سوف أهجى به أو بمعناه، وأنشده جماعة من أصحابه وأهل الرواية وقال: اشهدوا أني قائله، فقالوا: ويحك ما أردت إلا أن تهجو نفسك به، ولو بالغ عدوك ما زاد على هذا. فقال: لا بد من أن يقع على خاطر غيري، فأكونَ قد سبقته إليه، فقالوا له: أما هذا فشر قد تعجلته، ولعله لا يقع لغيرك، فلما هجاه به حاجب الفيل استشهدهم على أنه هو قائله، فشهدوا على ذلك، فقال يرد على حاجب:

هيهاتَ ذلكَ بيتٌ قـد سُـبِقتَ به
فاطلـبْ لـه ثانيـاً يـا حاجـبَ الفيـلِ

أخبرني أحمد بن عثمان العسكري المؤدب قال: حدثنا الحسن بن عليل العنزي قال: حدثنا قُعْنُب بن المحرز الباهلي عن أبي عبيدة قال: كان ثابت قطنة قد جالس قوماً من الشراة وقوماً من المرجئة كانوا يجتمعون فيتجادلون بخراسان، فمال إلى قول المرجئة وأحبه، فلما اجتمعوا بعد ذلك أنشدهم قصيدة قالها في الإرجاء:

يـا هِنـدُ إنـي أَظُنُّ العَيشَ قَـد نَفِدا
وَلا أَرى الأَمـرَ إِلّا مُدْبِـراً نَكـدا
إِنّـي رَهينَـةُ يَـومٍ لَسـتُ سـابِقُهُ
إِلّا يَكُـن يَومُنـا هـذا فَقَـد أَفِـدا
بايَعـتُ رَبّـيَ بَيعـاً إِن وُفَيـتُ بِهِ
جـارَوتُ قَتلـى كِراماً جـاوَروا أُحُـدا
يـا هِنـدُ فَاستَمِعي لـي إِنَّ سـيرَتَنا
أَن نَعبُـدُ اللَهَ لَـم نُشـرِكْ بِـهِ أَحَـدا
نُرجـي الأُمـورَ إِذا كانَـت مُشـبّهَةً
وَنَصـدِقُ القَـولَ فيمَـن جـارَ أَو عنـدا
المُسـلِمونَ عَلـى الإِسـلامِ كُلُّهُـم
وَالمُشـرِكونَ أَشـتّوا دينَهُـم قِـدَدا
وَلا أَرى أَنَّ ذَنبـاً بالِـغٌ أَحَـداً
مِ النـاسِ شِـركاً إِذا مـا وَحَّـدوا الصَمـدا
لا نَسـفِكُ الـدَمَ إِلّا أَن يُـرادَ بِنـا
سَـفكُ الدِمـاءِ طَريقـاً واحِـداً جُـدُدا
مَـن يَتَّـقِ اللَهَ فـي الدُنيـا فَإِن لَهُ
أَجـرَ التَقـي إِذا وَفى الحِسـابَ غَدا

وَما قَضى اللهُ مِن أَمرٍ فَلَيسَ لَهُ
رَدٌّ وَما يُقضَ مِن شَيءٍ يَكُن رَشَدا
كُلُّ الخَوارِجِ مُخطٍ في مَقالَتِهِ
وَلَو تَعَبَّدَ فيما قالَ وَاجتَهَدا
أَما عَلِيٌّ وَعُثمانٌ فَإِنَّهُما
عَبدانِ لَم يُشرِكا بِاللهِ مُذ عَبَدا
وَكانَ بَينَهُما شَغْبٌ وَقَد شَهِدا
شَقَّ العَصا، وَبعين اللهِ ما شَهِدا
يُجزى عَلَيٌّ وَعُثمانٌ بِسَعيِهِما
وَلَستُ أَدري بِحَقٍّ آيَةً وَرَدا
اللهُ يَعلَمُ ماذا يَحضُرانِ بِهِ
وَكُلُّ عَبدٍ سَيَلقى اللهَ مُنفَرِدا

قال أبو الفرج: ونسخت من كتاب بخط المرهبي الكوفي في شعر ثابت قطنة؛ قال: لما ولي سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية خراسان بعد عزل عبد الرحمن بن نعيم، جلس يعرض الناس وعنده حميد الرؤاسي وعبادة المحاربي، فلما دعي بثابت قطنة تقدم، وكان تام السلاح، جواد الفرس، فارساً من الفرسان، فسأل عنه، فقيل: هذا ثابت قطنة، وهو أحد فرسان الثغور، فأمضاه وأجاز على اسمه، فلما انصرف قال له حميد وعبادة: هذا أصلحك الله الذي يقول:

إنا لضرّابونَ في حَمَسِ الوغى
رأسَ الخليفة إن أراد صدودا

فقال سعيد: علي به، فردوه وهو يريد قتله، فلما أتاه قال له: أنت القائل: "إنا لضرّابون في حمس الوغى" قال: نعم، أنا القائل:

إنـا لضرّابـون فـي حَمَسِ الوغى
رأسَ المُتـوَّجِ إن إراد صـدودا
عـن طاعـةِ الرحمـنِ أو خلفائـه
إن رام إفسـادا وكَـرّ عَنـودا

فقال له سعيد: أولى لك، لولا أنك خرجت منها لضربت عنقك، قال: وبلغ ثابتاً ما قاله حميد وعبادة، فأته عبادة معتذراً، فقال له: قد قبلت عذرك، ولم يأته حميد، فقال ثابت يهجوه:

وَمـا كانَ الجُنَيـدُ وَلا أَخـوهُ
حُمَيـدَ مِـن رُؤوسٍ فـي المَعالي
فَـإِن يَـلـكُ دَغَفـلٌ أَمسـى رَهينـاً
وَزَيـدٌ وَالمُقيـمُ إِلـى زَوالِ
فَعِندَكُـم اِبـنُ بَشـرِ فَأَسـأَلوهُ
بِمَـرْوِ الـرُّوذِ يَصـدُقُ فـي المَقـالِ
وَيُخبِـرُ إِنَّـهُ عَبـدٌ زَنيـمِ
لَئيـمُ الجَـدِّ مِـن عَـمٍ وَخـالِ

قال: واجتاز ثابت قطنة في بعض أسفاره بمدينة كان أميرها محمد بن مالك بن بدر الهمداني، وكان يغمز في نسبه، وخطب إلى قوم من كندة فردوه، فعرف خبر ثابت في نزوله، فلم يكرمه، ولا أمر له بقِرى، ولا تفقده بنزل ولا غيره، فلما رحل عنه قال يهجوه ويعيره برد من خطب إليه:

لَـو أَنَّ بَكيـلاً هُـم قَومُـهُ
وَكانَ أَبـوهُ أَبـا العاقِـبِ
لَأَكرَمَنـا إِذ مَرَرنـا بِـهِ
كَرامَةَ ذي الحَسَبِ الثاقِبِ

وَلكِـنّ خيـوانَ هُـمْ قَومُـهُ
فَبِئـسَ هُـمُ القَـومُ لَلصّاحِـب
وَأَنـتَ سَـنيدٌ بِهِـم مُلصَـق
كَمـا أَلصَقـتْ رُقعَةُ الشـاعِبِ
وَحَسـبُكَ حَسـبُكَ عِندَ النَثا
بِأَفعـالِ كِنـدَةَ مِـن عَائِـب
خَطَبتَ فَجازَولَكَ لمّا خَطَبتَ
جَـزاءَ يَسـارٍ مِـنَ الكاعِـب
كَذَبـتَ فَزَيَّفتَ عِنـدَ النِـكاحِ
لمتّـلكَ بِالنَسَـبِ الـكاذِب
فَـلا تَخطِبَـنْ بَعدَهـا حُـرَّةً
فَتُثنى بِوَسْـمٍ عَلى الشارِب

قال أبو الفرج: ونسخت من هذا الكتاب قال: كان لثابت قطنة راوية يقال له النضر، فهجا ثابتُ قطنة قتيبة بن مسلم وقومَه، وغيرهم بهزيمة انهزموها عن الترك، فقال:

تَوافَـت تَميمٌ في الطِعانِ وَعَرَّدَت
بُهَيلَـةُ لِمـا عايَنَـت مَعشَـراً غُلبـا
كُمـاةٌ كُفـاةٌ يَرهَـبُ النـاسُ حَدَّهُـم
إِذا مـا مَشـوا في الحَربِ تَحسَـبُهُم نُكْبا
تُسـامونَ كَعبـاً فـي العُـلا وَكِلابُهـا
وَهَيهـاتِ أَن تُلقـوا كِلابـاً وَلا كَعبـا

قال: فأفشى عليه راويتُه ما قاله، فقال ثابت فيه وقد كان استكتمه هذه الأبيات:

يـا لَيـتَ لـي بِأَخـي نَضـرٍ أَخـا ثِقَةٍ
لا أَرهَـبُ الشَـرَّ مِنـهُ غـابَ أَم شَـهِدا
أَصبَحـتُ مِنكَ عَلى أَسـبابِ مَهْلَكَة
وَزَلَّـةٍ خائِفـاً مِنـكَ الـرَدى أَبَـدا
مـا كُنـتَ إِلّا كَذِئـبِ السـوءِ عارَضَـهُ
أَخـوهُ يَدمـى فَفَـرّى جِلـدَهُ قِـدَدا
أَو كَابـنِ آدَمَ خَلّـى عَـن أَخيـهِ وَقَد
أَدمـى حَشـاهُ وَلَـم يَبسُـط إِلَيـهِ يَـدا
أَهَـمُّ بِالصَـرفِ أَحيانـاً فَيَمنَعُنـي
حَيّـا رَبيعَـةَ وَالعَقـدُ الَّـذي عَقَـدا

ونسخت منه أيضا قال: لما قُتِل المفضلُ بن المهلب دخل ثابت قطنة على هند بنت المهلب، والناس حولها جلوس يعزونها، فأنشدها:

يـا هِندُ كَيفَ بنُصْبٍ باتَ يُبكيني
وَعائِـرٍ فـي سَـوادِ الليـلِ يُؤذينـي
كَأَنَّ لَيلـيَ وَالأَصـداءُ هاجِـدَةٌ
لَيـلُ السَـليمِ، وَأَعيـا مَـن يُداوينـي
لمّا حَنى الدَهرُ مِن قَوسـي وَعَـذّر بي
شـيبي وَقاسَـيتُ أَمـرَ الغَلظِ وَاللينِ
إِذا ذَكـرتُ أَبـا غَسّـانَ أَرّقَنـي
هَـمٌّ إِذا عَـرّسَ السـارونَ يُشـجيني

كانَ المُفَضَّـلُ عِـزّاً في ذَوي يَمنٍ
وَعِصمَـةً وَثِمـالاً لِلمَسـاكينِ
مـا زِلـتُ بَعدَكَ في هَـمٍّ يَجيشُ بِهِ
صَدري وَفي نَصَبٍ قَـد كاد يُبليني
إِنّـي تَذَكَّـرتُ قَتلـى لَـو شَـهِدتُهُم
في حَوْمـةِ المَوتِ لَـم يَصلَوْا بِها دوني
لا خَيرَ في العَيشِ إِن لَم أَجنِ بَعدَهُم
حَربـاً تُبيـيء بِهِـم قَتلـى فَيَشـفوني

فقالت له هند: اجلس يا ثابت، فقد قضيتَ الحق، وما من المرثية بدٌّ، وكم من ميتة ميتٍ أشرفُ من حياة حيّ، وليست المصيبة في قتل ممن استشهد ذابّا عن دينه، مطيعاً لربه، وإنما المصيبة فيمن قلّت بصيرته، وخمَل ذكره بعد موته، وأرجو ألا يكون المُفضَّل عند الله خاملاً، يقال: إنه ما عزي يومئذٍ بأحسنَ من كلامها.

قال أبو الفرج: ونسخت من كتابه أيضا قال: كان ابن الكَوّاء اليشكريّ مع الشراة والمهلب يحاربهم، وكان بعضُ بني أخيه شاعراً فهجا المهلب وعمّ الأزدَ بالهجاء، فقال لثابت: أجبه فقال له ثابت:

كُلُّ القَبائِـلَ مِـن بَكـرٍ نعُدُّهُـم
وَاليَشـكَرِيّونَ مِنهُـم ألأُمُ العَـربِ
أَثَـرى لَجيمٍ وَأَثَرى الحُصنِ إِذ قَعَدَت
بِيشـكرٍ أُمُـهُ المَعـرورَة النَسَـبِ
نَحّاكُـم عَـن حِيـاضِ المَجـدِ والِدُكُـم
فَما لَكُم في بَني البَرشاءِ مِن نَسَب

أَنتُـم تَحِلّـونَ مِـن بَكـرٍ إِذا نَسَـبوا
مِثـلَ القُـرادِ حَوالـي عُكـوَةِ الذَنـبِ
نُبِّئـتُ أَنَّ بَنـي الكَـوّاءِ قَـد نَبَحـوا
فَعَلَ الكِلابِ تَتَلّى اللَيث فـي الأَشَـب
يَكـوي الأَبيجَـر عَبـد اللَهِ شَـيخُكُم
وَنَحنُ نَبري الَّذي يكـوى مِنَ الكَلَـبِ

ونسخت من كتابه أيضا قال: كتب ثابت قطنة إلى يزيد بن المهلب يحرضه:

إِنَّ امـرءاً حَدَبـتَ رَبيعَـةُ حَولَـهُ
وَالحَـيُّ مِـن يَمَنٍ وَهـابَ كَئـودا
لَضَعيـفُ مـا ضَمَّـت جَوانِـحُ صَـدرِهِ
إِن لَـم يَلُـفَّ إِلـى الجُنـودِ جُنـودا
أَيَزيـدُ كُـن فـي الحَـربِ إِذ هَيَّجتَها
كَأَبيـكَ لا رَعِشـاً وَلا رِعْديـدا
شـاوَرتَ أَكـرَمَ مـن تَنـاول ماجِـد
فَرَأَيـتُ هَمَّـكَ فـي الهُمـومِ بَعيـدا
مـا كانَ فـي أَبَوَيـكَ قـادِحُ هُجنَـةٍ
فَيَكـونُ زنـدُكَ فـي الرَتـادِ صَلـودا
إِنّـا لَضَرّابـونَ فـي حَمَـسِ الوَغـا
رَأسَ المُتَـوَّجِ إِن أَرادَ صَـدودا

عَـنِ طاعَـةِ الرَحمـنِ أَو خُلَفائِـهِ
إِن رامَ اِفسـاداً وَكَـرَّ عَنـودا
وُقْـرٌ إِذا كَفَـرَ العَجـاجُ تَـرى لَنـا
فـي كُلِّ مَعرَكَـةٍ فَـوارِسَ صِيـدا
يـا لَيـتَ أَسـرَتَكَ الَّذيـنَ تَغَيَّبـوا
كانـوا لِيَومِـكَ بِالعِـراقِ شُـهودا
وَتَـرى مَواطِنَهُـم إِذا اختَلَفـتِ القَنـا
وَالمَشـرَفِيَّةُ يَلتَظيـنَ وقـودا

فقال يزيد لما قرأ كتابه: إن ثابتاً لغافل عما نحن فيه، ولعمري لأطيعنه، وسيرى ما يكون، فاكتبوا إليه بذلك.

أخبرني عمي قال: حدثنا الكراني عن العمري عن الهيثم بن عدي قال: أنشد مسلمة بن عبد الملك بعد قتل يزيد بن المهلب قولَ ثابت قطنة:

يـا ليـتَ أَسْـرتَكَ الذيـنَ تغيّبـوا
كانـو ليومـكَ يـا يزيـدُ شـهودا

فقال مسلمة: وأنا والله لوددت أنهم كانوا شهودا يومئذٍ، فسقيتُهم بكأسه، قال: فكان مسلمة أحدَ من أجاب شعراً بكلام منثور فغلبه.

أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان قال: حدثني عبيد الله بن أحمد بن محمد الكوفي قال: حدثني محمد القحذميّ عن سليمان بن ناصح الأسدي قال :خطب ثابت قطنة امرأةً كان يميل إليها، فجعل السفيرَ بينه وبينها جويبرَ بن سعيد المحدث، فاندس فخطبها لنفسه، فتزوجها ودفع عنها ثابتاً، فقال ثابت حين بان له الأمر:

أفْشَى عليَّ مقالةً ما قلتها
وسعى بأمرٍ كان غيرَ سديدِ
إني دعوتُ اللهَ حين ظَلَمْتَنِي
ربِّي وليس لمن دعا ببعيدِ
أن لا تزالَ مُتيَّماً بخريدةٍ
تَسبي الرجالَ بمُقلتينِ وجِيدِ
حتى إذا وَجَبَ الصَّداقُ تلبَّستْ
لكَ جلدَ أَغْضَفَ بارزٍ بصعيدِ
تدعو عليكَ الحارياتِ مُبِرّة
فترى الطلاقَ وأنتَ غيرُ حميدِ

قال: فلقي جويبرُ كلَّ ما دعا عليه ثابت به، ولحقه من المرأة كلُّ شر وضر حتى طلقها بعد أن قبضت صداقها منه.

أخبرني جعفر بن قدامة قال: حدثني حماد بن اسحاق عن أبيه قال: كان ثابت قطنة مع يزيد بن المهلب في يوم العُقْر ،فلما خذله أهل العراق وفرّوا عنه فقتل، قال ثابت قطنة يرثيه:

كلُّ القبائل بايَعوكَ على الذي
تدعو إليه وتابَعوكَ وساروا
حتى إذا حَمِسَ الوَغَى وجعلتَهم
نُصْبَ الأسنَّة أسلموكَ وطاروا
إن يقتلوكَ فإنَّ قتلَكَ لم يكن
عاراً عليكَ، وبعضُ قتلٍ عارُ

قال أبو الفرج :ونسخت من كتاب المرهبي قال: كانت ربيعة لما حالفت اليمن وحشدت

مع يزيد بن المهلب تنزل حواليه هي والأزد ،فاستبطأته ربيعة في بعض الأمر، فشغبت عليه حتى أرضاها فيه، فقال ثابت قطنة يهجوهم:

عصافيـر تَنْزُو فـي الفسـاد وفـي الوغـى
إذا راعَهـا رَزْعٌ جَمامِيـحُ بَـرْوَقِ

الجماميح ما نبت على رؤوس القصب مجتمعا وواحده جُمّاح فإذا دُق تطاير، وبَرْوق نبتٌ ضعيف

أأحلـمُ عـن ذِبَّـان بكـر بـن وائـلٍ
ويعلق من نفسي الأذى كلَّ مَعلِقِ
ألـم أكُ قـد قلَّدتُكـم طـوقَ خِزْيَـةٍ
وأنكلـتُ عنكـمْ فيكُـم كلَّ مُلصَـقِ
لعمـركَ مـا اسـتخلفتُ بكـراً ليَشـغَبوا
علـيَّ ومـا فـي حِلْفكم من مُعلَّقِ
ضممتكُـم ضمّـاً إلـيَّ وأنتـمُ
شَـتاتٌ كفَقْـع القاعـةِ المتفـرّقِ
فأنتُـمْ علـى الأدنـى أسـودُ خَفِيَّـةٍ
وأنتـم علـى الأعـداءِ خِزَّانُ سَـمْلَقِ

أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان قال: حدثني أبو بكر العامري قال: قال القحذمي: دخل ثابت قطنة على بعض أمراء خراسان أظنه قتيبة بن مسلم فمدحه وسأله حاجة، فلم يقضها له، فخرج من بين يديه وقال لأصحابه: لكن يزيد بن المهلب لو سألته هذا أو أكثر منه لم يردني عنه، وأنشأ يقول:

أبـا خالـدٍ لـم يَبْـقَ بعـدك سُـوقَةٌ
ولا مَلِـكٌ ممَّـن يُعيـن علـى الرِّفْدِ

ولا فاعـلٌ يرجـو المُقلُّـونَ فضلَـهُ
ولا قاتـلٌ يَنْـكا العـدوَّ علـى حقـدِ
لـو ان المنايـا سـامحتْ ذا حَفِيظَـة
لأكرَمْنـه أو عُجْـنَ عَنـه علـى عَمْـدِ

أخبرني محمد بن الحسن بن دريد قال: حدثنا أبو حاتم عن أبي عبيدة قال: عتب ثابت قطنة على قومه من الأزد في حال استنصر عليها بعضَهم فلم ينصره، فقال في ذلك:

تعَفَّفْـتُ عـن شَـتْمِ العشـيرةِ إنَّنـي
وجدتُ أبـي قد عَفَّ عن شَـتْمِهَا قَبْلِي
حليمـاً إذا مـا الحلـمُ كان مـروءةً
وأجهَـلُ أحيانـاً إذا التمسـوا جهلـي

أخبرني عمي قال: حدثني العنزي عن مسعود بن بشر قال: كان ثابت قطنة بخراسان، فوليها أمية بن عبد الله بن خالد بن أسد لعبد الملك بن مروان، فأقام بها مدة، ثم كتب إلى عبد الملك: "إن خراج خراسان لا يفي بمطبخي"، وكان أمية يُحمَّق، فرفع ثابت قطنة إلى البريد رقعة وقال: أوصل هذه معك، فلما أتى عبدَ الملك أوصل إليه كتاب أمية، ثم نثل كنانته بين يديه فقرأ ما فيها، حتى انتهى إلى رقعة ثابت قطنة، فقرأها ثم عزله عن خراسان.[1]

١.المصدر السابق، ج١٤، ص ١٦٧-١٧٨.

الأمالي لأبي علي القالي

مما ذكره أبو علي القالي في أماليه و نوه فيه باسم عمان تفصيله لآراء المفسرين للآية الكريمة « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ» . يقول:

قال أبو علي وحدّثنا أبو بكر بن الأنباري في قوله جل وعز «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» معناه متى هذا القضاء والحكم، وأنشد:

ألا أبلِغْ بنـي عُصَـمٍ رَسـولاً

فإنّـي عـن فُتَاحتِكُـمْ غَنِيُّ

معناه عن مُحاكمتكم. ومن ذلك قول الله جل وعز:" رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ"، أي اقض بيننا. وقال الفَرّاء: وأهلُ عُمَانَ يسمّون القاضي الفَتّاح. فأما قوله جل وعز: "إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ" ففيه قولان، قال قوم: معناه إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء، وقال آخرون إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم انصرْ أفضلَ الدّينين عندك، وأرضاه لديك، فقال الله عز وجل: "إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ"، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين، قال أبو عبيدة: معناه يستنصر، والصّعلوك: الفقير في كلام العرب، قال حاتم بن عبد الله:

غَنِينـا زماناً بالتّصعلُكِ والغِنَى

فـكلاً سـقاناه بكأسـيهما الدّهـرُ

يعني بالفقر والغنى.[1]

وفي موضع آخر من الأمالي يورد أبو علي أبياتا من الشعر العربي عن الحَمَام، و من بينها ينوه بما أخبره به ابن دريد . يقول:

١. أبو علي القالي. كتاب الأمالي، تحقيق: صلاح بن فتحي هلل و سيد بن عباس الجليمي (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ٢٠٠١) ص ٥٢٢-٥٢٣.

قال أبو علي: وأنشدنا أبو بكر بن دريد قال: أنشدنا أبو حاتم عن الأصمعى لحُميد بن ثور ولم يروه الأصمعي فى شعر حُميد:

إذا نـادى قرينتَـه حمـامٌ
جـرى بصبابتى دمـعٌ سَـفوحُ
يُرَجِّـعُ بالدعـاءِ علـى غُصونٍ
هَتـوفٌ بالضُّحـى غـرِدٌ فصيحُ
هَفَـا لهَديلِـه منّـي إذا مـا
تَغَـرّد سـاجعاً قلـبٌ قَريـحُ
فقلـتُ حَمَامـةٌ تدعـو حَمَامـا
وكلُّ الحُـبِّ نَـزّاعٌ طَمُـوحُ

وأنشدني أبو بكر:

كاد يَبْكـي أو بَكـى جَزَعـا
مـن حَمَامـاتٍ بَكيْنَ مَعا
ذكّرتْـه عِيشـةً سَـلَفَتْ
قطّعَـتْ أنفاسَـه قِطَعـا

وأنشدنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي قال أنشدني أبو العباس محمد بن يزيد الثمالى لعوف بن مُحَلَّم:

ألا يـا حمـامَ الأيلـكِ إلفُـكَ حاضـرُ
وغُصْنُـكَ ميّـادٌ ففيـم تنـوحُ
أفِـقْ لا تَنُحْ من غيرِ شـيءٍ فإنّني
بكيـتُ زمانـا والفـؤادُ صحيـحُ

وَلُوعًا فشَطّتْ غربةً دارُ زينبٍ
فها أنا أبكي والفؤادُ جريحُ

وحدثني أبو بكر بن دريد قال: خرجنا من عُمَانَ في سفر لنا فنزلنا في أصل نخلة، فنظرت فإذا فاخِتَتَانِ تَزَقُّوَانِ فى فَرْعِها، فقلت:

أقولُ لوَرْقاوَيْنِ في فَرْعِ نَخْلةٍ
وقد طفّلَ الإمساءُ أو جَنَح العَصْرُ
وقد بسطتْ هاتا لتلكَ جنَاحَها
ومال على هاتيكَ من هذه النّحْرُ
ليَهْنَكُما أنْ لمْ تُرَاعا بفُرْقةٍ
وما دَبَّ فى تشتيتِ شَمْلِكما الدهْرُ
فلم أرَ مِثْلي قطّع الشوقُ قلبَه
على أنه يَحْكي قساوتَه الصّخْرُ[1]

١.المصدر السابق، ص ١٣٥-١٣٦.

المؤتلف و المختلف في أسماء الشعراء للآمدي

من الشعراء العمانيين الذين ذكرهم الآمدي في كتابه هذا الأشتر الحَمَامي. يقول عنه:

من بني حَمَامَة من أزد عُمَانَ وهو القائل:

لمَنْ دارٌ عَفَتْ بالسّارياتِ
وتصريفِ الأمورِ السائباتِ
ذكرتُ بها المليحةَ أمَّ عَمْرٍو
ودمعي كالسِّجَالِ الواهياتِ
على السِّرْبالِ تحسبه جُمَاناً
تَخرّمَ من سلوكِ الناظماتِ[1]

و من الشعراء العمانيين الذين ذكرهم الآمدي أيضا في كتابه هذا جوّاس بن حسّان بن عبد الله بن منازل الأزدي. يقول عنه:

ومنهم جوّاس بن حسّان بن عبد الله بن منازل الأزدي - أزد عُمان- شاعر وهو القائل:

ولقد أقدُمُ في الرَّوْ
عِ وأحْمي المُسْتضافا
ثم قد يَحْمَدني الضّيْ
فُ إذا ذَمّ الضِّيَافا

١.أبو القاسم الآمدي. المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، تحقيق: فريتس كرنكو (بيروت: دار الجيل، ١٩٩١)، ص٣٤.

ولقـد أروي نَدَامـا
يَ مـن الخَمْـرِ سُـلافا
مـن أباريـقَ تَراهـا
لَثّمـا بيضـا خِفَافـا
وبنـو بَكْـرٍ قُعُـودٌ
يتعاطيـنَ الصِّحَافـا.[1]

١.المصدر السابق، ص٩٣.

الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يسرد التنوخي قصة غريبة لأحد الحُوَاة العمانيين التقى به في البصرة، و ذكر عنه هذه الحكاية العجيبة. يقول:

حدثني أبو جعفر مسعود بن عبد الله الضبي، شيخ من التنّاء البصريين، كان قد انتقل عنها إلى قرية له، وضيعة، بقرب نهر الدير، فاستوطنها، قال: كان في هذا البستان، وأشار إلى بستان بجانب داره كثيرة الأشجار، أفعى تسمى الجراب، لأنها كانت بقدر الجراب الكبير، طولاً، وسعة، وانتفاخاً.

فكثرت جناياتها، حتى أخربت علي الضيعة، فانتقلتُ عنها إلى الجانب الآخر من النهر، وبطلت ضيعتي، وصار هذا البستان كالأجمة، لا يقدر أحد على دخوله.

وطلبت حَوّاء من البصرة ليصيده، وبذلت على ذلك مالاً جزيلاً. فجاء الحَوّاء فتبخر بدخنة معه، فظهرت الأفعى، فحين رآها هاله أمرها، وقصدته الأفعى فنهشته، فتلف في الحال.

فصار لي حديث بذلك، وشاع الخبر، فامتنع الحَوّاؤون من المجيء، وتغرّبتُ أنا عن الضيعة والقرية، وبطلت معيشتي منهما.

فكنت يوماً جالساً في الجانب الآخر من النهر، إذ جاءني رجل فسلم علي.

وقال: بلغني خبر أفعى عندك، قد قتل فلاناً الحواء، وأخرب عليك ضيعتك، فجئتك لتدلني عليه حتى آخذه.

فقلت: ما أحب تعريضك لهذا، وقد صار لي بتلف ذلك الحَوّاء حديث.

فقال: إن ذلك الحَوّاء كان أخي، وأنا أريد أن آخذ بثأره، وأريح الناس من هذا الملعون، أو اللحاق بأخي.

قلت: فتُشْهِد على نفسك أهلَ الأنهار المجاورة، أن هذا باختيارك، لا بمسألة مني، ففعل، وأريته البستان.

فقال: أريد شيئاً آكله، فجئناه بطعام فأكل، ثم أخرج دُهْناً كان معه، فطلى به جميع بدنه.

وقال لغلام كان معه: انظر هل بقي موضع من غير ما أطليه ؟ فقال له الغلام: لا.

فجلست أنا فوق السطح الذي في داري، أنظر ما يفعل، فأخرج دخنة فبُخّر بها، فما كان بأسرع من أن ظهر الأفعى كأنه دَنٌّ أسود.

فحين قرب من الحَوّاء هرب، فتبعه الحَوّاء، فلحقه وقبض عليه.

فالتفت الأفعى فعض يده، فتركه الحواء فأفلت، وذهب عليه أمره، فجئناه وحملناه، فمات في الليل.

وانقلبت الناحية بحديث الأفعى.

ومضى على هذا مدة، فجاء رجل يُشبه الرجلين، وسألني عما سألني عنه الأخوان، فأخبرته بالخبر.

فقال: الرجلان أخواي، ولا بد لي من الأخذ بثأرهما، أو اللحاق بهما.

قال: فأشهدتُ عليه، وأريته الموضع، وصعدت به السطح، فأكل وشرب أقداحاً كثيرة، وأخرج دهناً كان معه، وطلى به دفعات كثيرة كلَّ بدنه، وكل مرة يسأل غلامه.

فيقول: هل بقي موضع لا دهن فيه ؟ فيقول له الغلام: لا.

فيقول للغلام: أعد الطلاء علي، فيعيده الغلام.

حتى لم يبق في جسده موضع إلا وقد طلاه، وأعاد الطلاء ثلاث مرات، وصار الدهن ينقط من بدنه.

وبُخِّر بدخنة، فخرج الأفعى، فطلبه الحَوّاء وأخذ يحاربه، وتمكنت يدُ الحواء من قفاه، فانثنى عليه فعض إبهامه.

وبادر الحواء فخرم فاه، وجعله في سلة، وأخرج سكيناً معه فقطع إبهام نفسه، وأغلى زيتاً وكواها به، وخَرّ كالتالف.

فحملناه إلى القرية، فإذا بصبي من غلماني قد جاء ومعه ليمونة، وكان الليمون إذ ذاك قليلاً بالبصرة جداً، وعندي منه شجرة واحدة.

فحين رأى الحواء الليمون، قال: هذا يا سيدي عندكم موجود ؟ قلت: نعم.

قال: أغثني بكل ما تقدر عليه منه، فإنا نعرفه في بلدنا يقوم مقام الدرياق.

فقلت: أين بلدك ؟ قال: عُمَان.

فأتيتُه بكل ما كان عندي منه، فأقبل يعضه ويسرع في أكله، وعمد إلى بعضه فاستخرج ماءه، وأقبل يتحسى منه، ويطلي به الموضع، وأصبح من غد وهو صالح.

فسألته عن خبره، فقال: ما خلصني بعد الله عز وجل، إلا ماء الليمون، وأظن أن أخوي لو اتفق لهما تناوله ما تلفا.

قلت: فذلك الدهن الذي انطليت منه، ما هو ؟

قال: الطلق، الذي إذا طرح معه النار على الجسم حين لا يكون فيه خلل، ما ضرت النار الجسم، وأما تلف إخواني، فلأنّ بعض أبدانهم خلا من الطلاء، أو جف عنه.

فقلت: وكيف تمكن الأفعى منك ؟ قال: لطول الوقت، وإلى أن قيدته، جف بعض الدهن، فتمكن مني، ولولا الليمون لتلفت.

فقال: فتعلمت منه استخراج ماء الليمون، وكنت أول من استخرجه بالبصرة، ونبه الناس على منافعه، وجربته في الطبيخ فوجدته طيباً، وتداوله الناس.

قال: ثم أخرج الأفعى، وقطع رأسه، وذنبه، وأغلاه في طنجير، واستخرج دهنه في قوارير، وانصرف.[1]

١.القاضي التنوخي. الفرَج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، ج٤ (بيروت: دار صادر، ١٩٧٨)، ص١٥٦-١٥٩.

مقامات بديع الزمان الهمذاني

يرد ذكر عمان في مقامات الهمذاني في «المَقَامَةُ الصَّيْمَرِيَّة»:

حَدَّثَنا عِيسى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ المَعْرُوفُ بِأَبِي العَنْبَسَ الصَّيْمَرِيُّ: إِنَّ مِمَّا نَزَلَ بِي مِنْ إِخْوانِي الَّذِينَ اصْطَفَيْتُهُمْ وَانْتَخَبْتُهُمْ وَادَّخَرْتُهُمْ لِلشَّدَائِدِ مَا فِيهِ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ وَأَدَبٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ وَاتَّعَظَ وَتَأَدَبَ.

وَذَلِكَ أَنِّي قَدِمْتُ مِنَ الصَّيْمَرَةِ إِلَى مَدِينَةِ السَّلامِ، وَمَعِي جِرَابُ دَنَانِيرَ وَمِنَ الخُرْثِيِّ وَالآلَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا لا أَحْتَاجُ مَعَهُ إِلى أَحَدٍ، فَصَحِبْتُ مِنْ أَهْلِ البُيُوتَاتِ والكُتَّابِ والتُّجَّارِ، وَوُجُوهِ الثَّنَاءِ مِنْ أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَاليَسَارِ، وَالجِدَةِ والعَقَارِ، جَمَاعَةً اخْتَرْتُهُمْ لِلْصُحْبَةِ، وَادَّخَرْتُهُمْ لِلْنَّكْبَةِ، فَلَمْ نَزَلْ فِي صَبُوحٍ وَغَبُوقٍ، نَتَغَذَّى بِالجَدَايا الرُّضَعِ وَالطَّبَاهِجَاتِ الفَارِسِيَّةِ، وَالمُدَقَّقَاتِ الإِبْرَاهِيمِيَّةِ، وَالقَلايَا المُحْرِقَةِ وَالكَبَابِ الرَّشِيدِي وَالحُملانِ، وَشَرَابُنَا نَبِيذُ العَسَلِ، وَسَمَاعُنَا مِنَ المُحْسِنَاتِ الحُذَّاقِ، المَوْصُوفَاتِ فِي الآفَاقِ، وَنَقْلُنَا اللَّوْزُ المُقَشَّرُ وَالسُّكَّرُ وَالطَّبَرْزَدُ، وَرَيْحَانُنَا الوَرْدُ وَبَخُورُنَا النَّدُّ، وَكُنْتُ عِنْدَهُمْ أَعْقَلَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْن عَبَّاسٍ. وَأَظْرَفَ مِنْ أَبي نُواسٍ، وَأَسْخَى مِنْ حَاتِمٍ، وَأَشْجَعَ مِنْ عَمْرو، وَأَبْلَغَ مِنْ سَحْبَانِ وَائِلٍ وَأَدْهَى مِنْ قَصِيرٍ، وَأَشْعَرَ مِنْ جَرِيرٍ، وَأَعْذَبَ مِنْ مَاءِ الفُرَاتِ، وَأَطْيَبَ مِنَ العَافِيَةِ، لِبَذْلِي وَمُرُوءَتِي، وَإِتْلافِ ذَخِيرَتِي، فَلَمَّا خَفَّ المَتَاعُ، وَانْحَطَّ الشِّرَاعُ وَفَرَغَ الجِرَابُ، تَبَادَرَ القَوْمُ البَابَ، لَمَّا أَحَسُّوا بِالقِصَّةِ، وَصَارَتْ فِي قُلُوبِهِم غُصَّةً، وَدَعَوْنِي بَرْصَةً، وَانْبَعَثُوا لِلْفِرَارِ كَرَمْيَةِ الشَّرَارِ، وأَخَذَتْهُمُ الضُّجْرَةُ، فَانْسَلُّوا قَطْرَةً قَطْرَةً، وَتَفَرَّقُوا يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَبَقِيتُ عَلى الآجُرَّةِ، قَدْ أَوْرَثُونِي الحَسْرَةَ، وَاشْتَمَلَتْ مِنْهُمْ عَلى العَبْرَةُ لا أُسَاوِي بَعْرَةً، وَحِيداً فَرِيداً كَالْبُومِ، المَوسُومِ بَالشُّومِ، أَقَعُ وَأَقُومُ، كَأَنَّ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ لَمْ يَكُنْ، وَنَدِمْتُ حِينَ لَمْ تَنْفَعْنِي النَّدَامَةُ، فَبُدِّلْتُ بِالجَمَالِ وَحْشَةً، وَصَارَتْ بِي طُرْشَةٌ، أَقْبَحُ مِنْ رَهْطَةَ المُنَادِي، كَأَنِّي رَاهِبٌ عِبَادِيٌّ، وَقَدْ ذَهَبَ المَالُ وَبَقِيَ الطَّنْزُ، وَحَصَلَ بِيَدِي ذَنَبُ العَنْزِ، وَحَصَلْتُ فِي بَيْتِي وَحْدِي مُتَفَتِّتَةً كَبِدِي، لِتَعْسِ جَدِّي، قَدْ قَرَّحَتْ دُمُوعِي خَدِّي، أُعمرُ مَنْزِلاً دَرَسَتْ طُلُولُهُ، وَعَفَتْ مَعَالِمَهُ سُيُولُهُ، فَأَضْحَى وَأَمْسَى بِرَبْعِهِ الوُحُوش، تَجُولُ وَتَنُوشُ، وَقَدْ ذَهَبَ جَاهِي، وَنَفِدَتْ صِحاحِي،

وَقَلَّ مَرَاحِي، وَسَلَحْتُ فِي رَاحِي، وَرَفَضَنِي النُّدَمَاءِ، وَالإِخْوَانُ القُدَمَاءُ، لا يُرْفَعُ لِي رَأْسٌ، وَلا أُعَدُّ مِنَ النَّاسِ، أَوْتَحُ مِنَ بَزِيعِ الهَرَّاسِ وَرَزِينِ المَرَاسِ، أَتَرَدَّدُ عَلى الشَّطِّ، كَأَنِّي رَاعِي البَطِّ، أَمْشِي وَأَنَا حَافي، وَأَتْبَعُ الفَيَافِي، عَيْنِي سَخِينَةٌ، وَنَفْسِي رَهِينَةٌ، كَأَنِّي مَجْنُونٌ قَدْ أَفْلَتَ مِنْ دَيْرٍ، أَوْ عَيْرٌ يَدُورُ فَي الحَيْرِ، أَشَدُّ حُزْناً مِنَ الخَنْسَاءِ عَلى صَخْرٍ. وَمِنْ هِنْدٍ عَلى عَمْرو وَقَدْ تَاهَ عَقْلِي، وَتَلاَشَتْ صِحَّتِي، وَفَرَغَتْ صُرَّتِي، وَفَرَّ غُلامِي، وَكَثُرَتْ أَحْلامِي، وَجِزْتُ في الوَسْواسِ المِقْدَارَ، وَصِرْتُ بِمَنْزِلَةِ العُمّارِ، وَشَيْطانِ الدَّارِ، أَظْهَر بِاللَّيْلِ وَأَخْفَى بِالنَّهَارِ أَشَأَمُ مِنْ حَفَّارٍ وَأَثْقَلُ مِنْ كِراء الدّارِ وَأُرَعَنُ مِنْ طَيْطَىءِ القَصَّارِ وَأَحْمَقُ مِنْ دَاوُدَ العَصَّارِ وَقَدْ حَالَفَتْنِي القِلَّةُ وَشَمَلَتْنِي الذِّلَّةُ، وَخَرَجْتُ مِنَ المِلَّةِ، وَأَبْغَضْتُ فِي اللهِ، وَكُنْتُ أَبَا العَنْبَسِ، فَصِرْتُ أَبَا عَمَلَّسٍ. قَدْ ضَلِلْتُ المَحَجَّةَ، وَصَارَتْ عَلَيَّ الحُجَّةُ، لا أَجِدُ لِي نَاصِراً، وَالإِفْلاسُ عِنْدِي أَرَاهُ حَاضِراً، فَلَمَّا رَأَيْتُ الأَمْرَ قَدْ صَعُبَ، وَالزَّمَانَ قَدْ كَلِبَ، التَمَسْتُ الدِّرْهَمَ فَإِذَا هُوَ مَعَ النَّسْرَيْنِ، وَعِنْدَ مُنْقَطِعِ البَحْرَيْنِ، وَأَبْعَدَ مِنْ الفَرْقَدَيْنِ. فَخَرَجْتُ أَسِيحُ كَأَنِّيَ المَسِيحُ، فَجُلْتُ خُرَاسَانَ، وَالخَرابَ مِنْهَا وَالعُمْرَانَ، إِلَى كَرْمَانَ وَسِجِسْتَانَ، وَجيلاَنَ إِلَى طُبَرِسْتَانَ وَإِلَى عُمَانَ إِلَى السِّنْدِ، وَالهِنْدِ، وَالنَّوبَةِ، وَالقُبْطِ، وَاليَمَنِ، وَالحِجَازِ، وَمَكَّةَ، وَالطَّائِف، أَجُولُ البَرَارِيَّ وَالْقِفَارِ، وَأَصْطَلِي بِالنَّارِ، وَآوِي مَعَ الحِمَارِ، حَتَّى اسْوَدَّتْ وَجْنَتَايَ، وَتَقَلَّصَتْ خُصْيَتَايَ، فَجَمَعْتُ مِنَ النَّوَادِرِ وَالأَخْبَارِ وَالأَسْمَارِ، وَالفَوَائِدِ وَالآثَارِ، وَأَشْعَارِ الْمُتَطَرِّفِينَ، وَسُخْفِ المُلْهِينَ، وَأَسْمَارِ المُتَيَّمِينَ، وَأَحْكَامِ المُتَفَلْسِفِينَ، وَحِيَلِ المُشَعْوِذِينَ، وَنَوَامِيسِ المُتَمَخْرِقِينَ، وَنَوَادِرِ المُنَادِمِينَ، وَرَزْقِ المُنَجِّمِينَ، وَلُطْفِ المُتَطَبِّبِينَ، وَكِيَادِ المُخَنَّثِينَ، وَدَخْمَسَةِ الجَرَابِذَةِ، وَشَيْطَنَةِ الأَبَالِسَةِ، وَمَا قَصَّرَ عَنْهُ فُتْيَا الشَّعْبِيِّ، وَحِفْظُ الضَّبِيِّ. وَعِلْمُ الكَلْبِيِّ. فَاسْتَرْفَدْتُ وَاجْتَدَيْتُ، وَتَوَسَّلْتُ وَتَكَدَّيْتُ، وَمَدَحْتُ وَهَاجَيْتُ، حَتَّى كَسَبْتُ ثَرْوَةً مِنَ المَالِ، وَاتَّخَذْتُ مِنْ الصَّفَائِحِ الهِنْدِيَّةِ، وَالقُضُبِ اليَمَانِيَّةِ، وَالدُّرُوعِ السَّابِرِيَّةِ. وَالدَّرَقِ التُّبَّتِيَّةِ، وَالرِّمَاحِ الخَطِّيَّةِ، وَالحِرَابِ البَرْبَرِيَّةِ، وَالخَيْلِ العِتَاقِ الجُرْدِيَّةِ، وَالبِغَالِ الأَرْمَنِيَّةِ، وَالحُمُرِ المَرِيسِيَّةِ، وَالدَّيَابِيجِ الرُّومِيَّةِ، وَالْخُزُوزِ السُّوسِيَّةِ، وَأَنْوَاعِ الطُّرَفِ وَاللُّطَفِ، وَالهَدَايَا وَالتُّحَفِ، مَعَ حُسْنِ الحَالِ، وَكَثْرَةِ المَالِ، فَلَمَّا قَدِمْتُ بَغْدَادَ وَوَجَدَ القَوْمُ خَبَرِي، وَمَا رُزِقْتُهُ فِي سَفَرِي، سُرُّوا بِمَقْدَمِي، وَصَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَيَّ، يَشْكُونَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الوَحْشَةِ لِفَقْدِي، وَمَا نَالَهُمْ لِبُعْدِي، وَشَكَوْا شِدَّةَ الشَّوْقِ، وَرُزْءَ التَّوْقِ وَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَعْتَذِرُ مِمَّا فَعَلَ، وَيُظْهِرُ النَّدَمَ عَلى مَا صَنَعَ، فَأَوْهَمْتُهُمْ أَنِّي قَدْ صَفَحْتُ عَنْهُمْ، وَلَمْ أُظْهِرْ لَهُمْ أَثَرَ المَوْجِدَةِ عَلَيهِمْ بِمَا تَقَدَّمَ،

فَطَابَتْ نُفُوسُهُمْ، وَسَكَنَتْ جَوَارِحُهُمْ، وَانْصَرَفُوا عَلى ذَلِكَ، وَعَادُوا إِلَيَّ فِي اليَوْمِ الثَّانِي، فَحَبَسْتُهُمْ عِنْدِي، وَوَجَّهْتُ وَكِيلِي إِلَى السُّوقِ فَلَمْ يَدَعْ شَيْئاً تَقَدَّمْتُ بِشِرَائِهِ إِلاَّ أَتَى بِهِ، وَكَانَتْ لَنَا طَبَّاخَةٌ حَاذِقَةٌ؛ فَاتْخَذْتُ عِشْرِينَ لَوْناً مِنْ قَلايَا مُحْرِقَاتٍ، وَأَلْوَاناً مِنْ طَبَاهِجَاتٍ، وَنَوادِرَ مُعَدَّاتٍ، وَأَكَلْنَا وَانْتَقَلْنَا إِلَى مَجْلِسِ الشَّرَابِ، فَأُحْضِرَتْ لَهُمْ زَهْرَاءُ خَنْدَرِيسِيَّةٌ، وَمُغَنِّيَاتٌ حِسَانٌ مُحْسِنَاتٌ، فَأَخَذُوا فِي شَأْنِهِمْ وَشَرِبْنَا، فَمَضَى لَنَا أَحْسَنُ يَوْمٍ يَكُونُ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَعْدَدْتُ لَهُمْ بِعَدَدِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ صَنّاً مِنْ صِنَانِ البَاذِنْجَانِ، كُلُّ صَنٍّ بِأَرْبَعَةِ آذَانٍ، واسْتَأْجَرَ غُلاَمِي لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَمَّالاً، كُلُّ حَمَّالٍ بِدِرْهَمِينِ، وَعَرَّفَ الحَمالِينَ مَنَازِلَ القَوْمِ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِالمُوَافَاةِ بِعِشَاءِ الآخِرَةِ، وَتَقَدَّمْتُ إِلى غُلاَمِي وَكَانَ دَاهِيَةً أَنْ يَدْفَعَ إِلَى القَوْمِ بِالْمَنِّ وَالرَّطْلِ، وَيَصْرِفَ لَهُمْ، وَأَنَا أُبَخِّرُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ النَّدَّ وَالعُودَ وَالعَنْبَرَ، فَمَا مَضَتْ سَاعَةٌ إِلاَّ وَهُمْ مِنَ السُّكْرِ أَمْوَاتٌ لاَ يَعْقِلُونَ وَوَافَانَا غِلْمَانُهُمْ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ كلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِدَابَّةٍ أَوْ حِمارٍ أَوْ بَغْلَةٍ، فَعَرَّفْتُهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدِي اللَّيْلَةَ بَائِتُونَ، فَانْصَرَفُوا، وَوَجَّهْتُ إِلى بِلاَلٍ المُزَيِّنِ فَأَحْضَرْتُهُ، وَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ طَعَاماً فَأَكَلَ، وَسَقَيْتُهُ مِنَ الشَّرَابِ القُطْرُبُّلِيِّ، فَشَرِبَ حَتَّى ثَمِلَ، وَجَعَلْتُ فِي فِيهِ دِينَارَيْنِ أَحْمَرَيْنِ، وَقُلْتُ: شَأْنَكَ وَالقَوْمَ، فَحَلَقَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ خَمْسَ عَشْرَةَ لِحْيَةً، فَصَارَ القَوْمُ جُرْداً مُرْداً، كَأَهْلِ الجَنَّةِ، وَجَعَلْتُ لِحْيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَصْرُورَةً فِي ثَوْبِهِ، وَمَعَهَا رُقْعَةٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا: " مَنْ أَضْمَرَ بِصَدِيقِهِ الغَدْرَ وَتَرْكَ الوَفَاءِ، كَانَ هَذَا مُكَافَأَتَهُ وَالجَزَاءَ ". وَجَعَلْتُهَا فِي جَيْبِهِ، وَشَدَدْنَاهُمْ فِي الصِّنَانِ، وَوَافَى الحَمَّالُونَ عِشَاءَ الآخِرَةِ، فَحَمَلُوهُمْ بِكَرَّةٍ خَاسِرَةٍ، فَحَصَلُوا فِي مَنَازِلِهِمْ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا رَأَوْا فِي نُفُوسِهِمْ هَمّاً عَظِيماً، لا يَخْرُجُ مِنْهُمْ تَاجِرٌ إِلَى دُكَّانِهِ، وَلا كَاتِبٌ إِلَى دِيوَانِهِ، وَلا يَظْهَرُ لإِخْوانِهِ، فَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ يَأْتِي خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ خَوَلِهِمْ، وَمِنْ نِسَاءٍ وَغِلْمَانٍ وَرِجَالٍ يَشْتِمُونَنِي وَيُزَنُّونَنِي، وَيَسْتَحْكِمُونَ اللهَ عَلَيَّ، وَأَنَا سَاكِتٌ لا أَرُدُّ عَلَيهِمْ جَوَاباً، وَلَمْ أَعْبَأْ بِمَقَالِهِمْ، وَشَاعَ الخَبَرُ بِمَدِينَةِ السَّلامِ بِفِعْلِي مَعَهُمْ، وَلَمْ يَزَلِ الأَمْرُ يَزْدَادُ حَتَّى بَلَغَ الوَزِيرَ القَاسِمَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ طَلَبَ كَاتِباً لَهُ فَافْتَقَدَهُ، فَقِيلَ: إِنَّهُ فِي مَنْزِلِهِ لا يَقْدِرُ عَلى الخُرُوجِ، قَالَ: وَلِمَ؟ قِيلَ: مِنْ أَجْلِ مَا صَنَعَ أَبُو العَنْبَسِ؛ لأَنَّهُ كَانَ امْتُحِنَ بِعِشْرَتِهِ وَمُنَادَمَتِهِ، فَضَحِكَ حَتَّى كَادَ يُبُولُ فِي سَرَاوِيلِهِ أَوْ بَالَ، واللهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ: واللهِ لَقَدْ أَصَابَ وَمَا أَخْطَأَ فِيمَا فَعَلَ، ذَرُوهُ فَإِنَّهُ أَعْلَمِ النَّاسِ بِهِمْ، ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيَّ خِلْعَةً سَنِيَّةً، وَقَادَ فَرَساً بِمَرْكَبٍ، وَحَمَلَ إِلَيَّ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، لاسْتِحْسَانِهِ فِعْلِي، وَمَكَثْتُ فِي مَنْزِلِي شَهْرَيْنِ أُنْفِقُ وَآكلُ وَأَشْرَبُ، ثُمَّ ظَهَرْتُ بَعْدَ الاسْتِتَارِ، فَصَالَحَنِي بَعْضُهُمْ لِعِلْمِهِ بِمَا صَنَعَ الوَزِيرُ، وَحَلَفَ بَعْضُهُمْ

بِالطَّلاَقِ الثَّلاَثِ وَبِعِتْقِ غِلْمَانِهِ وَجَوَارِيهِ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُنِي مِنْ رَأْسِهِ أَبَداً، فَلا واللهِ العَظِيمِ شَانُهُ، العَلِيِّ بُرْهَانَهُ، مَا اكْتَرَثْتُ بِذَلِكَ، وَلا بَالَيْتُ، وَلا حُكَّ أَصْلُ أُذُنِي، وَلا أَوْجَعَ بَطْنِي، وَلا صَرَّنِي، بَلْ سَرَّنِي، وَإِنَّمَا كانَتْ حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقوبَ قَضَاهَا.

وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذا وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ لِيُؤْخَذَ الحَذَرُ مِنْ أَبْنَاءِ الزَّمَنِ، وَتُتْرَكَ الثِّقَةُ بِالإِخْوانِ الأَنْذَالِ السَّفَلِ، وَبِفُلاَنٍ الوَرَّاقِ النَّمَّامِ الزَّرَّافِ الَّذِي يُنْكِرُ حَقَّ الأُدَبَاءِ، وَيَسْتَخِفُّ بِهِمْ، وَيَسْتَعِيرُ كُتُبَهُمْ لا يَرُدُّهَا عَلَيْهِمْ، وَاللهُ المُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلاَنُ.[1]

١. بديع الزمان الهمذاني. مقامات بديع الزمان الهمذاني، تحقيق: محمد عبده (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥)، ص٢٣٦-٢٤٥.

الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي

مما جاء في كتاب الإمتاع والمؤانسة عن عمان، حديث أبي حيان عن فضل العرب على غيرهم من الأمم. يقول:

ومما يدل على تَحضُّرِهم في باديتهم، وتبدّيهم في تحضُّرِهم، وتحلّيهم بأشرف أحوال الأمرين، أسواقهم التي لهم في الجاهلية، مثل دُومَة الجَنْدل بقرى كلب وهي النصف بين العراق والشام، كان ينزلها الناس أول يوم من شهر ربيع الأول، فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ وكان يُعشِّرهم أُكَيْدر دُومة، وربما غلبت على السوق كلب يعشِّرُهم بعضُ رؤساء كلب؛ فيقوم سوقهم إلى آخر الشهر، ثم ينتقلون إلى سوق هَجَر، وهو المِشَقَّر في شهر ربيع الآخر، فتقوم أسواقهم؛ وكان يعشِّرُهم المنذرُ بن ساوى أحدُ بني عبد الله بن دارِم، ثم يرتحلون نحو عُمَانَ، فتقوم سوقهم بديار دَبا، ثم بصُحَار، ثم يرتحلون فينزلون إرَم، وقُرَى الشِّحْر فتقوم أسواقُهم أياماً، ثم يرتحلون فينزلون عَدَنَ أَبْيَن، ومن سوق عدن تُشترى اللطائمُ وأنواع الطيب، ولم يكن في الأرض أكثر طيباً، ولا أحذقَ صناعاً للطيب من عدن؛ ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت، ومنهم من يجوزها ويرِدُ صنعاء، فتقوم أسواقهم بها، ومنها كانت تُجلب آلة الخرَز والأدم والبرود، وكانت تُجلب إليها من مَعافِر، وهي معدن البرود والحبر ثم يرتحلون إلى عُكاظَ وذي المجاز في الأشهر الحُرُم، فتقوم أسواقهم بها، فيتناشدون ويتحاجّون ويتحادّون، ومن له أسيرٌ يسعى في فِدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة من بني تميم، وكان آخرَهم الأقرعُ بن حابس؛ ثم يقفون بعَرَفة، ويقضون ما عليهم من مناسكهم؛ ثم يتوجهون إلى أوطانهم. وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة، فيحضرها من قرُب من العرب ومن بعُد. هذا حديثهم، وهم هَمَل لا عِزَّ لهم إلا بالسؤدد، ولا مَعْقِلَ لهم إلا السيف، ولا حصون إلا الخيل، ولا فخر إلا بالبلاغة.

ثم لما ملكوا الدور والقصور والجِنان والأودية والأنهار والمعادن والقلاع والمدن والبلدان والسهل والجبل والبر والبحر، لم يقعدوا عن شَأْوِ مَنْ تقدم بآلاف سنين، ولم يعجزوا عن

شيء كان لهم؛ بل أبرّوا عليهم وزادوا، وأغربوا وأفادوا؛ وهذا الحكم ظاهر معروف، وحاضر مكشوف؛ ليس إلى مرده سبيل ولا لجاحده ومنكره دليل.[1]

وفي موضع آخر يورد أبو حيان مسامرة حوارية بينه و بين الوزير أبي عبد الله العارض، يرد فيها أيضا ذكر عمان. يقول:

فرقّ الوزيرُ عند هذا الحديث وقال: أذكرتَني أمر العلوية، وأخذ القلم، واستمد من الدواة، وكتب في التذكرة شيئاً، ثم أرسل إلى نقيب العلوية العمري في اليوم الثاني بألف دينار، حتى تُفرّقَ في آل أبي طالب، وقال لي: هذا من بركة الحديث.

ثم قال: كيف تطاول هؤلاء القوم إلى هذا الأمر مع بُعدِهم من رحِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرب بني هاشم منه؟ وكيف حدثتْهم أنفسُهم بذلك؟ إن عجبي من هذا لا ينقضي، أين بنو أمية وبنو مروان من هذا الحديث مع أحوالهم المشهورة في الدين والدنيا؟ فقلت: أيها الوزير، إذا حُقق النظرُ واسْتُشِفّ الأصلُ لم يكن هذا عجيباً، فإن أعجاز الأمور تاليةٌ لصدورها، والأسافلَ تاليةٌ لأعاليها، ولا يزال الأمر خافياً حتى ينكشف سببه فيزولَ التعجب منه، وإنما بَعُد هذا على كثير من الناس، لأنهم لم يُعنوا به وبتعرف أوائله والبحث عن غوامضه، ووضعه في مواضعه، وذهبوا مذهب التعصب.

قال: فما الذي خفي حتى إذا عُرِف سقط التعجب ولزِم التسليم؟ فكان من الجواب: لا خلاف بين الرواة وأصحاب التاريخ أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي وعتّاب بن أسيدٍ على مكة، وخالد بن سعيد على صنعاء، وأبو سفيان بن حرب على نجران، وأبَانُ بن سعيد بن العاص على البحرين، وسعيد بن القِشْب الأزدي حليف بني أمية على جُرَش ونحوها، والمُهاجر بن أبي أمية المخزومي على كندة والصَّدِف؛ وعمرو بن العاص على عُمان، وعثمان بن أبي العاص على الطائف. فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أسس هذا الأساس، وأظهر أمرهم لجميع الناس؛ كيف لا يقوى ظنهم، ولا ينبسط رجاؤهم، ولا يمتد في الولاية أملهم؟ وفي مقابلة هذا، كيف لا يضعف طمع فيها، والعاجلة محبوبة، وهذا وما أشبهَه حدّد أنيابَهم، وفتح أبوابَهم؛ وأترع كأسَهم، وفتل أمراسَهم، ودلائلُ الأمور تسبق، وتباشير الخبر تُعرف.[2]

١. أبوحيّان التوحيدي. الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، ج١ (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت) ص ٨٤-٨٥.
٢. المصدر السابق، ج٢، ص ٧٣-٧٤.

البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي

من المختارات الأدبية التي أوردها التوحيدي في هذا الكتاب وفيها ذكر لعمان قوله:

رأى كلْبٌ رغيفاً يتَدَحْرَجُ فتَبِعَه فقال له: إلى أين؟ قال: إلى النّهْرَوَان، قال الكلب: قُلْ إلى عُمَانَ إنْ تَرَكْتُك.![1]

\

١. أبو حيان التوحيدي. البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، ج٩ (بيروت: دار صادر، ١٩٨٨) ص ١١١.

شرح ديوان الحماسة للمرزوقي

مما جاء في شرح ديوان الحماسة، و فيه ذكر لعُمَان، تفسير المرزوقي لقول الشاعر الجاهلي بشر بن أبي:

جَلَبْـنَ بـإذنِ اللهِ مَقْتَـلَ مالِـكٍ

وطرّحْـنَ قيسـاً مـن وَرَاءِ عُمَـانِ

أخذ يعتد الخصال المكروهة الحاصلة بها، فيقول: جلب سبق داحسٍ بعلم الله تعالى قتلَ مالك بن زهيرٍ، وتطريحَ قيس بن زهيرٍ من أرض العرب إلى عُمَان. وكان قيسٌ نذر ألا ينظر في وجه غظفانيٍ أبداً، فدعاه ذلك إلى مراغمة العشيرة، والتباعد في الغربة. وقوله "بإذن الله" من قولك أذنتَ بالقوم. وفي الحديث: "ما أَذِن الله لشيءٍ". وقصد الشاعر أن يذكر ما أعقب سبقَ داحسٍ من الشر، وألحق من الشؤم.[1]

وفي موضع آخر من شرح ديوان الحماسة، يفسر المرزوقي قول غَلّاق بن مَرْوَان العبسي:

فمـا تدّعي من خيـرِ عَـدْوَةِ داحِسٍ

فلـمْ تَنْـجُ منهـا يـا ابـنَ وَبْـرَةَ سـالِما

يذم ما أحمدوه من سبق داحسٍ وتبريزه، ويُسوِّئ رأيهم في تبجحهم، ويُعرِّفهم قبحَ عاقبة ما اختاروه، وسوءَ مَغبّة ما شرعوا فيه. وإنما قال "ما تدّعي" لأن أصحاب الغبراء كانوا يعللون سبقَ داحس وينكرونه، فلهذا علق ما حكاه عنه بالدعوى. وقوله "من خير عدوة" أي من نفعه وسناء ذكره. وقوله "فلم تنج منها" رد الضمير على المضاف إليه وهو العدوة. يريد: لم يرجع إليك منها جدوى، ولا ارتفع الأمر فيه كفاً. ولما فاتت الغنيمة فيه لم تحصل لك السلامة أيضاً.

١. أبو علي المرزوقي. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق: غريد الشيخ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣)، ص ٣٢٥.

شَـأمْتُمْ بهـا حَيّـيْ بغيـضٍ وغَرّبـتْ
أبالـك فأودى حيـثُ والـى الأعاجِما

قال أبو زيد: يقال شأم فلانٌ أصحابه، إذا أصابهم الشؤم من قِبله. و "بها" يريد بالعدوة، وهذا تفسير قوله: فلم تنج منها يا ابن وبرة سالماً. يقول: أوقعتم بعدوتها والخِطَار عليها الشؤمَ في حيي بغيضٍ: عبسٍ وذبيان، وأُحْوِج أبوك -يعني قيسَ بن زهيرٍ- إلى ترك أرض العرب ومهاجرتها. يعني حين أُحْرِج وأزْعِج إلى بلاد العجم، حتى صار يواليهم بها، إلى أن مات غريباً بين ظهرانيهم. وأشار بقوله "حيث" إلى عُمَان وما وراءه.[1]

وفي موضع آخر من شرح ديوان الحماسة، يفسر المرزوقي قول الربيع بن زياد:

وحَـرَّقَ قيـسٌ عَلَـيَّ البِـلا دَ
حتَّـى إذا اضْطَرَمَـتْ أَجْذَمـا

يقول: ألهب قيس بن زهير البلادَ عليّ ناراً تتوهج، فلما استعرتْ وتأججتْ هرب وتركني أصطلي بها وإنما قال هذا لأن قيساً ترك أرض العرب وانتقل إلى عمان بعد إثارة الفتن واهتياج الشر، في سبق داحس. والإجذام: الإسراع في السير، وجعله مثلاً لانزوائه ونفضه اليدَ مما كان لابسَه وتولاه من إيقاد نار الحرب بين الفريقين.

وفي موضع آخر يشرح المرزوقي قول الشاعر الجاهلي العديل بن الفرخ العجلي:

كِلانـا يُنـادي يـا نـزارُ وبيننـا
قناً من قنـا الخَطّيِّ أو من قَنـا الهِنْدِ

كلا اسم مفردٌ يؤكد به المثنّى، كما أن كلاً اسم مفردٌ يؤكد به المجموع. والمراد به هنا كل واحدٍ منا، لذلك قال ينادي. والمعنى إن اعتزاء كل واحد من طائفتينا إلى أبٍ واحد، والشر إذا وقع بين الأقارب كان في عقول ساداتهم أشدّ تأثيراً، وأبلغَ عند الاستعمال به تحذيراً، إذ

١.المصدر السابق، ص ٣٢٨.

كان مفاسدةُ النسيب لنسيبه أفظع، وكان التقاطعُ حيث يجب التواصل أشنع، لأن عز السيد بتابعيه، وليس الأقارب منهم كالأجانب. وقوله وبيننا قناً من قنا الخَطّيّ الواو واو الحال، وقد حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. والمراد: وبيننا اختلاف قناً خطيةٍ بالطعن، أي بلغ جهد البلاء بينهم هذا المبلغ وانتهى إلى هذه الحالة. وقال من قنا الخطي والمراد من قنا الموضع الخطي أو المكان، فأقام الصفة مقام الموصوف. يدل على هذا أنه قال بعده أو من قنا الهند. ويجب أن يكون القنا الأول وإن كان جمع قناةٍ متناولاً لما هو أقلُّ مما يتناوله القنا الثاني حتى يحصل معنى التبعيض بمن. والخَطُّ: جزيرةُ عُمَان. ويقال في الرماح هي الخَطّيّة، كأنه اسمٌ لها.[1]

١. المصدر السابق، ص ٥١٩-٥٢٠.

نثر الدر لأبي سعد منصور بن الحسين الآبي

يرد ذكر عمان حين يورد الآبي وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لعكرمة بن أبي جهل حين وجهه إلى عمان:

وقال لعكرمة حين وجهه إلى عُمَان: سِرْ على بَرَكة الله، ولا تنزلنّ على مُسْتأمِن، ولا تُؤَمّننَ على حق مسلم. وقَدِّم النُّذُرَ بين يديك. ومهما قلتَ إني فاعل فافعلْ، ولا تجعلْ قولَك لَغْواً في عفو ولا عقوبة، فلا تُرْجَى إذا أمّنتَ، ولا تُخَاف إذا خَوّفتَ، ولكنْ انظرْ متى تقول وما تقول، ولا تُعذِّبْ على معصية بأكثر من عقوبتِها، فإنكَ إنْ فعلتَ أثِمتَ، وإنْ تَرَكتَ كَذَبْتَ، ولا تُؤَمّننّ شريفاً دون أن يكفل بأهله، ولا تكلّفنّ ضعيفاً أكثر من نفسه، واتقِ الله إذا لقِيت، وإذا لقِيت فاصبرْ.[1]

ويرد أيضا حين ينقل الآبي قولا لحُذَيْفة بن اليَمَان:

وذكر الفتنة فقال أتتكم الدُّهَيْماءُ تَرْمي بالنَّشَفِ ثم التي تليها ترمي بالرَّصْفِ. وذكر خروج عائشة فقال: تقاتل معها مُضَرُ مَضّرَها الله في النار، وأَزْدُ عُمَانَ سَلَتَ الله أقدامَها، وإنّ قيساً لن تنفكَّ تبغي دين الله شراً، حتى يَركبَها الله بالملائكة فلا يمنعوا ذَنَبَ تلعة.[2]

ويرد ذكر عمان أيضا في باب ينقل فيه الآبي أقوال المهلب بن أبي صفرة وولده:

قيل للمُهَلِّب: ما النبلُ؟ قال أن يخرج الرجلُ من منزله وحده ويعودَ في جماعة.

وقال: ما رأيتُ الرجل يضيقُ قلوبُها عند شيء كما تضيق عند السرِّ.

خطب يزيدُ بنُ المهلب بواسطٍ فقال: إني قد أسمعُ قول الرِّعاع: قد جاء مسلمةُ وقد جاءَ العباسُ، وقد جاء أهلُ الشام. وما أهل الشام إلا تسعةُ أسياف: سبعةٌ منها معي، واثنان

١. أبو سعد منصور بن الحسين الآبي. نثر الدر، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، ج٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤)، ص١٤.
٢. المصدر السابق، ج٢، ص٧٨.

علي. وأما مسلمة فجرادة صَفراء، وأما العباسُ فنسطوسُ بنُ نسطوس، أتاكم في بَرابَرة وصقالية، وجَرَامقة، وأقباط، وأنباط، وأخلاط. إنما أقبل إليكم الفلاحُون وأوباشٌ كأشْلاء اللحم. والله ما لقوا قط كحدكم، وحَديدكم، وعَديدكم. وأعيُروني سَواعدكم ساعةً من نهار تصِفقُون بها خراطيمهُم. وإنما هي غَدوة أو روحةٌ حتى يحكُمَ الله بيننا وبين القوم الظالمين.

قال المهلبُ: يا بني، تباذلُوا تحابوا، فإن بني الأم يختلفُون، فكيف ببني العلات؟ إن البر ينسأ في الأجَل، ويزيدُ في العَدَد، وإن القطيعة تُورث القلة، وتُعقب النار بعد الذلة. واتقوا زلة اللِّسان، فإن الرجل تزلُّ رجلُه، فينتقشُ، ويزل لسانُه فيهلكُ، وعليكُم في الحرب بالمكيدة، فإنها أبلغُ من النجدة، فإن القتال إذا وقع دَفع القضاءَ، فإن ظفر فقد سَعد، وإن ظُفر به لم يقولُوا فَّرط.

قال الجاحظُ: قال المهلبُ: ليس أنمَى مِن سيف. فوجدَ الناسُ تصديق قوله فيما قال ولده من السيف، فصار فيهم النَّماءُ.

وقال علي عليه السلام: بقيةُ السيف أنمى عَدَداً، وأكرمُ ولداً. ووجد الناسُ ذلك بالبيان الذي صار إليه ولُده مِن نهكِ السيفِ، وكثرة الذرية وكرم النجل.

ومن كلام المهلب: عجبتُ لمن يشتري المماليك بمالِه، ولا يشتري الأحرار بمعُرُوفه.

وقال يزيدُ بن المهلب لابنه مخلد - حين ولاه جُرجَان: استظرفْ كاتِبك، واستعِقلْ حاجِبَك.

قال حبيب بن المهلب: ما رأيت رجلاً مُستلئماً في الحرب إلا كان عندي رجُلين، ولا رأيت حاسرين إلا كنا عند واحداً. فسمع بعض أهل المعرفة هذا الكلام، فقال: صَدق: إن للسلاح فضيلةً. أمَا تراهم ينادون عند الصريخ: السلاحَ السلاح، ولا ينادُون: الرجال، الرجال.

قيل ليزيدَ بن المهلب: ألا تبني داراً؟ فقال: مَنزلي دار الإمَارة أو الحبس. أغلظ. رجلٌ للمهلب، فحلم عنه، فقيل له: جَهل عليك وتحلُمُ عنه؟ فقال: لم أعرف مَساوَيه، وكرهت أن أبهته بما ليس فيه.

قال يزيدُ بن المهلب: ما رأيت عاقلاً ينوبه أمرٌ إلا كان مقوله على لَحْييه. وقيل له: إنك لتُلْقي نفسَك في المهالك. قال: إني إن لم آت الموت مُسترسلاً أتاني مُستعجلاً. إني لست أتي الموت من حُبِّه، وإنما أتيه من بغضه، ثم تمثل: تأَخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة

مثل أن أتقدمَا.

كتب المهلب إلى الحجاج لما ظفر بالأزارقة: الحمدُ لله الذي كفى بالإسلام فقدُ ما سواه، وجعل الحمد متصلاً بنعَمه، وقضى ألا ينقطع المزيدُ من فضله، حتى ينقطع الشكر من عبَاده ثم إنا وعَدوَّنا كنا على حالين مُختلفتين، نرى فيهم ما يسرُّنا أكثر مما يسوؤُنا، ويروَن فينا ما يُسوءُهم أكثر ممَا يسرُّهم. فلم يزل الله يكثرُنا ويمحقهم، وينصرنا ويخذلهم، على اشتداد شوكتهم، فقد كان عَلن أمُرهم حتى ارتاعَت له الفتاة، ونوِّم به الرضيعِ، فْانتهزْتُ منهم الفرصة في وقت إمكانها، وأدنَيْتُ السوادَ، مِن السواد حتى تعارفَتِ الوُجوه. فلم نزل كذلك حتى بلغ بنا وبهم الكتاب أجَله. فقطِعَ دَابُر القومِ الذين ظَلَمُوا والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وقال المهلب لبنيه: يا بني، إذا غدا عليكم الرجل، ولاحَ مُسلِّما، فكفى بذلك تقاضيا.

وقيل له: أيُّ المجالس خيرٌ؟ قال: ما بَعُدَ فيه مَدَى الطرْف، وكثر فيه فائدة الجليس.

قال المهلب: العيش كلُّه في الجليس المُمتع.

وقال يزيدُ بن المهلب: ما يسرُّني أني كفيت أمَر الدُّنيا. قيل مهاجرين: ولم؟ قال: أكره عادة العَجْز.

وقال المهلبُ لبنية: إذا وليتُم فلينُوا للمُحْسن، واشتدُّوا على المُريب، فإن الناسَ للسُّلطان أهيبُ منهم للقرآن.

وكان يقول: أدْنى أخلاق الشريف كتمانُ السِّر، وأعْلى أخلاقه نسيّانُ ما أسر إليه.

ولما اسْتخلف ابنه المغيرة على حَرْب الخوارج، وعاد هُو إلى مُصْعب بن الزبير جمعَ الناسَ فقال لهم: إنِّي قد استخلفتُ عليكم المغيرة، وهُو أبو صغيركم رقةً ورحمةً، وابنُ كبيركم طاعة وبراً وتبجيلا، وأخُو مثله مواساة ومناصحة. فلتحُسن له طاعتُكم، ولْيلِن له جانبكُم، فوالله ما أردتُ صواباً قطُّ إلى سَبقني إليه.

وكان الحجاجُ كتب إليه وهو في وَجْه الخوارج: أما بعدُ فإنه بلغني أنك قد أقبلت عَلى جبَاية الخراج، وتركت قتال العدُوِّ. وإني ولَّيْتُك وأنا أرى مكان عبد الله بن حكيمٍ المجاشعي، وعباد بن حصَين الحَبطي، واخترتُك وأنتَ من أهلِ عُمَانَ، ثم رَجُلٌ من الأزد. فالْقهُم يوم كذا في مكان

كذا وإلا أشرعتُ إليك صَدْر الرماح فشاورَ بنيهِ، فقالوا: إنه أميرٌ فلا تغْلُظ عليه في الجواب.

فأجابه المهلبُ: وردَ عليَّ كتابُك، تزعُم أني أقبلتُ على جباية الخراج، وتركتُ قتال العدُو. ومَن عجز عن جبايةِ الخراج فهُو عَن قتال العدوِّ أعجَزُ، وزعمتَ أنك وليتني، وأنت ترى مكان عَبدِ الله بن حكيم، وعَبادِ بن حصين ولوْ وليْتهُما لكانا مُسْتحقَّيْن لذلك في فضلهما، وغنائهما، وبطشِهما. وإنك اخترتني - وأنا رجلٌ من الأزد. ولعَمَري إن شراً من الأزد لقبيلةٌ تنازعها ثلاثُ قبائل لم تستقِر في واحدة منهُن. وزعمت أني إن لم ألقهُم في يوم كذا أشرعْت إلى صَدْر الرُمْح. فلو فعلت لَقلَبْتُ إليك ظَهْرْ المِجّنِّ والسلام.

ووجه الحجاجُ إليه الجراحَ بن عَبْد الله يستبطئُه في مناجَزة القوم. وكتب إليه: أما بعد. فإنك جَبيتَ الخراج بالعلل، وتحصنتَ بالخنادق، وطاولت القوم وأنت أعزُّ ناصراً، وأكثر عَددا. وما أظنُّ بك مع هذا معصيةً ولا جبْناً، ولكنك اتخذتهم أُكْلاً. وكان بقاؤهم أيْسرَ عليك من قتالهم. فناجزْهم، وإلا أنْكرتني. والسلامُ.

فقال المهلب للجراح: يا أبا عقبة. واللهِ مَا تركتُ حيلةً إلاَّ احتلْتُها، ولا مكيدة إلا أعْملتُها. وما العجبُ من إبطاء النصر، وتراخي الظفر، ولكن العجب أن يكون الرأيُ لمنْ يملُكه دون مَن يبصرهُ.

ثم ناهضهم ثلاثة أيام يُغاديهم القتال، ولا يزالُون كذلك إلى العصر، حتى قال الجراح: قد أعذرت وينصرفُ أصحابهُ. وبهم قَرْح، وبالخوارج قَرْح، وقتل.

وكتب المهلب إلى الحجاج: أتاني كتابُك: تستبطئُني في لقاء القوم. على أنك لا تُظنُّ بي معصيةً ولا جبْناً. وقد عاتبْتني مُعاتبة الجَبان، وواعدتني وعيدَ العاصي. فسل الجراح. والسلام.

وكتب إليه الحجاجُ: أما بعد. فإنك تتراخى عن الحرب حتى يأْتيك رُسلي فيرجعوا بُعذْرك، وذاك أنك تُمسك حتى تبرأ الجِرَاحُ، وتُنَسى القتْلى، ويجُمَّ الناسُ، تلْقاهم فتحتملَ منهم مثْلَ ما يحتملون منك من وْحشة القتل، وألمِ الجراح. ولو كُنت تلْقاهُم بذلك الجِد لكان الداءُ قدْ حُسِم، والقرنُ قد قُصِم. ولعَمْرِي ما أنْت والقومُ سواء، لأن مِنْ ورائك رجِالاً. وأمامك أموالاً. وليس للقوم إلا ما معهم،؟ ولا يُدرَكُ الوجيفُ. بالدبيبِ ولا الظفَر بالتعذير.

فكتب المهلب إليه: أما بعدُ. فإنِّي لم أعط رسلك على قول الحقِّ أجراً، ولم أحتج منهم

مع الشاهدة إلى تلقين ذكرت أني أجُمُّ القوم، ولا بد من راحة يستريح فيها الغالب، ويحتال فيها المغلوب، وذكرتَ أن في الجمام ما يُنسي القتلى، ويُبرِئُ الجراح. وهيهات أنْ يُنَسى ما بيننا وبينهم تأْتي ذلك قتلى لم تُجَن، وقروح لم تُتقرف. ونحن والقوم على حَالة وهم يرقبُون منا حَالات، وإن طمعُوا حاربوا، وإن مَلُّوا وقفوا، وإن يئُسوا انصرَفوا، وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا، ونتحرز إذا وَقفُوا، ونطلب إذا هربوا، فإنْ تركتني والرأي كان القِرن مفصُوما، والداءُ - بإذن الله - محسُوماً، وإن أعجَلتني لم أطعك، وَلم أعص، وجعلت وجهي إلى بابك وأنا أعوذ بالله من سَخط الله عزّ وجل ومَقت النّاس! وخطبَ يزيدُ بن المهلب بواسط!

فقال: يا أهل العراق، يا أصحَاب السبق والسِّباق، ومكارم الأخلاق.

إن أهل الشام في أفوَاههم لقمةٌ دَسمةٌ قد زيِّنت لها الأشداق، وقامُوا لها على ساق، وهم غير تاركيها لكم بالمراءِ والجدال، فالْبُسوا لهم جُلودَا النمر.

وقيل للمهلب في بعض حروبه: لو نمت. فقال: إن صَاحب الحرب إذا نام نامَ جَدُّه.

وقال كفى بالمرء مسألةً أن يغدُوَ عليك ويرُوح.

وقال له رجل: إن لي حَاجةً لا ترزؤك في مَالك، ولا تنكُدُك في نفسك قال: والله لا قَضَيتُها. قال: ولمَ؟ قال: لأن مثلي لا يسال مثلها.

وقال: ما السيف الصارم في كف الشجاع بأعز من الصِّدق؟ ومر بقوم من ربيعة في مجلس لهم، فقال رجلٌ من القوم: هذا سَيِّدُ الأزد، قيمتُه خمسمائة درهم. فسمعه المهلب، فأرسل إليه بخمسمائة درهم. قال: دُونك يا ابنُ، قيمةَ عمِّك، ولو كنت زدت فيها لزدتك.[1]

ويرد أيضا حين ينقل الآبي حوارا بين أبي عمرو بن العلاء وأعرابي من عمان:

قال أبو عمرو بن العلاء، رأيت أعرابياً بمكة فاستفصحتُه فقلت ممن الرجل؟ قال، أسدي يريد أزدي قلت، أين بلدك؟ قال، عُمَان قلت: صِفْ لي بلدك. فقال: بلد صَلْدح، وكثيب أصْبَح، وفضاء صَحْصَح قلت: ما مالك؟ قال: النخل. قلتُ: أين أنت من الإبل؟ قال: إنّ النخلَ ثمرُها غِذاء، وسَعْفُها ضِياء، وكَرْبُها صِلَاء، وليفُها رِشَاء، وجِذْعُها بِناء، وقروها إناء, قلتُ أنّى لك هذه الفصاحة؟ قال: إنا ننزل حجرة لا نسمع فيها ناجِخَة التيّار.[2]

١. المصدر السابق، ج٥، ص٤٣-٤٨.
٢. المصدر السابق، ج٦، ص٨-٩.

ويرد أيضا حين يتحدث الآبي عن أسامي أفراس العرب:

نذكر أولاً أسامي أفراس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نتبعها بذكر سائر الأفراس المعروفة.

يقال إن أول فرسٍ ملكه عليه السلام فَرَسٌ ابتاعه بالمدينة من رجل من بني فزارة بعشر أوراق، وكان اسمه عند الأعرابي الضِّرْس فسماه عليه السلام السّكْب وكان له فرس يدعى المُرْتَجِز، وكان له لِزَاز الظّرْب واللُّحَيْف وقيل لحاف، واليَعْسُوب.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن أول من اتخذ الخيلَ وركِبها إسماعيلُ عليه السلام، وقالوا: كان داودُ يُحبها حباً شديداً، وجَمَع ألفَ فرَس، فلما ورثها سليمانُ عليه السلام قال: "ما وَرّثني داودُ مالاً أحبَّ إلي من هذه الخيل" وضمّرها وصنعها.

فمن الأفراس القديمة: زَادُ الرَّكْب: قالوا: إن قوماً من الأزد من أهل عُمَان، قدِموا على سليمان بعد تزوّجِه بلقيس ملكة سبأ، فأعطاهم هذا الفرَس وانتشرت الخيلُ منه في العَرَب.[1]

ويرد أيضا حين ينقل الآبي قولا للجاحظ:

قال الجاحظ: كان عندنا أناسٌ من الأزد ومعهم ابنُ حزن، وابن حزن هذا عدَوِيّ، وكان يتعصّب لأصحابه من بني تميم، وكانوا على النبيذ، فسقط ذبابٌ في قدح بعضهم، فقال بعضهم: غطِّ التميمي، ثم سقط آخر في قدح آخر، فقال: غطّ التميمي، فلما كان في الثالثة قال ابن حزن: غطّه فإن كان تميمياً رسب وإن كان أزدياً طفا. يُعرّض بأن أزد عُمَان ملاحون.[2]

١. المصدر السابق، ج٦، ص٢٦٢.
٢. المصدر السابق، ج٧، ص١١١-١١٢.

يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي

يذكر الثعالبي عمان في معرض ترجمته لأبي القاسم عبد العزيز بن يوسف، أحد كتّاب بني بويه. يقول:

ومن كتاب له إلى الصاحب في فتح عُمان وإبادة الزنوج بها، وما وصل إلى عضد الدولة من الغنائم.

وكانت لأولئك الكفرة عادة اشتهرت منهم في استباحة الناس وأكل لحومهم، وبلغ من كَلَبِهم على ذلك أنهم كانوا يتنقلون بينهم إذا شربوا بأكف الناس، وسأل مولاي عن هذا النقل الغريب فحكى له عنهم أنه لا شيء في الإنسان ألذ من كفه وبنانه، وكان في ذلك اليوم الذي شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عُمان ثار من بعض المكامن طوائف من أولئك الكلاب فكبا ببعض الغلمان دابته فاختلسوه واقتسموه بينهم وأكلوه في الوقت، وتعجب الناس من ضراوتهم وقساوتهم، وقد أبادهم الله تعالى جده وطهر البر والبحر من عبثهم ومعرتهم، فانقاد أهل جِبَالِ عُمَان باخعين بالطاعة، معتصمين بذمة الجماعة، وتمت نعمة الله على مولانا في هذا الفتح وكملت له مغانم الأجر، ووصل أمس غنائم تلك الناحية وفيها فيل صغيرة بقدر الفرس. ما عهد ألطف ولا أظرف منه، وفي الغنائم كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، والله تعالى يجني مولانا ثمار الأرض برا وبحرا، سهلا ووعرا، بمنه وكرمه آمين.[1]

ويرد ذكر عمان أيضا في «يتيمة الدهر» حين يترجم الثعالبي لأبي إسحاق الصابي، ذاكرا أبياتا قالها في مدح المهلبي الوزير:

وكتب إليه وهو بدجلة البصرة متوجهاً إلى عُمان:

لقد كَنَفَتْ منك السُّعُودُ مُوَفَّقاً

مصادرُه محمودةٌ والمواردُ

١. أبو منصور الثعالبي. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ج٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص٣٧٦-٣٧٧.

كأنـيَ بالبحـرِ الـذي خِيـفَ هَوْلُـه
وقـد خـاف، حتـى مـاؤُه فيـه جامِـدُ
يـرى منـكَ بحـراً زاخِـراً فـوق متْنِه
فيُصبـحُ جـاري موجِـه وهـو راكِـدُ
كأنّ عَصـا موسـى بكفِّـكَ فوقَـه
وقـد خـرّ إعظامـاً لهـا وهـو سـاجِدُ
سـتعنو لمـا تبغـي ظُهـورُ صفائِـه
وتبلـغُ مـا تهـوى وجَـدُّكَ صاعِـدُ
فلا تخشَ من صَرْفِ النوائبِ نَبْوةً
فنصـرُك مَحْتـومٌ عليـه شَـواهدُ
إذا عـادة الله التـي أنـتَ عـارفٌ
تذكرتَهـا هانـتْ عليـكَ الشـدائد[1]

١. المصدر السابق، ج٢، ص٣٢٤.

الفصول والغايات لأبي العلاء المعري

يرد ذكر عمان في فقرتين من الفصول والغايات، هما:

١- ما تصنع أيها الإنسان، بالسِّنَان، إنك لمُغْتَرٌّ بالغِرَار. كفَتْ المَنيّةُ ثائراً ما أراد. ليت قناتَكَ بسِيفِ عُمَان، وحُسامَكَ ما وَلَج حديدُه النار، وريشَ سِهامِكَ في أجنحةِ نسورِ الإيار؛ ليستيقظْ جفنُك في تقوى الله، ويهجعْ نصلُك في القِرَاب. غاية[١].

٢- أينما تسيروا يَصْحبْكم الله كما صَحِب مَنْ كان قبلكم، وله من العِلم عَيْنٌ عليكم، وإنْ تُصبحوا وراءَ شِقِّ الثّعلب فالقدَرُ معكم، لا فِرارَ من قضاء الله؛ فاصبروا على ما حَكَم إنه واعي الكلمات. غاية.

تفسير: شِقُّ الثعلب: موضع بنواحي عُمَان يُضرب به المثل في البُعْد.[٢]

١. أبو العلاء المعري. الفصول والغايات، تحقيق: محمود حسن زناتي، ج١ (القاهرة: مطبعة حجازي، ١٩٣٨)، ص٦٢.
٢. المصدر السابق، ج١، ص١٢٦.

رسالة الملائكة لأبي العلاء المَعرّي

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يفسر المعري بعض الأبنية التي يتكون فيها حرف لين وحرفان أصليان مع النون:

وإذا كانت النون أخيرا في مثل فَعال وفعول وفعيل حكمتَ عليها بالأصل لأنَ الاشتقاقَ يضطر إلى ذلك، وكذلك جميع هذه الأبنية التي يكون فيها حرف لين وحرفان أصليان مع النون مثل قولك عُمَان وعِرَان وفُتون وجُمعان وأَمون وأمين.

فإذا كان قبل الألف التي النون أربعة أحرف من الأصول حكمتَ عليها بالزيادة مثل قولك الزَّعْفَرَان والشُّبْرُمان لضرب من النبت والعُقربان لذكر العقارب، و كذلك إن كان في الأربعة التي قبل الألف حرف من حروف الزيادة فإن الغالب على النون أن تُحسب زيادة كقولك الضَّيْمُران لضرب من النبت والكَيْذُبَان للكذاب.[1]

١. أبو العلاء المعري. رسالة الملائكة، تحقيق: محمد سليم الجندي (بيروت: دار صادر، ١٩٩٢)، ص٢٥١-٢٥٢.

العُمْدَة في مَحاسِن الشِّعْر
وآدابِه لابن رشيق القيرواني

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يتحدث ابن رشيق عن أسلوب الالتفات البلاغي:

وهو الاعتراض عند قوم، وسمّاه آخرون الاستدراك، حكاه قُدَامةُ، وسبيله أن يكون الشاعر آخذاً في معنى ثم يَعرِض له غيرُه فيَعدِلُ عن الأول إلى الثاني فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول، كقول كثير:

لو انَّ الباخلين، وأنتِ منهم،
رأولكِ تعلّموا منكِ المِطالا

فقوله وأنتِ منهم اعتراضُ كلامٍ في كلام، قال ذلك ابن المعتز، وجعله باباً على حِدَتِه بعد باب الالتفات، وسائر الناس يجمع بينهما.

قال النابغة الذبياني:

ألا زَعَمت بنو عَبْسٍ بأني
-ألا كذبوا- كبيرُ السِّنِّ فاني

فقوله ألا كذبوا اعتراض، ورواه آخرون للجعدي (ألا زعمت بنو كعب) وهو أشبه بالجعدي؛ لأنه أعلى سنا منه؛ فقوله ألا كذبوا اعتراض، وكذلك ما يجري مجراه.

وأنشدوا في الالتفات لبعض العرب:

فظلّوا بيومٍ -دع أخاك- بمثله
على مشرع يروى ولما يصرّد

فقولك دع أخاك بمثله التفات مليح.

وقال جرير يرثي امرأته أم حَزْرَة:

نِعْـم القريـــرُ -وكنـــتِ عِلْـقَ مَضِنّة-
وارى بنعـفِ بليـةَ الأحجـارُ

فقوله وكنت علق مضنة هو الالتفات.

وقال عوف بن محلم لعبد الله بن طاهر:

إن الثّمانيـن -وبُلِّغْتُهـا-
قد أحْوجتْ سـمعي إلى ترجمانْ

فقوله بلغتها التفات، وقد عده جماعة من الناس تتميماً، والالتفات أشكل وأولى بمعناه، ومنزلة الالتفات في وسط البيت كمنزلة الاستطراد في آخر البيت، وإن كان ضده في التحصيل؛ لأن الالتفات تأتي به عفواً وانتهازاً، ولم يكن لك في خلد فتقطع له كلامك، ثم تصله بعد إن شئت، والاستطراد تقصده في نفسك، وأنت تحيد عنه في لفظك حتى تصل به كلامك عند انقطاع آخره، أو تلقيه إلقاء وتعود إلى ما كنت فيه.

وقد جاء الالتفات في آخر البيت نحو قول امرئ القيس:

أبعـد الحـارثِ المَلِـكِ بـنِ عَمْـروٍ
لـه مُلْـكُ العِـراقِ إلـى عُمَـانِ
مُجـاورَةً بنـي شَـمَجي بـن جَـرْمٍ
هوانـاً مـا أتيـح مـن الهَـوَانِ
ويمنحهـا بنـو شـمجي بـن جـرمٍ
مَعيزَهـم، حنانـكَ ذا الحنـانِ

فقوله (ما أتيح من الهوان)، وقوله (حنانك ذا الحنان) الالتفات.[1]

١. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج٢ (بيروت: دار الجيل، ١٩٨١)، ص ٤٥-٤٦.

ويرد أيضا حين يتحدث ابن رشيق عن تفرق الأزد:

كانت بالشام سليح وهم من غسان، ويقال: من قضاعة وأول ملوكهم النعمان بن عمرو بن مالك، ثم من بعده ابنه مالك، ثم من بعد مالك ابنه عمرو؛ إلى خروج مزيقيا وهو عمرو بن عامر من اليمن في قومه من الأزد، وسمي مزيقيا لأنه كان يمزق كل يوم حلة لا يعود إلى لباسها ثم يهبها، ويسمى عامر ماء السماء؛ لأنه كان يجيء في المحل فينوب عن الغيث بالرفد والعطاء وهو ابن حارثة الغطريف، ابن امرئ القيس البطريق، بن ثعلبة البهلول، بن مازن قاتل الجوع، بن الأزد، ومعه رجل يقال له جذع بن سنان، فنزلوا بلاد عك، فقتل جذع ملك بلاد عك، فافترقت الأزد والملك فيهم حينئذ ثعلبة بن عمرو بن عامر، فانصرف عامله فحارب جرهم فأجلاهم عن مكة، واستولوا عليها زماناً ثم أحدثوا الأحداث، وجاء قصي بن كلاب فجمع معداً وبذلك سمى مجمعاً واستعان ملك الروم فأعانه، وحارب الأزد فغلبهم، واستولى على مكة دونهم، فلما رأت الأزد ضيق العيش بمكة ارتحلت، وانخزعت خزاعة لولاية البيت وبذلك سميت فصار بعض الأزد إلى السواد فملكوا عليهم مالك بن فهم أبا جذيمة الأبرش، وصار قوم إلى يثرب، وهم الأوس والخزرج، وصار قوم إلى عمان، وصار قوم إلى الشام.[1]

١. المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢٨.

دُمْيَة القَصْر للباخَرْزي

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يترجم الباخرزي للشاعر أبي الكافي العماني، و المعروف أيضا بأبزون. يقول عنه:

هو أبو علي أبزون المجوسي من أهل عُمَان، وكنتُ أسمع له بالفقرة بعد الفقرة فأفتقر إلى أخواتها، ويلتهب حرصي على إثباتها. ثم ظفرتُ بديوان شعره في خزانة الكتب النظامية بنيسابور. وكنت على جناح الانصراف إلى الناحية، فلم أتمكن من احتلاب دُرَرها. ولم أتوصل إلى اجتلاب دُررَها. قال محمد بن أحمد المعروف بأبي الحاجب: كنت قبل حصولي بعُمان أسمع بأشعار الكافي أبي علي، وتمرّ بي القصيدة بعد القصيدة. وكنت أعجب لفرط إعجابي أودُّ لو ظفرت بمن يرويها لي عن مؤلفها، فتكون النفس لحفظها أنشط، والفكر بجَبَل من جبال عُمَان، فقصدته.

ولما اجتمعتُ معه، لم أتمكن من مجالسته إلا لمعاً ولا من مفاوضته لاشتغاله بالأعمال السلطانية، إلا خُلساً. ثم إني استنبطته فوجدته غير معجب بشعر نفسه على عادة أبناء جنسه. وإذا ديباجة شعره مع بهائها ورونقها، متناسبة الألفاظ، متناصرةُ المعاني. وإذا هو يتجنب إيراد ما يمجه السمعُ، وتأباه النفس؛ فلم أزل أنتسخ من حافظيها وألتقط من منشديها إلى أن حصل لي منها ما قيدتها ورويتها عنه. وهذه القصيدة من أفراد قصائده، وأوساط قلائده. وهي:

هَـل فـي مـودَّةِ ناكـثٍ من راغبِ
أم هَـل علـى فِقْدانِهـا مـن نـادِبِ
أم هـل يُفيـدكَ أن تُعاتـب مولَعـاً
بتتبُّـعِ العَثَـراتِ غيـرَ مُراقَـبِ
جَعـلَ اعتراضَـكَ للسَّـفاهِة دَيدَنـاً
والذئـبُ دُيدَنُـهُ اعتـراضُ الراكِـبِ

ومنها:

إنَّ الفُتـوّةَ عَلَّمتنـي شِـيمةً
تُهدي الضِّياءَ إلى الشِّهابِ الثاقِبِ
مـا زال يسـلب كل من حمل الظبى
قلمـي وأحـداقُ الظبـاء سـوالبي
فهـوى التّصـرفِ والتصرّفُ في الهوى
دَفَنا شَـبابي في عِذاري الشـائِب
فَتَظَلُّمـي مـن ناظـرٍ أو ناظـرِ
وتألُّمـي مـن حاجِبٍ أو حاجبِ

ومنها:

وقَبِلـتُ عُـذرَ بَنـي الزَّمـانِ لأنَّهـم
سَلكوا طريقَ بني الزَّمانِ الذَّاهبِ
جُبِلـوا علـى رَفـضِ الوفـاءِ كَغَيرِهـم
وتَمسَّـكوا بالغَـدرِ ضَربـةَ لا زِبِ

وله من قصيدة رحمة الله أيضاً:

إلـذمْ جَفـاءَكَ لـي ولـو فيـهِ الضَّنـى
وارفَـعْ حَديـثَ البَيـنِ عمَّـا بَيننـا
فَسُـمومُ هَجـرِكَ فـي هَواجِـرِه الأذى
ونَسـيمُ وصلِـكَ فـي أصائِلِـهِ المُنى
ليـسَ التلوُّنُ مِن أماراتِ الرِّضى
لكـنْ إذا مَـلَّ الحَبيـبُ تَلَوَّنـا

تُبدي الإساءةَ في التيقُّظِ عامِداً
وأراكَ تُحسِنُ في الكرَرى أنْ تُحسِنا
مالي إذا استَهْطفتُ رأيَكَ رُمتَ لي
عَتْبا جَديداً مِن هُناكَ ومن هُنا

وله أيضاً من قصيدة أخرى:

كم تُرسِلونَ أعِنَّةَ الهِجرانِ
فَقدُ الحَياةِ وهَجْرُكم سِيّانِ
إني أغارُ عليكُمُ أن تَسلُكوا
في الودِّ غيرَ طَرائقِ الفِتيانِ
وأخافُ مُرَّ عِتابكُم ما لم أخفْ
تحتَ العَجاجِ عَواليَ المُرَّان
لم أَجْنِ فاستَعطَفتكمْ لكنَّ بي شَوقاَ
إلى استعطافِكُمْ أَلْجانِي
وهَبونيَ الجاني، ألَستُ شَقيقَكُم؟
هَلاّ غفرتُمُ للشَّقيقِ الجاني؟
غَطُّوا بأذيالِ التجاوزِ منكُمُ
هفَواتِ جانِ للنَّدامةِ جانِ
ولربَّما كرِهَ العُقوبةَ حازمٌ
كَيما يفوزَ بلذَّةِ الغُفران

بِبعادِكـم أبغضـتُ دارَ كَرامتـي
وبِقُربكـم أحببـتُ دارَ هَوانـي

وله أيضاً رحمه الله، قال: وهو منقول من الفارسية:

وصَحـراءَ ردَّتهـا الظِّبـاءُ حَفائِـراً
بأظْلافِهـا، أحسِـنْ بهـا مـن حَفائِـرِ
فهبّـتْ ريـاحٌ للصَّبـا فطمَمْنـهُ
بِمسـكٍ فعـادَتْ نُزهـةً للنَّوظِـرِ

وله أيضاً:

قد كنتُ أرجوكَ للبَلْوى إذا عَرضت
فصـرتُ أخشـاكَ والأيـام للغَيـرِ
أخشـى وحُكميَ أنْ أرجُو ولا عجبُ
ورَّبمـا يتـأذى الـروضُ بالمطـرِ

قلت: هذا معنى ماله نهاية، وغاية في الاختراع ليس وراءها غاية وله أيضاً:

أراكَ علـى العِـلاَّتِ غيـرَ موفَّـقٍ
وما أحسنَ التوفيقَ حيث تكونُ!
تريـدُ تَلافـي الأمـر مـن بعـدِ فَوتِـهِ
ولو شئتَ كان العصبُ مِنه يَهونُ
كلبلهـاءِ قـومٍ حيـنَ بَلّـتْ طَحينَهـا
بـدتْ تَنخُـلُ المَبلـولَ وهـوَ عَجيبـنُ

وأنشدني أيضاً له أبو الفضل يحيى بن نصر البغدادي:

سكنٌ ساكنٌ سوادَ الفُؤادِ
مَلَّ قُربي ومالَ نحوَ بِعادي
قالَ: لِمْ لا تَنامُ؟ قلتُ لإعرا
ضِكَ وهو الخِلافُ للمُعتادِ
إنَّما أشتهي الكرى لأرى
طيفَكَ فيهِ وأنتَ سَهلُ القِيادِ
فإذا لم يَزُرْ خيالُكَ إلاّ
مُغضَباً، فالكَرى فِداءُ السُّهادِ

وله أيضاً:

بِأبي حَبيبٌ كلمَّا عانقتُهُ
عادتْ إليَّ شَبيبتي بعِناقِهِ
كالراحِ يجمعُ بينَ طيبٍ نَسيمِهِ
وبهاءِ منظرِه وطِيبٍ مَذاقِهِ
أخلافُه نُزهُ القلوبِ وبالحَرِي
أن يستعيرَ الروضُ مِن أخلاقِه
أيقنتُ أن لا عيشَ غيرَ لقائِه
أبداً، وأن لا موتَ غيرَ فراقِهِ

وله أيضاً:

أيُّها العاذِلُ مَهْلاً
ليسَ هذا العَذلُ شَيّاً

لا تُكلِّفنـي سُـلُوّاً
إنَّ ذا لا يَتَهيّـا

وأنشدني الشيخُ أبو عامر الفضل بن إسماعيل التميمي أيده الله قال: أنشدني أبو الحرث الأصفهاني، كاتب الحضرة، قال: أنشدني أبزون هذا لنفسه:

لهنِـكَ أنَّ مُلـكَكَ فـي ازديـادِ
وأنَّ عُـلاكَ واريـة الزِّنـادِ
وأنَّـكَ مَـن إذا وَصـفَ الموالـي
مَناقبَـه أقرَّبهـا المُعـادي
حَديـثُ قِـراكَ مَتَّـعَ كلَّ سَـمعِ
وذِكـرُ نَـدالـك عطَّـرَ كلَّ نـادِ
وتَنقـادُ الملـوكُ لـكَ اعتقـاداً
ومـا انقـادوا لغيـرِك باعتقـادِ
ملكـتَ رِقابَهـم بأسـاً وجُـوداً
فهُـمْ مُلـكُ السـيوفِ أو الأيـادي
إذا اسـتعرضتَ جَيـشَ الـرأي لَيـلاً
جَعلـتَ عطـاءَهُ طـولَ السُّـهادِ
إذا أدَّرعـوا الدُّجـى والهَـولُ بـادٍ
سَـروَا ونُجومهـمْ غُـرَرُ الجِيـادِ
فبالسُّـمرِ اللَّـدانِ إذا تَمـادَوا
ألنتَهُـمُ وبالبيـضِ الحِـدادِ

وأنشدني القاضي أبو جعفر محمد بن إسحاق البحائي قال: أنشدني حمد ابن محمد الثوريُّ قال: أنشدني الكافي أبو علي أبزون بن مهفرد المجوسي لنفسه:

تأبـى قَبولـيَ أيُّ أرضٍ زُرتهـا
قَدَمـي رَجائـيَ وافتقاريَ سـائِقي
فكأنَّمـا الدُّنيـا بَـدا مُتَحـرِّز
وكأنَّنـي فيهـا ودَيعـةُ سـارِقِ

وانصرف يوما من الصيد، ونضد ما حصل منها بين يديه. وقال، والكأس تهزُّ عطفيه:

فَهـجَرنا القَنـا وزُرنـا القَنانـي
واشتغلنـا عـنِ الظُّـبى بالظِّبـاءِ

وله من قصيدة غير قصيرة:

فـلا ملّـتْ مُعاتَبتـي فإنّـي
أعـدُّ عتابَهـا إحـدى الهَدايـا

وله قصيدة أخرى:

فَخُـذي إلى ديـوانِ عَطفِكِ وَقِّعي
يُكتـب لنـا مـن مُقلتيكِ أمانُ[1]

١.علي بن الحسن الباخرزي. دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق: محمد التونجي، ج١ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣)، ص ١٢٠-١٢٩.

مقامات الحريري

خصص الحريري من مقاماته مقامة بعنوان «المقامة العمانية» لتدور أحداثُها في عُمان. يقول:

حدّثَ الحارثُ بنُ همّامٍ قال: لهِجْتُ مُذْ اخْضَرّ إزاري، وبَقَلَ عِذاري، بأنْ أجوبَ البَراري، وعلى ظُهورِ المَهاري، أُنْجِدُ طَوْراً، وأسْلُكُ تارَةً غوْراً؛ حتى فلَيْتُ المَعالِمَ والمجاهِلَ، وبلَوْتُ المنازِلَ والمَناهِلَ، وأدْمَيْتُ السّنابِكَ والمَناسِمَ، وأنْضَيْتُ السّوابِقَ والرّواسِمَ. فلمّا مِلْتُ الإصْحارَ، وقد سنَحَ لي أرَبٌ بصُحارَ، مِلْتُ الى اجْتيازِ التّيارِ، واختِيارِ الفُلْكِ السّيّارِ، فنقَلْتُ إليْهِ أساوِدي، واستَصْحَبْتُ زادي ومَزاوِدي، ثمّ ركِبْتُ فيهِ رُكوبَ حاذِرٍ ناذِرٍ، عاذِلٍ لنفْسِهِ عاذِرٍ. فلمّا شرَعْنا في القُلْعَةِ، ورفَعْنا الشُّرُعَ للسّرعَةِ، سمِعْنا منْ شاطئ المَرْسى، حينَ دَجا الليلُ وأغْسى، هاتِفاً يقول: يا أهْلَ ذا الفُلْكِ القَويمِ، المُزجّى في البحرِ العَظيمِ، بتقْديرِ العَزيزِ العليمِ، هل أدُلّكُمْ على تِجارَةٍ تُنجيكُمْ منْ عذابٍ أليمٍ! فقُلْنا لهُ: أقْبِسْنا نارَك أيها الدّليلُ، وأرشِدْنا كما يُرشِدُ الخَليلُ الخَليلَ، فقال: أتستَصْحِبونَ ابنَ سبيلٍ، زادُهُ في زَبيلٍ، وظِلّهُ غيرُ ثَقيلٍ، وما يَبغي سوى مَقيلٍ؟ فأجْمعْنا على الجُنوحِ إليْهِ، وأنْ لا نبْخَلَ بالماعونِ عليْهِ. فلمّا اسْتَوى على الفُلْكِ، قال: أعوذُ بمالِكِ المُلْكِ، منْ مسالِكِ الهُلْكِ! ثم قال: إنّا رُوِينا في الأخْبارِ، المنقولَةِ عنِ الأحْبارِ، أنّ اللّهَ تَعالى ما أخذَ على الجُهّالِ أن يتعلّموا، حتى أخذَ على العُلَماء أنْ يعَلِّموا، وإنّ مَعي لَعوذَةً، عنِ الأنبِياء مأخوذَة، وعندي لكُمْ نَصيحةٌ، براهينُها صَحيحةٌ، وما وَسِعَني الكِتْمانُ، ولا مِنْ خيميَ الحِرْمانُ، فتَدَبّروا القوْلَ وتفهّموا، واعْمَلوا بما تُعلّمونَ وعلّموا. ثمّ صاحَ صيْحَةَ المُباهي، وقال: أتَدْرونَ ما هيَ؟ هيَ واللّهِ حِرْزُ السّفْرِ، عندَ مسيرِهِمْ في البحْرِ، والجُنّةُ منَ الغَمّ، إذا جاشَ موْجُ اليَمّ، وبها استَعْصَمَ نوحٌ منَ الطّوفانِ، ونَجا ومَنْ معَهُ منَ الحَيوانِ؛ على ما صدَعَتْ بهِ آيُ القُرآنِ. ثمّ قرأ بعْدَ أساطيرَ تَلاها، وزخارِفَ جَلاها، وقال: ارْكَبوا فيها باسْمِ اللّهِ مَجْراها ومُرْساها. ثمّ تنفّسَ تنفُّسَ المُغرَمينَ، أو عِبادِ اللّهِ المُكرَمينَ. وقال: أمّا أنا فقدْ قُمتُ فيكُم مَقامَ المبلِّغينَ، ونصَحْتُ لكُمْ نُصْحَ المُبالِغينَ، وسلَكْتُ بكُمْ محَجّةَ الرّاشِدينَ، فاشْهَدِ اللهُمّ

وأنتَ خيرُ الشاهِدينَ. قال الحارثُ بنُ همّامٍ: فأعْجَبَنا بيانُهُ البادي الطُّلاوَةِ، وعجّتْ لهُ أصواتُنا بالتّلاوَةِ، وآنَسَ قلبي منْ جرْسِهِ، معرِفَةَ عينِ شمْسِهِ؛ فقلْتُ لهُ: بالذي سخّرَ البحرَ اللُّجّيّ؛ ألسْتَ السَّروجيّ! فقال لي: بَلى، وهلْ يَخْفى ابنُ جَلا! فأحْمَدْتُ حينَئذٍ السّفَرَ، وسفَرْتُ عن نفْسي إذ سفَرَ، ولمْ نزَلْ نسيرُ والبحرُ رهْوٌ، والجوّ صحْوٌ، والعيشُ صَفوٌ، والزّمانُ لهْوٌ، وأنا أجِدُ لِقيانِهِ، وجْدَ المُشْري بعِقْيانِهِ، وأفرَحُ بمُناجاتِهِ، فرَحَ الغَريقِ بمَنْجاتِهِ، إلى أن عصَفَتِ الجَنوبُ، وعسَفَتِ الجُنوبُ، ونسَيَ السّفْرُ ما كانَ، وجاءهُمُ الموْجُ منْ كلّ مَكانٍ؛ فمِلْنا لهذا الحدَثِ الثّائِرِ، إلى إحْدى الجَزائِرِ؛ لنُريحَ ونستَريحَ، ريثَما تُؤاتي الرّيحُ. فتَمادَى اعْتِياصُ المَسيرِ؛ حتى نفِدَ الزّادُ غيرَ اليَسيرِ؛ فقال لي أبو زيدٍ: إنهُ لنْ يُحرَزَ جَنى العودِ بالقُعودِ، فهلْ لكَ في استِثارَةِ السّعودِ بالصّعودِ! فقلْتُ لهُ: إني لأتْبَعُ لكَ من ظِلّكَ، وأطْوَعُ منْ نعلِكَ؛ فنَهَدْنا إلى الجَزيرَةِ، على ضُعْفِ المَريرَةِ؛ لنركُضَ في امتِراء المِيرَةِ، وكِلانا لا يملِكُ فَتيلاً، ولا يهتَدي فيها سَبيلاً؛ فأقْبَلْنا نَجوسُ خِلالَها، ونتفيّأُ ظِلالَها؛ حتى أفْضَيْنا إلى قصرٍ مَشيدٍ، لهُ بابٌ منْ حَديدٍ، ودونَهُ زُمرةٌ من عَبيدٍ. فناسَمْناهُمْ لنتخِذَهُمْ سُلّماً الى الارتِقاء، وأرشِيَةً للاستِقاء، فألْفَيْنا كلاً منهُمْ كَئيباً حَسيراً؛ حتى خِلْناهُ كسيراً أو أسيراً. فقُلْنا: أيتُها الغِلْمَةُ، ما هَذي الغُمّةُ؟ فلمْ يُجيبوا النّداء، ولا فاهوا ببَيْضاءَ ولا سَوْداء. فلمّا رأيْنا نارَهُمْ نارَ الحُباحِبِ، وخُبرَهُمْ كسَرابِ السّباسِبِ؛ قُلْنا: شاهَتِ الوجوهُ، وقبُحَ اللُّكَعُ ومَنْ يرْجوهُ! فابتَدَرَ خادِمٌ قد علَتْهُ كَبْرَةٌ، وعرَتْهُ عبْرَةٌ، وقال: يا قوْمُ لا توسِعونا سَبّاً، ولا توجِعونا عتْباً؛ فإنّا لَفي حُزنٍ شامِلٍ، وشُغْلٍ عنِ الحديثِ شاغِلٍ. فقالَ لهُ أبو زيدٍ: نفِّسْ خِناقَ البَثّ، وانْفِثْ إنْ قدَرْتَ على النّفْثِ؛ فإنّكَ ستجِدُ مني عَرّافاً كافِياً، ووَصّافاً شافِياً. فقالَ لهُ: اعْلَمْ أنّ ربّ هذا القصْرِ هوَ قُطْبُ هذِهِ البُقعَةِ، وشاهُ هذِهِ الرُقعَةِ، إلا أنّهُ لمْ يخْلُ منْ كمَدٍ، لخُلوّهِ من ولَدٍ، ولمْ يزَلْ يستَكْرِمُ المَغارِسَ، ويتخيّرُ منَ المَفارِشِ النّفائِسِ؛ إلى أن بُشّرَ بحمْلِ عَقيلةٍ، وآذَنَتْ رقْلَتُهُ بفَسيلَةٍ؛ فنُدِرَتْ له النّذورُ، وأُحصِيَتِ الأيامُ والشّهورُ. ولمّا حانَ النّتاجُ، وصيغَ الطّوقُ والتّاجُ، عسُرَ مخاضُ الوضْعِ؛ حتى خِيفَ على الأصْلِ والفَرْعِ. فما فِينا مَنْ يعرِفُ قَراراً، ولا يطْعَمُ النّومَ إلا غِراراً. ثمّ أجْهَشَ بالبُكاء وأعْولَ، وردّدَ الاستِرْجاعَ وطوّلَ؛ فقال لهُ أبو زيدٍ: اسْكُنْ يا هَذا واستَبْشِرْ، وابْشِرْ بالفَرَجِ وبشّرْ! فعِندي عَزيمةُ الطّلْقِ، التي انتشَرَ سَمْعُها في الخَلْقِ؛ فتبادَرَتِ الغِلمَةُ الى مؤلاهُمْ، مُتباشِرينَ بانكِشافِ بلْواهُمْ، فلمْ يكُنْ إلا كَلا ولا؛ حتى برزَ مَنْ هلْمَمَ بِنا إلَيْهِ. فلما دخلْنا عليْهِ، ومثّلْنا بينَ يدَيْهِ، قال لأبي زيدٍ: ليَهْنِكَ مَنالُكَ، إنْ صدَقَ

مقالُكَ، ولم يفِلْ فالُكَ. فاستَحضرَ قلَماً مبْرِيّاً، وزبَداً بحرِيّاً، وزَعفَراناً قد دِيفَ، في ماء وزْدٍ نظيفٍ؛ فما إنْ رجَعَ النفَسُ، حتى أُحضِرَ ما التَمَسَ، فسجَدَ أبو زيدٍ وعفّرَ، وسبّحَ واستَغْفرَ، وأبْعَدَ الحاضِرينَ ونفّرَ. ثمّ أخذَ القلمَ واسْحَنْفَرَ، وكتبَ على الزّبَدِ بالمُزَعْفَرِ:

أيّهَـذا الجَنيـنُ إنـي نصيـحٌ
لـكَ والنّصـحُ مـنْ شُـروطِ الدّيـنِ
أنـتَ مُسـتَعْصِمٌ بكِـنّ كَنيـنٍ
وقَـرارٍ مـنَ السّـكونِ مَكيـنِ
مـا تَـرى فيـهِ مـا يَروعُـكُ مـنْ إل
فِـ مُـداجٍ ولا عـدوٍّ مُبيـنِ
فمتـى مـا بـرَزْتَ منـهُ تحـوّلْ
تَ الـى منـزِلِ الأذى والهـونِ
وتَـراءى لـكَ الشّـقاءُ الـذي تـلْ
قَـى فتَبْكـي لـهُ بدَمْـعٍ هَتـونِ
فاسـتَدِمْ عيشَـكَ الرّغيـدَ وحـاذِرْ
أن تَبيـعَ المَحقـوقَ بالمظْنـونِ
واحتَـرِسْ من مُخـادِعٍ لكَ يرْقي
لـكَ ليُلقيـكَ في العذابِ المُهينِ
ولَعَمْـري لقـدْ نصَحْـتُ ولكِـنْ
كـمْ نَصيـحٍ مُشـبَّهٍ بظَنيـنِ

ثمّ إنهُ طمَسَ المكتوبَ على غَفلَةٍ، وتفَلَ عليْهِ مئَةَ تَفلَةٍ، وشدّ الزّبَدَ في خِرقَةِ حريرٍ، بعدَما ضمّخَها بعَبيرٍ، وأمرَ بتعْليقِها على فخْذِ الماخِضِ، وأنْ لا تعْلَقَ بها يدُ حائِضٍ، فلمْ يكُنْ إلا

كذُواقِ شارِبٍ، أو فُواقِ حالِبٍ، حتى اندَلَقَ شخْصُ الولَدِ، لخصّيصَى الزَّبَدِ؛ بقُدرَةِ الواحِدِ الصّمَدِ. فامتلأ القصْرُ حُبوراً، واستُطيرَ عَميدُهُ وعَبيدُهُ سُروراً، وأحاطَتِ الجماعَةُ بأبي زيدٍ تُثْني عليْهِ، وتُقبّلُ يدَيْهِ، وتتبرّكُ بمِساسِ طِمْرَيْهِ؛ حتى خُيّلَ إليّ أنّهُ القَرَنيُّ أُوَيْسٌ، أوِ الأسَديُّ دُبَيسٌ. ثمّ انْثالَ عليْهِ منْ جَوائِزِ المُجازاةِ، ووصائِلِ الصّلاتِ، ما قيّضَ لهُ الغِنى، وبيّضَ وجْهَ المُنى، ولمْ يزَلْ ينْتابُهُ الدّخْلُ، مُذْ نُتِجَ السّخْلُ؛ الى أن أُعطِيَ البحْرُ الأمانَ، وتسنّى الإتْمامُ الى عُمانَ؛ فاكْتفى أبو زيدٍ بالنِّحْلَةِ، وتأهّبَ للرّحلَةِ، فلمْ يسمَحِ الوالي بحرَكَتِهِ، بعْدَ تجرِبَةِ برَكَتِهِ، بلْ أوعَزَ بضَمّهِ إلى حُزانَتِهِ، وأنْ تُطلَقَ يدُهُ في خِزانَتِهِ.

قالَ الحارثُ بنُ همّامٍ: فلمّا رأيتُهُ قدْ مالَ، الى حيثُ يكتَسِبُ المالَ، أنْحَيْتُ علَيْهِ بالتّعْنيفِ، وهجّنْتُ لهُ مُفارَقَةَ المألَفِ والأليفِ، فقالَ إليْكَ عني، واسْمَعْ منّي:

لا تَصْبوَنّ الى وطَنْ
فيهِ تُضامُ وتُمتَهَنْ
وارْحَلْ عنِ الدّارِ التي
تُعْلي الوِهادَ على القُنَنْ
واهْرُبْ الى كِنٍّ يقي
ولوَ انّهُ حِصْنا حصَنْ
وارْبأ بنَفسِكَ أنْ تُقي
م بَحيثُ يَغْشاكَ الدَّرَنْ
وجُبِ البِلادَ فأيُّها
أرْضاكَ فاخْتَرْهُ وطَنْ
ودَعِ التّذكُّرَ للمَعا
هِدِ والحَنينَ الى السّكَنْ

واعْلَـمْ بـأنّ الحُـرّ فـي
أوطانِـهِ يَلْقَـى الغبَـنْ
كالـدُرّ فـي الأصْـدافِ يُسـتزْ
رى ويُبْخَسُ في الثّمَنْ

ثمّ قال: حسبُكَ ما استَمَعْتَ، وحبّذا أنتَ لوِ اتّبَعْتَ! فأوْضَحْتُ لهُ مَعاذيري، وقلتُ لهُ: كُنْ عَذيري. فعذَرَ واعتَذَرَ، وزوّدَ حتى لم يذَرْ، ثمّ شيّعَني تشْييعَ الأقارِبِ؛ الى أنْ ركِبْتُ في القارِبِ، فودّعْتُهُ وأنا أشْكو الفِراقَ وأذُمّهُ، وأوَدُّ لوْ كانَ هلَكَ الجَنينُ وأمُّهُ.[1]

١. أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي. شرح مقامات الحريري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٤ (بيروت:المطبعة العصرية، ١٩٩١)، ص٢٨٩-٣١٨.

مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني

من الأمثال التي أوردها الميداني في كتابه مجمع الأمثال و تعرض في تفسيرها لعمان المثل العربي «ذَهَبوا أيْدي سَبَا وتفرّقوا أيدي سبا». يقول الميداني في تفسير هذا المثل:

أي تفرقوا تفرقاً لا اجتماع معه. أخبرنا الشيخ الإمام أبو الحسن على ابن أحمد الواحدي، أخبرنا الحاكم أبو بكر محمد بن إبراهيم الفارسي، أخبرنا أبو عمرو ابن مطر، حدثنا أبو خليفة، حدثنا أبو همام، حدثنا إباهيم بن طهمان، عن أبي جناب، عن يحيى بن هاني، عن فروة بن مسيك، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، أخبرني عن سبأ أرجل هو أم امرأة؟ فقال: "هو رجل من العرب ولد عشرة، تيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تيامنوا: فالأزد، وكندة، ومذحج، والأشعرون، وأنمار، ومنهم بُجَيْلة. وأما الذين تشاءموا: فعاملة، وغسان، ولخم، وجذام. وهم الذين أرسِل عليهم سيلُ العرم"، وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبأ من الشِّحْر وأودية اليمن، فردموا ردماً بين جبلين وحبسوا الماء، وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث فأخصبوا وكثرت أموالهم، فلما كذّبوا رسولَهم بعث الله جُرَذاً نقَبتْ ذلك الردم حتى انتقض فدخل الماء جنّتيهم فغرّقهما ودفن السيلُ بيوتَهم فذلك قوله تعالى: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ". والعَرِم، جمع عَرِمة، وهي السِّكْر الذي يحبس الماء. وقال ابن الأعرابي: العرم، السيل الذي لا يطاق. وقال قتادة ومقاتل: العرم اسم وادي سبأ.

وأخبرنا الإمام علي بن أحمد أيضا، أخبرنا أبو حسان المزكي، أخبرنا هرون بن محمد الاستراباذي، أخبرنا إسحاق بن أحمد الخزاعي، أخبرنا أبو الوليد الأزرقي، حدثنا جدي، حدثنا سعيد بن سالم القداح، عن عثمان بن ساج، عن الكلبي، عن أبي صالح، قال: ألقت طريفة الكاهنة إلى عمرو ابن عامر، الذي يقال له مُزَيْقيا بن ماء السماء، وهو عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد، وكانت قد رأت في كهانتها أن سدَّ مأرب سيخرب،

وأنه سيأتي سيل العرم فيخرِّبِ الجنتين، فباع عمرو بن عامر أمواله وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة، فأقاموا بمكة وما حولها فأصابتهم الحُمّى، وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحُمّى، فدعوا طريفةَ فشكوا إليها الذي أصابهم فقالت لهم: قد أصابني الذي تشكون وهو مُفرِّق بيننا. قالوا: فماذا تأمرين؟ قالت: من كان منكم ذا همٍّ بعيد، وجمل شديد، ومزاد جديد، فليلحق بقصر عُمَانَ المشيد، فكانت أزدُ عُمان، ثم قالت: من كان منكم ذا جَلَدٍ وقَسْر، وصبر على أزمات الدهر، فعليه بالأراك من بطن مر، فكانت خزاعة، ثم قالت: من كان منكم يريد الراسيات في الوَحْل، المُطْعِمات في المَحْل، فليلحق بيثرب ذات النخل، فكانت الأوس والخزرج، ثم قالت: من كان منكم يريد الخمر والخمير، والملك والتأمير، ويلبس الديباج والحرير، فليلحق ببصرى وغوير، وهما من أرض الشأم، فكان الذين سكنوها آل جَفْنَةَ من غسّان، ثم قالت: من كان منكم يريد الثياب الرقاق، والخيل العتاق، وكنوز الأرزاق، والدم المُهْرَاق، فليلحق بأرض العراق، فكان الذين سكنوها آل جُذَيْمة الأبرش، ومن كان بالحيرة، وآل محرّق.[1]

ومن الأمثلة الأخرى التي أوردها الميداني و فيها ذكر لعمان أيضا قول العرب: "أظلم من الجُلندى". يقول الميداني عن هذا المثل:

هذا مثل من أمثال أهل عمان، ويزعمون أنه جرى ذكره في القرآن في قوله عز وجل: "وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً". ويزعم كثير من الناس أن الجلندى وقع إلى سِيف فارس في دولة الإسلام، وإن الذي كان يأخذ السفن كان في بحر مصر لا في بحر فارس.

ومن الأمثلة العربية الأخرى التي ساقها الميداني أيضا و فيها تنويه بعمان، قول العرب: "لَيْتَكَ مِنْ وَرَاءِ حَوْضِ الثّعْلَبْ". يقول الميداني:

وحَوْضُ الثّعْلَب، فيما يزعمون، وادٍ بِشِقِّ عُمَان.[2]

١. أبو الفضل الميداني. مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج١ (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥) ص ٢٧٥-٢٧٧.

٢. المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٥.

المُسْتَقْصى في أمثال العرب للزمخشري

ورد اسم عمان في كتاب المستقصى حين شرح الزمخشري بعض الأمثال العربية المرتبطة بعمان مكانا أو بَشَرا. ومنها المثل العماني "أظْلَمُ من الجُلندَى". يقول الزمخشري:

أظلمُ مِن الجُلَنْدى: يُمدُّ في اللغة العالية ويجوز قصرُه، قال الأعشى:

وجلنـداءَ فـي عُمـانَ مُقيمًـا
ثـم قيسًـا فـي حضرمـوتَ المُنيـفِ

وقال آخر:

إلى ابن الجُلَنْدَى فارسِ الخيلِ جَيْفَرِ

وهو اسمُ ملك من مُلوك عُمان يقال هو الملك المعني بقوله تعالى: " وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِك يَأْخُذ كُلّ سَفِينَة صَحِيحَة غَصْبًا " والمَثَلُ عُمَاني.[1]

ويرد اسم عمان أيضا في كتاب المستقصى حين يفسر الزمخشري المثل القائل "أشْأمُ من داحس". يقول:

أشأمُ من داحِس: هو فرَسُ قيسِ بن زُهَيْر العبسي، وقعت الحرب على رأسه بين عبس وذبيان أربعين سنة، قال العبسي:

وإنَ الرِّبـاط النّكْـدَ من آل داحِسِ
أبيـن فمـا يُفلِحْـنَ يـومَ رِهَـانِ

١. محمود بن عمر الزمخشري. المستقصى في أمثال العرب، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ج١ (الهند: دائرة المعاراف العثمانية، ١٩٦٢)، ص٢٣١-٢٣٢.

جَلَبْـنَ بـإذن الله مَقتَـلَ مالـكٍ

وطرّحْـنَ قَيْسًـا مـن وراء عُمَـانِ[1]

وفي موضع آخر يورد الزمخشري مثلا يرد في شرحه اسم عمان. يقول:

ليْتكَ مِنْ وَرَاءِ حَوْضِ الثّعْلَب: هو وادٍ بشِقِّ عُمَان، يُضرَبُ للبغيضِ أي ليتك تبعد حتى تكونَ من وراء هذا الموضع.[2]

وفي المثل القائل "أقْرَى مِنْ زادِ الرّكْب"، يذكر الزمخشري أيضا عمان قائلا:

أقْرَى مِنْ زَادِ الرّكْب: سَمّوا مسافرَ بنَ أبي عمرو بنَ أمية، وأبا أمية ابنَ المغيرة، والأسودَ بنَ المطلب، أزوادَ الركب، لأنهم كانوا إذا سافر معهم قوم لم يتزودوا؛ حُكي أن قوماً من أزد عُمان قدموا على سليمان النبي عليه السلام في دينهم ودنياهم فلما همّوا بالانصراف سألوه الزادَ فأعطاهم فرساً من خيلِه وقال: إذا نزلتم منزلاً فاحملوا عليه مَنْ شئتم ليأتيَكم بالصيد قبل أن توروا النار، فكان كذلك فسمّوه زادَ الرّكْب، ومنه انتشر عِتَاقُ الخيلِ في العرب.[3]

ويرد اسم عمان أيضا في المستقصى حين يشرح الزمخشري المثل القائل "أذلُّ مِنْ قُرَادٍ بمَنْسِم". يقول:

أذلُّ مِنْ قُرَادٍ بمَنْسِم: هو أخفض موضعٍ في الجمل فيه أذل الحيوان، والمَنْسِم طرف الخف، ويحكى: أن بني عبس ارتحلوا بعد حرب داحس يريدون بني تغلب ففَرِحوا بهم وأرسلوا إليهم ثمانية عشر راكباً فيهم ابن الخميس التغلبي قاتل الحارث بن ظالم، فقال لهم قيس بن زهير: انتسبوا نعرفْكم، حتى انتسب له ابنُ الخميس، فقال له قيس: إن زماناً أمتّنا فيه لَزَمانُ سوء، فقال ابن الخميس: والله! لقد تركتْكَ ذبيانُ أذلَّ من قُرَادٍ تحت مَنْسِمِ بعير، فعطف عليه قيسٌ فقتله ولحِق بعُمانَ فهلك بها، قال الفرزدق:

هنالـك لـو تبغـي كليبـاً وجدتَهـا

أذلَّ من القرْدان تحـت المنَاسـمِ[4]

١. المصدر السابق، ج١، ص١٨٢.
٢. المصدر السابق، ج٢، ص٣٠٢.
٣. المصدر السابق، ج١، ص٢٨١-٢٨٢.
٤. المصدر السابق، ج١، ص١٣٤-١٣٥.

أساس البلاغة للزمخشري

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب ضمن طائفة من الأحاديث، والأمثال العربية القديمة، أو شرحها:

- **"مَلعونٌ مَنْ غَيّرَ تُخومَ الأرضِ". قال:**

يـا بَنِـيَّ التُّخـومَ لا تَظْلِموهـا
إنَّ ظُلْـمَ التُّخـوم ذو عُقَّـالِ

وبلاد عُمان تتاخم بلاد الشِّحْر. وبلادنا متاخمة لبلادهم أي مُحادّة.

ومن المجاز: فلانٌ طيّبُ التُّخُوم أي طيّب العروق. وقد جعلتُ سِرّك على تُخُوم قلبي: لا أُغْفِلُه. واجعل لي فيما أمرتني تخوماً أنتهي إليه لا أجاوزه. قال عدي: (من الخفيف)

جاعِـلٌ همَّـكَ التُّخُـومَ فمـا أحْ
فِـلُ قـولَ الوُشـاة والأنـذالِ.[1]

"كمن جَلَبَ الجُمَانَ، إلى عُمَان"؛ وهو حَبٌّ من فضّة يُعمل على شكل اللؤلؤ، وقد يُسمّى به اللؤلؤ. كما قال: (من الكامل)

كجُمَانـةِ البحـريِّ جـاء بهـا
غوّاصُهـا مـن لُجّـةِ البَحْـرِ.[2]

" سقاكَ اللّهُ بحَوْض الرسول، ومِنْ حَوْض الرسول". وحاض الرجل حوضاً: عمله، وحوّض لإبله، وتحوضوا حِياضاً. وحضتُ الماء: جمعتُه.

١. الزخشري، أساس البلاغة. تحقيق: محمد باسل عيون السود. ج١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨)، ص ٩٢.
٢. المصدر السابق، ص ١٥٠.

ومن المجاز: أنا أحُوضُ حول ذلك الأمر فما تم بعدُ أي أدور، وفلان يَحوضُ حول فلانة: دار حولها يُجَمِّشُها. وملأ حَوْضَ أذنه بكثرة الكلام وهو محارتُها وصَدَفتُها. وانصبَّ عليهم حوضُ الغمامِ وحِياض الغمام. وليتَه بحَوْضِ الثَّعْلب وهو مكان خلف عُمان: فيمن يُتَمنّى بُعْدُه.[1]

" كأنه العَنْبَرُ الشِّحْري: منسوبٌ إلى شِحْرِ عُمَانَ وهو ساحِلُه ." [2]

١. المصدر السابق، ص ٢٢٣.
٢. المصدر السابق، ص ٤٩٦.

ربيع الأبرار للزمخشري

يرد اسم عمان في هذا الكتاب حين يذكر الزمخشري العمانيَّ الراجز:

العُمانيُّ الراجز محمدُ بنُ ذؤيب لم يكن من عُمان وإنما رآه دُكَيْنُ الراجز وهو غُلَيِّمٌ نِضْوٌ مُصْفَرٌّ مطحولٌ يَمْتَحُ على بكره ويرتجز فقال: من هذا العُماني فلزمه، لأنّ الطِّحَال يعتري نازلَ البحرين.[1]

ويرد أيضا حين يذكر الزمخشري سلمة بن عباد بن الجلندى:

سَلَمَةُ بنُ عَبّاد ملكُ عُمَانَ وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:

رأيتُـكَ يـا خيـرَ البَرِيّـةِ كلِّهـا
نَشـرْتَ كتابـاً جـاء بالحَـقِّ مُعْلَنـا
أقمـتَ سـبيلَ الحـقِّ بعـد اعوجاجِـه
وكان قديمـاً ركنُـه قـد تَهدّمَـا[2]

١. محمود بن عمر الزمخشري. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: عبد الأمير مهنا، ج٢ (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٢)، ص ٤٧٤-٤٧٥.
٢. المصدر السابق، ج٣، ص ١٥١.

منتهى الطلب من أشعار العرب لابن المبارك

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يورد ابن المبارك أشعارا للمثقب العبدي، ومنها هذه القصيدة:

وقال المُثقِّب العبدي، واسمه عائذ بن مُحْصن بن ثعلبة بن وائلة بن عدي بن حرب بن دُهْن بن عذرَة بن منبّه بن نكرة بن لكبز بن أفصى بن عبد القيس. وهي مُفضَّليّة، وقرأتُها علي شيخي أبي محمد بن الخشّاب في جملة المفضليات، وفي ديوانه:

ألا إنَّ هنداً أمسِ رثَّ جديدُها
وضنّتْ وما كانَ المَتاعُ يؤودُها
فلو أنَّها من قبلُ دامت لبانةً
على العهدِ إذ تصطادُنِي وأصيدُها
ولكنّها ممّا يميط بودّه
بشاشة أدنَى خلّةٍ يستفيدُها
أجدّلك ما يدريكَ أنْ ربَّ بلدَةٍ
إذا الشّمسُ في الأيْام طالَ ركودُها
وصاحت صواديحُ النّهارِ وأعرضتْ
لوامعُ يُطوَى ريطُها وبُرودُها
قطعتُ بفتلاءِ اليدْينِ ذريعَةٍ
يغولُ البلاد سومُها وبرِيدُها
فبتُّ وباتَتْ كالنَّعامَةِ ناقتِي
وباتَت عليها صفنَتي وقتودُها

وأغضَتْ كما أغضَيتُ عيني فعرّسَتْ
على الثَّفناتِ والجِرَانِ هجودُها
على طرُقٍ عندَ الأراكَةِ رِبَّةٍ
توازِي شريمَ البحرِ وهوَ قعيدُها
كأنَّ جنيباً عندَ معقدِ غرزِها
تحاولهُ عن نفسِهِ ويريدُها
تهالكَ منهُ في الرَّخاءِ تهالُكاً
تهلُكَ إحدى الجونِ حانَ ورودُها
فنَهْنَهْتُ منها والمَنَاسِمُ تَرْتَمِي
بمَعْزَاءَ شَتَّى لا يُرَدُّ عَنُودُها
وأَيْقَنْتُ، إنْ شاءَ الإلهُ، بأَنَّهُ
سَيُبْلُغنِي أَجْلاَدُها وقَصِيدُها
فإنَّ أَبا قابُوسَ عِنْدِي بَلاَؤُها
جَزَاءً بِنُعْمَى لا يَحِلُّ كُنُودُها
رَأَيْتُ زِنَادَ الصَّالِحِينَ نَمَيْنَهُ
قَدِيماً، كما بذَّ النُّجُومَ سُعُودُها
ولَوْ عَلِمَ اللهُ الجِبَالَ عَصَيْنَهُ
لَجَاءَ بأَمْرَاسِ الْجِبَالِ يَقُودُها
فإنْ تَكُ مِنَّا في عُمَانَ قَبِيلَةٌ
تَوَاصَتْ بإِجْنَابٍ وطَالَ عُنُودُها
فقد أَدْرَكَتْها المُدْرِكاتُ فأَصْبَحَتْ
إلى خَيْرِ مَنْ تَحْتَ السَّماءِ وُفُودُها

إلى مَلِكٍ بَذَّ المُلُوكَ فلمْ يَسَعْ
أَفاعِيلَهُ حَزْمُ المُلُوكِ وجُودُها
وأَيَّ أُنَاسٍ لا أَبَاحَ بِغَارَةٍ
يُؤَازِي كُبَيْدَاتِ السَّماءِ عَمُودُها
وجَأْوَاءَ فيها كَوْكَبُ المَوْتِ فَخْمَةٍ
يُقَمَّصُ في الأَرضِ الفَضَاءِ وَئِيدُها
لَهَا فَرَطٌ يَحْوِي النِّهابَ كأَنَّهُ
لوَامِعُ عِقْبانٍ مَرُوعٍ طَرِيدُها
وأَمْكَنَ أَطْرَافَ الأَسِنَّةِ والقَنَا
يَعَاسِيبُ قُودٌ كالشِّنَانِ خُدُودُها
تَنَبَّعُ مِنْ أَعْضَادِها وجُلودِها
حَمِيماً وآضَتْ كالحَمَالِيجِ سُودُها
وطَارَ قُشَارِيُّ الحَدِيدِ كأَنَّهُ
نُخالَةُ أَقْوَاعٍ يَطِيرُ حَصِيدُها
بِكُلِّ مَقَصِّيٍّ وكُلِّ صَفِيحَةٍ
تَتَابعُ بَعْدَ الْحَارِشِيِّ خُدُودُها
فأَنْعِمْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ إِنَّكَ أَصْبَحَتْ
لدَيْكَ لُكَيْزٌ كَهْلُهَا ووَلِيدُها
وأَطلِقْهُمُ تَمْشِي النِّساءُ خِلالُهمْ
مُفَكَّكَةً وَسْطَ الرِّحال قُيُودُها[1]

١. محمد بن المبارك. منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق: محمد نبيل طريفي، ج٤ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٩)، ص٥-١٢.

ويرد أيضا في قصيدة اختارها ابن المبارك للشاعر الأموي جرير:

وقال جرير يُجيب الفرزدق، ويردُّ عليه، وهي في النقائض:

لمـنِ الديـارُ رسـومُهنَّ خوالـي
أقفـرنَ بعـدَ تأنُّسٍ وحِـلالِ
عَفّـى المَنَـازِلَ، بَعْـدَ مَنزِلِنـا بهـا،
مَطـرٌ وَعاصِـفُ نَيْـرَجٍ مِجْفَـالِ
عـادتْ تُقـايَ على هـوايَ وَ ربّما
حنّـتَ إذا ظعـنَ الخليـطُ جمالـي
إنّـي، إذا بَسَـطَ الرّمَـاةُ لِغَلْوِهِـمْ
عنـدَ الحفـاظِ غلـوتُ كلَّ مغالـي
رفـعَ المطـيُّ بمـا وسـمتُ مجاشـعاً
و الزنبـريُّ يعـومُ ذو الأجـلالِ
فـي ليلتيـنِ إذا حـذوتُ قصيـدةَ
بَلَغَـتْ عُمَـانَ وَطَـيّءَ الأَجْبَـالِ
هـذا تقدمنـا وزجـرى مالـكاً
لا يوديّنـكَ حيـنُ قينـكَ مـالِ
لمّـا رَأوْا جَـمَّ العَـذابِ يُصِيبُهُـمْ،
صـارَ القيـونُ كسـاقة الأفيـالِ
يَـا قُـرْطُ! إنّكُـمُ قَرِينَـةُ خِزْيَـةٍ،
وَاللـؤمُ مَعْتَقِـلٌ قُيُـونَ عِقَـالِ

أمْسَـى الفَـرَزْدَقُ للبَعيـثِ جَنِيبَـةَ
كابـنِ اللبـونِ قرنتَـه المشـتالِ
أرْدالـكَ حَيْنُـلـكَ يـا فَـرَزْدَقُ مُحْلِبـاً
مـا زَادَ قَوْمَـلـكَ ذالـك غَيـرَ خَبَـالِ
و لقـدْ وسـمتُ مجاشـعاً بأنوفهـا
وَلَقَـدْ كَفَيتُـلـكَ مِدحـةَ ابـنِ جِعـالِ
فانفـخ بكيـرلـكَ يـا فـرزدقُ إننـي
فـي بَـاذِخٍ لِمَحَـلّ بَيْتِـلـكَ عَالـي[1]

ويورد ابن المبارك قصيدة أخرى لجرير، يرد بها ذكر عمان، يُجيب بها الفرزدق، ويهجو محمدَ بن عُمير بنَ عُطارد والأخطل:

يـا عبـدَ خنـدفَ لا تـزالُ معبـداً
فاقعـدْ بـدارِ مذلـةٍ وهـوانِ
والـزمْ بحلفـلـكَ فـي قضاعـةَ إنمـا
قيـسٌ عليـلـكَ وخنـدفٌ أخـوانِ
أحمـوا عليـلـكَ فـلاَ تجـوزُ بمنهـلٍ
مـا بيـنَ مصـرَ إلـى قصـورِ عُمـانِ
والتغلبـيُّ علـى الجـوادِ غنيمـةٌ
بئـسَ الحمـاةُ عشـيةَ الإرنـانِ
والتغلبـيُّ مُغلَّـبُ قعـدتْ بـهِ
مسـعاتهُ عبـدٌ بـكلِّ مـكانِ

١. المصدر السابق، ج٤، ص٢٧١-٢٧٣.

سـوقوا النقـادَ فـلاَ يحـلُّ لتغلـبٍ
سـهلُ الرمـالِ ومنبـتُ الضَّمْـرانِ
لعـنَ الإلـهُ مـنَ الصليـبِ إلهَـهُ
واللابسـينَ برانـسَ الرهبـانِ
والذابحيـنَ إذا تقـاربَ فِصْحُهـمْ
شـهبَ الجلـودِ خسيسـةَ الأثمـانِ
من كلِّ سـاجي الطرفِ أعصـلَ نابهُ
فـي كلِّ قائمـةٍ لـهُ ظِلفـانِ
تغشـى الملائكـةُ الكـرامُ وفاتَنـا
والتغلبـيُّ جنـازةُ الشـيطانِ
يُعطـى كتـابَ حسـابهِ بشـمالهِ
وكتابُنـا بأكفنـا الأيمـانِ
أيصدقـونَ بمـارِ سَـرْجِسَ وابنـهِ
وتكذبـونَ محمـدَ الفرقـانِ
مـا فـي ديـارِ مقـامِ تغلـبَ مسـجدٌ
وتـرى مكاسـرَ حنتـمٍ ودنـانِ
غـرَّ الصليـبُ ومـارِ سـرجسُ تغلبـاً
حتـى تقـاذفَ تغلـبَ الرجـوانِ
تلقـى الكـرامَ إذا خُطِبْـنَ غواليـاً
والتغلبيـةُ مَهْرُهـا فَلْسـانِ

تضعُ الصليبَ على مَشَقِّ عِجَانِها
والتغلبيةُ غيرُ جدِّ حَصَانِ
قبحَ الإلهُ سبالَ تغلبَ إنها
ضربتْ بكلِّ مخفخفٍ خَنّانِ[1]

ويرد ذكر عمان أيضا في قصيدة أخرى عينية اختارها بن المبارك لجرير يردُّ بها على الفرزدق:

كَذَبَ الفَرَزْدَقُ، إنّ قَوْمي قَبلهمْ
ذادوا العدوَّ عنِ الحمى فاستوسعوا
مَنَعوا الثّغورَ بعارضٍ ذي كَوْكَبٍ،
لولا تقدمنا لضاقَ المطلع
إنّ الفَوَارسَ يا فَرَزْدَقُ قَد حَمَوْا
حسباً أشمَّ ونبعةً لا تقطع
عَمْداً عَمَدْتُ لمَا يَسوء مُجاشعاً،
وأقولُ ما لعلمتْ تميمٌ فاسمعوا
لا تتبعُ النخباتُ يومَ عظيمةٍ
بُلِغَتْ عَزَائِمُهُ، وَلكنْ تَتْبَعُ
هَلاّ سَألْتَ بَني تَميمٍ: أيُّنَا
يَحْمي الذِّمَارَ، وَيُستَجارُ فيُمنَعُ
منْ كانَ يستلبُ الجبابرَ تاجهمْ
وَيَضُرّ، إذْ رُفعَ الحَديثُ، وَيَنفَعُ

١. المصدر السابق، ج٥، ص٩٩-١٠١.

أيفايشـونَ ولـمْ تـزنْ أيامهـمْ
أيّامَنَـا، وَلَنَـا اليَفَـاعُ الأرْفَـعُ
منـا الفـوارسُ قـدْ علمـتَ ورائسٌ
تهـدى قنابلـهُ عقـابٌ تلمـع
ولنـا عليـكَ إذا الجبـاةُ تفارطـوا
جَـابٍ لَـهُ مَـدَدٌ وَحَـوْضٌ مُتْـرَعُ
هَـلاّ عَـدَدَتَ فَوَارسـاً كَفَوَارسـي،
يَـوْمَ ابـنُ كَبشَـةَ فـي الحديـد مُقَنَّـعُ
خضبـوا الأسـنةَ والأعنـةَ إنهـمْ
نالـوا مـكارمَ لـمْ ينلهـا تبـعُ
وَابـنَ الرِّبَابِ بذاتِ كَهْـفٍ قَارَعُوا
إذْ فـضَّ بيضتـهُ حسـامٌ مصـدعُ
واسـنزلوا حسـانَ وابنـي منـذر
أيـامَ طخفـةَ والسـروجُ نقعقـع
تلـكَ المـكارمُ لـمْ تجـدْ أيامهـا
لمجاشـعٍ فقفـوا ثعالـةَ فارضعـوا
لا تظمـأونَ وفـي نحيـحٍ عمكـمْ
مَـرْوىً، وَعنـدَ بَنـي سُـوَيْدٍ مَشـبَعُ
نـزفَ العـروقَ إذا رضعتـمْ عمكـمْ
أنْـفٌ بـهِ خَثَـمٌ وَلَحْـيٌ مُقنَـعُ

قتـلَ الخيـارَ بنـو المهلـبِ عنـوةً
فخـذوا القلائـدَ بعـدهُ وتقنعـوا
وطـيءَ الخيـارُ ولا تخـافُ مجاشـعٌ
حتـى تحطـمَ فـي حشـاهُ الأضلـعُ
ودعـا الخيـارُ بنـي عقـالٍ دعـوةً
جزعـاً وليـسَ علـى عقـالٍ مجـزع
لـوْ كانَ فاعترفـوا وكيـعٌ منكـمْ
فزعـتْ عُمَـانُ فمـا لكـمْ لـمْ تفزعـوا
هتـفَ الخيـارُ غـداةَ أدركَ روحـهُ
بِمُجَاشِـع وَأَخُـو حُتَـاتٍ يَسـمَع
لا يَفْزَعَـنّ بَنُـو المُهَلَّـبِ، إنّـهُ
لا يُـدْرِكُ التِّـرَةَ الذّلِيـلُ الأخضَـعُ
هـذا كَمـا تَرَكُـوا مَـزَاداً مُسْـلَماً،
فكأنمـا ذبـحَ الخـروفُ الأبقـع
زَعَـمَ الفَـرَزْدَقُ أنْ سـيَقتُلُ مَرْبَعـاً؛
أبْشِـرْ بطُـولِ سَـلامَةٍ يـا مَرْبَـعُ[1]

ويورد ابن المبارك قصيدة للفرزدق، فيها ذكر عمان، يرد بها على جرير ويُعَرِّض بالبُعَيْث:

وَدّ جَرِيـرُ اللّـؤمِ لَـوْ كَانَ عانِيـاً،
ولَـمْ يَـدنُ مـنْ زَأرِ الأسـودِ الضّرَاغِـمِ

١. المصدر السابق، ج٥، ص١١٨-١٢١.

وليـس ابنُ حَمْـراءِ العِجَانِ بِمُفْلِتِي،
ولـم يَزْدَجِـرْ طَيْـرَ النُّحـوسِ الأَشَـائِمِ
فـإنْ كُنتُمـا قَـدْ هِجتُمانـي عَلَيكُمَـا
فـلا تَجزَعَـا وَاسْتَسـمِعا للمُرَاجِـمِ
لِمِرْدَى حُرُوبٍ مِنْ لَدُنْ شدَّ أَزْرَهُ
مُحامٍ عن الأحسـابِ صعَبِ المَظالِمِ
سـبوق إلى الغاياتِ يُلْفَى عَزِيمُهُ،
إذا سَـئِمَتْ أَقْرَانُـهُ، غَيـرَ سَـائِمِ
تَسُـورُ بِـهِ عِنْـدَ المَـكَارِمِ دارِمٌ،
إلـى غايَـةِ المُسَـتَصْعَباتِ الشّـداقِمِ
رَأَتْنَـا مَعـدُّ، يَـوْمَ شَـالَتْ قُرُومُهـا،
قِيامـاً علـى أَقْتَـارِ إحْـدَى العَظائِـمِ
رَأَوْنَـا أحَـقَّ ابْنـيْ نِـزَارٍ وَغَيْرِهِـمْ،
بإصْـلاحِ صَـدْعٍ بَيْنَهُـمْ مُتَفاقِـمِ
حَقَنّـا دِمَـاءَ المُسـلِمينَ، فأَصْبَحَـتْ
لَنَـا نِعْمَـةٌ يُثْنـى بهَـا فـي المَواسِـمِ
عَشِـيّةَ أَعْطَتْنَـا عُمَـانُ أُمُورَهَـا،
وَقُدْنَـا مَعـدّاً عَنْـوَةً بِالخَزَائِـمِ
وَمِنّـا الّـذِي أَعْطَـى يَدَيْـهِ رَهينَـةً
لغـارَيْ مَعَـدٍّ يَـوْمَ ضَـرْبِ الجَماجِـمِ

كَفَـى كُلَّ أُمٍّ مـا تَخـافُ علـى ابْنِها،
وَهُـنّ قِيَـامٌ رَافِعـاتُ المَعاصِـمِ
عَشِـيّةَ سَـالَ المِرْبَـدانِ كِلاهُمَـا
عَجاجَـةَ مَـوْتٍ بالسّـيُوفِ الصّـوَارِمِ
هُنالِـكَ لَـوْ تَبغـي كُلَيبـاً وَجْدْتَهَـا
بِمَنْزِلَـةِ القِـرْدانِ تَحْـتَ المَناسِـمِ[1]

ويرد ذكر عمان أيضا في هذا الكتاب ضمن قصيدة قالها الفرزدق فيما كان بينه وبين قيس، حين قتل قتيبة فهجاه جندلُ بن الراعي وذو الأهدام الجعفري فهجاهما الفرزدق، وهجا جريراً معهما فقال:

محـتِ الديـارَ فأذهبـتْ عرصاتهـا
محـوَ الصحيفـةِ بالبلـى والمـورِ
ريحانِ يختلفانِ في طردِ الحصى
طـرداً لـهُ بعشـيةٍ وبكـورِ
وروائـمٍ ولـداً ولـمْ ينتجنـهُ
قـدْ بتـنَ تحـتَ وئيـةٍ لقـدورِ
وكأنَّ حيـثُ أصابَ منهنَّ الصلى
كلفـاً بهـنَّ وراشـحاً مـنْ قيـرِ
وكأنَّ فـرخَ حمامـةٍ رئمـتْ بـهِ
باقـي الرمـادِ بهـنَّ بعـدَ عصـورِ
مثـلَ الحـداةِ وقعـنَ حـولَ حمامـةٍ
مـا إنْ يبيـنُ رمادهـا لبصيـرِ

١. المصدر السابق، ج٥، ص٢٩٤-٢٩٦.

يـا ليتَ شـعري إنْ عظامي أصبحتْ
فـي الأرضِ رهـنَ حفيـرةٍ وصخـورِ
هـلْ تجعلـنَّ بنـو تميـمٍ منهـمُ
رجـلاً يكـونُ لـهُ بمثـلِ ثغـوري
إنـي ضمنتُ لمنْ أتى لي ما جنى
وأبـي فـكانَ وكنـتُ غيـرَ غـدورِ
يقـري المئيـنَ رميـمُ أعظـمِ غالـبٍ
فيفـي بهـا ويفـكُّ كلَّ أسـيرِ
والمسـتجارُ بـهِ فمـا كحبالـهِ
للمسـتغيثِ بـهِ حبـالُ مجيـرِ
يـا بـنَ الخليـةِ لـنْ تنـالَ بعامـرٍ
لججـاً إذا زخـرتْ إلـيَّ بحـوري
عمـري وحنظلتـي اللـذانِ تنازعـا
سـبباً أمـرَّ فـكانَ غيـرَ غـرورِ
وبـآلِ سـعدٍ يـا بـنَ ألأمِ منْ مشـى
سـعدِ السـعودِ علـوتُ كلَّ فخـورِ
لـو كنـتَ تعلـمُ مـا برمـلِ مُقَيَّـدٍ
وقُـرَى عُمَـانَ إلى ذواتِ حَجُـورِ
لعلمـتَ أنَّ قبائـلاً وقبائـلاً
مـنْ آلِ سـعدٍ لـمْ تَـدِنْ لأميـرِ

أدّتْ بهمْ نُجُبٌ حواصِنُ حملُها
لأبٍ -وأُمِّكَ- كانَ غيرَ نَزورِ
لوْ كانَ بالَ بعامرٍ ما أصبحتْ
بشَمَامَ يفضلهمْ عظامُ جزورِ
وإذا الربابُ تربّبَتْ أحلافُها
عظمتْ مخاطرتي وعَزَّ نصيري
إنا وإخوتُنا إذا ما ضمّنا
بالأخشبينِ منازلُ التجميرِ
عرفَ القبائلُ أننا أربابُها
وأحقُّها بمناسكِ التكبيرِ[1]

ومن الشعراء العمانيين الذين ذكرهم ابن المبارك في منتهى الطلب وأورد لهم قصائد طويلة، عدي بن وداع الأزدي، وهو من أزد عمان، ومن سلالة مالك بن فهم. يقول عنه:

وقال عديّ بن وداع أحد بني عقْيٍ، وهو أَسَدُ بنُ الحارث بنُ مالك بنُ فَهْم أحدُ الأزد، وكان يُلَقَّب الأعمى ولم يكن أعمى:

كلَّفني القلبُ فلمْ أجهلِ
عهدَ الصِّبا في السَّالفِ الأوَّلِ
أزمانَ إذ أملكُ عقلي وإذ
طرفيَ لم يخسأ ولم يكلِ
أرى ابنةَ الأزْديِّ قد أقبلتْ
بينَ سموطِ الدُّرِّ في المِجْولِ

١. المصدر السابق، ج٥، ص٣٧٩-٣٨١.

كالظَّبيـةِ الفـاردةِ الخـاذلِ
المخروفـةِ المُقفـرةِ المُطفـلِ
ظلَّـتْ تَعاطى بخلاءٍ من ال
أرضِ شجونَ السَّـلَمِ المُهْدَلِ
يابنـةَ كعـبِ بـن صليـعٍ ألا
تستيقني إن كنتِ لم تَذهلي
قالـتْ ألا لا يُشـترى ذاكـمُ
إلاَّ برعـبِ الثَّمـنِ الأجـزلِ
إن تعطنا سـطرَ الحِفافينِ مقْ
طوعـاً لنـا بتـلاً إذنْ نفعـلِ
إنَّ الحِفافيـنِ عَقـارُ امرئٍ
يمنعـهُ الضَّيـمُ فـلا تجهلـي
مـالُ امرئٍ يخبطُ في الغمـرةِ ال
قـرنَ غـداةَ البـأسِ بالمُنصَلِ
إن كنتِ تستأسـينَ لا بـدَّ فال
معـروفُ منّـا أُختنـا فاسـألي
العبـدَ أو بَكرتنـا الحـرَّةَ ال
زَّهـراءَ أو منصفـةَ النُّـزَّلِ
طبنـا بهـذا لـكَ نفسـاً فـإنْ
ترضـي بـه عنّا إذن فافعلي

بعضلكِ يا وجدَ امرئٍ شـفَّهُ ال
حـبُّ فلـمْ يفـرَغْ ولـم يُشـغلِ
أعمى على حالٍ من الحالِ لا
يشـعرُ مـا النّائـي من المقبلِ
لـو كنتِ قـد أدنيتني الـودَّ ما
ألفيـتُ مثـلَ الضَّمـنِ الزُّمَّلِ
أوديـتُ في الموديـنَ إن كنتُ في ال
أحيـاءِ كالمنسـيَّ لـم يُحْفَـلِ
وسـائلي القـومَ إذا أرملـوا
والمعتفي والصَّحبَ بي فاسألي
أيُّ فتًى أعمى عديٌّ إذا
مـا باشـرَ الكيـدَ علـى التَّلتـلِ
قد أشـحَذُ الصَّحبَ إلى موطنٍ
يكلـحُ منـه ناجِـذُ المصطلـي
ضربَ سـيوفِ الهندِ صقعاً كما
يُشـعلُ غابُ الحُرَقِ المُشـعَلِ
أو كقصيفِ البـرَدِ الصَّيِّفِ ال
مُبعقِ في الظَّاهرِ ذي الجَـرْولِ
جـرتْ بـه دلـوٌ قريٌّ على
أدراجهـا مـن باكـرٍ مُسـبلِ

مـن عارضٍ جَـوْنٍ رُكامٍ وهـثْ
عـزلاؤهُ منهـزِم الأسـفلِ
يحفـزهُ رعـدٌ وبـرقٌ علـى
أرجائـهِ مرتجـزُ الأزمَـلِ
حيـنَ ترى القتلى لدى مُزحَفٍ
كالقِـرَبِ الوُفْـرِ لـدى المَنْهَلِ
حينَ يقولُ النَّجدُ مِن رهبةِ ال
موتِ أرى الغمرةَ لا تنجلي
سـيفُ ابنِ نشـوانَ بكفِّي وقدْ
سـقاهُ شـهراً مِـدْوسُ الصَّقيَـلِ
أخضرُ ذو زِرَّينِ يُسـقى سِـما
مـاً فـإذا أُرهـفَ لـم يَنْحَـلِ
أحمـي بـهِ فـرْجَ سـلوقيَّةٍ
كالشَّمسِ تغشى طرفَ الأنملِ
إنْ كنتُ أعمى فاسـألي القومَ هلْ
أُسكـتُ روَع المرءِ ذي الأفكَلِ
أضـربُ في العـورةِ ما فيَّ إنْ
أُخضمتُ أو أُقضمتُ لـم آتَلِ
أعلـمُ أنْ كلُّ فتًـى مـرَّةً
للقتـلِ أو بيـتٍ منَ الجنـدلِ

ذلكَ مكروهي وروغي فإنْ
أُحمـلْ علـى الثِّقلـةِ لا أَثْقُـلِ
ممَّـا ينـوبُ الحـيُّ فيهـمْ وقدْ
أجتـازُ بالمُبْتَقِـلِ المُعْمَـلِ
السَّـابقُ المختـالَ بالكُـورِ وال
أعـلامِ نَـوْحَ الفاقـدِ المعـوِلِ
ينجو منَ السَّـوطِ كما تَجـدِمُ ال
قيـدودُ مـنْ وَهْوهـةِ المِسْـحَلِ
شـرَّدها ززٌّ بلحييـهِ مـنْ
أعرافِهـا والشَّـعرِ المُنْسَـلِ
صائفـةٍ وَحْمـى تصـدَّى لـهُ
كالقوسِ منْ فارعـةِ الأشـكلِ
تُرهقـهُ ضربـاً وتنجُـو علـى
وحشـيِّها قارِبـةَ المَنْهَـلِ
قذفَلـكَ بالقِدْحِ منَ السَّاسمِ ال
أجـردِ قِـدْحَ الصَّنَـعِ المغتلـي
حتَّـى يحـورَ النَّيُّ منهُ إلى
عظمِ سُـلامى سـلسِ المفصلِ
بينَ رَذيِّ الرَّهَـبِ المُقْصَـدِ ال
مـخِّ المُبـاري خـدمَ المُنْعَـلِ

يعلُـو لنابيـهِ صَريـفٌ كمـا
غـرَّدَ صـوتُ الصُّـرَدِ الصُّلصُـلِ
واللهِ واللهِ لَهـذا الفتـى
كانَ لِـزازَ الزَّمـنِ المُمْحِـلِ
للجـارِ والضَّيفِ وباغي النَّدى
حيـنَ يُباري خلُقي أخيَلي
أروعُ وَشـواشٌ قليـلُ الخنـا
صلبٌ مُشاشي صَنَعٌ مِقوَلي
يؤنـسُ معروفي نَزيلي وقدْ
أُخْـرِجُ ضـبَّ الخصِـمِ الأجـدلِ
في الجِدِّ إذا جدَّ شِـياحي وإذْ
أصواتُ يـومِ الجمـعِ لـمْ تَصْحَلِ
إن يصدفِ الأترابُ عنِّـي فقدْ
أخـدعُ مثـلَ الرَّشـأِ الأكحـلِ
كـدرَّةِ الغائـصِ تُهدى إلى
ذي نَطَفٍ في غرفـةِ المَجْـدَلِ
جـاءَ بهـا آدمُ صُلْـبٌ أحـص
صُ الرَّأسِ فيهِ الشَّـيبُ لمْ يَشْـمِلِ
لمَّـا انتضاهـا موقـنٌ أنَّـهُ
إنْ يَبلـغِ السُّـوقَ بهـا يَجْـذلِ

شَـيَّعَ فـي قـرواءَ مدهونـةٍ
ذاتِ قِـلاعٍ صُعُـداً تَغتلـي
تختصـمُ اللُّجِّـةُ فـي العـو
طـبِ ذي التَّيَّـارِ والجَلْجَـلِ
بشَّـرَ أصحابـاً لـهُ إنَّهـا
تَجْبُـرُ فقـرَ البائـسِ الأرمـلِ
قالـتْ وقـدْ كنَّـا علـى موعـدٍ
ويلـكَ إنْ يُـدرَ بنـا نُقتَـلِ
أخشى عليكَ اليومَ منْ مَصْعَةٍ
خدبـاءَ مـنْ ذي هَبَّـةٍ مِقْصَلِ
بكفِّ غيرانَ نهيلٍ منَ ال
قـومِ كصـدرِ السَّـيفِ لـم يَنْـكَلِ
عندكِ شعبٌ منْ فؤادِ امرئٍ
مـا بهِ عنكِ اليـومَ من مَزْحَلِ
إنْ تبذُلي الودَّ فتشـفي بـهِ ال
قلبَ وإنْ خفتِ فلا تفعلي
لشـائنيكِ الويلُ إنْ تبذُلي
أُغتلْ وشـرٌّ لكِ أنْ تَبذُلي
يُصبـحُ جَذمانـاً علـى آلـةٍ
يَعزفُهـا الآخِـرُ لـلأوَّلِ

تَعاقَـبُ الأسـرَى ودَوْرُ الرَّحى
وتالِـفٌ إنْ هـوَ لـمْ يَغفَـلِ
أوْ لـمْ يُفـدْ أعقابُكـمْ قُضْيَـةً
مثـلَ وَحِـيِّ الصَّخـرِ لـمْ تَخْمَـلِ

وقال عَديٌّ أيضا:

أرى لهـواً تعـرَّضَ للفـراقِ
وبينـاً بعـدَ بيـنٍ واتّفـاقِ
لعلَّـكِ إنَّمـا تدريـنَ لومِي
وعذْلي إنْ قَدَرْتِ على النّفاقِ
فقـدْ يأتـي عليَّ أوانُ حينٍ
وعِرسـي ما تَعرَّضُ للطَّلاقِ
ولكـنْ قـدْ يَسُـرُّ ويتَّقينـي
بجهـدِ الـودِّ مغضبـةَ الـرِّواقِ
فتَـى الفتيـانِ لا يعتَقينـي
عنِ الأهواءِ جدِّي بالعواقي
فإمَّـا أُمـسِ مرتهنـاً أسـيراً
علـى العينينِ مشـدودَ الوثاقِ
أسـير الجـنِّ لا أرجُـو فـكاكاً
طـوالَ الدَّهـرِ محفـوظَ الأبـاقِ
ولـو أنِّـي أرادَ لقلـتُ قرنٌ
أرادَ عدواتـي حـرجُ مُـلاقِ

وأحضـرهُ العـداوةَ من قريبٍ
بضـربٍ بينـهُ وقْـدُ احتـراقِ
وكنتُ فتَـى أخـا العـزَّاءِ فيهمْ
لرَهطي لو وقَى العينينِ واقِ
تعظَّـمُ ندوَتـي فيهـمْ وأثنـي
مودَّتهـمْ بأخـلاقٍ رمـاقِ
إذا مـا ألزَنُـوا ولقـدْ أُنـادي
لعانيهـمْ بناجـزةِ الحقـاقِ
وصـادرةٍ معـاً وتُشـتُّ ورداً
لهـا منـحٌ تواشـكُ باتّفـاقِ
نزعـتُ لهـا رهابـةَ مقدمـاتٍ
يُلحـنَ بوفرِ منتهلِكُ الغلاقِ
وقومـي يعلمونَ لربَّ يـومٍ
شـددتُ بمـا ألـمَّ بـهِ نطاقـي
وأدفـعُ عنهـمُ والجـرمُ فيهـمْ
دخيسَ الجمعِ بالكلمِ السّلاقِ
وخصـمٍ قـد لويـتُ الحقَّ فيهِ
قرائنـهُ تنـازعُ للشِّـقاقِ
وجـارٍ قـد أواسـيهِ بنفسـي
ووُسـعي أن يبينَ عن اللِّـزاقِ

وحورٍ قد خززتُ لهنَّ طرفي
لذيـذاتِ المـودَّةِ والعنـاقِ
يدفنَ الزَّعفرانَ على خدودٍ
نواعـمَ لا كلفـنَ ولا بهـاقِ
كأنَّ وجوههنَّ متونُ بيضٍ
جلتها الشَّـمسُ في ذرِّ الشِّراقِ
لذيذاتِ الشَّـبابِ مخصَّـراتٍ
مخاصرهنَّ في نشـرٍ رقاقِ
وقـد أغـدو بمنشـوٍّ نسـاهُ
جـوادٍ فـي المحثَّـةِ والنِّـزاقِ
لغيـثٍ يجنـبُ الـرُّوّادُ عنـهُ
يباري الرِّيحَ بالعشبِ السِّماقِ
وبثَّ به من الوسميِّ غيثٌ
مرادَ العينِ منفرقَ البسـاقِ
تقـدَّمَ رابـئٌ فـإذا شـياهٌ
يدسنَ حديقَ سلاَّنِ البراقِ
فأرسـلهُ وقـد غرَّبـنَ شـأواً
بهنَّ تواشكَ الشَّـدِّ المزاقِ
كأنَّ مجامـعَ الهُلبـاتِ منـهُ
وهاديهـا لميعـادٍ وفـاقِ

فأرخيتُ القناةَ ويزأنيّاً
على الأكفالِ بالطَّعنِ المعاقِ
فعادى بينهنَّ وهنَّ رهوٌ
يملنَ على مسمَّحةٍ ذلاقِ
فأدّاها إليَّ ولم يرثها
فواقاً أو أقلَّ من الفُواقِ
وأدَّانا المقيلُ إلى شواءٍ
يطاطئُ أنفسَ القومِ الدِّهاقِ
بفتيانٍ ذوي كرمٍ أعاذوا
وقيذهمُ بشبعٍ واعتناقِ
وندمانٍ رهنتُ له بريٍّ
وراووقٍ ومُسمعةٍ وساقي
كريم لا يُشعِّثني إذا ما
نفتهُ الكأسُ بالسُّكرِ المساقي
أقامَ لدى ابنِ محصنَ عاملاتٍ
من الأمثالِ والكلمِ البواقي
أرى الأيّامَ لا يبقى عليها
سوى الأجبالِ والرَّملِ الرِّقاقِ[1]

١. المصدر السابق، ج٨، ص٣٠٤-٣١٨.

معجم الأدباء لياقوت الحموي

مما ذكره ياقوت في معجم الأدباء و فيه ذكر لعمان، ترجمته للوزير الكبير أبي محمد الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون الأزدي، من ولد المهلب بن أبي صفرة. يقول:

فلما كانت سنة إحدى وخمسين وثلاثمائةٍ، لَهَج مُعِزُّ الدولة بذِكْرِ عُمَان، وحدّث نفسَه بأخذها، وأغراه بذلك المعروف بكرك أحد النقباء الأصاغر، فأمر المهلّبيَّ بالخروج إليها فدافعه ووضع عليه من يُزهِّده فيها فلم يزدد إلا لَجَاجاً، وكاد أبو محمدٍ الوزيرُ حاشيةَ مُعزِّ الدولة إذ ألزمهم تقسيطاً في نفقة البناء الذي استحدثه من غير أن يخرج بأحدٍ منهم إلى عَسْفٍ، فأحفظهم فعلُه، فبعثوا مُعِزَّ الدولة على إخراجه، فلما ألحّ عليه ضمن له أن يستخرج من هؤلاء جملةً كبيرةً يستعين بها في هذا الوجه، فمكّنه من ذلك بعد أن شرط عليه أخذَ العفوِ وتجنُّبَ الإجحاف، فقبض على جماعةٍ وأخذ منهم ألفي ألف درهمٍ، منها خمسمائة ألف درهمٍ من أبي عليٍ الحسن بن إبراهيم النصراني الخازن، ومعز الدولة على غاية العناية بأمره والثقة بأنه لا مال له، وأظهر أبو عليٍ الفقر وسوء الحال، وأنه اقترض المال الذي أدّاه من الناس، فشقّ ذلك على معز الدولة وظنه حقاً، واعتل أبو عليٍ عُقَيْبَ ذلك ومات، فاعتقد مُعِزُّ الدولة أن أبا محمدٍ قتله لما عامله به، وأقبل عليه يلومه ويحلف له أنه يقيّده به، فلم يلتفت أبو محمدٍ إلى ذلك، وبادر إلى دار أبي عليٍ وقبض على خادمٍ له صغيرٍ كان يختصه ويثق به، ومنّاه ووعده، فدلّه على دفينٍ كان لأبي عليٍ في الدار فاستخرج منه عدة قماقم فيها نَيِّفٌ وتسعون ألف دينارٍ، وحملها إلى معز الدولة وقال له: هذا قدر أمانة خازنك الذي ظننتَ أني قد قتلتُه باليسير الذي أخذتُه لك منه، وما فيه درهم من ماله، وإنما افترضه من أولادك وحُرَمِك وغلمانك وشنّع عليك، ثم تتبع أسبابه وأخذ منهم تمام مائتي ألف دينار، وقدّر أبو محمدٍ أن معزَّ الدولة يُمكّنه من الحاشية الباقين ويُعفيه من الخروج فلم يفعل، وجد به جداً شديداً في الانحدار، فانحدر في جمادى الآخرة من سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائةٍ، وتمادت أيامه بالبصرة للتأهب والاستعداد، وامتنع العسكر المجرد

من ركوب البحر، فبلغ معزَّ الدولة ذلك، فاتهمه بأنه بعث العسكرَ على الشغب، فكاتبه بالجِدِّ والإنكار عليه في توقفه وألزمه المسير، ووجد أعداؤه طريقاً للطعن عليه، واغتنموا تنكّرَ معز الدولة عليه، وأقاموا في نفسه أنه انحدر من مدينة السلام وهو لا يعتقد العود إليها، وأنه سيغلب على البصرة كما تغلب البريديون، وأن العسكر الذي معه والعشائر هناك على طاعته، وعظّموا عنده أموالَه، فتَدوّخ معزُّ الدولة بأقاويلهم، وعرف أبو محمدٍ ذلك فأطلق لسانَه فيهم، وخرق الستر بينه وبينهم، وتطابقت الجماعة في المشورة على معز الدولة بالقبض عليه والاعتياض بأمواله عما تعذّر حصوله من عُمَان، وجعلوه على ثقةٍ من أنهم يسدون مسده، فمال إلى قولهم وكتب إلى أبي محمدٍ يُعفيه من الانحدار إلى عُمَان، ويرسم له الانكفاءَ إلى مدينة السلام، وعلم أبو محمدٍ بالحال، ووطّن نفسَه على الصبر وركوب أصعب المراكب فيه، وأن يدخل فيما دخل فيه القوم، ويتولى هو مصادرة نفسه وأصحابه وخصومه وأعدائه، وكان ملياً بذلك، فهجمت عليه عِلّتُه التي مات منها، وتردد بين إفاقةٍ ونكسةٍ إلى أن وردت الكتب باليأس منه، فأنفذ معز الدولة حينئذٍ أحدَ ثقاته على ظاهرِ العيادة له، وباطنِ الاستظهار على ماله وحاشيته، فألفاه في طريقه محمولاً في محفةٍ كبيرةٍ مملوءةٍ بالفرش الوثيرة، ومعه فيها من يخدمه ويُعلّله، ويتناوب في حملها جماعة من الحمّالين، فلما انتهى إلى زواطا قضى نحبه ومضى لسبيله، وسقط الطائر بمدينة السلام بذلك، فقُبِض على أسبابه وحُرَمِه وولده، فصُودرت الجماعة، ووقع السّرَفُ في الاستقصاء عليهم، فلم يظهر لأبي محمدٍ مال صامت ولا ذخيرة باطنة، وبانت لمعز الدولة نصيحته، وبطلان التكثيرات عليه، وقد كان يصل إليه من حقوق الرقاب في ضياعه وما يأخذه من إقطاعه، ويستثني به على عماله مال كثير يستوفيه جهراً من غير أن توقع فيه أمانة، وبصرف جميعه في مئونته ونفقاته وصلاته وهباته، وإلى هدايا جليلةٍ كان يتكلفها لمعز الدولة في أيام النواريز والمهاريج.

وعطف معز لدولة على الجماعة يطالبهم بالضمانات التي ضمنوها فاحتجوا بوفاته، ووعدوا بالبحث عن ودائعه، وتدافعت الأيام واندرج الأمر، فكان الذي صح من مال أبي محمدٍ ومال حُرَمِه وأولاده وأسبابه خمسة آلاف ألف درهمٍ، فيها الصامت والناطق والباطن، وأثمان الغلات وارتفاق الأملاك والأموال، وأموال جماعةٍ من التجار أخذت بالتأويلات، وكانت وفاته سبباً لصيانته عن عاجل ابتذالهم له، وصيانتهم عن آجل بلواهم به، وكانت مدة وزارته ثلاث عشرة

سنة وثلاثة أشهرٍ، ووفاته في يوم السبت لثلاث ليالٍ بقين من سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائةٍ. ولأبي محمدٍ:

قضيتُ نَحْبي فسُرَّ قومُ
حَمْقَى لهم غَفْلَةٌ ونَوْمُ
كأنّ يومي عليَّ حَتْمٌ
وليس للشامِتينَ يَوْمُ

قال هلال: وحدثني أبو إسحاق جدي قال: صاغ أبو محمدٍ دَوَاة ومرفعاً وحلاهما حليةً كثيرةً مشرقةً وكانت ذراعاً وكسراً في عرض شِبْر، وكذلك كانت آلاته عظاماً، حتى إن مخادَّ دسته مثل مساند الدسوت، إلى ما يجري هذا المجرى من آلات الاستعمال، وقُدِّمتْ الدواةُ بين يديه في مرفعها، وأبو أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي وأنا إلى جانبه، فتذاكرنا سراً حُسْنَ الدواة وجلالتها وعظمتها، ثم قال لي: ما كان أحوجني إليها لأبيعها وأتسع بثمنها، فقلت: وأي شيء يعمل الوزير؟ قال: يدخل في حِرِ أمِّه. وسمع أبو محمدٍ ما جرى بيننا بالإصغاء منه إلينا، وذهب ذاك علينا، فاجتمعتُ مع أبي أحمد من غدٍ فقال لي: عرفتَ خبرَ الدواة؟ قلتُ: لا. قال: جاءني البارحة رسولُ الوزير ومعه الدواة ومرفعها، ومنديل فيه عشر قطع ثياباً حساناً وخمسة آلاف درهمٍ وقال: الوزير يقول لك: أنا عارف بأمرك في قصور المواد عنك، وتضاعف المؤن عليك، وأنت تعرف شغلي وانقطاعي به عن كل حقٍ يلزمني، وقد آثرتك بهذه الدواة لما ظننته من استحسانك إياها اليوم عند مشاهدتك، وحملت معها ما تجدد به كسوتك وتصرفه في بعض نفقتك، وانصرف الرسول، وبقيتُ متحيراً متعجباً من اتفاق ما تجارينا به أمس وحدوث هذا على أثره. وتقدم أبو محمدٍ بصياغة دواةٍ أخرى على شكلها ومرفعٍ مثل مرفعها، فصِيغتْ في أقرب مدةٍ، ودخلنا إلى مجلسه وقد فرغ منها وتُرِكتْ بين يديه وهو يُوقِّع منها.

ونظر أبو محمدٍ إلي وإلى أبي أحمد ونحن نلحظها فقال: هيه من منكما يريدها بشرط الإعفاء من الدخول في حرِ الأم؟ فخجلنا وعلمنا أنه كان قد سمع قولنا. وقلنا: بل يُمتِّع الله مولانا وسيدنا الوزير بها، ويبقيه حتى يهبَ ألفاً مثلها، اللهم أنتَ جَدّدْ الرحمةَ والرضوانَ عليه في كل ساعةٍ، بل لحظةٍ بل لمحةٍ، وعلى كل نفسٍ شريفةٍ وهمّةٍ عاليةٍ، إنك العلي تحب معالي الأمور وأشرافها، وتبغض سَفْسَافَها.

قال: وحدث إبراهيم بن هلالٍ قال: كان أبو محمدٍ المهلبي يناصف العِشْرَة أوقاتَ خلوته، ويبسطنا في المزح إلى أبعد غايةٍ، فإذا جلس للعمل كان امرأ وقوراً، ومهيباً ومحذوراً، آخذاً في الجِدِّ الذي لا يتخّونه نقص، ولا يتداخله ضعف، فاتفق أن صعد يوماً من طيّاره إلى داره - وقد حقنه البول وما كان يعتريه من سَلَسِه - فقصد بعضَ الأخلية فوجده مقفلاً - وكذاك كانت عادته جاريةً في أخلية داره حفاظاً لها عن الابتذال - فأبى أن يدعو الفَرّاشَ ويحضر، فقال لي متبادراً على نفسه:

فهَبْكَ طعامَكَ استوثقتَ منه

فما بَالُ الكَنيفِ عليه قُفْلُ؟

فقلت: لعمري إنه موضع عجبٍ، وإذا وقع الاجتياط في الأصل فقد استغنى عنه في الفرع، فضحك وقال: أوسعتنا هجاءً. فقلتُ: وجدت مقالاً. فقال: اسكت يا فاعل يا صانع.

قال أبو إسحاق: وأجلسني مُعِزُّ الدولة لأكتبَ بين يديه، وأبو محمدٍ المهلبيُّ قائم فحجبني عن الشمس، فقال: كيف ترى هذا الظل؟ فقلتُ: ثخين. فقال: واعجباً! أُحْسِنُ وتُسيء. وضحك! ومن شِعْر المهلبي:

يا هلالاً يبدو لتهتاجَ نفسي

وهَزَاراً يشدو فيزدادُ عِشْقي

زعم الناسُ أنّ رِقّكَ مُلكي

كذب الناسُ أنتُ مالكُ رِقّي

وحدث أبو محمدٍ المهلبي قال: كنت أيامَ حدَاثتي وقِصَرِ حالي، وصِغَرِ تَصرّفي أسكن داراً لطيفةً - ونفسي مع ذلك تنازع في الأمور العظيمة، إلا أن الجِدَّ قاعد، والمقدورَ غيرُ مساعدٍ - فأصبحتُ يوماً وقد جاء المطر وازدادت الحجرة إظلاماً، وصدري بها ضيقاً، فقلت:

أنا في حجْرةٍ تجِلُّ عن الوَصْفِ

ويعمى البصيرُ فيها نهارا

هي في الصبحِ كالظلامِ وفي
الليلِ يُولّي الأنامُ عنها فِرارا
أنا منها كأنّني جوفُ بئرٍ
أتّقي عَقْرَباً وأحْذَرُ فارا
وإذا ما الرياحُ هبّتْ رُخَاءً
خِلْتُ حيطانَها تميدُ انهيارا
رَبِّ عَجّلْ خَرَابَها وأرِحْني
من حِذَاري فقد مللتُ الحِذَارا

تحدث أبو الحسين هلال بن المحسن قال: حدث القاضي أبو بكر بن عبد الرحمن بن قُرَيعة، قال: كنت مع الوزير أبي محمد المهلبي بالأهواز، فاتفق أن حضرتُ عنده في يومٍ من شهر رمضان، والزمان صائف والحر شديد، ونحن في مجلس باردٍ، فسمع صوت رجلٍ ينادي على الناطف فقال: أما تسمع أيها القاضي صوت هذا البائس في مثل هذا الوقت؟ والشمس على رأسه، وحرها تحت قدميه، ونحن نقاسي في مكاننا هذا البارد ما يقاسيه من الحر؟! وأمر بإحضاره فأحضر، فرآه شيخاً ضعيفاً عليه قميص رثّ وهو بغير سراويل وفي رجله تاسومة مخلقة، وعلى رأسه مئزر، ومعه نبيخة فيها ناطف لا تساوي خمسة دراهم، فقال له: ألم يكن لك أيها الشيخ في طرفي النهار مندوحة عن مثل هذا الوقت؟ فتنفّس الرجل وقال: ما أهون على الراقد سهرَ الساهد! وقال:

مـا كنتُ بائعَ ناطفٍ فيما مضى
لكن قضتْ لي ذاكَ أسبابُ القضا
وإذا المُعيل تعذّرتْ طلباتُه
رام المعاشَ ولو على جَمْرِ الغَضا

فقال له الوزير: أراك متأدباً، فمن أين لك ذلك؟ فقال: إني أيها الوزير من أهل بيتٍ لم يكن فيهم من صناعته ما ترى - وأسر إليه أنه من ولد معن بن زائدة - فأعطاه مائة دينارٍ وخمسة أثوابٍ، وجعل ذلك رسماً له في كل سنةٍ.

وحدث القاضي أبو عليٍ التنوخي قال: شاهدتُ أبا محمدٍ المهلبي قد ابتيع له في ثلاثة أيامٍ ورد بألف دينارٍ فرش به مجالس وطرحه في بِرْكةٍ عظيمةٍ كانت في داره، ولها فوّارات عجيبة يطرح الورد في مائها وينفضه، وبعد شرابه عليه وبلوغه ما أراده منه أنهبه. ولأبي عبيد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج يرثي أبا محمدٍ:

يـا مَعْشَـرَ الشُّـعَراءِ دعـوةَ موجَـعٍ
لا يُرْتجـى فـرحُ السُّـلوِّ لديـهِ
عـزّوا القوافـي بالوزيـرِ فإنهـا
تبكـي دمـاً بعـد الدمـوعِ عليـهِ
مات الذي أمسى الثناءُ وراءَه
وجميـلُ عَفْـوِ الله بيـن يديـهِ
هدم الزمانُ بموته الحصـنَ الذي
كنّـا نفـرُّ مـن الزمـان إليـهِ
وتضاءلـتْ هِمَـمُ المـكارمِ والعُلا
وانبتَّ حَبْلُ المجدِ من طَرَفيهِ
عمري لئن قادته أسبابُ الردى
مثـلَ الجَـوَاد يقـادُ فـي شَـطَنَيْهِ
فليعلمـنَّ بنـو بويـهٍ أنمـا
فُجِعَـتْ بـه أيّـامُ آلِ بُويْـهِ

ولأبي محمدٍ المهلبي:

أمثلي يا أخي وقسيمَ نفسي
يُفارَقُ عهدُه عند الفِراقِ؟
ويسلو سلوةً من بَعْدِ بُعْدٍ
وينسبه الشقيقُ إلى الشِّقَاقِ
فأقسِمُ بالعناقِ وتلكَ أشفى
وأوفى من يميني بالعِتاقِ
لقد ألصقتَ بي طلباً قبيحاً
تجافى جانباه عن التصاقِ

وحدث أبو النجيب شداد بن إبراهيم الجزري الشاعر الملقب بالظاهر قال: كنت كثير الملازمة للوزير محمدٍ المهلبي، فاتفق أني غسلتُ ثيابي وأنفذ إلي يدعوني، فاعتذرتُ بعذرٍ فلم يقبله وألحّ في استدعائي، فكتبتُ إليه:

عَبْدُكَ تحت الحَبْلِ عُرْيَانُ
كأنّه لا كانَ شَيْطانُ
يغسل أثواباً كأنّ البِلى
فيها خليطٌ وهي أوطانُ
أرَقَّ من ديني إن كان لي
دين، كما للناس أديانُ
كأنها حالي من قبل أن
يُصبحَ عندي لكَ إحسانُ
يقول من يُبصرني مُعْرِضاً
فيها وللأقوالِ بُرْهانُ

هـذا الـذي قـد نَسَـجت فوقه

عناكبُ الحيطانِ، إنسانُ؟

فأنفذ لي جُبّةً وقميصاً وعِمامةً وسراويلَ وكيساً فيه خمسمائة درهمٍ وقال: قد أنفذت لك ما تلبسه وتدفعه إلى الخيّاط ليصلحَ لك الثياب على ما تريده، فإن كنتَ غسلتَ التّكّة واللالكة فعرّفني لأنفذَ لك عوضَها. ولأبي محمدٍ المهلبي:

ويومٍ كأنّ الشمسَ والغيمُ دونها

حجابٌ به صينتْ فما يَتَهتّكُ

عروسٌ بدت في زُرْقةٍ من ثيابِها

تجلّلها فيها رداءٌ مُمسّكُ

قرأتُ بخط المحسن بن إبراهيم الصابئ: أنشدني والدي قال: أنشدني الوزير أبو محمدٍ المهلبي لنفسه:

إذا تكامل لي ما قد ظفِرْتُ به

من طيبِ مُسْمِعةٍ وظرْفِ رُمّان

وقهوةٍ لو تراها خلتَ رِقّتَها

دِيني، وحافر من إن شئتُ غنّاني

فما أبالي بما لاقى الخليفةُ من بُغَا

الخَصيِّ وعِصيانِ ابنِ حَمْدانِ

وقال الصاحبُ بن عبّادٍ: أنشدني الأستاذ أبو محمدٍ المهلبي لنفسه:

قال لي من أُحِبُّ والبينُ قد جَدّ،

وفي مُهْجتي لهيبُ الحريقْ

ما الذي في الطريق تصنع بعدي؟

قلتُ أبكي عليك طولَ الطريقْ

حدث أبو عليٍ التنوخي قال: كان أبو محمدٍ المهلبي يُكثر الحديثَ على طعامه وكان طيب الحديث، وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتاب والندماء، وكنت كثيراً ما أحضر، فقدم إليه في بعض الأيام طَيْهوج، فقال لي: أذكرني هذا حديثاً طريفاً، وهو ما أخبرني به بعضُ من كان يعاشر الراسبيَّ الأمير قال: كنتُ آكل معه يوماً وعلى المائدة خَلْقٌ عظيم، فيهم رجل من رؤساء الأكراد المجاورين لعمله، وكان ممن يقطع الطريق، ثم استأمن إليه فآمنه واختصه، وطالت أيامه معه وكان في ذلك اليوم على مائدته إذ قدم حجل فألقى الراسبي منه واحدةً إلى الكردي كما تلاطف الرؤساء مؤاكليهم، فأخذها الكردي فجعل يضحك، فتعجب الراسبي من ذلك وقال: ما سبب هذا الضحك وما جرى ما يوجبه؟ فقال: خبر كان لي، فقال: أخبرني به، فقال: شيء ظريف ذكرته لما رأيت هذه. قال: فما هو؟ قال: كنت أيام قطع الطريق قد اجتزتُ في المحجة الفلانية في الجبل الفلاني وأنا وحدي في طلب من آخذ ثيابه، فاستقبلني رجل وحده، فاعترضته وصحن عليه فاستسلم إلي ووقف، فأخذتُ ما كان معه وطالبتُه أن يتعرّى ففعل ومضى لينصرف، فخفتُ أن يلقاه في الطريق من يستفزه علي فأُطلب وأنا وحدي فأُوخذ، فقبضتُ عليه وعلوتُه بالسيف لأقتله، فقال: يا هذا أي شيءٍ بيني وبينك؟ أخذتَ ثيابي ولا فائدة لك في قتلي، فكتفتُه ولم ألتفت إلى قوله، وأقبلت أقنِّعُه بالسيف، فالتفتَ كأنه يطلب شيئاً فرأى حجلةً قائمةً على الجبل فصاح: يا حجلة اشهدي لي عند الله تعالى أني أُقتَلُ مظلوماً، فما زلتُ أضربه حتى قتلتُه، وسرت فما ذكرتُ هذا الحديثَ حتى رأيتُ هذه الحجلة، فذكرتُ حماقةَ هذا الرجل فضحكت، فانقلب عينا الراسبيِّ في رأسه حَرَدا وقال: لا جَرَمَ والله إن شهادة الحجلة عليك لا تضيعُ اليومَ في الدنيا قبلَ الآخرة، وما آمنتك إلا على ما كان منك من إفساد السبيل، فأما الدماء فمعاذَ الله أن أُسقطَها عنك يابن الفاعلة بالأمان، وقد أجرى الله على لسانك الإقرارَ عندي. يا غِلمانُ اضربوا عنقَه، قال: فبادر الغلمان إليه بسيوفهم يخبطونه حتى تدحرج رأسه بين أيديهم على المائدة وجُرّتْ جثتُه، ومضى الراسبيُّ حتى أتم غداءَه.

قال قال أبو عليٍ: حضرت أبا محمدٍ في وزارته، وقد دفع إليه شاعر رقعة صغيرة فقرأها وضحك وأمر له بألف درهمٍ، وطرح الرقعة فقرأتُها وإذا فيها:

يـا مـن إليـه النَّفْـعُ والضُّـرُّ

قـد مَسّ حـالَ عبيـدِلكَ الضُّرُّ

لا تتركـنّ الدهـرَ يظلمنـي
مـا دام يقبـل قولَـكَ الدهـرُ

قال إبراهيم بن هلالٍ الصابئ: كان أبو محمدٍ يخاطب بالأستاذية. قال أبو عليٍ: كنت في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائةٍ ببغداد، فحضر أول يومٍ من شهر رمضان، فاصطحبت أنا وأبو الفتح عبد الواحد بن أبي عليٍ الحسين بن هارون الكاتب في دار أبي الغنائم الفضل بن الوزير أبي محمدٍ المهلبي لنهنئه بالشهر، عند تَوَجُّه أبيه إلى عُمَانَ، وبلغ أبو محمدٍ إلى موضعٍ من أنهار البصرة يعرف بعلياباذ، ففترتْ نِيّتُه عن الخروج إلى عُمَان، واستوحش مُعِزُّ الدولة منه وفسد رأيه فيه، واعتلّ المهلبي هناك، ثم أمره معز الدولة بالرجوع من علياباذ، وألا يتجاوزه، وقد اشتدت علته والناس بين مُرْجِفٍ بأنه يُقْبَض عليه إذا حصل بواسط أو عند دخوله إلى بغداد، وقوم يرجفون بوفاته، وخليفته إذ ذاك على الوزارة ببغداد: أبو الفضل العباس بن الحسين بن عبد الله، وأبو الفرج محمد بن العباس بن فسانجس، فجئنا إلى أبي الغنائم، ودخلنا إليه وهو جالس في عرضيِّ داره التي كانت لأبيه على دجلة على الصراة عند شباك على دجلة، وهو في دست كبير عالٍ جالس، وبين يديه الناس على طبقاتهم، فهنأناه بالشهر وجلسنا، وهو إذا ذاك صبي غير بالغ إلا أنه محصل، فلم يلبث أن جاءه أبو الفضل وأبو الفرج فدخلا إليه وهنآه بالشهر، فأجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره على طرف دسته في الموضع الذي فيه فضلة المخاد إلى الدست، ما تحرك لأحدهما ولا انزعج ولا شاركاه في الدست، وأخذا معه في الحديث، وزادت مطاولتهما، وأبو الفضل يستدعي خادم الحرم فيسارُّه فيمضي ويعود ويخاطبه سراً، إلى أن جاءه بعد ساعةٍ فسارّه فنهض، فقال له أبو الفرج: إلى أين يا سيدي؟ فقال: أهنئ من يجب تهنئته وأعود إليك، وكان أبو الفضل زوج زينة ابنة أخت أبي الغنائم من أبيه وأمه تجنّي، فحين دخل واطمأن قليلاً وقع الصراخ وتبادر الخدم والغلمان، ودعي الصبي وكان يتوقع أن يرد عليه خبر موت أبيه، لأنه كان عالماً بشدة علته، فقام فأمسكه أبو الفرج وقال: اجلس - وقبض عليه - وخرج أبو الفضل وقد قبض على تجنّي أم الصبي ووكّل بها خدماً وختم الأبواب، ثم قال للصبي: قم يا أبا الغنائم إلى مولانا - يعني معز الدولة - فقد طلبك، وقد مات أبوك، فبكى الصبي وسعى إليه وعلق بدرّاعته وقال: يا عم اللّٰهَ اللّٰهَ في - يكررها - فضمه أبو الفضل إليه واستعبر وقال: ليس عليك بأس ولا خوف، وانحدروا إلى زبازبهم، فجلس أبو الفرج في زبزبه، وجلس أبو أبو الفرج

في زبزبه وأجلس الغلام بين يديه، وأصعدت الزبازب تريد معز الدولة بباب الشماسية، فقال أبو الفتح بن الحسين بن هارون: ما رأيتُ مثل هذا قط ولا سمعت، لعن الله الدنيا، أليس الساعة كان هذا الغلام في الصدر معظماً وخليفتا أبيه بين يديه، وما افترقا حتى صار بين أيديهما ذليلاً حقيراً، ثم جرى من المصادرات على أهله وحاشيته ما لم يجر على أحدٍ.[1]

ومن الأدباء والعلماء العمانيين الذين ترجم لهم ياقوت الحموي في معجمه محمد بن دريد. يقول فيه:

محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية ابن حنتم بن حمامي بن واسع بن وهب بن سلمة بن حنتم ابن حاضر بن جشم بن ظالم بن أسد بن عدي بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهير - ويقال: زهران - ابن كعب بن الحارث بن عبد الله بن مالك بن نضر بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان؛ مات يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة، وفي هذا اليوم مات أبو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي فقيل: مات علما اللغة والكلام ودفنا جميعاً في مقبرة الخيزران.

وقال المرزباني: دفن بالعباسية من الجانب الشرقي في ظهر سوق السلاح من الشارع الأعظم. وقال التنوخي ورجاله: دفن ابن دريد بظهر السوق الجديد المعروفة بمقابر العباسية من الجانب الشرقي.

ومولده بالبصرة في سكة صالح في خلافة المعتصم سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وبالبصرة تأدب وعلم اللغة وأشعار العرب، وقرأ على علماء البصرة ثم صار إلى عُمان فأقام بها مدة، ثم صار إلى جزيرة ابن عمر ثم صار إلى فارس فسكنها مدة ثم قدم بغداد فأقام بها إلى أن مات.

وحدث أبو بكر بن علي قال: أبو بكر بن دريد بصري المولد ونشأ بعُمان وتنقل في جزائر البحر والبصرة وفارس وطلب الأدب وعلمَ العربية، وكان أبوه من الرؤساء وذوي اليسار، وورد بغداد بعد أن أسنّ فأقام بها إلى آخر عمره. وروى عن عبد الرحمن بن أخي الأصمعي وأبي حاتم السجستاني، وأبي الفضل الرياشي. وكان رأسَ أهل العلم. وروى عنه خلق منهم أبو

١. ياقوت الحموي. معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، ج٣ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣)، ص ٩٨٢-٩٩٢.

سعيد السيرافي، وأبو عبيد الله المرزباني، وأبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، وله شعر كثير، ورَوى من أخبار العرب وأشعارهم ما لم يروه كثير من أهل العلم.

وقال أبو الطيب اللغوي في كتاب مراتب النحويين عند ذكر ابن دريد: هو الذي انتهت إليه لغة البصريين، وكان أحفظَ الناس وأوسعَهم علماً وأقدرَهم على شِعْر، وما ازدحم العلم والشِّعْر في صدر أحد ازدحامَهما في صدر خَلَفٍ الأحمر وابنِ دريد. وتصدر ابنُ دريد في العلم ستين سنة. وأول شعر قاله:

ثَـوبُ الشَـبابِ عَلَـيَّ اليَـومَ بَهجَتُـهُ
فَسَـوفَ تَنزَعُـهُ عَنّـي يَـدُ الكِبَـرِ
أَنا اِبنُ عِشـرينَ لا زادَت وَلا نَقُصَت
إِنَّ اِبنَ عِشرينَ مِن شَيبٍ عَلى خَطَرِ

وكان يقال: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء. قال الخطيب: وقال محمد بن دريد: كان أولَ من أسلم من آبائي حمامي وهو من السبعين راكباً الذين خرجوا مع عمرو بن العاص من عمان إلى المدينة لما بلغهم وفاة رسول الله صلى الله عليهم وسلم حتى أدوه وفي ذلك يقول قائلهم:

وَفَينـا لعمـرو يـومَ عمـروٌ كأنـه
طريـدٌ نَفَتْـه مَذحِـجٌ والسّكاسِـكُ

وحدث أبو علي التنوخي قال: حدثني جماعة أن ابن دريد قال: كان أبو عثمان الأَشْنَانْدَانِيّ معلمي، وكان عمي الحسينُ ابن دريد يتولى تربيتي، فكان إذا أراد الأكل استدعى أبا عثمان ليأكل معه، فدخل يوماً عمي وأبو عثمان يُروِّيني قصيدة الحارث بن حلزة التي أولها:

آذَنَتْنا ببينِها أسْماءُ

فقال لي عمي: إذا حفظتَ هذه القصيدة وهبتُ لك كذا وكذا، ثم دعا المعلم ليأكل معه فدخل إليه فأكلا وتحدثا بعد الأكل ساعة، فإلى أن رجع المعلم حفظتُ ديوان الحارث بن حلزة بأسره فخرج المعلم فعرّفتُه ذلك فاستعظمه وأخذ يعتبره علي فوجدني قد حفظته، فدخل إلى عمي فأخبره فأعطاني ما كان وعدني به.

قال الخطيب عمن رأى ابن دريد إنه قال: كان ابن دريد واسعَ الحفظ جداً ما رأيتُ أحفظ منه وكانت تُقرأ عليه دواوينُ العرب كلُّها أو أكثرُها فيسابق إلى إتمامها وتحفظها، وما رأيتُه قط قُرِئ عليه ديوانُ شاعر إلا وهو يسابق إلى روايته لحفظه له. قال: وسُئِل عنه الدارقطني فقال: قد تكلموا فيه. قال: وقال أبو ذر عبد الله بن أحمد الهروي: سمعتُ ابنَ شاهين يقول: كنا ندخل على ابن دريد ونستحي منه لما نرى من العيدان المعلقة، والشراب المصفى موضوع وقد كان جاوز التسعين سنة. هذا كله من كتاب أبي بكر بن علي.

وقال أبو منصور الأزهري في مقدمة كتاب التهذيب: وممن ألّف في زماننا الكتبَ فرُميَ بافتعال العربية وتوليد الألفاظ وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامها: أبو بكر محمد بن دريد صاحب كتابِ الجمهرة، وكتابِ اشتقاق الأسماء، وكتابِ الملاحن، وقد حضرتُه في داره ببغداد غيرَ مرة فرأيتُه يروي عن أبي حاتم والرياشي وعبدِ الرحمن بن أخي الأصمعي، وسألت إبراهيمَ بن محمد بنَ عرفة عنه فلم يعبأ به ولم يُوثّقه في روايته، وألفيتُه أنا على كبر سنِّه سكرانَ لا يكاد يستمر لسانُه على الكلام من سُكره، وقد تصفحتُ كتابَه الذي أعاره اسم الجمهرة فلم أرِدْ لا على معرفة ثاقبة ولا قريحة جيدة، وعثرتُ من هذا الكتاب على حروف كثيرة أنكرتها ولم أعرف مخارجها فأثبتها في كتابي في مواقعها منه لأبحث أنا وغيري عنها.

وقال أبو ذر الهروي: سمعتُ أبا منصور الأزهري يقول: دخلتُ على ابن دريد فرأيتُه سكرانَ فلم أعد إليه. وقال غير أبي منصور: كان ابن دريد قد أملى الجمهرة في فارس ثم أملاها بالبصرة وببغداد من حفظه قال: فلذلك قلما تتفق النسخ وتراها كثيرة الزيادة والنقصان، والنسخة التي عليها المعول هي الأخيرة، وآخر ما صح من النسخ: نسخة أبي الفتح عبيد الله بن أحمد النحوي لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه.

وحدث المرزباني قال: قال ابن دريد: خرجت أريد زهران بعد دخول البصرة فمررت بدار كبيرة قد خربت فكتبتُ على حائطها:

أصبحـوا بعـد جميـعٍ فِرَقـاً
وكـذا كلُّ جميـعٍ مُفْتَـرِقْ

فمضيتُ ورجعت فإذا تحته مكتوب:

ضحكـوا والدهـرُ عنهـم صامـتٌ
ثـم أبكاهـم دمـاً حيـن نطقْ

قال: وخرجنا نريد عُمَان في سفر لنا فنزلنا بقرية تحت نخل فإذا بفاختتينِ تزقوان فسنح لي أن قلت:

أقـولُ لوَرْقاوَيْـنِ فـي فـرْعِ نخلـةٍ
وقـد طفّـل الإمسـاءُ أو جَنَـح العَصْـرُ
وقـد بسـطتْ هاتـا لتلـكَ جناحَهـا
ومـرّ علـى هاتيكَ مـن هـذه النّحْرُ
لِيَهْنَكُمَـا أنْ لـم تُراعـا بفُرْقـةٍ
وما دَبّ في تشـتيتِ شَـمْلِكما الدهرُ
فلـم أرَ مثلـي قطّـع الشـوقُ قلبَـه
علـى أنـه يَحكـي قسـاوتَه الصخـرُ

قال: وأخبرني محمد بن الحسن بن دريد قال: سقطت من منزلي بفارس فانكسرت تَرْقُوتي فسهرتُ ليلي فلما كان في آخر الليل حملتني عيناي فرأيت في نومي رجلاً طويلاً أصفر الوجه كوسجا دخل علي وأخذ بعضادتي الباب وقال: أنشدني أحسن ما قلتَ في الخمر. فقلت: ما ترك أبو نواس شيئاً. فقال: أنا أشعر منه. فقلت: ومن أنت؟ قال: أبو ناجية من أهل الشام ثم أنشدني:

وحمـراءَ قبـل المـزج صفـراءَ بعـده
بـدتْ بين ثوْبَيْ نَرْجِسٍ وشَـقَائِقِ
حكـتْ وَجْنَةَ المَعشـوقِ صِرْفـاً فسـلّطوا
عليهـا مِزَاجاً فاكتسـتْ لوْنَ عاشِـقِ

فقلت له: أسأت. قال ولم؟ قلت: لأنك قلتَ وحمراءَ فقدّمتَ الحمرة ثم قلت: بدت بين ثوبي نرجس وشقائق، فقدّمتَ الصفرة، فألا قدمتها على الأخرى كما قدمتها على الأولى؟ فقال: وما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بغيض؟.

وحدث قال: كتب ابن دريد إلى ابن أبي علي أحمد بن محمد بن رستم:

حِجَابُـكَ صعـبٌ يُجْبَـهُ الحُـرُّ دونـه
وقلبـي إذا سِـيم المذلـةَ أصعـبُ
ومـا أزعجتنـي نحـو بابـكَ حاجـةٌ
فأجشِـمُ نفسـي رجعةَ حين أُحْجَبُ

وحدث أيضاً قال: وعد أبو بكر أبا الحسين عُمَرَ بن محمد ابنَ يوسف القاضي أن يصير إليه فقطعه المطر فكتب إليه أبو بكر:

مُناويـكَ فـي بـذلِ النَّـوَالِ وإنـه
ليَعْجَـزُ عـن أدنـى مَـدَاكَ ويَحْسِـرُ
عَدَانـيَ عن حَظّي الـذي لا أبيعُه
بأنْفَـسِ مـا يَحْظـى بـه المُتَخيِّـرُ
لُـمِ الغيـثَ واعـذرْ مَـنْ لقاؤكَ عنده
يُعـادِلُ نَيْـلَ الخُلْـد بـل هـو أكبـرُ

فأجابه أبو الحسين:

على الرَّسْلِ في بِرّي فقد عَظُم الشُّكْرُ
ولـم أَلُـكَ ذا شُـكرٍ وإن جـلّ مـا يعـرو
مدائـحُ مثـل الغيـثِ جـادت عيونُهـا
سَـحَابٌ توالـى مـن جوانبهـا قَطْـرُ

ومن شعر أبي بكر بن دريد:

عانقتُ منه وقد مال النعاسُ به
والكأسُ تُقسَمُ سُكْراً بين جُلاسي
ريحانةً ضُمِّخت بالمِسْكِ ناضرةً
تمجُّ بَرْدَ الندى في حَرِّ أنفاسي

وله يرثي عبد الله بن عمارة:

بنفسي ثَرًى ضاجعتَ في بيته البِلى
لقد ضمّ منكَ الغيثَ والليثَ والبدرا
فلو أنّ حيّا كان قبراً لميّتٍ
لصيّرتُ أحشائي لأعظُمِه قَبْرا
ولو أنّ عمري كان طوعَ إرادتي
وساعدني المِقْدارُ قاسمتُكَ العُمْرا
وما خلتُ قبراً وهو أربعُ أذرعٍ
يضمُّ ثِقالَ المُزْنِ والطودَ والبَحْرا

وحدث الخطيب فيما أسنده إلى إسماعيل بن سويد: أن سائلاً جاء إلى ابن دريد فلم يكن عنده غير دنّ نبيذ فوهبه له فجاء غلامه وأنكر عليه ذلك فقال: أيَّ شيء أعمل؟ لم يكن عندي غيره، ثم تلا قوله تعالى: (لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ). فما تم اليوم حتى أُهْدي له عشرةَ دِنَان، فقال الغلام: تصدقنا بواحد وأخذنا عشرة.

وقال جحظة يرثيه:

فقدتُ بابنِ دريد كلَّ منفعةٍ
لما غدا ثالثَ الأحجار والتُّرَبِ

وكنـتُ أبكـي لفقـد الجـود مجتهـداً
فصـرتُ أبكـي لفقـد الجـود والأدَبِ

وقال محمد بن إسحاق: ولابن دريد من الكتب: كتاب الجمهرة في اللغة. كتاب المجتنى. كتاب الأمالي. كتاب اشتقاق أسماء القبائل. كتاب الملاحن. كتاب المقتبس. كتاب المقصور والممدود. كتاب الوشاح على حذو المُحَبَّر لابن حبيب. كتاب الخيل الكبير. كتاب الخيل الصغير. كتاب الأنواء. كتاب السلاح. كتاب غريب القرآن لم يتم. كتاب فعلت وأفعلت. كتاب أدب الكاتب. كتاب تقويم اللسان على مثال كتاب ابن قتيبة ولم يجرده من المسودة فلم يخرج منه شيء يعول عليه. كتاب المطر.

وقال أبو الحسن الدريدي: حضرت وقد قرأ أبو علي بن مقلة وأبو حفص كتابَ المفضلِ بنِ سلمة الذي يردُّ فيه على الخليل بن أحمد، على أبي بكر بن دريد فكان يقول: صدق أبو طالب، في شيء إذا مر به، وكذب أبو طالب، في شيء آخر، ثم رأيت هذا الكلام وقد جمعه أبو حفص في نحو المئة وَرَقة وترجمه بالتوسط.

ومن شعر ابن دريد:

وقـد أَلِفَـتْ زُهْـرُ النجـومِ رعايتـي
فإن غبتُ عنهـا فهي عني تسـألُ
يُقابـلُ بالتسـليم منهـنّ طالـعٌ
ويُومـئ بالتوديـع منهـنّ آفِـلُ

وأما مقصورة ابن دريد المشهور فإنه قالها يمدح بها الأمير أبا العباس إسماعيلَ بنَ عبد الله بنَ محمد بنَ ميكال بنَ عبد الواحد بن جبريل بن القاسم بن بكر بن ديواستي، وهو سَوْر بن سَوْر بن سور بن سور-أربعة الملوك، ابن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور. قالها فيه وفي أبيه، وكان الأمير أبو العباس رئيسَ نيسابور ومتقدِّمَها.

وذكر أبو علي البيهقي المعروف بالسلامي في كتاب النتف والطرف: أن ابن دريد صنف كتاب الجمهرة للأمير أبي العباس إسماعيل بن عبد الله ابن ميكال أيام مقامه بفارس فأملاه عليه

إملاء ثم قال: حدثني أبو العباس الميكالي قال: أملى علي أبو بكر الدريدي كتابَ الجمهرة من أوله إلى آخره حفظاً في سنة سبع وتسعين ومئتين، فما رأيته استعان عليه بالنظر في شيء من الكتب إلا في باب الهمزة واللفيف فإنه طالع له بعض الكتب قال: وكفاك بها فضيلة وعجيبة أن يتمكن الرجل من علمه كل التمكن ثم لا يسلم مع ذلك من الألسن حتى من قيل فيه:

ابـنُ دُرَيْـدٍ بقَـرَهْ
وفيـه عِـيٌّ وشَـرَهْ
ويدّعـي مـن حُمْقِـه
وضـعَ كتـابِ الجَمْهَـرَهْ

وهو كتابُ العَيْنِ إلا أنه قد غيّرَهْ

وقد ذكرت هذه الحال في أخبار أبي العباس إسماعيل ابن عبد الله بأبسط من هذا. وكتب ابن دريد إلى عيسى بن داود الجرّاح الوزير:

أبـا حَسَـنٍ والمـرءُ يُخْلَـقُ صـورةً
تُخبِّـرُ عمّـا ضُمِّنَتْـه الغرائـزُ
إذا كنـتَ لا تُرْجَـى لنَفْـعٍ مُعَجّـل
وأمرُلـكَ بين الشـرقِ والغـربِ جائزُ
ولـم تـلـكُ يـومَ الحَشـر فينـا مُشَـفَّعاً
فـرأيُ الـذي يرجـوكَ للنفـعِ عاجـزُ
عليَّ بنَ عيسـى خيرُ يومَيْكَ أن تُرى
وفضلُـكَ مأمـولٌ ووَعْـدُك ناجِـزُ
وإنّي لأخشـى بعـد هذا بأن تُرى
وبين الذي تَهْوى وبينك حاجِزُ

قرأت بخط أبي سعد السمعاني من المذيل بإسناد أن ابن دريد قال:

وَدّعْتُـه حيـن لا تُودِّعُـه
روحـي ولكنّهـا تسـير مَعَـهْ
ثـم افترقْنـا وفـي القلـوب لنا
ضيقُ مكانٍ وفي الدموعِ سَعَهْ

قال أبو هلال: أخبرنا أبو أحمد قال: كنا في مجلس ابن دريد وكان يتضجّر ممن يخطئ في قراءته، فحضر غلام وضيئ فجعل يقرأ ويكثر الخطأ وابن دريد صابر عليه، فتعجب أهل المجلس فقال رجل منهم: لا تعجبوا فإن في وجهه غفرانَ ذنوبه، فسمعها ابن دريد فلما أراد أن يقرأ قال له: هاتِ يا من ليس في وجهه غفرانُ ذنوبه، فعجبوا من صحة سمعه مع عُلوِّ سنه.
قال: وقال بعضهم في مجلس ابن دريد:

مَـنْ يكنْ للظبـاءِ طالـبَ صيدٍ
فعليـه بمجلـسِ ابـنِ دريـدِ
إنّ فيـه لأوجهـاً قيّدتنـي
عن طِلابِ العُلا بأوثقِ قَيْدِ

قال الرصافي: حدثنا بعض أصحابنا قال: حضرت مجلسَ أبي بكر بن دريد وقد سأله بعض الناس عن معنى قول الشاعر:

هجرتُكَ لا قِلىً منّي ولكنْ
رأيتُ بقاءَ وُدِّكَ في الصدودِ
كهَجْرِ الحائماتِ الوِرْدَ لمّا
رأتْ أنّ المنيّة في الوُرودِ
تفيضُ نفوسُها ظمَأً وتخشى
حِمَاماً فهي تنظر من بعيدِ

فقال: الحائم: الذي يدور حول الماء ولا يصل إليه، يقال: حام يحوم حياماً. ومعنى الشعر أن الأيائل تأكل الأفاعي في الصيف فتحمى فتلتهب بحرارتها وتطلب الماء، فإذا وقعت عليه امتنعت من شربه وحامت حوله تتنسّمه، لأنها إن شربته في تلك الحال صادف الماءُ السمَّ الذي في جوفها فتلِفتْ، فلا تزال تدفع بشرب الماء حتى يطول بها الزمان فيسكن ثورانُ السم ثم تشربه فلا يضرها. ويقال: فاظ الميت وفاضت نفسه وفاظت نفسه أيضاً، جائز عند الجميع إلا الأصمعي فإنه يقول: فاظ الميت، فإذا ذكر النفس قال فاضت نفسه بالضاد ولم يجمع بين الظاء والنفس.

وحدث أبو علي المحسن، حدثني أبو القاسم الحسن بن علي بن إبراهيم بن خلاد الشاهد العكبري إمام الجامع فيها، حدثني أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال: كنت بعُمَان مع الصلت بن مالك الشاري، وكانت الشراةُ تدعوه أميرَ المؤمنين، وكانت السّنَة كثيرة الأمطار ودامت على الناس فكادت المنازل أن تتهدم، فاجتمع الناس وصاروا إلى الصلت وسألوه أن يدعو لهم، فأجّل بهم أن يركب من الغد الى الصحراء ويدعو، فقال لي بكرة: لتخرج معي في غد، فبت مفكّرا كيف يدعو، فلما أصبحتُ خرجتُ معه، فصلّى بهم وخطب ودعا فقال: اللهم إنك أنعمتَ فأوفيتَ، وسقيتَ فأرويتَ، فعلى القِيعانِ ومنابتِ الشجر، وحيث النفعُ لا الضرر. فاستحسنتُ ذلك منه.

وقال ابن دريد في النرجس:

عيونٌ ما يُلم بها الرقادُ
ولا يمحو محاسنَها السهادُ
إذا ما الليل صافحها استهلت
وتضحكُ حين ينحسر السوادُ
لها حَدَقٌ من الذهب المُصَفّى
صياغة مَنْ يَدين له العِبَادُ
وأجفانٌ من الدُّرِّ استفادتْ
ضياء مثلُه لا يستفادُ

على قُضُبِ الزبرجد، في ذراها
لأعيـنِ مَـنْ يُلاحظهـا مُـرادُ

قرأت في كتاب التحبير، وهو ما أخبرنا به الشريف افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي إذناً، قال أبو سعد السمعاني إجازة إن لم يكن سماعاً قال: سمعت الأمير أبا نصر أحمدَ بنَ الحسين بنِ أحمد بنِ عبيد الله بنِ أحمد بنِ الميكالي يقول: تذاكرنا المتنزهات يوماً وابن دريد حاضر فقال بعضهم: أنزه الأماكن غوطة دمشق. وقال آخرون: بل نهر الأبلّة، وقال آخرون: بل سُغْدُ سمرقند. وقال بعضهم بل نهروان بغداد. وقال بعضهم: شِعْب بوّان بأرض فارس. وقال بعضهم: نوبهار بلخ. فقال: هذه منتزهات العيون، فأين أنتم عن متنزهات القلوب؟ قلنا وما هي يا أبا بكر؟ قال: عيون الأخبار للقتيبي، والزهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن أبي طاهر، ثم أنشأ يقول:

ومـن تـلـكُ نزهتَـه قينـة
وكأسٌ تحث وكأسٌ تُصَبْ
فنزهتنـا واسـتراحتُنا
تلاقـي العيونِ ودرسُ الكتبْ

وقرأت في التاريخ الذي ألفه أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم عبد المجيد بن بشران الأهوازي قال: وفي سنة أربع وعشرين وثلاثمئة مات أبو أحمد حجر بن أحمد الجويمي وكان من أهل الفضل بجويم ونواحي فارس، وقد خلف القراء بها فمدحه جماعة من الشعراء وقصده من انتفع به، ولأبي بكر بد دريد فيه مدائح منها:

نَهْنِـهْ بـوادرَ دَمْعِكَ المُهْرَاقِ
أيُّ ائتلافٍ لم يُـرَعْ بفِراقِ؟
حجر بن أحمد فارع الشرفِ الذي
خضعـتْ لعزته طُلى الأعناقِ

قبّـلْ أناملَـه فلسـن أنامـلاً

لكنهـنّ مفاتـحُ الأرزاقِ

وانظـرْ إلى النور الذي لـو أنه

للبـدر لـم يُطبع برَيْن مُحاقِ[1]

١. المصدر السابق، ج٦، ص ٢٤٨٩-٢٤٩٩.

المُحَمّدون من الشعراء للقفطي

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يترجم القفطي للعلّامة العماني الشاعر محمد بن دُرَيْد:

محمد بن الحسن بن دُريد أبو بكر الأزدي، الإمام، العلامة، اللغوي، الإخباري، الفاضل، الكامل، الشاعر، شيخ المشايخ، فريد الوقت، نادرة الدّهر، إمام الأمصار، ولد بالبصرة، ونشأ بعُمان، وكان أبوه وأهله من ذوي الشأن بها. ثم تنقل في جزائر البحر وأرض فارس والبصرة، ثم ورد بغداد بعد أن أسنّ، فأقام بها إلى أن توفي بها في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وكان رأس أهل العلم، والمتقدم في الحفظ للغة وأشعار العرب، وهو غزير الشعر، كثير الرواية، سمح الأخلاق، وكانت له نجدة في شبابه وشجاعة، وهو القائل في عمّه الحسين بن دُريد:

نجـم العُـلا بعـدكَ منقـضُّ
وركنـه الأوثَـقُ منهـضُّ
يـا واحـداً لم يبْقِ لي واحـداً
يُرجـى بـه الإبـرامُ والنَّقـضُ
أديل بطن الأرض مـن ظهرها
يـوم حَـوَت جُثمانَـه الأرضُ
ولَّـى الـرَّدى يـومَ تولَّـى به
ووجهُـه أزهـرُ مُبْيَـضُّ

وله:

لـو كنتُ أعلمُ أنّ لحظكِ مُوبقي
لحـذرتُ عن عينيكِ مـا لـم أحـذرِ

لا تحسبي دمعي تحدَّر إنما
روحي جرَتْ في دمعي المُتحدِّرِ
خَبَري خذيه عن الضَّنَى وعن البُكا
ليس اللسانُ وإن تلفْتُ، بمُخْبِرِ

وله يرثي عبد الله بن عمارة:

بنفسي ثرى صافحتُ في بيته البِلَى
لقد ضمّ منكَ الغيثَ والليثَ والبَدْرَا
فلو أن حيّاً كان قبراً لميِّت
لصيَّرتُ أحشائي لأعظمِه قبرا
ولو أن عمري كان طوعَ مشيئتي
وساعدني المقدورُ قاسمتُك العُمْرا

وقال أبو الحسين علي بن أحمد: ولد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بالبصرة في سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ومات عن ثمان وتسعين سنة، وذكر أن ابن دريد قال: سقطتُ من حماري بأرض فارس، فبتّ وجِعاً، فأتاني آتٍ في منامي وقال لي: قلْ في الخمر شيئاً فقلت: وهل ترك أبو نواس لقائل مقالاً؟ قال: أنت أشعر منه حيث تقول:

حكَت وجنةَ المعشوقِ لوناً فسلطوا
عليها مِزاجاً فاكتستْ لونَ عاشقِ

فقلتُ: من أنتَ؟ قال: أنا شيطانك أبو ناجية! قلت: وأين تسكن؟ قال: الموصل. أنبأني زيد بن الحسن الكندي، أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن ابن محمد القزاز، حدثنا أحمد بن علي بن ثابت بن مهدي، أنبأنا علي بن أبى علي حدثنا أحمد بن إبراهيم بن الحسن قال: قال لنا ابن دريد: أنا محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن حنتم بن الحسن بن حماميّ بن جرو ابن واسع بن سلمة بن حاضر بن أسد بن عديّ بن عمرو بن مالك بن فهم- قبيل- ابن غانم بن

دَوس- قبيل- بن عُدثان بن عبد الله بن زهران ابن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد- قبيل- ابن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجُب ابن يعرُب بن قحطان. قال ابن دريد: وحماميُّ هذا أول من أسلم من آبائي من السَّبعين راكباً الذين خرجوا مع عمرو بن العاص من عُمان إلى المدينة لما بلغتهم وفاة رسول الله حتى أدَّوْه؛ وفي هذا يقول قائلهم:

وَفَيْنَا لِعَمْرٍو يَوْمَ عَمْرُو كَأَنَّهُ
طَرِيدٌ نَفَتْهُ مِذحِجٌ وَالسَّكَاسِكُ

وقال ابن دريد: مولدي بالبصرة بسكة صالح، سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وأنشد ابن دريد وقال: هذا أول ما قلته من الشعر:

ثوبُ الشبابِ عليَّ اليوم بهجتُه
وسوف تنزِعُه عني يدُ الكِبَرِ
أنا ابن عشرين ما زادتْ ولا نقصتْ
إنَّ ابن عشرين من شَيبٍ على خطرِ

ومات الجُبَّائيُّ أبو هاشم وابن دريد في يوم واحد. أنبأنا زيد بن الحسن عن أبي منصور القزاز، حدثنا الخطيب، حدثني هبة الله بن الحسن الأديب قال: قرأت بخط المحسِّن بن علي أن ابن دريد لما توفي، حُمِلت جنازته إلى مقبرة الخيزُران ليدفن فيها، وكان قد جاء في ذلك اليوم طشٌّ من مطر، وإذا بجنازة أخرى مع نفر قد أقبلوا بها من ناحية باب الطاق، فنظروا، فإذا هي جنازة أبي هاشم الجُبّائي، فقال الناس: مات علم اللغة والكلام بموت ابن دريد والجُبّائي، ودُفِنا جميعاً بالخيزرانية. وبالإسناد: حدثنا الخطيب قال: حدثني محمد بن علي الصوري، أخبرنا الحسن ابن أحمد بن نصر القاضي، حدثنا أبو العلاء أحمد بن عبد العزيز قال: كنت في جنازة أبي بكر بن دريد وفيها جَحْظَة، فأنشدنا لنفسه:

فقدتُ بابنِ دُرَيْدٍ كُلَّ فائدةٍ
لما غدا ثالثَ الأحجارِ والتُّرَبِ

وكنـتُ أبكـي لفقـدِ الجـودِ مُنْفـرِدًا

فصرتُ أبكي لفقدِ الجـودِ والأدبِ.[1]

ويرد ذكر عمان أيضا حين يترجم القفطي للشاعر الراجز محمد بن ذؤيب:

محمد بن ذؤيب النَّهشَليّ التميمي العُماني الرَّاجز المشهور، يكنَّى أبا العبَّاس وهو من أهل الجزيرة وقيل من ديار مُضَر، وإنَّما خرج إلى عُمان، فأقام بها مدة مديدة، ثم عاد منها فنسب إليها، ويقال إنه عاش مائة وثلاثين سنة. وهو أحد شعراء الرشيد المادحين، وأخباره معه كثيرة، وفيه يقول:

يـا ناعـشَ الجَـدِّ إذا الجَـدُّ عثَرْ

وجابِـرَ العظْـم إذا العظـمُ انكسـرْ

أنـت ربيعـي والرَّبيـع يُنْتَظـرْ

وخيـرُ أنـواعِ الرَّبيـع مـا بَكَـرْ

وله يحثّه على البيعة لابنه القاسم:

قـل للإمـام المقتـدى بأمِّـهِ

ما قاسـم دون مدى ابـن أُمِّهِ

وقد رَضَيْناه فقُم فسَمِّه

وله أيضاً:

إنـي لمَعروفِـكَ غيرُ ناسِ

والشّـكْرُ قِدْما في خِيار النَّاسِ

قلتُ: ومدح العماني الفضل بن الربيع، وعمَّر عمراً طويلاً، فذكر الأصمعي أنه مات وهو ابن ثلاثين ومائة سنة. ويقال: إن أشعر الرُّجاز الرشيديين أربعة: العُماني أوّلهم. أنبأنا ابن طبرزد

١. علي بن يوسف القفطي. المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تحقيق: حسن معمري وحمد الجاسر (جامعة باريس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٧٠)، ص٢٠١-٢٠٤.

عمر قال: أخبرنا محمد ابن عبد الملك بن خيرون المقري قال: حدثنا ابن ثابت قال: قرأت على الحسن بن علي الجوهري عن أبي عبد الله المرزباني قال: أخبرنا محمد بن العباس، حدثنا محمد بن يزيد النحوي قال: دخل محمد بن ذؤيب العُماني على الرشيد، فأنشده أرجوزة وصف فيها فرساً شبّه أُذنيه بقلم محرّف فقال:

كأنّ أُذْنَيْـه إذا تشـوَّقا

قادِمـةً أو قلمـاً محرَّفـاً

فقال له الرشيد: دَعْ "كأنَّ" وقُلْ: "تخال" حتى يستوي الإعراب.[1]

١. المصدر السابق، ص ٢٢٢-٢٢٣.

وفيات الأعيان لابن خلكان

مما رواه ابن خلكان في كتابه هذا ترجمته للعلامة العماني محمد بن دريد:

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن حنتم بن حسن بن حمامي بن جرو بن واسع بن وهب بن سلمة ابن حاضر بن أسد بن عدي بن عمرو بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، الأزدي اللغوي البصري إمام عصره في اللغة والآداب والشعر الفائق؛ قال المسعودي في كتاب مروج الذهب في حقه:وكان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر، وانتهى في اللغة، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين، وكان يذهب بالشعر كل مذهب، فطورا يجزل وطورا يرق، وشعره أكثر من أن نحصيه أو نأتي على أكثره أو يأتي عليه كتابنا هذا، فمن جيد شعره قصيدته المشهورة بالمقصورة التي يمدح بها الشاه ابن ميكال وولده، وهما عبد الله بن محمد بن ميكال وولده أبو العباس إسماعيل بن عبد الله، ويقال إنه أحاط فيها بأكثر المقصور، وأولها:

إمّـا تَـرَيْ رَأسِـيَ حاكـي لَونُـهُ
طُـرَّةَ صُبـحٍ تَحـتَ أَذيـالِ الدُجـى
وَاِشـتَعَلَ المُبيَـضُّ فـي مُسـوَدِّهِ
مِثـلَ اِشـتِعالِ النـارِ فـي جَزلِ الغَضى

ثم قال المسعودي: وقد عارضه في هذه القصيدة المعروفة جماعة من الشعراء منهم أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم الأنطاكي التنوخ، وعدد جمعا ممن عارضها.

قلت أنا: وقد اعتنى بهذه المقصورة خلق من المتقدمين والمتأخرين، وشرحوها وتكلموا

على ألفاظها، ومن أجود شروحها وأبسطها شرح الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن هشام ابن إبراهيم اللخمي السبتي، وكان متأخرا توفي في حدود سنة سبعين وخمسمائة، وشرحها الإمام أبو عبد الله محمد ابن جعفر المعروف بالقزاز صاحب كتاب الجامع في اللغة - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى - وشرحها غيرهما أيضا.

ولا بن دريد من التصانيف المشهورة كتاب الجمهرة وهو من الكتب المعتبرة في اللغة، وله كتاب الأشتقاق وكتاب السراج واللجام وكتاب الخيل الكبير، وكتاب الخيل الصغير، وكتاب الأنواء وكتاب المقتبس وكتاب الملاحن وكتاب زوار العرب وكتاب اللغات وكتاب السلاح وكتا بغريب القرآن لم يكمله،وكتاب المجتبى وهو مع صغر حجمه كثير الفائدة،وكذلك الوشاح صغير مفيد.

وله نظم رائق جدا، وكان من تقدم من العلماء يقول: ابن دريد أعلمُ الشعراءِ وأشعرُ العلماء. فمن أول شعر قاله قوله:

ثـوبُ الشـبابِ علـي اليـومَ بهجتُـه
وسـوف تَنْزِعُـه عنـي يَـدُ الكِبَـرِ
أنـا ابنُ عشـرينَ مازادتْ ولانَقَصَتْ
إنّ ابنَ عِشْرينَ مِنْ شَيْبٍ على خَطَرِ

ومن مليح شعره قوله:

غـرَّاء لـو جلـت الخُـدودُ شُـعاعَها
للشَّـمْس عنـد طُلُوعهـا، لـم تُشْـرقِ
غُصْـن علـى دعْـصٍ تـأوّدَ فوقـه
قمـرٌ تألَّـق تحـت ليـل مُطبـقِ
لـو قيـل للحُسْـن: احتكـم لـم يعْدُهـا
أو قيـل: خاطـبْ غيرهـا! لـم ينْطـقِ

وكأنّنا من فَرْعِها في مغربٍ
وكأنّنا من وَجْهِها في مشرقِ
تبدو فيرمق بالعيون ضياؤها
الويل حلّ بمقلة لم تطبق

ولولا خوف الإطالة لذكرت كثيرا من شعره.

وكانت ولادته بالبصرة في سكة صالح سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ونشأ بها وتعلم فيها، وأخذ عن أبي حاتم السجستاني والرياشي وعبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن أخي الأصمعي وأبي عثمان سعيد بن هارون الأشناندانى صاحب كتاب المعاني وغيرهم، ثم انتقل عن البصرة مع عمه الحسين عند ظهور الزنج وقتلهم الرياشي - كماسبق في ترجمته - وسكن عُمَان وأقام بها اثنتي عشرة سنة، ثم عاد إلى البصرة وسكنها زمانا، ثم خرج إلى نواحي فارس وصحب ابني ميكال، وكانا يومئذ على عمالة فارس، وعمل لهما كتاب الجمهرة وقلداه ديوان فارس، وكانت تصدر كتب فارس عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه، فأفاد معهما أموالا عظيمة، وكان مفيدا مبيدا لا يمسك درهما سخاء وكرما، ومدحهما بقصيدته المقصورة فوصلاه بعشرة آلاف درهم، ثم انتقل من فارس إلى بغداد، ودخلها سنة ثمان وثلثمائة بعد عزل ابني ميكال وانتقالهما إلى خراسان. ولما وصل إلى بغداد أنزله علي بن محمد الحواري في جواره وأفضل عليه، وعرف الإمام المقتدر خبره ومكانه من العلم، فأمر أن يُجرى عليه خمسون دينارا في كل شهر، ولم تزل جارية عليه إلى حين وفاته.

وكان واسع الرواية لم يُرَ أحفظ منه، وكان يُقرأ عليه دواوينُ العرب فيُسابق إلى إتمامها من حفظه، وسُئل عنه الدار قطني، أَثِقَة هو أم لا؟ فقال: تكلموا فيه، وقيل إنه كان يتسامح في الرواية فيسند إلى كل واحد ما يخطر له. وقال أبو منصور الأزهري اللغوي: دخلت عليه فرأيتُه سكران، فلم أعد إليه. وقال ابن شاهينك كنا ندخل عليه ونستحيي مما نرى من العيدان المعلقة والشراب المصفى. وذكر أن سائلا سأله شيئا فلم يكن عنده غيرُ دَنٍّ من نبيذ فوهبه له، فأنكر عليه أحد غلمانه، وقال تتصدق بالنبيذ؟ فقال: لم يكن عندي شيء سواه، ثم أهدي له بعد ذلك عشرة دِنان من النبيذ، فقال لغلامه: أخرجنا دَنًّا فجاءنا عشرة، وينسب إليه من هذه

الأمور شيء كثير.

وعرض له في رأس التسعين من عمره فالج سقي له الترياق فبرئ منه وصح ورجع إلى أفضل أحواله، ولم ينكر من نفسه شيئا ورجع إلى إسماع تلامذته وإملائه عليهم، ثم عاوده الفالج بعد حول لغذاء ضار تناوله، فكان يحرك يديه حركة ضعيفة، وبطل من محزمه إلى قدميه، فكان إذا دخل عليه الداخل ضج وتألم لدخوله وإن لم يصل إليه، قال تلميذه أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي المعروف بالبغدادي - المقدم ذكره -: فكنت أقول في نفسي: إن الله عز وجل عاقبه بقوله في قصيدته المقصورة - المقدم ذكرها - حين ذكر الدهر:

مارَستَ مَنْ لَو هَوَتِ الأَفلاكُ مِن
جَوانِبِ الجَوِّ عَلَيهِ ما شَكا

وكان يصيح لذلك صياح من يمشي عليه أويُسَلُّ بالمَسالِّ، والداخل بعيد منه، وكان مع هذه الحال ثابتَ الذهن كاملَ العقل، يرد فيما يسأل عنه ردا صحيحا؛ قال أبو علي: وعاش بعد ذلك عامين، وكنت أسأله عن شكوكي في اللغة وهو بهذه الحال فيرد بأسرع من النفس بالصواب. وقال لي مرة وقد سألته عن بيت شعر: لئن طفئت شحمتا عيني لم تجد من يشفيك من العلم، قال أبو علي: ثم قال لي: يابني، وكذلك قال لي أبو حاتم وقد سألته عن شيء، ثم قال لي أبو حاتم: وكذلك قال لي الأصمعي وقد سألته. وقال أبو علي: وآخر شيء سألته عنه جاوبني أن قال لي: يابني حال الجريضُ دون القريض، فكان هذا الكلام آخر ماسمعته منه وكان قبل ذلك كثيرا ما يتمثل:

فواحَزَني أن لا حياةٌ لذيذةٌ
ولاعَمَلٌ يرضى به الله صالحُ

وقال المرزباني،قال لي ابن دريد: سقطت من منزلي بفارس، فانكسرت ترقوتي، فسهرت ليلتي، فلما كان آخر الليل غمضت عيني فرأيت رجلا طويلا أصفر الوجه كوسجا دخل علي وأخذ بعضادتي الباب وقال: أنشدني أحسن ما قلت في الخمر، فقلت: ما ترك أبو نواس لأحد شيئا، فقال: أنا أشعر منه، فقلت: ومن أنت؟ فقال: أنا أبو ناجية من أهل الشام، وأنشدني:

وحمـراءَ قبـل المـزجِ صفـراءَ بعـده
أتتـ بيـن ثوبي نرجسٍ وشـقائقِ
حكتـ وَجنةَ المعشـوقِ صِرْفًـا فسـلطوا
عليهـا مِزاجا فاكتسـتْ لونَ عاشـقِ

فقلت له: أسأت، فقال: ولم؟ قلت: لأنك قلت وحمراء فقدمت الحمراء ثم قلت بين ثوبي نرجس وشقائق فقدمت الصفرة، فهلا قدمتها على الأخرى، فقال: ما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يابغيض؟

وجاء في رواية أخرى أن الشيخ أبا علي الفارسي النحوي قال: أنشدني ابن دريد هذين البيتين لنفسه، وقال: جاءني إبليس في المنام وقال: أغرت على أبي نواس؟فقلت: نعم فقال: أجدت إلا أنك أسأت في شيء، ثم ذكر بقية الكلام إلى آخره، والله أعلم.

وتوفي يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ببغداد، رحمه الله تعالى، ودفن بالمقبرة المعروفة بالعباسية من الجانب الشرقي في ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم. وتوفي في ذلك اليوم أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجُبّائي المتكلم المعتزلي - المقدم ذكره - فقال الناس: اليوم مات علم اللغة والكلام. ويقال إنه عاش ثلاثا وتسعين سنة لاغير، ورثاه جحظة البرمكي - المقدم ذكره -بقوله:

فقـدتُ بابـنِ دُرَيْـدٍ كلَّ فائـدةٍ
لمـا غـدا ثالـثَ الأحجـارِ والتُّـرَبِ
وكنـتُ أبكـي لفقـدِ الجـودِ منفـردًا
فصـرتُ أبكـي لفقـدِ الجـود والأدبِ

التُّرَب :بفتح الراء، جمع تُرْبة.

ودُرَيْد: بضم الدال المهملة وفتح الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، وهو تصغير أدْرَد: الذي ليس فيه سن، وهو تصغيرُ ترخيمٍ، وإنما سمي هذا التصغير ترخيما

لحذف حرف الهمزة من أوله كما تقول في تصغير أسود: سويد، وتصغير أزهر: زهير.

وعَتَاهية: بفتح العين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعد الألف هاء مكسورة وياء مفتوحة مثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة.

وحَنْتَم: بفتح الحاء المهملة وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها ميم، والأصل في الحنتم الجرة المدهونة الخضراء وبها سمي الرجل.

وحَمَامِي: بفتح الحاء المهملة والميم الخفيفة وبعد الألف ميم مكسورة ثم ياء، قال الأمير أبو نصر ابن ماكولا: هو أول من أسلم من آبائه. وبقية النسب معروف. وحَمَامِي من جملة السبعين راكبا الذين خرجوا مع عمرو بن العاص من عُمَانَ إلى المدينة لما بلغهم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقصة مشهورة وقد تقدم الكلام على الأزدي.

وقوله "حال الجَريضُ دون القريض" هذا مثل مشهور وأول من نطق به عبيد بن الأبرص أحد شعراء الجاهلية لما لقي النعمان بن المنذر اللخمي آخر ملوك الحيرة في يوم بؤسه وعزم على قتله، وكان ذلك عادته، فأحس به عبيد فاستنشده شيئا من شعره، فقال له: حال الجريض دون القريض فسارت مثلا، والجريض: بفتح الجيم وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها ضاد معجمة، هو الغصة، والقريض: الشعر، فكأنه قال: حالت الغصة دون إنشاد الشعر، وهذه القصة مشهورة، فاقتصرت منها على ذكر خلاصتها.[1]

ونجد في وفيات الأعيان أيضا ترجمة مختصرة للعلّامة العماني الخليل بن أحمد الفراهيدي. يقول:

أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ويقال: الفرهودي الأزدي اليحمدي؛ كان إماماً في علم النحو، وهو الذي استنبط علم العَرَوض وأخرجه إلى الوجود وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً، ثم زاد فيه الأخفش بحراً آخر وسماه الخبب. وقيل إن الخليل دعا بمكة أن يُرْزَقَ علماً لم يسبقه أحد إليه ولا يؤخذ إلا عنه، فرجع من حَجِّه ففُتِح عليه بعلم العَرَوض، وله معرفة بالإيقاع والنغم، وتلك المعرفة أحدثت له

١. أبو العباس أحمد بن خلكان.وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج٤ (بيروت: دار صادر، ١٩٧٨)، ص٣٢٣-٣٢٩.

علم العَروض، فإنهما متقاربان في المأخذ.

وقال حمزة بن الحسن الأصبهاني في حق الخليل بن أحمد في كتابه الذي سماه " التنبيه على حدوث التصحيف": " وبعد، فإن دولة الإسلام لم تُخرِجْ أبدعَ للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العَروض الذي لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدمه احتذاه، وإنما اخترعه من ممر له بالصَّفّارِين من وقع مطرقة على طَسْت ليس فيهما حجة ولا بيان يؤديان إلى غير حليتهما أو يفيدان غير جوهرهما، فلو كانت أيامه قديمة ورسومه بعيدة لشك فيه بعض الأمم لصنعته ما لم يصنعه أحد منذ خلق الدنيا من اختراعه العلم الذي قدمت ذكره، ومن تأسيسه بناء كتاب " العين " الذي يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة، ثم من إمداده سيبويه من علم النحو بما صنف منه كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام"، انتهى كلامه.

وكان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً، ومن كلامه: لا يَعْلمُ الإنسانُ خطأَ مُعلِّمِه حتى يُجالس غيره. وقال تلميذه النَّضْر بن شُميل: أقام الخليلُ في خُصٍّ من أخصاص البصرة لا يقدر على فَلْسين، واصحابه يكسبون بعلمه الأموال، ولقد سمعتُه يوماً يقول: إني لأُغْلِق علي بابي فما يُجاوزُه هَمّي. وكان يقول: أكمل ما يكون الإنسان عقلاً وذهناً إذا بلغ أربعين سنة، وهي السن التي بعث الله تعالى فيها محمداً صلى الله عليه وسلم، ثم يتغير وينقص إذا بلغ ثلاثاً وستين سنة، وهي السن التي قُبض فيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأصفى ما يكون ذهن الإنسان في وقت السَّحَر.

وكان له راتب على سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، وكان والِيَ فارس والأهواز، فكتب إليه يستدعيه، فكتب الخليل جوابه:

أبْلِغْ سليمانَ أني عنه في سَعَةٍ
وفي غِنى غيرَ أني لستُ ذا مالِ
شُحّاً بنفسيَ أني لا أرى أحداً
يموت هُزْلاً ولا يبقى على حالِ

الرِّزْقُ عن قَدَرٍ لا الضَّعْفُ يُنْقِصُه
ولا يَزيدكَ فيه حَوْلُ مُحتالِ
والفَقْرُ في النفسِ لا في المالِ نَعْرِفُه
ومثلُ ذالكَ الغنى في النفسِ لا المالِ

فقطع عنه سليمانُ الراتبَ فقال الخليل:

إنّ الذي شقّ فمي ضامِنٌ
للرزقِ حتى يتوفّاني
حَرَمْتَني خيراً قليلاً فما
زادكَ في مالِكَ حِرْماني

فبلغت سليمانَ فأقامته وأقعدته، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه، وأضعف راتبَه، فقال الخليل:

وزَلّةٍ يُكْثِرُ الشيطانُ إنْ ذُكِرَتْ
منها التعجبَ جاءتْ من سُليمانا
لا تَعْجَبَنّ لخيرٍ زَلّ عن يدِه
فالكوكبُ النّحْسُ يسقي الأرضَ أحيانا

واجتمع الخليل وعبد الله بن المقفع ليلة يتحدثان إلى الغداة، فلما تفرقا قيل للخليل: كيف رأيت ابنَ المقفع فقال: رأيتُ رجلاً علمُه أكثرُ من عقلِه، وقيل لابن المقفع: كيف رأيتَ الخليلَ قال: رأيتُ رجلاً عقلُه أكثرُ من علمِه.

وللخليل من التصانيف كتاب " العين " في اللغة وهو مشهور، وكتاب " العَروض " وكتاب " الشواهد " وكتاب " النقط والشكل " وكتاب " النغم " وكتاب في العوامل .

وأكثر العلماء العارفين باللغة يقولون: إن كتاب العين في اللغة المنسوبَ إلى الخليل بن

أحمد ليس تصنيفَه، وإنما كان قد شرع فيه ورتب أوائله وسماه ب " العين "، ثم مات فأكمله تلامذته النّضْر بن شُميل ومن في طبقته وهم مؤرج السدوسي ونصر بن علي الجهضمي وغيرهما، فما جاء الذي عملوه مناسباً لما وضعه الخليل في الأول، فأخرجوا الذي وضعه الخليل منه، وعملوا أيضاً الأول، فلهذا وقع فيه خلل كثير يبعد وقوع الخليل في مثله، وقد صنف ابن دُرُسْتُوَيْه في ذلك كتاباً استوفى الكلام فيه، وهو كتاب مفيد.

ويقال: إن الخليل كان له ولد متخلِّف، فدخل على أبيه يوماً فوجده يُقطّع بيت شعر بأوزان العَروض، فخرج إلى الناس وقال: إن أبي قد جُن، فدخلوا عليه وأخبروه بما قال ابنه، فقال مخاطباً له:

لو كنتَ تعلمُ ما أقول عذرتَني
أو كنتَ تعلم ما تقولُ عذلتُكا
لكن جهلتَ مقالتي فعذلتَني
وعلمتُ أنكَ جاهلٌ فعذرتُكا

وقد روي عنه أنه أنشد، ولم يذكر لنفسه أم لغيره:

يقولون لي دارُ الأحِبّة قد دَنَتْ
وأنتَ كئيبٌ، إنّ ذا لعجيبُ
فقلتُ: وما تُغني الديارُ وقربُها
إذا لم يكن بين القلوب قريبُ

ويحكى عنه أنه قال: كان يتردد إلي شخص يتعلم العَروض وهو بعيد الفهم، فأقام مدة ولم يعلق على خاطره شيء منه، فقلت له يوماً: قطع هذا البيت:

إذا لم تستطِعْ شيئاً فدَعْه
وجاوزْه إلى ما تستطيعُ

فشرع معي في تقطيعه على قد معرفته، ثم نهض ولم يعد يجيء إلي، فعجبتُ من فطنته لما قصدته في البيت مع بعد فهمه.

وأخبار الخليل كثيرة، وسيبويه عنه أخذ علوم الأدب - وسيأتي ذكره في حرف العين المهملة إن شاء الله تعالى - . ويقال: إن أباه أحمد أول من سُمي بأحمد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كذا ذكره المرزباني في كتاب " المقتبس " نقلاً عن أحمد بن أبي خيثمة. وكانت ولادته في سنة مائة للهجرة. وتوفي سنة سبعين، وقيل خمس وسبعين ومائة، وقيل عاش أربعاً وسبعين سنة، رحمه الله تعالى. وقال ابن قانع في تاريخه المرتب على السنين: إنه توفي سنة ستين ومائة. وقال ابن الجوزي في كتابه الذي سماه " شذور العقود ": إنه مات سنة ثلاثين ومائة، وهذا غلط قطعاً، لكن نقله الواقدي، ومات بالبصرة - أعني الخليل - وكان سببُ موته أنه قال: أريد أن أقرِّبَ نوعاً من الحِساب تمضي به الجارية إلى البيّاع فلا يمكنه ظلمها، ودخل المسجد وهو يعمل فكره في ذلك، فصدمته سارية وهو غافل عنها بفكره، فانقلب على ظهره، فكانت سببَ موته، وقيل: بل كان يقطّعُ بحراً من العروض.

والفَرَاهيدي - بفتح الفاء والراء وبعد الألف هاء مكسورة ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها وبعدها دال مهملة - هذه النسبة إلى فراهيد، وهي بطن من الأزد، والفرهودي واحدها، والفرهود: ولد الأسد بلغة أزد شنوءة، وقيل: إن الفراهيد صغار الغنم.

واليَحْمدي - بفتح الياء المثناة من تحتها وسكون الحاء المهملة وفتح الميم وبعدها دال مهملة - نسبة إلى يحمد، وهو أيضاً: بطن من الأزد، خرج منه خلق كثير.

ويحكى أن الخليل ينشد كثيراً هذا البيت، وهو للأخطل:

وإذا افتقرتَ إلى الذخائرِ لم تجدْ
ذخراً يكون كصالحِ الأعمالِ[1]

١. المصدر السابق، ج٢، ص٢٤٤-٢٤٨.

نهاية الأرب في فنون الأدب
لشهاب الدين النويري

يرد اسم عمان في هذا الكتاب حين يصف النويري بحري القلزم وفارس. يقول:

ويخرج من هذا البحر الذي يجمع هذه القطع خليجان أحدهما بحر القلزم، والآخر بحر فارس.

فأما خليج القلزم. فخروجه من باب المَنْدَب. وهو جبل طوله اثنا عشر ميلا. وسَعَة فوهته بمقدار أن الرجل يرى صاحبه من البر الآخر. فإذا قارب المندب يمر في جهة الشمال، بغلافقة، والأهواب (وهما ساحلا زبيد) ثم الجَرَدَة، ثم الشَّرْجَة، ثم عَثَّر (وكانت مقر ملك قديم) ثم بالسَّرَّيْن، وحَلْي، وعُسْفَان، والجَارُ (وهي فرضة المدينة) والجُحْفَة، والصَّفْرَاء، والحَوْرَاء، ومَدْيَن، وأيْلَة، والطُّور، وفارَان، ثم القُلْزُم (وكانت مدينة مسكونة، وكذلك أيلة). ومن القُلْزُم ينعطف من جهة الجنوب فيمر بالقُصَيْر (وهي فرضة لقوص) ثم إلى عَيْذَاب (وهي فرضة لبلاد البُجّة)، ثم يمتد إلى زَيْلع (وهي ساحل بلاد الحبشة) ويتصل ببربرا.

وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل. وعرضه في مواضع أربعمائة ميل، ودون ذلك إلى مائتي ميل إلى ما دون ذلك.

وهو بحر كريه المنظر والرائحة.

وفيه فيما بين القلزم وأيلة المكان المعروف بتاران، وهو مكان يشبه دُرْدُورَ عُمَان. لأنه في سفح جبل إذا وقفت الريح على دُرْدُورَته انقطعت بنصفين على شعبتين متقابلتين؛ ثم يخرج من كُمّيْ هاتين الشعبتين، فيثير البحر فتتبلّد السفن باختلاف الريح فلا تكاد تسلم. وهاتان الشعبتان تسميان الجبلين، ومقدار هذا الموضع ستة أميال، ويسمى بركة الغُرْنُدَان. ويقال: إنها التي أغرق الله فرعون وقومه فيها. فإذا كان للجنوب أدنى مهب، فلا يمكن سلوكه.

وفيه من الجزائر خمس عشرة جزيرة، العامر منها أربعة، وهي:

جزيرة دَهْلَك. يحيط بها نحو مائتي ميل؛ ويسكنها قوم من الحبوش، مسلمون.

وجزيرة سواكن. وهي أقل من ميل في ميل. وبينها وبين البحر الحبشي بحر قصير يخاض. وأهلها طائفة من البُجّة تسمى الخاسد وهم مسلمون، ولهم بها ملك.

وجزيرة النُّعْمان. وبها نويس تعيش من لحوم السلاحف.

وجزيرة السامريّ. يسكنها قوم من اليهود، سامرة، في عيش قَشِف.

وأما خليج فارس. فإنه مثلث الشكل على هيئة القِلْع.

أحد أضلاعه من تِيز مُكْرَان. فيمر في بلاد كِرْمَان على هُرْمُز، ومن بلاد فارس على سِيرَافَ، وتوح، ونَجِيرَم، وجَنّابة، ودَارِين، وسِينِيز، ومَهْرُوبان؛ ومنها يفضي البحر إلى عَبّادَان، ومن عَبّادان ينعطف الضلع الآخر فيمر بالخَطّ، وهو ساحل بلاد عُمَان إلى صُور، وهي ساحل بلاد عُمان مما يلي بلاد اليمن؛ ثم يمتد إلى رأس الجُمْحَة من بلاد مَهْرَة.

والضلع الآخر يمتد على سطح البحر من تِيزِ مُكْرَان إلى رأس الجُمْحَة.

وهذه الأضلاع غير متفاوتة في الطول؛ فإن الضلع الذي يمتد على سطح البحر طوله خمسمائة ميل، وطول الضلع الآخر من حيث يبتدئ من تِيز مُكْرَان إلى أن ينتهي إلى عَبّادَان ثم ينعطف إلى أن يصل إلى رأس الجُمْحَة، تسعمائة ميل.

وفيه مما يلي عَبّادَان مكان يعرف بالدُّرْدُور. وهو بين جبلين، أحدهما يسمى كُسَيْر، والآخر عُوَيْر، ويضاف إليهما جبل آخر بالقرب منهما يقال فيه "وآخر ما فيه خير" لشدة ما يرى بها من الأهوال. وهي جِبَالٌ سُودٌ ذاهِبَةٌ في الهَوَاء يَتكَسّرُ الماءُ على شُعَبِها. ولا بد للمراكب أن تمر بينها، وقلّما تسلم.

وفي هذا البحر من الجزائر المشهورة على ألسنة التجار تسع، منها أربعة عامرة، وهي:

جزيرة خارَك. يحيط بها اثنا عشر ميلا .وهي عامرة آهلة كثيرة البساتين. وبها مغاص اللؤلؤ.

وجزيرة كِيش. وبها مغاص اللؤلؤ أيضاً، وهي آهلة، وتسمى هذه الجزيرة في عصرنا هذا قِيس.

وجزيرة أَوَال. وهي تجاه ساحل البحرين، وبينهما يوم. وبها مدينة. وأوال مدينة من مدائن البحرين.

وجزيرة لافْت. وتعرف بجزيرة بني كاوان. وطولها اثنان وخمسون ميلا، وعرضها تسعة أميال. وهي آهلة.

وهاتان الجزيرتان معدودتان في بلاد جُور من أعمال فارس.

ويقال أيضاً إنه يخرج من البحر المحيط خليج ثالث في شمال الصقالبة، ويمتد قرب بلد بلغار المسلمين، ويسمى بحر أدريك، منسوب إلى أمة على ساحله في جهة الشمال، ثم ينحرف نحو المشرق؛ وبين ساحله وبين أقصى بلاد الترك أرضون وجبال مجهولة خربة.

فهذا البحر المحيط وما يتفرع عنه.[1]

ويورد النويري وصفا لأيوب بن القِرِّيَّة يصف فيه طبائع الناس. يقول:

حكي عن الحجاج أنه سأل أيوب بن القِرِّيَّة عن طبائع أهل البلاد، فقال: أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم عنها؛ رجالها جُفاة، ونساؤها كُساة عُراة. وأهل اليمن أهل سَمْع وطاعة، ولزومِ الجماعة. وأهلُ عُمَان عرب استنبطوا. وأهلُ البحرين نبطٌ استعربوا. وأهلُ اليمامة أهلُ جفاء، واختلافِ آراء. وأهل فارس أهل بأس شديد، وعِزٍّ عتيد. وأهل العراق أبحث الناس عن صغيرة، وأضيعهم لكبيرة. وأهل الجزيرة أشجعُ فرسان، وأقتل للأقران. وأهل الشام أطوعهم لمخلوق وأعصاهم لخالق. وأهلُ مصر عبيدٌ لمن غلب؛ أكْيَسُ الناس صِغارا، وأجهلهم كبارا.[2]

ويرد اسم عمان أيضا حين يذكر النويري خصائص مصر قائلا:

ومن خصائصها في الجواهر، يقال :فيروزج نيسابور، وياقوت سرنديب، ولؤلؤ عمان، وزبرجد مصر، وعقيق اليمن، وجزع ظفار، وبجادي بلخ، ومرجان إفريقية.[3]

١. شهاب الدين النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قميحة وآخرون، ج ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤)، ص٢٢٨-٢٣٠.
٢. المصدر السابق، ج١، ص٢٧٤.
٣. المصدر السابق، ج١، ص ٣٤٢.

ويرد اسم عمان أيضا في هذا الكتاب حين يذكر النويري أبناء نوح عليه السلام:

واختلف في عمر نوح: فقيل عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً: ستمائة قبل الطوفان وثلاثمائة وخمسين سنة بعده. وقيل بل لبث قبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً. على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في قصته في التاريخ. وعمود النسب من نوح في ابنه سام بن نوح عليه السلام؛ وسام هو الجدّ الأربعون لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمّه عمردة. وإخوة سام حام، ويافث، وبوناطل، وسالوم وهو الذي غرق في الطوفان.

وأما سام بن نوح، فإن الله تعالى حعل في ذريته الكتاب والنبوة والملك والجمال والبياض، ونزلوا ما بين ساقيد إلى البحر، وما بين البحر إلى الشام: وهو وسط الأرض، والحرم وما حوله، والحرم إلى حضرموت، وإلى عُمَان، وإلى عالجَ والدّهْنَاء.[1]

ويرد اسم عمان أيضا في هذا الكتاب حين يصف النويري فِيَلَةَ أفريقيا قائلا:

والفِيلُ إذا وَرَد الماءَ الصافي كدّره قبل أن يشربَه كعادة الخيل، وهو قليل الاحتمال للبرد، وإذا عام في الماء استتر كله إلا خرطومَه؛ ويقال: إنه يصاد باللهو والطرب والزينة وروائح الطيب؛ والزنوج تصيده بحيلة غير ذلك، وهو أنهم يَعْمَدون إلى نوع من الأشجار، فيأخذون ورقه ولحاءه ويجعلونه في الماء الذي تشربه الفيلة، فإذا وردته وشربت منه سَكِرَتْ، فتسقط إلى الأرض، ولا تستطيع القيام، فتقتلها الزنوج بالحِرَاب، ويأخذون أنيابَها ويحملونها إلى بلاد عُمَان، وتُنقل منها إلى البلاد.[2]

ويرد اسم عمان أيضا في هذا الكتاب حين يتحدث النويري عن أصناف الإبل وعاداتها وطبائعها:

والإبل ثلاثة أصنافٍ: يَمَانيٌّ، وعِرَابيٌّ، وبُخْتيٌّ. فاليَمانيّ هو النّجيب، ويُنزّل بمنزلة العتيق من الخيل. والعِرَابيّ كالبِرْذَوْن. والبُخْتيّ كالبَغْل. ويقال: البُخْت ضَأْن الإبل. وهي متولّدةٌ عن فساد مَنيّ العِرَاب. وحكى الجاحظ أنّ منهم من يزعم أنّ في الإبل ما هو وحشيٌّ وأنها تسكن

١. المصدر السابق، ج٢، ص٣٠٥.
٢. المصدر السابق، ج٩، ص١٨٦.

أرضَ وَبَار، وهي غير مسكونةٍ بالناس. وقالوا: ربما نَدّ الجملُ منها في الهِيَاج فيحمله ما يعرض له منها على أن يأتي أرضَ عُمَان، فيضربَ في أدنى هَجْمةٍ من الإبل؛ فالإبل المَهْرِيّة من ذلك النِّتَاج. وتُسمّى الإبلُ الوَحْشيّة "الحُوش". ويقولون: إنها بقايا إبل عادٍ وثمود ومَنْ أهلكه الله من العَرَب. والمَهْرِيّة منسوبة إلى مَهْرَة قبيلة باليمن؛ وهي سريعة العدو. ويَعْلِفونها من قديدِ سمكٍ يُصاد من بَحْر عُمَان.[1]

ويرد اسم عمان أيضا في هذا الكتاب حين يصف النويري أنواع العَنْبَر قائلا:

قال محمد بن أحمد التميمي: حدثني أبي عن أبيه عن أحمد بن أبي يعقوب أنه قال: العنبر أنواع كثيرة، واصناف مختلفة، ومعادنه متباينة، وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره، فأجواد أنواعه وأرفعه وأفضله وأحسنه لونا وأصفاه جوهرا وأعلاه قيمة، العَنْبَر الشِّحْري، وهو ماقذفه بحر الهند إلى ساحل الشِّحْر من أرض اليمن، وزعموا أنه يخرج من البحر في خلقة البعير أو الصحرة الكبيرة. قال التميمي: والأصل الصحيح فيه أنه ينبع من صخور في قرار الأرض ومن عيون، ويجتمع في قرار البحر، فإذا تكاثر وثقل جذبته طبيعةُ الدَّهَانة، التي فيه، واضطرّته إلى الانقطاع من المواضع التي يتعلق بها عند خروجه من الأرض، وطلعت إلى وجه الماء، فطفا على وجه الماء وهو جارٍ ذائب؛ ومنه ما تقطعه الأمواج فتخرجه إلى السواحل قطعا كباراً وصغاراً. قال: وحدثني أبي عن أبيه عن أحمد بن أبي يعقوب قال: تُقطِّعه الريحُ وشدةُ الموج فترمي به إلى السواحل وهو يفور، لايدنو منه شيء لشدة حَرِّه وفورانه فإذا أقام أياما وضربه الهواء جَمَد، فيجمعه الناس من السواحل المتصلة بمعادنه، قال: وربما أتت السمكةُ العظيمة التي يقال لها: ."البال" فابتلعت من ذلك العنبر الصافي وهو يفور، فلايستقر في جوفها حتى تموت وتطفو، ويطرحها البحرُ الى الساحل، فيُشَق جوفُها، ويُستخْرَج مافيه من العنبر، وهو العنبر السّمَكي ويسمى أيضا: المبلوع، قال: وربما طرح البحرُ قطعة العنبر فيبصرها طير أسود شبيه بالخُطّاف، فيأتي إليها ويرفرف بجناحيه، فإذا دنا منها وسقط عليها تعلقت مخاليبه ومنقاره فيها فيموت ويَبْلى، ويبقى منقاره ومخاليبه في العنبر، وهو العنبر المناقيري. قال التميمي: وزعم الحسينُ بن يزيد السيرافي أن الذي يقع من العنبر الى سواحل الشّحْر شيء تقذفه الأمواج إليها من بحر الهند، وأنّ أجودَه وأفضله مايقع إلى بحر البربر وحدودِ بلاد الزنج وما والاها، وهو الأبيض المدوَّر، والأزرق النادر. قال: ولأهل هذه النواحي نُجُبٌ يركبونها مؤدبة يركبون

١. المصدر السابق، ج١٠، ص٦٦.

عليها في ليالي القَمَر على سواحلهم، وهذه النُّجُب تعرف العنبر، وربما نام الراكب عليها أو غفل، فإذا رأى النجيبُ العنبرَ على الساحل برك بصاحبه، فينزل ويأخذه. قال: ومنه ما يُوجد فوق البحر طافيا في عِظَم الثور، قال: وبعد العنبر الشحري العنبر الزِّنجي، وهو الذي يؤتى به من بلاد الزنج إلى عدن، وهو عنبر أبيض، وبعده العنبر الشَّلاهِطِي، وهو يتفاضل، وأجود الشلاهطي الأزرق الدسم الكثير الدُّهْن، وهو الذي يُستعمل في الغوالي، وبعد الشلاهطي العنبر القاقُلُي، وهو أشهب جيد الريح، حسن المنظر، خفيف، وفيه يَبَس يسير، وهو دون الشلاهطي لايصلح للغوالي ولا للتغلية والتطهير إلا عن ضرورة، وهو صالح للذَّرَائر والمُكَلَّسَات، ويؤتى بهذا العنبر من بحر قاقُلّة إلى عدن، وبعد القاقُلِّي العنبر الهندي، يُؤتى به من سواحل الهند الداخلة، فيُحمل إلى البصرة وغيرها، وبعده الزنجي، يُؤتى به من ساحل الزنج، وهو شبيه بالهندي ويقاربه، هكذا ذكر التميمي في "جيب العروس"، فإنه يجعل الزنجيَّ بعد الشحري وذكر الزنجي أيضا بعد الهندي، قال: وعنبر يؤتى به من الهند يسمى الكَرَك بالوس ويُنسب إلى قوم من الهند يجلبونه، يُعرفون بالكَرَك بالوس، يأتون به إلى قرب عُمَان، يشتريه منهم أصحابُ المراكب، قال: وأما العنبر المَغربي، فإنه دون هذه الأنواع كلها، يُؤتى به من بحر الأندلس، فتحمله التجار إلى مصر، وهو شبيه في لونه بالعنبر الشّحْري، وقد يُغالَط به فيه، قال التميمي: وأفضل العنبر وأجوده ماجَمَع قوة رائحة وذَكاء بغير زعارّة. وقال أحمد بن أبي يعقوب: قال لي جماعة من أهل العلم بالعنبر: إنه بجبال ثابتة في قَرار البحر، مختلفة الألوان، تقتلعه الرياح وشدة اضطراب البحر في الأشتية الشديدة، فلذلك لايكاد يخرج في الصيف. قال: وألوان العنبر مختلفة، منها الأبيض، وهو الأشهب، ومنها الأزرق، والرمادي، والجِرَاري، وهو الأبرش؛ والصفائح، وهو الأصفر والأحمر، وهما أدنى العنبر قدرا؛ والله أعلم.[1]

ويرد اسم عمان أيضا حين يفسر النويري معنى كلمة "الضِّجَاج". يقول:

قال أبو حنيفة الدينوري: الضِّجَاج، مثل شجرة اللبان يكون في جبل يقال له: "قَهْوان" من أرض عُمان، وهو صمغ أبيض تُغسل به الثيابُ فينقيها مثل الصابون، ولهذه الشجرة حبٌّ مثل الآس، أسود، يلذع اللسان.[2]

١. المصدر السابق، ج١٢، ص١٠-١٣.
٢. المصدر السابق، ج١١، ص٢٠٤.

ويرد اسم عمان أيضا حين يتحدث النويري عن إسلام فروة بن مسيك المرادي قائلا:

قالوا: قدم فروة بن مسيكٍ المراديّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم مفارقًا لملوك كندة ومباعدا لهم، وقال في ذلك:

لمّـا رأيـتُ ملـوكَ كِنْـدَةَ أعْرَضَـتْ
كالرِّجْـل خـان الرِّجْـلَ عِـرْقُ نَسَـائِها
قرّبْـتُ راحلتـي أؤمُّ مُحَمّـدًا
أرجـو فواضلَهـا وحُسْـن ثَرائِهـا

وبايع النبيّ صلى الله عليه وسلم، ونزل على سعد بن عبادة، وكان يتعلم القرآن وفرائضَ الإسلام وشرائعَه، فأجازه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم باثنتي عَشْرَةَ أوقية، وحمله على بعير وأعطاه حُلّة من نَسْجِ عُمَانَ، واستعمله على مُرَاد وزبيدَ ومَذْحِج، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصّدقات، وكتب له كتابا فيه فرائض الصّدقة، فلم يزل على الصّدقة حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم.[1]

ومما ورد فيه ذكر عمان في هذا الكتاب أيضا وصف النويري لإسلام أهل عمان. يقول:

قالوا: أسلم أهلُ عُمَان، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم العَلاء بنَ الحَضْرميّ ليعلّمهم شرائعَ الإسلام، ويُصدّقَ أموالَهم، فخرج وفدُهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيهم أَسَدُ بن يَبْرح الطاحيّ، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يبعثَ معهم رجلا يُقيم أمرَهم، فقال مَخْرَمة العبديّ واسمُه مُدْرِك بن خُوطٍ: ابعثني إليهم فإنّ لهم عليّ مِنّةً؛ أسروني في يوم جَنُوب فمنّوا عليّ. فوجّهه معهم إلى عُمَان، وقدم بعدهم سَلَمة بن عَبّادٍ الأزديّ في ناسٍ من قومه، فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عما يعبد وما يدعو إليه، فأخبره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ادعُ الله أن يجمعَ كَلِمتَنا وأُلْفتَنا. فدعا لهم، وأسلم سَلَمَة ومَنْ معه.[2]

١. المصدر السابق، ج١٨، ص٥٥.
٢. المصدر السابق، ج١٨، ص٧٤.

ونجد في هذا الكتاب أيضا موضوعا بعنوان "خبر مازن الطائي"، وفيه يسرد النويري قصة إسلام الصحابي العماني مازن بن غضوبة الطائي. يقول:

في سبب إسلامه رواه البيهقي في دلائل النبوة بسندٍ قال: كان مازن الطائي بأرض عُمان بقرية تدعى سَمَايل، وكا يَسْدِن الأصنام لأهلِه، وكان له صنم يقال له باجَر، قال مازن: فعَتَرْتُ ذات يوم عتيرة، والعتيرة: الذبيحة، فسمعتُ صوتاً من الصنم يقول: يا مازن: أقبل إليّ أقبل، تسمعْ ما لا يُجهل، هذا نبي مرسل، جاء بحق مُنْزَل، فآمنْ به كي تُعدل، عن حَرِّ نار تُشعل، وقودُها بالجندل. قال مازن: فقلتُ والله إن هذا لعَجَب، ثم عَتَرْتُ بعد عشرة أيام عتيرة أخرى، فسمعتُ صوتاً آخر أبينَ من الأول وهو يقول: يا مازن اسمعْ تُسَر، ظهَر خيرٌ وبطن شر، بُعِث نبيٌّ من مضر، بدين الله الأكبر، فدعْ نحيتا من حَجَر، تسلمْ من حَرِّ سقر؛ قال مازن: فقلت إن هذا والله لعَجَب، إنه لَخَيرٌ يُراد بي؛ وقدم علينا رجل من أهل الحجاز فقلنا: ما الخبر وراءك ؟ قال: خرج رجل بتهامة يقول لمن أتاه: أجيبوا داعي الله عز وجل، يقال له أحمد، قال: فقلت هذا والله نبأ ما سمعت، فثرت إلى الصنم فكسرته أجذاذا وشددت راحلتي ورحلت، حتى أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشرح إلي الإسلام فأسلمت، وأنشأتُ أقول:

كسرتُ باجَرَ أجْذاذا وكان لنا
رَبّا نَطيفُ به ضلاّ بتضلال
فالهاشمي هدانا من ضلالتنا
ولم يكن دينُه منّي على بالِ
يا راكبًا بلّغنْ عَمْرًا وإخوتَه
أني لمن قال ربّي باجَرٌ قالي

قال مازن: فقلت يا رسول الله، إني امرؤ مُولَعٌ بالطرب وشُرْبِ الخمر، وبالهَلوكِ من النساء، وألحّتْ علينا السنون فأذهبن الأموال، وأهزلن الذراري والرجال، وليس لي ولد، فادْعُ الله يُذهب عني ما أجد، ويأتيني بالحيا ويهبُ لي ولدا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم أبدله بالطرب قراءة القران، وبالحرام الحلال، وبالخمر رِياً لا إثمَ فيه، وبالعُهْر عِفّة الفَرَج، وائتِه

بالحَيا، وهب له ولدا. قال مازن: فأذهب الله عني كلَّ ما أجد، وأخصبت عُمان، وتزوجتُ أربع حرائر، ووهب لي حيان بنَ مازن، وانشأتُ أقول:

إليـكَ رسـولَ الله خَبّـتْ مَطيّتـي
تجوبُ الفَيَافي من عُمَانَ إلى العَـرْجِ
لتشـفعَ لي يـا خيـرَ مَنْ وَطِئ الحَصَا
فيغفـرَ لـي ربّـي فأرجـعَ بالفَلْـجِ
إلـى مَعْشَـرٍ خالفـتُ فـي الله دينَهم
فـلا رأيُهـم رأيـي ولا شَـرْجُهم شَـرْجي
وكنـتُ امـرأً بالعُهْـرِ والخَمْـر مُولَعـا
شـبابيَ حتـى آذَنَ الجِسْـمُ بالنّهْـجِ
فبدّلنـي بالخَمْـرِ خوفـاً وخَشْـيةً
وبالعُهْـرِ إحْصانًـا وحَصّن لي فَرْجي
فأصبحـتُ همّي في جهـادٍ ونيتّي
فللّهِ مـا صومـي ولله مـا حَجّـي

قال مازن: فلما رجعت إلى قومي انّبوني وشتموني، وأمروا شاعرَهم فهجاني، فقلتُ إن هجوتُهم فإنما أهجو نفسي، فتركتُهم، قال: ثم إن القوم ندموا، وكنت القَيّم بأمورهم، فقالوا ما عسى نصنع به، فجاءني منهم أزْفلة عظيمة فقالوا: يا بن عم، عِبنا عليك أمراً فنهيناك عنه، فإذا أبيتَ فنحن تاركوك، ارجع معنا فرجعت معهم، فأسلموا بعد كلهم.

ومازن هذا هو الذي أقطعه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أرضَ عُمان.[1]

ويرد اسم عمان أيضا في هذا الكتاب حين يتحدث النويري عن عمرو بن العاص مبعوث الرسول عليه الصلاة والسلام إلى عمان. يقول:

١. المصدر السابق، ج١٦، ص١١٨-١١٩.

قال محمد بن سعد: بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة، سنة ثمان من مُهاجَره، إلى جَيْفَر وعبدٍ ابني الجُلَنْدى، وهما من الأزد، والملك منهما جيفر، يدعوهما إلى الإسلام، وكتب معه إليهما كتابا، قال عمرو: لما قدمت عُمَان عمدت إلى عبدٍ، وكان أَحْلَمَ الرَّجُلَيْن وأسهلهما خُلُقا، فقلت: إني رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليكَ وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم عليّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى تقرأكتابك، فمكثت أياماً ببابه، ثم دعاني فدخلت عليه فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففضّ خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخِره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءتِه، إلا أني رأيت أخاه أرَقَّ منه، فقال: دعني يومى هذا وارجع إليّ غدا، فلما كان من الغد رجعت إليه، فقال: إني فكرتُ فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعفُ العرب إن مَلَكْتُ رَجُلا ما في يدي، قلت: فإني خارج غدا، فلما أيقن بمخرجي أصبح فأرسل إلي، فدخلت عليه فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا، وصدّقا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وخلّيا بيني وبين الصّدَقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عونا على من خالفني، فأخذتُ الصدقة من أغنيائهم، فرددتها في فقرائهم، ولم أزل مقيما بينهم حتى بلغنا وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم.[1]

ويورد النويري اسم عمان أيضا حين يصف حروب الردة قائلا:

وأما أهل عُمان ومَهْرَة واليمن، فإن حُذيفة بن مُحصن الحميري وعَرْفَجَة سارا إلى القوم، فاقتتل المسلمون وأهل عُمان قتالاً شديداً فهزم المسلمون المرتدين، وقتلوا منهم في المعركة عشرة آلاف، وسبوا الذارى، وجمعوا الغنائم، وبعثوا الخمس إلى أبي بكر، وقسموا ما بقى، ثم خرجوا نحو مهرة، فكشف الله جنود المرتدين، وقتل رئيسهم، وركبهم المسلمون، فقتلوا منهم من شاءوا، وأصابوا من شاءوا، وخَمّسوا الغنائم، وبعثوا بالخُمس إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه، وقسّموا ما بقي.[2]

ومما رواه النويري في "نهاية الأرب" و فيه ذكر لعمان حديثه عن غزو نجدة بن عامر الحنفي لعمان سنة تسع و ستين للهجرة. يقول:

فلما قدم مصعب إلى البصرة في سنة تسع وستين بعث إليه عبد الله بن عمير الليثي الأعور في أربعة عشر ألفاً، وقيل: في عشرين ألفاً، فجعل يقول: اثبت نجدة فإنا لا نفر، فقدم ونجدة

١. المصدر السابق، ج١٨، ص١١٠.
٢. المصدر السابق، ج١٩، ص٦٥.

بالقطيف، فأتى نجدة إلى ابن عمير وهو غافل فتقاتلوا طويلاً، ثم افترقوا، وأصبح ابن عمير فهاله ما رأى في عسكره من القتلى والجرحى، فحمل عليهم نجدة، فلم يثبتوا، وانهزموا، وغنم نجدة ما في عسكرهم.

وبعث نجدة بعد هزيمة ابن عمير جيشاً إلى عُمَان، واستعمل عليهم عَطيّة بن الأسود الحنفي، وقد غلب عليها عبّادُ بن عبد الله وابناه سعيد وسليمان، فقاتلوه، فقُتِل عبّاد واستولى عَطيّة عليها، فأقام بها أشهراً، ثم خرج عنها، واستخلف رجلاً يكنى أبا القاسم، فقتله سعيد وسليمان ابنا عَبّاد، فعاد إلى عُمان فلم يقدر عليها، فركب في البحر وأتى كِرْمان، وضرب بها دراهم سماها العَطَويّة، فأرسل إليه المهلبُ جيشاً، فهرب إلى سِجِسْتان، ثم أتى السِّنْد، فقتلته خيل المهلب بقندابيل.[1]

ومما أورده النويري في كتابه عن عمان غزو الصفرية لها ومواجهة الجُلَنْدى ابن مسعود لهم. يقول:

وسار خازم إلى البصرة وقد انتخب من أهله وعشيرته ومواليه ومن أهل مَرْو الرُّوذ من يثق به، ثم سار فلما وصل إلى البصرة انضم إليه عدة من بني تميم، فساروا في البحر إلى جزيرة ابراكاوان، فوجه خازم نَضَلة بن نعيم النَّهْشَلي في خمسمائة إلى شيبان، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فركب شيبان وأصحابه في السفن إلى عُمان وهم صُفْريّة، فقاتلهم الجُلندى وأصحابه وهم أباضيّة، واشتد القتال بينهم فقتل شيبان ومن معه، وقد ذكرنا في سنة تسع وعشرين ومائة في أخبار مروان بن محمد قتل شيبان هذا، وليس هو شيبان الذي قتل بخراسان، ذاك شيبان بن سلمة، ثم سار خازم في البحر بمن معه حتى أرسوا بساحل عُمان، فخرجوا فلقيهم الجُلندى وأصحابُه، فاقتتلوا قتالاً شديداً وكثر القتل بينهم، ثم اقتتلوا من الغد فقتل من الخوارج نحو تسعمائة، وأحرقوا منهم نحو تسعين رجلاً، ثم التقوا بعد سبعة أيام من مقدم خازم، وجعلوا النفط على أسنة رماحهم، وأضرموا بيوت أصحاب الجلندى وكانت من خشب فاحترقت، واشتغلوا بها وبمن فيها من أولادهم وأموالهم، فحمل عليهم أصحاب خازم فقتل الجلندى، وبلغ عدة القتلى عشرة آلاف، فبعث برءوسهم إلى البصرة ثم إلى السفاح، واستقدم خازماً بعد ذلك بشهر فقدم عليه.[2]

١. المصدر السابق، ج٢١، ص٣٣.
٢. المصدر السابق، ج٢٢، ص ٤٢.

من الفقرات الهامة التي نجدها في هذا الكتاب، وصف النويري للحرب بين القرامطة أصحاب أبي سعيد الجنابي وأهل عمان. يقول:

ولما استولى على هجَر وخربها أنفذ سرية من أصحابه ستمئة فارس إلى عُمان، فوردت على غفلة فقتلوا ونهبوا وأسروا في عَمل عُمان وأنفذ أهلُ عُمان سرية إليهم في ستمئة رجل من أهل النجدة فأدركوهم فجعلت القرامطة ما غنموه وراء ظهورهم، وأقبلوا نحو أهل عُمان فاقتتلوا، حتى تكسرت الرماح وتقطعت السيوف وتعانقوا، وتكادموا وتراضخوا بالحجارة، فلم تغرب الشمس حتى تفانوا، فبقي من أهل عمان خمسة نفر لا حراك بهم، ومن القرامطة ستة نفر مُجرّحين إلا أنهم أحسن حالاً من العمانية، فركب القرامطة ستَّ رواحل وعادوا إلى أبي سعيد، فأخبروه الخبر واعتذروا إليه، فلم يقبل عذرَهم وأمر بهم فقتلوا، فأنزلت بهم ما كانوا له أهلاً، وتطيّر بهلاك السرية وأمسك عن أهل عُمان.[1]

ومما رواه النويري وفيه ذكر لعمان حديثه عن وفاة الوزير المهلبي:

وفي سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة سار الوزير المهلبي في جمادى الآخرة في جيش إلى عمان ليفتحها، فلما بلغ البحر اعتل، واشتدت علته، فأعيد إلى بغداد، فمات في الطريق في شعبان وحمل تابوته إلى بغداد، فدفن بها، وقبض معز الدولة أمواله، وذخائره، وأخذ أهله، وأصحابه، وحواشيه، حتى مَلّاحه، ومن خدَمه يوما واحدا، فاستعظم الناسُ ذلك، واستقبحوه، فكانت مدة وزارته ثلاث عشر سنة، وثلاث أشهر، وكان كريما فاضلا ذا عقل ومروءة، فمات بموتة الكرم. ونظر في الأمور بعده أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي. وأبو الفرج محمد بن العباس بن فساعن من غير تسمية لأحد منهما بوزارة. وفيها. في يوم عاشوراء أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم، ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء، وأن يظهروا النياحة، ويلبسوا ثيابا عملوها من المسوح، وأن تخرج النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن، ويدرن في البلد بالنوايح، ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي بن أبي طالب، ففعل الناس ذلك، ولم يكن للسنيّة قدرة على المنع، لكثرة الشيعة؛ ولأن السلطان منهم.[2]

١. المصدر السابق، ج٢٥، ص١٤٢-١٤٣.
٢. المصدر السابق، ج٢٦، ص١١٠.

ومما رواه النويري وفيه ذكر لعمان حديثه عن بختيار بن معز الدولة البويهي. يقول:

هو أبو منصور بختيار بن معز الدولة بن بويه. كان والده معز الدولة قد عقد له الأمر من بعده في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر المحرم سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، وبايع له الأجناد، ولقبه المطيع في يوم الإثنين لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين. ثم جلس في السلطنة بعد وفاة أبيه في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمائة. والله أعلم بالصواب.

كان أبوه قد أوصاه بطاعة عمّه ركن الدولة، واستشارته في جميع ما يفعله، وأوصاه أيضاً بطاعة عضد الدولة بن عمه لأنه أكبر منه سناً، وأقوم بالسياسة، ووصاه بتقرير كاتبيه أبي الفضل العباس ابن الحسن، وأبي الفرج محمد بن العباس، وبالحاجب سُبُكتكين، فخالف جميع وصاياه، واشتغل باللعب واللهو، وعشرة النساء، والمساخر، والمغنِّين، وشرع في إيحاش كاتبيه، والحاجب، فاستوحشوا، وانقطع الحاجب عنه، ولم يحضر داره، ونفي أكابر الدَّيلم عن مملكته شرها في إقطاعاتهم وأموالهم، وأبعد المتصلين بهم، فاتفق أصاغرهم، وطلبوا الزيادات، فاضطر إلى مرضاتهم، واقتدى بهم الأتراك، وخرج الديلم إلى الصحراء، وطالبوا بختيار بإعادة من أسقطه منهم، فاضطر إلى إجابتهم لتغير الحاجب سُبكتكين عليه، وفعل الأتراك مثل فعلهم، واتصل خبر وفاة معز الدولة بكاتبه أبي الفرج محمد بن العباس، وهو يتولَّى أمر عُمان، فسلمها لنواب عضد الدولة، وسار نحو بغداد، وإنما فعل ذلك لأن بختيار لما ملك بعد وفاة أبيه انفرد أبو الفضل بالنظر في الأمور، فخاف أبو الفرج أن يستمر انفرد أبو الفضل النظر بالأمور، فخاف أبو الفرج أن يستمرانفراده عنه، فسلم عُمانَ إلى نواب عضد الدولة لئلا يؤمر بالقيام بها لحفظها وصلاحها، ولما وصل إلى بغداد لم يتمكن مما أراد، وانفرد أبو الفضل بالتدبير دونه.[1]

ومما رواه النويري في "نهاية الأرب" وفيه ذكر لعمان حديثه عن مُلْك خوارزم شاه لكِرمان. يقول:

كان من جملة نواب خوارزم شاه تاج الدين أبو بكر نائبه بمدينة زوزن. وكان تاج الدين هذا في ابتداء أمره جَمّالاً، يكري الجِمال للأسفار، ثم صار على جِمال خوارزم شاه، فرأى منه جَلَداً

١. المصدر السابق، ص١١١-١١٢.

وأمانة، فقدمه إلى أن صار من أعيان أمراء عسكره، ثم ولاه مدينة زوزن. وكان ذا عقل وسياسة، فقال يوماً لخوارزم شاه: "إن بلاد كِرمان مجاورة لبلدي، فلو أضاف السلطان إلي عسكراً لملكتُها في أسرع وقت"، فسير معه عسكراً فمضى إلى كرمان، فقاتل صاحبها حرْبَ بن محمد بن أبي الفضل، وملكها في أسرع وقت، وسار منها إلى نواحي مكران، فملكها إلى السند من حدود كابل، وسار إلى هرمز مدينة على ساحل بحر مكران، فأطاعه صاحبها وخطب بها لخوارزم شاه، وخُطِب له بقَلْهَات وبعضِ عُمان، وذلك في سنة إحدى عشرة وستمئة أو ما يقاربها.[1]

١. المصدر السابق، ج٢٧، ص١٥٨.

الوافي بالوفيات للصفدي

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يترجم الصفدي للعماني الراجز:

العماني الراجز محمد بن ذؤيب العماني الراجز النهشلي ثم الفقيمي يكنى أبا العباس، وهو من أهل الجزيرة وقيل من ديار مصر، وإنما خرج إلى عُمان فأقام بها مديدة ثم عاد، يقال أنه عاش ماية وثلاثين سنة، وهو أحد شعراء الرشيد، وأخباره معه كثيرة، وفيه يقول:

يـا ناعِـشَ الجّـدِّ إذا الجَـدُّ عَثَرْ

وجابـرَ العظـمِ إذا العظـمُ انْكسَـرْ

أنـتَ رَبيعـي والربيـعُ يُنْتَظَـرْ

وخيـرُ أنـواءِ الربيـعِ مـا بَكَـرْ

وروى صاحب الأغاني عن زيد بن عقال أنه قال: كنا وقوفا والمهدي قد أجرى الخيل فسبقها فرس يقال له الغضبان، فطلب الشعراءَ فلم يَجُدْ منهم أحد إلا أبو دلامة فقال له: قلّدْه يا زَنْدُ، فلم يفهم ما أراد فقلده عمامتَه، فقال له المهدي: يا ابنَ اللخناءِ أنا أكثر عمائم منك، إنما أردتُ أن تقلده شعراً، ثم قال: يا لهفي على العُماني، فلم يتكلم حتى أقبل فقيل له: هذا العُماني قد أقبل الساعة يا أمير المؤمنين، فقال: قدموه، فقدم فقال: قلّدْ فرَسي هذا، فقال غيرَ متوقف:

قـد غَضِـبَ الغَضْبانُ إذ جَدَّ الغَضَبْ

وجـاء يحمـي حسَـباً فوق الحَسَـبْ

مِنْ إرْثِ عبّاسِ بنِ عبْـدِ المُطّلِبْ

وجـاءتْ الخيـلُ بـه تشـكو العَتَـبْ

له عليها ما لكمْ على العَرَبْ

فقال له المهدي: أحسنتَ والله، وأمر له بعشرة آلاف درهم.[1]

ويرد أيضا حين يترجم الصفدي للشاعر الأعيمى التطيلي؛ فينقل له قصيدة طويلة يرثي بها ابن اليُنّاقي وقد قتل غيلة:

خُـذا حَدِّثانـي عـن فُـلٍ وفُـلانِ
لعلّـي أرى باقٍ على الحدثانِ
وعـن دُولٍ جُسـنَ الديـارَ وأهلِهَـا
فَنِيْـنَ وصـرفُ الدَّهْر ليس بفان
وعـنْ هَرَمـيْ مِصْـرَ الغـداةَ أَمُتّعـا
بشـرخِ شـبابٍ أم هما هَرِمـان
وعـن نخلتَيْ حُلوان كيـف تَنَاءَتا
ولـم يطويـا كشـحاً علـى شـنآن
وطـالَ ثـواءُ الفرقديـن بِغِبْطَـةٍ
أمـا علمـا أَن سـوفَ يَفْترِقـان
وزايـلَ بيـن الشـعريين مُصَـرِّفٌ
مـن الدهـر لا وانٍ ولا مُتَـوان
فإن تذهبِ الشّـعْرى العبـورُ لشـانها
فـإن الغُميصـا فـي بَقِيّـةِ شـان
وجُـن سـهيلٌ بالثريَّـا جنونَـهُ
ولكـنْ سـلاهُ كيـفَ يلتقيـان
وهيهـاتِ مـن جـورِ القضـاءِ وعَدْلـه
شـآميةٌ ألـوثْ بِدَيْـنِ يمـان

١. صلاح الدين الصفدي. الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤط وتركي مصطفى، ج٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠)، ص٥٤-٥٥.

فأجمعَ عنها آخرَ الدهر سَلْوَةً
على طَمَعٍ خَّلاهُ للدَّبرانِ
وأغْلَنَ صَرْفُ الدَّهْرِ لابْنيْ نُوَيْرَةٍ
بيوم ثناءٍ غالَ كلَّ تداني
وكانا كَنَدْماني جذيمةَ حِقْبَةً
من الدَّهْرِ لو لم تَنْصَرِمْ لأوان
فهانَ دمٌ بين الدَّكادكِ واللّوى
وما كانَ في أمثالها بمهان
فضاعتْ دموعٌ باتَ يَبْعَثُها الأسى
يُهَيّجِهُ قبرٌ بكلِّ مكان
ومالَ على عبسٍ وذبيانَ مَيْلَةً
فأَوْدى بِمَجْنيٍّ عليه وجاني
فَعُوجا على جَفرِ الهباءةِ عَوجةً
لضيعةِ أعلاقٍ هناكَ ثَمَاني
دماءٌ جرت منها التلاع بملئها
ولا ذَحْلَ إلا أن جرى فَرَسان
وأيَّامُ حربٍ لا يُنادى وَليدُها
أهابَ بها في الحيِّ يومُ رهان
فباتَ الرَّبيعُ والكلابُ تَهُرُّهُ
ولا مثلَ مُودٍ مِنْ وراءِ عُمَانِ[1]

١. المصدر السابق، ج٧، ص٨٦-٨٧.

ويرد ذكر عمان أيضا حين يترجم الصفدي لأيوب بن القِرّيّة:

أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة بن سلمة بن جشم بن مالك، ينتهي إلى عدنان، المعروف بابن القِرّيّة- بكسر القاف وتشديد الراء والياء آخر الحروف- والقِرّيّة جدته واسمها خُمَاعة بنت جُشم بن ربيعة بن زيد مناة بن عوف بن سعد بن الخزرج، كان أعرابياً أمياً، وهو معدود من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة، كان قد أصابته السَّنَة، فقدم "عَيْنَ التمر" وعليها عامل للحجاج بن يوسف، وكان العامل يغدي كل يوم ويعشي، فوقف ابن القِرّيّة ببابه، فرأى الناس يدخلون، فقال: أين يدخل هؤلاء؟ قالوا: إلى طعام الأمير، فدخل، فتغدى، وقال: أكل يوم يصنع الأمير ما أرى؟ فقيل: نعم. وكان يأتي كل يوم بابه للغداء والعشاء إلى أن ورد كتاب من الحجاج على العامل، وهو عربي غريب لا يدري ما هو، فأخر لذلك طعامه، فجاء ابن القِرّيّة فلم ير العامل يتغدى، فقال: ما بال الأمير لا يأكل ولا يطعم؟ فقالوا: اغتم لكتاب ورد عليه من الحجاج عربي غريب لا يدري ما هو، قال: ليقرئني الأمير الكتاب، فأنا أفسره إن شاء الله تعالى. وكان خطيباً لسِناً بليغاً، فذكر ذلك للوالي، فدعا له، فلما قرئ الكتاب عليه عرف الكلام وفسره للوالي حتى عرف جميع ما فيه، فقال له: أفتقدر على جوابه؟ قال: لستُ أقرأ ولا أكتب، ولكن ادع كاتباً يكتب ما أمليه، ففعل، فكتب جواب الكتاب، فلما قرئ الكتاب على الحجاج، رأى كلاماً عربياً غريباً، فعلم أنه ليس من كلام كاتب العامل ولا كتاب الخراج، فدعا برسائل "عين التمر"، فنظر فيها، فرآها ليست ككتاب ابن القِرّيّة، فكتب الحجاج إلى العامل: أما بعد، فقد أتاني كتابك بعيداً من جوابك بمنطق غيرك، فإذا نظرتَ إلى كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تبعث بالرجل الذي صدر لك الكتاب، والسلام.

فقرأ العامل الكتاب على ابن القِرّيّة، وقال له: تتوجه نحوه، قال: أقلني، قال: لا بأس عليك، وأمر له بكسوة ونفقة، وحمله إلى الحجاج، فلما دخل عليه، قال: ما اسمك؟ قال: أيوب قال: اسم نبي؛ وقال: أظنك أمياً تحاول البلاغة ولا تستصعب عليك مقالها. وأمر له بنزل ومنزل، فلم يزل يزداد به عجباً حتى أوفده على عبد الملك بن مروان. فلما خلع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي الطاعة بسجستان، بعثه الحجاج إليه، فلما دخل عليه قال له: لتقومنّ خطيباً ولتخلعنّ عبدَ الملك ولتسبنّ الحجاجَ، أو لأضربنّ عنقك قال: أيها الأمير، إنما أنا رسول، قال: هو ما أقول لك، فقام وخطب وخلع عبد الملك وشتم الحجاج وأقام هنالك، فلما انصرف ابن

الأشعث مهزوماً، كتب الحجاج إلى عماله بالري وأصبهان وما يليهما، أمرهم أن لا يمر بهم أحد من فلِّ ابن الأشعث إلا بعثوا به أسيراً، وأُخِذ ابن القِرّيّة فيمن أخذ. فلما أدخل على الحجاج، قال: أخبرني عما أسألك عنه، قال: سلني عما شئت، قال: أخبرني عن أهل العراق قال: أسرع الناس إلى فتنة، وأعجزهم عنها؛ قال: فأهل الشام؟ قال: أطوع الناس لخلفائهم؛ قال: فأهل مصر؟ قال: عبيد من غلب؛ قال: فأهل البحرين؟ قال: نبط استعربوا؛ قال: فأهل عُمَان؟ قال: عَرَبٌ استنبطوا؛ قال: فأهل الموصل؟ قال: أشجع فرسان وأقتل للأقران؛ قال: فأهل اليمن؟ قال: هم أهل سمع وطاعة ولزوم الجماعة؛ قال: فأهل اليمامة؟ قال: أهل جفاء واختلاق أهواء وأصبر عند اللقاء؛ قال: فأهل فارس؟ قال: أهل بأس شديد، وشر عتيد، وزيف كثير وقِرىً يسير؛ قال: أخبرني عن العرب قال: سلني قال: قريش؟ قال: أعظمها أحلاماً، وأكرمها مقاماً؛ قال: فبنو عامر بن صعصعة؟ قال: أطولها رماحاً وأكرمها صباحاً؛ قال: فبنو سليم؟ قال: أعظمها مجالس وأكرمها محابس؛ قال: فثقيف؟ قال: أكرمها جدوداً وأكثرها وفوداً؛ قال: فبنو زبيد؟ قال: ألزمها للرايات وأدركها للتِّرَات؛ قال: فقضاعة؟ قال: أعظمها أخطاراً، وأكرمها نجاراً وأبعدها آثاراً؛ قال: فالأنصار؟ قال: أثبتها مقاماً وأحسنها إسلاماً وأكرمها أياماً؛ قال: فبكر بن وائل؟ قال: أثبتها صفوفاً وأحدها سيوفاً؛ قال: فعبد القيس؟ قال: أسبقها إلى الغايات وأضربها تحت الرايات؛ قال: فبنو أسد؟ قال: أهل عدد وجَلَد ونَكَد؛ قال: فلخم؟ قال: ملوك وفيهم نَوَك؛ قال: فجذام؟ قال: يوقدون الحرب ويسعرونها ويلقحونها، ثم يمرونها؛ قال: فبنو الحارث؟ قال: رعاة للقديم، حماة للحريم؛ قال: فعك؟ قال: ليوث جاهدة في قلوب فاسدة؛ قال: فتغلب؟ قال: يصدقون إذا لقوا ضرباً ويسعرون للأعداء حرباً؛ قال: فغسان؟ قال: أكرم العرب أحساباً، وأثبتهم أنساباً؛ قال: فأي العرب كانت في الجاهلية أَمَنَة من أن تُضام؟ قال: قريش، وكانوا أهل ربوة لا يستطاع ارتقاؤها، وهضبة لا يرام انتزاؤها، في بلدة حمى الله ذمارها، ومنع جارها؛ قال: فأخبرني عن مآثر العرب، قال: كانت العرب تقول: حِمْيَرُ أرباب الملك، وكندة لباب المِلل، ومذحج أهل الطعان، وهمدان أحلاس الخيل، والأزد آساد الناس؛ قال: فأخبرني عن الأرضين؛ قال: سلني، قال: الهند؟ قال: بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر، وأهلها طغام كقطيع الحمام؛ قال: فخراسان؟ قال: ماؤها جامد، وعدوها جاحد؛ قال: فعُمَان؟ قال: حَرُّها شديد، وصيدُها عتيد، قال: فالبحرين؟ قال: كناسة بين المصرين؛ قال: فاليمن؟ قال: أهل العرب، وأهل البيوتات والحسب؛ قال: فمكة؟ قال: رجالها

علماء جفاة، ونساؤها كساة عراة؛ قال: فالمدينة؟ قال: رسخ العلم فيها وظهر منها؛ قال: فالبصرة؟ قال: شتاؤها جليد، وحرها شديد، وماؤها ملح، وحر بها صلح؛ قال: فالكوفة؟ قال: ارتفعت عن حر البحر وسفلت عن برد الشام، فطاب ليلها، وكثر خيرها؛ قال: فواسط؟ قال: جنة بين حماة وكنة؛ قال: وما حماتها؟ وكنتها؟ قال: البصرة والكوفة يحسدانها. وما ضرها ودجلة والزاب يتجاريان في إفاضة الخير عليها؟ قال: فالشام؟ قال: عروس بين نسوة جلوس؛ قال: ثكلتك أمك يا ابن القِرّيّة، لولا اتباعك لأهل العراق، وقد كنتُ أنهاك عنهم أن تتبعهم، فتأخذ من نفاقهم، ثم دعا بالسيف وأومأ إلى السياف أن أمسك، فقال ابن القِرّيّة: ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن ركب وقوف يكن مثلا بعدي، قال: هات، قال: لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة ولكل حليم هفوة، قال الحجاج: ليس هذا وقت المزاح، ياغلام أوجِبْ جُرْحَه، فضرب عنقَه.[1]

ويرد ذكر عمان أيضا حين يترجم الصفدي للحُتَات بن يزيد:

بِشْرُ بن يزيد بن علقمة، هو الحُتَات، أبو منازل المجاشعي الدارمي؛ أحد وفد بني تميم الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين معاوية، ووفد على معاوية ومات عنده، وورثه الفرزدق لأنه من بني عمه. وهو الذي يقال إنه أجار الزبير بن العوام لما انصرف من الجمل، وقتل الزبير في جواره، فجرير يعير مجاشعاً بذلك. لأن الفرزدق منهم، فقال:

لو كنتَ حُرّاً يا ابنَ قَيْنٍ مُجاشِعٍ
شيّعتَ ضيفَكَ فرسخين ومِيلا

وهذا الحُتَات هو القائل للفرزدق وأراد الخروج إلى عُمَان:

كتبتَ إليّ تستهدي الجواري
لقد أنعظتَ من بِلَدٍ بعيدْ
أقِمْ لا تأْتِنا فعُمَانُ أرضٌ
بها سَمَكٌ وليس بها ثَريدْ

١. المصدر السابق، ج١٠، ص٢٥-٢٧.

وفي وراثة معاوية له يقول الفرزدق:

أبـوكَ وعمّـي يـا معـاويَ أوْرَثـا
تراثـاً فيحتـازُ التـراثَ أقاربُـهْ
فمـا بـالُ ميـراثِ الحُتَـاتِ أكلتَـه
وميـراثُ صَخْـرٍ جامـدٌ لـكَ ذائبُـهْ

وقال الحُتَات:

لعَمْـرُ أبيـكُ فـلا تَكْذِبَـن
لقـد ذهـب الخيـرُ إلا قليـلا
لقـد فُتِـن النـاسُ فـي دينهـم
وخلـى ابـنُ عفّـانَ شـراً طويـلا
وحـال أبـو حَسَـنٍ دونهـا
فمـا تسـتطيع إليهـا سـبيلا

وللحُتَات بنون: عبد الله وعبد الملك ومُنازل، وَلُوا لبني أمية. وقال الأصمعي: غزا الحُتَات وجارية بن قدامة والأحنف، فرجع الحُتات، فقال لمعاوية: فضّلتَ علي مُحرِّقا ومُخذِّلا، قال: اشتريتُ منهما دِينهما قال: فاشترِ مني ديني؛ قال: يعني بالمحرق جارية ابن قدامة لأنه كان حَرّق دار الإمارة بالبصرة، والأحنف خَذَّل عن عائشة والزبير.[1]

ويرد أيضا حين يترجم الصفدي لجيفر بن الجلندى:

جَيْفَر بن الجُلندى، العُماني والصحابي. كان رئيسَ عُمان هو وأخوه عَبْد بن الجُلندى. أسلما على يد عمرو بن العاص حيث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عُمَان ولم يقدما على النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرياه، وكان إسلامهما بعد خيبر.[2]

١. المصدر السابق، ج١٠، ص٩٩.
٢. المصدر السابق، ج١٠، ص١٧٧.

ويرد أيضا حين يترجم الصفدي لقارودبك بن داود السلجوقي:

قارودبك بن داود بن سلجوق بن دقاق بن لبجوق، وقيل: قارون بك، وقيل: فاروت بك - بالفاء: هو أخو السلطان ألب أرسلان السلجوقي. لما توفي أخوه ألب أرسلان - المذكور في المحمدين - كان قارودبك، بكرمان، فسار من عُمَان وحمل على نفسه وركب في البحر في فصل الشتاء وخاف من سبقه إلى الري، فإن ألب أرسلان أقام ولده ملكشاه في الملك بعده، وظن أن العسكر يستأمن إليه، وعزم على نزوله على التركمان، وكانوا بين الري وهمذان، وكان معه عسكر يسير: ألفا فارس وأربعة آلاف راجل، فبلغ خبره ملكشاه ابن أخيه ووزيره نظام الملك، فأخذا من قلعة الري خمسمائة ألف دينار وخمسة آلاف ثوب وسلاحاً، وخرجا من الري وسبقاه إلى التركمان وفرقا الأموال فيهم، ووصل قارودبك بعدهما بيومين وقد فاته المطلوب، فاقتتلوا، وحمل قارودبك على الميمنة فطحنها، واستأمن أكثر أهلها إليه، ثم حمل على الميسرة فكسرها، وملكشاه والوزير في القلب، فحملا عليه، فاندق هارباً، وأسر أولاده.

فلما كان من الغد جاء إلى السلطان سوادي فقال: أخوك في القرية الفلانية مع ولد له، فابعث معي من يأخذه. فسار السلطان ملكشاه بنفسه وقدم بين يديه جماعة، فوصلوا إلى قارودبك وحملوه مقيداً وجاءوا به إلى ملكشاه ماشياً، فأومأ إلى الأرض وقبل يد السلطان، فقال له: يا عم، كيف أنت من تعبك؟ أما تستحي من هذا الفعل؟ أنت ما قعدت لأخيك في عزاء ولم تنفذ إلى قبره ثوباً تطرحه عليه، والغرباء قد حزنوا عليه، وأنت أخوه اطرحت وصيته وأظهرت الشماتة به والسرور بموته، لكن لقاك الله سوء فعلك.

فقال: والله ما قصدت ذلك، ولكن عسكرك كاتبوني ليلاً ونهاراً بالتعجيل، فجئت لأمر قضاه الله، فحملوه إلى همذان مقيداً، فقال بعض الحاضرين: سبحان الله، لقد ملك هذا الرجل ملكاً عظيماً: كرمان ثم عُمَان، ثم فارس، وكان يتمنى هلاك أخيه ويتصور ملك الدنيا بعده.

وكان هلاكه مقروناً بهلاكه، وكذلك قُتُلْمُش مع عمه طغرلبك، فإنه كان ينظر في النجوم، ويحقق القطع الذي مات عمه فيه، ويتصور أنه يملك من بعده، فكان هلاكه مقروناً بهلاكه.

ولما كان يوم الأربعاء ثالث شعبان سنة خمس وستين وأربعمائة قتل قارودبك، تولى خنقه رجل أعور أرمني من أصاغر الحاشية بوتر قوس بعد أن بذل التوبة من النظر في ملك، وتسليمه

أمواله وبلاده وقلاعه، والرضى بالمقام في مسجد، والاعتقال، والإبقاء على نفسه.

ثم إن ملكشاه جمع أولاده وصهره إبراهيم بن ينال ثم كحلوا بين يديه، وقدم سلطان شاه إسحاق بن قارودبك وهو أكبر اخوته وأنجبهم، وهو حين بقل عذاره، فأخذ اخوته الصغار واحداً بعد واحد وجعل يضمه إليه ويقبله ويقول: هذا قضاء الله فلا تجزعوا فإن الموت يأتي على جميع الناس. وكحل وكحلوا ومات منهم اثنان ولم يهن هذا لأمر على العسكر وشغبوا ولعنوا نظام الملك في وجهه وملكشاه وقالوا: ما بهذا أوصى ألب أرسلان وكان قد أوصى لقارودبك بكرمان وفارس وعين له مالاً وأن يتزوج بخاتون الشقيرية . ثم إن نظام الملك استمالهم بالإقطاعات والأموال.[1]

١. المصدر السابق، ج٢٤، ص٨١-٨٢.

صبح الأعشى للقلقشندي

ورد اسم عمان في هذا الكتاب حين تحدث القلقشندي عن أنواع العَنْبر:

قال التميمي: وألوان العنبر مختلفة، منها: الأبيض، وهو الأشهب، والأزرق، والرمادي، والجزازي، وهو الأبرش، والصفايح وهو الأحمر؛ وهما أدنى العنبر قدراً. قال: وأفضل العنبر وأجوده؛ والذي وقفت على ذكره منه ستة أضرب: الأول: الشِّحْري وهو ما يقذفه بحر الهند إلى ساحل الشِّحْر من أرض اليمن. قال: وهو أجود أنواع العنبر، وأرفعه، وأفضله وأحسنة لوناً، وأصفاه جوهراً وأغلاه قيمة.

الثاني: الزنجي وهو ما يقذفه بحر البربر الآخذ من بحر الهند في جهة الجنوب إلى سواحل الزنج وما والاها.

قال التميمي: وزعم الحسين بن يزيد السيرافي أنه أجود العنبر وأفضله، ويؤتى به منها إلى عدن، ولونه البياض.

الثالث: السلاهطي قال التميمي: وأجوده الأزرق الدسم الكثير الدهن، وهو الذي يستعمل في الغوالي.

الرابع: القاقلي وهو ما يؤتى به من بحر قاقلة من بلاد الهند إلى عدن من بلاد اليمن، وهو أشهب جيد الريح، حسن المنظر خفيف، وفيه يبس يسير، وهو دون السلاهطي لا يصلح للغوالي إلا عن ضرورة؛ وهو صالح للذرائر المكسات.

الخامس: الهندي وهو ما يؤتى به من سواحل الهند الداخلة، ويحمل إلى البصرة وغيرها؛ ومنه نوع يؤتى به من الهند يسمى: الكرك بالوس، يأتون به إلى قرب عمان تشتريه منهم أصحاب المراكب.

السادس: المغربي وهو ما يؤتى به من بحر الأندلس فتحمله التجار إلى مصر؛ وهو أردأ الأنواع كلها، وهو شبيه في لونه بالعنبر الشحري. قال التميمي: ويغالط به فيه.

قال التميمي: ومن العنبر صنف يعرف بالنَّدِّ؛ ونقل عن جماعة من أهل المعرفة أن دابّة تخرج من البحر شبيهة ببقر الوحش فتلقيه من دبرها فيؤخذ وهو لين يمتد، فما كان منه عذب الرائحة حسن الجوهر فهو أفضله وأجوده. قال: وهو أصناف: أحدها الشِّحْري وهو أسود فيه صفرة،يخضب اليد إذا لمس، ورائحته كرائحة العنبر اليابس، إلا أنه لا بقاء له على النار، وإنما يستعمل في الغوالي إذا عز العنبر السلاهطي. ومنه: الزنجي وهو نظير الشحري في المنظر ودونه في الرائحة؛ وهو أسود بغير صفرة. ومنه: الخمري وهو يخضب اليد وأصول الشعر خضباً جيداً، ولا ينفع في الطيب.[1]

ويرد ذكر عمان أيضا حين يتحدث القلقشندي عن جزيرة العرب:

قال في اللباب: بضم العين المهملة وفتح الميم ونون في الآخر بعد الألف. قال الأزهري: وسميت بعُمَانَ بنِ نعسان بن إبراهيم عليه السلام، وموقعها في الإقليم الأول.

قال: وهي على البحر تحت البصرة. قال المهلبي: وهي مدينة جليلة، بها مرسى السفن من السند والهند والزنج، وليس على بحر فارس مدينةٌ أجلُّ منها، وأعمالها نحو ثلثمائة فرسخ، قال: وهي ديار الأزد قال في تقويم البلدان: وهي بلدة كثيرة النخل والفواكه، ولكنها حارّة جداً. وكانت القَصَبةُ في القديم مدينةَ صُحَار. قال في تقويم البلدان: بضم الصاد وفتح الحاء المهملتين كما في الصحاح. قال: وهي اليوم خَرَاب.[2]

ويورد القلقشندي نص الرسالة التي وجهها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أهل عمان:

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم، إلى جيفرٍ وعبدٍ ابني الجلندى ملكي عمان.

وهو: " مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى جَيْفَرٍ وَعَبْدٍ ابْنَيِ الْجُلَنْدِيِّ، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمَا بِدَاعِيَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِمَا تَسْلَمَا، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَإِنَّكُمَا إِنْ أَقْرَرْتُمَا بِالإِسْلامِ وَلَّيْتُكُمَا، وَإِنْ أَبَيْتُمَا أَنْ تُقِرَّا بِالإِسْلامِ فَإِنَّ مُلْككُمَا زَائِلٌ عَنْكُمَا، وَخَيْلُ تَحِلُّ بِسَاحِتِكُمَا، وَتَظْهَرُ نُبُوَّتِي عَلَى مُلْكِكُمَا ". وكتب أبي بن كعب.

١. أبو العباس القلقشندي. صبح الأعشى، د.ت (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٣)، ص ١١٧-١١٨.
٢. المصدر السابق، ج٥، ص ٥٥.

وفي رواية ذكرها أبو عبيد في كتاب الأموال أنه كتب إليهما: "من محمدٍ رسول الله لعباد الله أسيد بن ملوك عمان، وأسيد عمان: من كان منهم بالبحرين، إنه إن أمنوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأطاعوا الله ورسوله وأعطوا حق النبي صلى الله عليه وسلم ونسكوا نسك المسلمين، فإنهم آمنون، وإن لهم ما أسلموا عليه، غير أن مال بيت النار ثُنُيَا لله ورسوله، وإن عُشور التمر صدقة، ونصفَ عُشور الحَبِّ، وإن للمسلمين نصرَهم ونصحَهم، وإن لهم على المسلمين مثلَ ذلك، وإن لهم أرحاءً يطحنون بها".

قال أبو عبيد: وبعضهم يرويه لعباد الله الأسْبَيِيْن اسماً أعجمياً نسبهم إليه. قال: وإنما سُمّوا بذلك لأنهم نُسِبوا إلى عبادة فَرَس، وهو بالفارسية أَسَب فنُسبوا إليه، وهم قومٌ من الفُرْس وفي رواية من العَرَب.[1]

ويرد اسم عمان أيضا في صبح الأعشى حين يتحدث القلقشندي عن رسالة بعثها عَلَم من أعلام النقد و البلاغة في العصر العباسي هو أبو إسحق الصَّابي إلى أهل عمان أيامَ حكم البويهيين لها. يقول القلقشندي:

وهذه النسخة كتاب من ذلك، كتب به أبو إسحاق الصابي عن الطائعِ لله إلى من بصُحَارَ وسَوَادِها، وجبالِ عُمَانَ وأعمالِها، وحاضرتِها وباديتِها، بالأمر بالاجتماع على الطاعة، وهي:

أما بعد، فإنّ أميرَ المؤمنين للذي حمّله الله من أعباءِ الإمَامِة، وأهّله له من شَرَفِ الخِلافة، واستودعه من الأمَانِةِ في حِياطةِ المسلمين، والاجتهادِ لهم في مصالحِ الدنيا والدين، يرى أن يُراعيَ مَنْ بَعُدَ منهم ونأى، كما يُراعيَ من قَرُب ودَنَا، وأن يُلاحِظ جماعتَهم بالعين الكالية، ويَطلبَهم بالعين الوافية، ويتصفّحَ ظواهرَ أمورِهم، وبواطنَ دواخلِهم، فيحمدَ من سلك نهج السلامة، ويُرْشِدَ من عَدَل عن الاستقامة، ويُنظّمَ شملَ الجماعة على الأُلْفة التي أمر الله بها وحضّ عليها، ويُزيلَهم عن الفُرْقة التي ذمّها ونهى عنها، إذ يقول جل من قائل: "وَأَطِيعُوا اللَّه وَرَسُوله وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَب رِيحكُمْ": "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا". فلا يَزالُ أميرُ المؤمنين يُعرِّفهم ما افترض اللّهُ عليهم من طاعةِ الأئمةِ وأولي الأمرِ الذين لا عصمةَ لمُخَالِفهم، ولا ذمّةَ لمُعانِدِهم، ولا عُذرَ لمسلمٍ ولا معاهدٍ نأى بجانبه عنهم، وضلّ بوجهِه عن سبيلهم، إذ كان الإمامُ حجةَ الله على خلقه، وخليفتَه في أرضِه، وكانت الطاعةُ واجبةً له ولمَنْ قلّده أزِمّةَ أمورِه، واستنابه في حمل الأعباء

١. المصدر السابق، ج٦، ص ٣٨٠-٣٨١.

عنه، فمَنْ آنَس منه الهدايةَ أحْمَدَه، ومن أنكر منه الغَوَاية أرشده بالوعظ ما اكتفى به، أو بالبسط إنْ أُحْوِج إليه. وإنّ أميرَ المؤمنين يَسأل الله أن يُوفقَه للرأي السديد، ويُمدَّه بالصنع والتأييد، ويتولاه بالمعونة على كل ما لمّ الشعث، وسَدّ الخللَ، وقوّم الأوَدَ وعدّل المَيْل، وأحسن العائدةَ على المسلمين جميعاً في شرقِ الأرض وغَرْبِها، وسَهْلِها وحَزْنِها، إنه بذلك جديرٌ، وعليه قدير، وما توفيق أميرِ المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه يُنيب.

وقد علمتم أنّ أميرَ المؤمنين أحسنَ إلى الرعيّة بما كان فوّضه إلى عَضُدِ الدولة وتاجِ المِلّة -رحمة الله عليه- من سياستِهم بادياً، ثم أحسنَ باستخلاف عديلِه وسليلِه صمصامِ الدولة وشمسِ الملة ثانياً، إذ كان خِيرةَ أمير المؤمنين وصفوتَه، وحُسامَه ومِجَنَّه، والموردَ المُصْدرَ عنه بالعهدين المُستمرِّيْن: من أمير المؤمنين بالنصِّ عليه، ومن الوالدِ -رحمه الله- بالوصية إليه. وإن هذه العقودَ المؤكدة، والعهودَ المشدّدة، مُوجِبةٌ على الكافّةِ طاعةَ من حصلتْ له، أو استقرتْ بوثائقِها في يده؛ إذ لا يصِحُّ مِنْ حاكمٍ حُكْم، ولا مِنْ عاقدٍ عَقد، ولا من والٍ إقامةُ حد، ولا من مسلمٍ تأديةُ فرضٍ حتى يكونَ ذلك مَبْنيّاً على هذا الأصل، ومُداراً على هذا القُطْب، وإن كان خارجٌ عنهما وراضٍ بخلافهما، خرج عن دينه، أثِم بربِّه، بريء من عصمته، وأنتم من بين الرعية فقد خُصِصْتم سالفاً بحُسْنِ النظر لكم، وعُرِفتْ الطاعةُ الحسنةُ منكم، فتقابلت النعمة والشكر، تقابلاً طاب به الذِّكْر، وانتظم به الأمر. ثم حدثت الهَفْوةُ المعترضة قُبَيل، فكان أميرُ المؤمنين موجِباً للمعاقَبة المُوجبة على الجاهلِ المُوضَعِ في الفتنة، والمعاتبةِ المُمضّةِ على الحكيم منكم القاعدِ عن النُّصْرة، إلى أن وردت كتُبُ أستاذِ هرمز بنِ الحسن، حاجبِ صمصامِ الدولة، باستمراركم على كلمةٍ سواء، في نُصْرة الأولياء، والمحاماةِ دونَهم، ومدافعةِ الأعداء والمُراماةِ لهم. فوقع ذلك من أمير المؤمنين أحسنَ مُواقعة، ونزل لديه ألطفَ مُنازَله، وأوجب لكم به رضاه المقترنَ برضا الله سبحانه، المُوجبَ للقُرْبة والزلفى عنده، وأمير المؤمنين يأمرُكم بالدوام على ما أنتم، والثباتِ على ما استأنفتم، المبادرةَ إلى كل ما يأمرُكم به فلان الوالي عليكم من صَمْصَامِ الدولة بالاستخلاف والتفويض، ومِن أمير المؤمنين، بالإمضاء لما أمضاه، والرضا بما يرضاه، فاعلموا ذلك من رأي أمير المؤمنين وأمره، وانتهوا فيه إلى حَدِّه ورَسْمه، وكونوا لفُلان الوالي خيرَ رعية، يكن لكم خيرَ راعٍ، فقد أُمِر فيكم بحُسْنِ السيرة، وإجمالِ المعاملة، وتخفيفِ الوطأة، ورفعِ المَؤُونة، وجُعِلَ إليه عقابُ المسيء، وثوابُ المحسن، ومسالمةُ المسالم، ومحاربةُ المحارب، وأمانُ المستأمِن، وإقالةُ المستقيل، وحَمْلُ الجماعة على سواء السبيل، إن شاء الله تعالى.[1]

١. المصدر السابق، ج٦، ص ٤١٢-٤١٤.

معجم الشعراء للمرزباني

يرد اسم عمان في هذا الكتاب حين يذكر المرزباني ممن تسمى من الشعراء باسم عائذ:

عائذ بن سلمة الأزدي وقيل هو سَلمَة بن عائذ الأزدي ملك عُمَان.

وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وقال:

رأيتَـكَ يـا خَيْـرَ البريّـةِ كلِّهـا

نشـرتَ كتابـاً جـاء بالحـقِّ مُعْلِمـا[1]

ويرد أيضا حين يذكر المرزباني ممن تسمى من الشعراء باسم القُحَيْف:

القُحَيْف العَنْبري. ذكره أبو عبيدة وهو بصري. يقول في قتل مسعود ابن عمرو الأزدي وهَرَبِ عبيد الله بن زياد عن البصرة:

فِـدىً لقـومٍ قتلـوا مسـعوداً

واسـتلبوا يَلْمَعَـهُ الجديـدا

واستلأموا ولبسوا الحديدا

وله:

جـاءتْ عُمَـانُ دَغَـرى، لا صَفّـا

بَكْـرٌ، وجَمْـعُ الأُسْـدِ حيـن التفّـا[2]

١. أبو عبد الله المرزباني. معجم الشعراء، تحقيق: فاروق أسليم (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٥)، ص ٢٠٧.
٢. المصدر السابق، ص ٢٥٥.

ويرد أيضا حين يذكر المرزباني ممن تسمى من الشعراء باسم مُضَرَّس:

مُضَرَّسُ بن دَوْسي. يقول لأزدِ عُمان:

إذا الحـربُ شـالـتْ لا قِحاً وتحدّمـتْ
رأيـتَ وجـوهَ الأزْدِ فيهـا تَهَلّـلُ
حيـاءً، وحِفْظـاً ،واصْطبـارا، وإنّهـم
لهـا خُلِقـوا، والصّبْـرُ للمـوتِ أجْمَـلُ
هـمُ يمنعـون الجـارَ من كُلِّ حادثٍ
ويمشـون مَشْـيَ الأُسْـدِ حين تَبَسَّلُ
تـرى جارَهـم فيهـا مَنيعـاً مُكرَّمـا
علـى كل مـا حـالٍ يُحَـبُّ ويُوصَـلُ
إذا سِـيم جـارُ القَـومِ ذُلّا فجارُهـمْ
عزيـزٌ حِمَـاه فـي الحِمَايـةِ يَعْقِـلُ[1]

١. المصدر السابق، ص ٢٦٣.

نور القبس للمرزباني

يرد ذكر عمان في كتاب نور القبس حين يترجم المرزباني للعلامة أبي عمرو بن العلاء. يقول:

وقال (أبو عمرو بن العلاء): لقيت أعرابياً فقلت: من أين أنت؟ قال: من عمان. فقلت: صف لي أرضك! فقال: سِيفٌ أفْيَح، وفَضَاءٌ صَحْصَح، وجَبَلٌ صَلْدَح، ورَجُلٌ أصْبَح. فقلتُ: فمَالُك؟ قال: النَّخْل. قلتُ: فأين أنتَ عن الأبِل؟ قال: إنّ النّخْلَ حَمْلُها غِذَاء، وسَعَفُها ضِيَاء، وجِذْعُها بِنَاء، وكَرَبُها صِلَاء، ولِيفُها رِشَاء، وخُوصُها وِعَاء، وقَرْوُها إنَاء.

وقال رجل لأبي عمرو لم سُمِّيَتْ الخَيْلُ خَيْلا وإنما هي الدّوَاب؟ فلم يكن عنده جواب. فقال أعرابي حَضَرَهم: سُمِّيَتْ خيلاً لاختيالِها.

أبو عمرو عن أبيه عن ابن عباس أنه قال: إنّ لكل داخلٍ دَهْشَة فالْقَوْه بالتّحِيّة. وقال أبو عمرو: جِنَان الدُّنيا ثلاثة: نَهْرُ الأُبُلَّة وغُوطَة دِمَشْق وسُغْدُ سَمَرْقَنْد؛ وحُشُوشُ الدُّنيا ثلاثة: هِيتُ وأردبيلُ وعُمَان.[1]

يرد ذكر عمان في كتاب نور القبس أيضا حين يترجم المرزباني للعَلّامة العماني الخليل بن أحمد الفراهيدي. يقول عنه:

لم نجد في نسبه زيادة على اسم أبيه، ويقول البصريون: لايُعرفُ أحدُ سُميّ بأحمدَ بعد النبي صلى الله عليه وسلم قبل أبيه، وهو من الأزْد من حَيٍّ يقال لهم الفَرَاهيد. وسُئل: من أيِّ العرب أنت؟ فقال: فراهيدي. ثم سئل، فقال: فَرْهُودي. قال أبو العباس: قوله "فراهيدي" انتسب إلى فراهيدَ بنِ مالك بن فَهْم بن عبد الله بن مالك بن نَصْر بن الأزد، وكان من أنفُسِهم صحيحُ النسب معروفُ الأهل؛ وقوله "فُرْهُودي" انتسب إلى واحد الفراهيد وهو فُرْهُود، والفراهيد صغار الغنم. وكان من أهل عُمَانَ من قرية من قُراها. ثم انتقل إلى البصرة. وكان من

١. أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني. نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء، تحقيق: رودلف زلهايم (ألمانيا: فرانتس شتاينر بفيسبادن، ١٩٦٤)، ص٣٦.

أزهدِ الناس وأعلاهم نَفْساً؛ وكان يعيش من بستان له بالخُريبة خلفه له أبوه. وكان يَحجُّ سنة ويغزو سنة إلى أن مات.

وكان يقول: أشتهي أن أكون عند الله من أرفع الناس وعند الناس من أوسط الناس وعند نفسي من أسفل الناس. وكان يدعو بذلك. ومر بقوم يتكلمون فيه فقال "من الطويل":

سأُلزمُ نفسي الصَّفحَ عن كلِّ مذنبٍ
وإن كثرتْ منه عليَّ الجرائمُ
فما النَّاسُ إلَّا واحدٌ مِن ثلاثةٍ
شَريفٌ ومَشْروفٌ ومِثْلٌ مُقَاوِمُ
فأمَّا الذي فوقي فأعرفُ فضلَه
وأتبعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازمُ
وأمَّا الذي مثلي فإنْ زلَّ أو هفا
تفضَّلتُ إنَّ الفضلَ بالعِزِّ حاكمُ
وأمَّا الذي دوني فإنْ قال صُنتُ عن
إجابتِه عِرْضي وإن لام لائمُ

وقال: قدمت من عُمان ورأيي رأي الصُّفْرية، فجلستُ إلى أيوبَ بن أبي تميمةَ السّختياني، فسمعته يقول: إذا أردتَ أن تعْلمَ علمَ أستاذِك فجالس غيرَه! فظننتُ أنه يعنيني، فلَزِمتُه فنفعني الله به.

قال يونس: قلت للخليل: مابال أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنهم بنو أمٍّ واحدة وعليُّ بن أبي طالب عليه السلام كأنه ابن عَلّة؟ فقال: من أين لك هذا السؤال؟ قلت: أريد أن تجيبني! فقال: على أن تكتمَ عليَّ مادمتُ حياً! قلت: أجل! فقال: تقدمهم إسلاماً وبذّهم شرفاً وفاقهم علماً ورَجَحَهم حِلماً وكَثَرَهم زُهْداً وأنجدَهم شجاعة، فحسدوه، والناس إلى أمثالهم وأشكالهم أميل منهم إلى من فاقهم وكثرهم ورجحهم.

وقال ابن سلام: لم يكن في العرب أذكى من الخليل بعد الصحابة ولا في العجم أذكى من ابن المُقَفّع ولا أجمعَ من حمّاد بن زيد. وقد ضربت الشعراء الأمثال في أشعارهم بالخليل، قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي يهجو الأصمعي "من الوافر":

أليس من العجائب أنّ قِرْداً
أُصَيْمِعَ باهلياً يستطيلُ
ويَزعمُ أنه قد كان يُفتي
أبا عمرو ويسألُه الخليلُ

وقال خالد النجار يهجو التَّوَّزي "من الكامل":

يا مَنْ يزيد تَمقّتاً
وتباغُضاً في كل لَحْظَهْ
واللهِ لو كنتَ الخليلَ
لمَا رَوَيْنا عنكَ لَفْظهْ

وقيل لابن المقفع: كيف رأيتَ الخليل؟ قال: رأيتُ رجلاً عَقْلُه أكثرُ من عِلْمِه. وقيل للخليل: كيف رأيتَ ابن المقفع؟ قال: رأيتُ رجلاً عِلْمُه أكثرُ من عَقلِه. قال المغيرة بن محمد: صَدَقا، أدّى عقلُ الخليلِ إلى أن مات أزهدَ الناس، وجهلُ ابنِ المقفع إلى أن قُتِل. وذلك أنه كتب كتاباً لعبد الله بن علي إلى المنصور، فقال فيه ما كان مستغنياً أن يقوله، كتب: ومتى غَدَر أميرُ المؤمنين بعَمِّه عبدِ الله بن علي فنساؤه طوَالِق ودَوابُّه حَبيس وعبيدُه أحرار والمسلمون منه في حِلٍّ من بيعته. فاشتد ذلك على المنصور جداً وخاصة أمر البيعة، فكتب إلى سفيان بن معاوية المهلبي- وهو أمير البصرة من قِبَلِه- أن اقتلْ ابنَ المقفع! فقتله.

وقال الخليل يمدح كتابي عيسى بن عمر في النحو "من الرمل":

بَطَلَ النَّحْوُ الذي جَمّعْتُمُ
غَيْرَ ما أحْدَثَ عيسى بنُ عُمَرْ

ذاكَ إكمالٌ وهذا جامِعٌ
وهما للناسِ شمسٌ وقَمَرْ

وعن عيسى أخذ الخليلُ النحوَ، وأخذ عن الخليل جماعةٌ لم يكن فيهم مثلُ سيبويه، وهو أعلم الناس بعد الخليل، فألف كتابَه الذي سماه الناس قرآنَ النحو، وعقد أبوابَه بلفظهِ ولفظِ الخليل.

قال النّضْرُ بن شُمَيْل: كان أصحابُ الشِّعْرِ يمرون بالخليل فيتكلمون النحو، فقال الخليل: لا بد لهم من أصل. فوضع العَروض، فخلا في بيت ووضع بين يديه طَسْتاً، فجعل يقرعه بعود ويقول: فاعِلنْ مُستفعلنْ فعولن. قال: فسمعه أخوه فخرج إلى المسجد فقال: إن أخي قد أصابه جنون! فأدخلهم على الخليل وهو يضرب الطّسْتَ، فقالوا: يا أبا عبد الرحمن، مالَك؟ أصابك شئ؟ أتحبُّ أن نعالجَك؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: أخوك يزعم أنك قد خُولِطتَ. فأنشأ يقول:

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عذَرْتَني
أو كنتُ أجهلُ ما تقول عَذَلْتُكا
لكن جهلتَ مقالتي فعذلتَني
وعلمتُ أنكَ جاهلٌ فعذَرْتُكا

دخل أعرابي مسجدَ البصرة فطاف على الخلق وسمع ما يقولون حتى صار إلى حلقة الخليل، فسمعهم يتذاكرون النحو والشعر حتى أفضوا إلى دقيق النحو والعروض، فقام عنهم وقال:

ما زال أخذُهمُ في النَّحْوِ يُعْجبني
حتى تعاطوا كلامَ الزِّنْجِ والرُّومِ
حتى سمعتُ كلاماً لستُ أعرفه
كأنه زَجَلُ الغِرْبانِ والبُومِ
رفضتُ نَحْوَهمُ والله يعصمني
من التّقَحُّمِ في تلكَ الجَراثيمِ

وكان الخليل منقطعاً إلى الليث بن رافع بن نصر بن سيّار صاحبِ خُراسان، وكان من أكتب الناس وكان بارعَ الأدب وكان كاتباً للبرامكة. فأراد الخليلُ أن يُهدي له هديّة، فعلم أن المالَ والأثاثَ لا يقعان عنده موقعاً، فصنّف له كتابَ العَيْن الّذي لم يُوضَعْ مثله. فوقع عنده موقعاً جسيماً، وحَفِظ نصفَه. وكانت له بنتُ عَمٍّ تحته عاقلة، فابتاع جارية بارعةَ الجَمال، فبلغها ذلك فنالتها عليه غيرة، فقالت: لأغظينّه! وعمدتْ إلى الكتاب فأحرقته لعلمها بإعجابه به. فطلب الليث الكتاب. فطلب نسخة للكتاب، فأعوزته لأن الخليل كان قد خصه به. فاستدرك النصف من حفظه وجمع على النصف الباقي أدباءَ زمانه، فمثلوا على النصف الأول ولم يلحقوا، فالنصف الأخير الذي في أيدي الناس ليس من تصنيف الخليل.

وهو أول من جمع الحروف في بيت فقال "من البسيط":

صِفْ خلقَ خَوْدٍ كمثل الشمس إذ بَزَغتْ
يحظى الضجيعُ بها نجلاءُ مِعْطارُ

وله ثلاثة أبيات على قافية واحدة وهي "من السريع":

يا وَيحَ قَلبي مِن دَواعي الهَوى
إذ رَحَلَ الجيرانُ عِندَ الغُروبْ
أَتبَعتُهُم طَرفي وَقَد أَمعَنوا
وَدَمعُ عَينَيَّ كَفَيضِ الغُروبْ
بانوا وَفيهم طَفلَةٌ حَرَّةٌ
تَفتَرُّ عَن مِثلِ أَقاحي الغُروبْ

وقال "من المتقارب":

كَفَّاكَ لَمْ تُخْلَقا لِلنَّدى
ولَمْ يَلكُ لُؤْمُهُما بِدْعَهْ
فكَفٌّ عن الخَيرِ مَقبوضَةٌ
كما حُطَّ عن مائةٍ سَبْعَهْ

وأُخْـرَى ثلاثَـةُ آلافِهـا

وتِسْـعُمِئِيها لهـا شِـرْعَهْ

وهذا مما أبدع فيه الخليل ولم يسبق إليه أنه وصف انقباض اليدين بحالين من الحساب مختلفتين في القدر متشاكلين في الصورة وهما ثلاثة وتسعون وتسعمائة وثلاثة آلاف. وأنشد المبرد لغيره في معناه " من الوافر":

ومـا تسـعون تخفِرهـا ثـلاثٌ

يشـدُّ بعقدهـا رجـلٌ شـديدُ

بكـفٍّ حُزْقَـةٍ جُمِعـتْ لـوَجءٍ

بأنكـدَ مـن عطائـكَ يـا يزيـدُ

وقال الخليل على وزن فَعْلُنْ فَعْلُنْ "من المتدارك":

يَعْـدو عمـرو يسـتنهي مـن

زيـدٍ عنـد الفضـلِ القاضـي

فانْهَـوْا عَمْـراً إنـي أخشـى

صـولَ الليـثِ العادي الماضي

ليـس المـرءُ الحامـي أنفـاً

مثـلَ المـرءِ الصّشْـم الراضـي

وقال على وزن فَعِلُنْ فَعِلُن "من المتدارك":

سُـئِلوا فأبـوا فلقـد بخِلـوا

ولبئـس لَعَمْـرُكَ مـا فعلـوا

أبكيـتَ علـى طَلَـلٍ طرَبـاً

فشـجَاكَ وأحزنـكَ الطَّلَـلُ

وقال: إن لم تعلّم الناسَ ثوابا فعلّمهم لتدرسَ بتعليمهم ما عندك! ولا تجزع ممن يقرع السؤال فإنه ينبهك على علم ما لم تعلم! وقال: العلوم أقفال والسؤالات مفاتيحها.

وقال: أخرج من منزلي فألقى رجلاً من أربعة رجال: رجلاً أعلمَ مني فهو يوم فائدتي، أو رجلاً مثلي فهو يوم مذاكرتي، أو رجلاً متعلماً فهو يوم ثوابي وأجري، أو رجلاً دوني في الحقيقة وهو يرى أنه فوقي وهو يحاول أن يتعلم مني وكأنه يعلمني، فذاك الذي لا أكلمه ولا أنظر إليه. وقال "من البسيط":

العِلْـمُ يُذْكـي عقـولاً حيـن يصحبهـا
وقـد يُزيّدُهـا طـولُ التجاريـبِ
وذو التـأدُّبِ فـي الجُهّـالِ مغتـربٌ
يـرى ويسـمعُ ألـوانَ الأعاجيـبِ

وقال: الرجال أربعة: فرجلُ يدري ويدري أنه يدري فذاك عالم، فاتبعوه! ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذاك ناسٍ، فأذكروه! ورجلُ لايدري ويدري أنه لايدري فذاك جاهل، فعلموه! ورجلٌ لايدري ولايدري أنه لايدري فذاك مائق، فاحذروه! وقال "من السريع":

مـا اتّسَـعَتْ أرضٌ إذا كان مَـرْ
تُبغـضُ في شـئٍ من الأرضِ

وله "من الطويل":

رُبَّ امـرئٍ يجـري ويـدري بأنه
إذا كان لايـدري جهـولٌ بمـا يجري
وتجـري ولاتدري بأنكَ من عَمًى
لأنـكَ لاتـدري بأنـك لاتـدري

وقال أبو عثمان الناجم: أنشدنا الناشئ لنفسه في داود بن علي الإصبهاني " من الطويل " :

أقـول كمـا قـال الخليـلُ بـن أحمـدٍ
وإن شـتَّ ما بين النِّظامينِ في الشِّعْرِ
عذلـتَ علـى مالـو علمـتَ بقـدْرِه
بسـطتَ مكانَ العَذْلِ واللومِ من عُذْري
جهلـتَ ولـم تعلـم بأنـكَ جاهـل
فمـن لي بأن تدري بأنـكَ لاتدري

وقال "من البسيط":

اعمل بعِلْمي وإن قصّرتُ فـي عملي
ينفعْكَ علمي ولا يَضُرُرْكَ تقصيري
وانظـرْ لنفسـكَ فيمـا أنـت فاعلـه
مـن الأمـور وشَـمِّرْ فـوق تشـميري

وقال: تكلم أربعة أملاك بأربع كلمات كأنها رمية واحدة، قال كسرى: أنا على رَدِّ مالم أقل أقدرُ مني على رد ما قلت. وقال قيصر: لاأندم على مالم أقل وقد أندم على ما قلت. وقال ملك الصين: إذا تكلمت بالكلمة ملكتني وإذا لم أتكلم بها ملكتها. وقال ملك الهند: عجبت لمن يتكلم بالكلمة وإن رفعت عليه ضرته وإن لم ترفع عليه لم تنفعه. قال الخليل: فطلبت لها نظائر في أشعار العرب فوجدتها، قال الشاعر "من الخفيف":

حَبْسُ ما لـم أقلْ عليَّ يسـيرٌ
وعسـيرٌ ردُّ الـكلامِ المقـولِ

وقال آخر "من الكامل":

مـا لـم أقُلْـه فـلا أُشِـعْه نَدَامـةً
ومتى أقُلْ يكثرْ عليَّ تَندّمي

وقال آخر "من الطويل":

كلامُكَ مملوكٌ إذا لم تَفُهْ به

وتلقاه إنْ أطلقتَه لكَ مالِكاً

وقال آخر "من الرجز":

عجبتُ للقائلِ قولاً هَذَراً

متى يَشِعْ يُدْنِ إليه ضَرَرا

وليس بالنَّافعِ إمّا سُتِرا

وقال يزيد بن المهلب للخليل: يا أبا عبد الرحمان، ما تقول في السماح؟ فقال: هو إلى الكرم ارتياح، وفي النعم امتناح، وليس فيه كبير جناح، يغفر الله عما فوقه، ويأخذ بما هو دونه، وما أحبُّ أن أُغَرَّ بقولي وَرَعاً، ولا أُهَزَّ طبِعا.

وسئل عن قولهم "من المتقارب":

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرْسِلاً

فأرْسِلْ حكيماً ولا تُوصِهِ

فقال: الحكيم الذي لا يحتاج إلى وصيّة: الدرهم. وقال: أكملُ ما يكون الرجل عقلاً وذهناً وهو ابن أربعين سنة، وهي السنُّ التي بعث الله رسولَه فيها، ثم يتغير وينقص إذا صار ابنَ ثلاث وستين، وهي السنُّ التي قُبِض صلى الله عليه وسلم فيها، وأصفى مايكون ذهنه في السَّحَر. وقال "من الوافر":

إذا ضيَقتَ أمراً زاد ضِيقاً

وإنْ هَوّنتَ صَعْبَ الأمرِ هانا

فلا تجزعْ لأمرٍ ضاق شيئاً

فكم صعبٍ تشدّد ثم لانا

وقال "من الوافر":

وما بَقِيَتْ من اللذاتِ إلا
محاورةُ الرجالِ ذوي العقولِ
وقد كانوا إذا عُدّوا قليلاً
فقد صاروا أقلَّ من القليلِ

وقال "من الوافر":

وما شيءُ أحَبَّ إلى لئيمٍ
إذا سَبَّ الكرامَ من الجوابِ
مُتَارَكةُ اللئيمِ بلاى جوابٍ
أشدُ على اللئيمِ من السِّبَابِ

وقال: الزاهد من لايطلب المفقودَ حتى يفقد الموجود. وقال: الجود بَذْلُ الموجود. وقال: الأيام ثلاثة: معهود ومشهود وموعود، فالمعهود أمسِ والمشهود اليومَ والموعود غداً. وقال "من الرجز":

حَسْبُكَ ممّا تبتغيه القوتُ
ما أكثرَ القوتَ لمَنْ يَموت

وقال "من مجزوء الرجز":

غرَّ جهولاً أملُه
حتّى يوافي أجلُهْ
ومن دَنَا من حَتْفِه
لم تُغْنِ عنه حِيَلُهْ
لايَصْحبُ الإنسانَ من
دُنياه إلا عَمَلُهْ

قال ابن المعتز: يستحسن من شعر الخليل في وصف الدنيا وذمها وترك الحرص عليها قوله "من الطويل":

وما هي إلا ليلةٌ ثم يومُها
وحَوْلٌ إلى حولٍ وشهرٍ إلى شَهْرِ

مطايا يُقرِّبْن الجديدَ من البِلى
ويُدْنين أشلاءَ الكِرامِ من القَبْرِ
ويَتركْنَ أزواجَ الغيورِ لغَيْره
ويُبْعِدْنَ جُثْمانَ الشحيحِ من الوَفْرِ

وقال "من الكامل":

وإذا افتقرتَ إلى الذخائرِ لم تجدْ
ذُخْراً يكون كصالحِ الأعمال

وقال "من الكامل":

عِشْ مابدا لكَ، قَصْرُكَ الموتُ
لا مَزْحَلٌ عنه ولا فَوْتُ
بينا غِنَى بيتٍ وبهجتُه
زال الغِنى وتقوّض البَيْتُ
يا ليتَ شِعْري ما يُرَادُ بنا
ولقَلّما تُغْني إذا لَيْت

وقال "من الكامل":

المـرءُ ذو صـوتٍ يعيـش بـه
فـي الناسِ ثم سـينفذ الصوتُ

وقال "من الوافر":

يعيـشُ المـرءُ فـي أمَـلٍ
يُـرَدِّدُه إلـى الأبَـد
يُؤمِّـلُ مـا يُؤمِّـلُ مـن
صنـوفِ المـالِ والولـد
ولا يَـدري لعـلّ المـوتَ
يأتـي دونَ بعـدِ غَـد
فـلا يُبْقـي لوالِـدِه
ولا يُبقـي علـى وَلَـد

وقال "من الوافر":

أتبكـي بعـد شَـيْبٍ قـد عـلاكا
ولا ينهـاك شـيبُكَ عـن بُـكَاكا
فهَـلّا إذ بكيـتَ علـى التّصَابـي
بكيـتَ علـى الصَّبَابـة فـي صِبَـاكا

وقال: الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال. وقال "من الطويل":

تَكثّـرْ مـن الإخـوانِ مـا اسْـطَعْتَ
إنهـم بطـونٌ إذا اسـتنجدتَهم وظهـورُ

وما بكثيرٍ ألفُ خِلٍّ لعاقلٍ
وإنّ عَدُوًّا واحِداً لكثيرُ

وقال: إذا أخبرك بعيبك صديق قبل أن يخبرك به عدوٌ فأحْسِنْ شكرَه واقبلْ نُصْحَه، فإنك إن قبلتَه لم ينفعْه وإن رددتَه لم تضرَّ إلا نفسَك! ومَنْ أظهر لك عيوباً وكشف لك عن مكروه قناعاً فقِسْ ما غاب عنك بما ظهر لك من فعله! وأنشد "من الكامل":

ليس المُسيء إذا تغيّب سُوءه
عنّي بمنزلةِ المُسيء المُعْلِنِ
مَنْ كان يُظهر ما أُحِبُّ فإنه
عندي بمنزلةِ الأمينِ المُحْسِنِ

واللهُ أعلمُ بالقلوبِ وإنّما
لكَ ما بدا لكَ منهم بالألسُنِ

وكان الخليل قد نظر في النجوم وبالغَ وأشرفَ على مالا يُحِب، ثم لم يَرْضَها، فأنشأ يقول "من الخفيف":

أبْلِغا عنيَّ المُنَجِّمَ أنّي
كافرٌ بالذي قَضَتْه الكواكبْ
عالمٌ أنَّ ما يكونُ وماكان
بحُكْمٍ من المُهيمنِ واجبْ
شاهِدٌ أنَّ مَنْ يُفَوِّضُ أو يُجْبِرُ
زارٍ على المقاديرِ كاذبْ

قالت القَدَريّة: لايكون قَدَرٌ من الله عملاً مني. والمعنى: لايكون معنيان في شيء واحد. فكلم الخليل رجلاً منهم فأخذ عوداً فكسره وقال للقدري: أيُّ شيءٍ كان مني في هذا العود؟ قال: الكسر. قال: فأي شيءٍ كان من العود في نفسه؟ قال: الانكسار. قال: قد اجتمع المعنيان في شيء واحد الكسر والانكسار.

قال الخليل: بعث إليَّ المهدي، فأتيتُه وهو جالسٌ في الماء على سريرٍ له إلى صدره، فسلمت عليه. فقال لي: إني اشتهيتُ الحديثَ الساعة، فحدثني! ثم قال: حدثني عن القمر! فلم أدر عن أيه أحدثه، ثم عَرَض لي أن قلت: قيل للقمر: كم أنت ابنَ ليله؟ قال: رَضَاعُ سُخَيْلَه. قيل: لليلتين؟ قال: حديث أَمَتيْنِ بكَذِبٍ ومَيْن. قيل: ابنَ ثلاث؟ قال: حديثُ فتياتٍ مختلفات. قيل: ابنَ أربع؟ قال: عَتَمَةُ أَمِّ الرُّبْع. قيل: ابنَ خمس؟ قال: سِرْ وأَمْس. قيل: ابنَ ست؟ قال: سِرْ وبِت. قيل: ابنَ سبع؟ قال: عَشيّةُ جَمْع. قيل: لثمان؟ قال: قَمَرٌ إِضْحِيَان. قيل: لتسع؟ قال: مُثَقِّبُ الجِزْع. قيل: لعشر؟ قال: أبادِرُ الفَجْر. ثم قلت: يا أميرَ المؤمنين، قيل: لا يحفظ هذا الحديث إلا عاقل. قال: فخذه عليَّ! فأعاده كما حدثته. ثم دعا بثيابه فخرج، وأُتِينا بمائدة عليها خمسة قوالبَ كأنها الثلج، فأكل وقال: كل! فأكلت، فلم أر شيئاً قط أطيبَ منه. فقال لي: هذا المخ بالطَّبَرْزَدِ، وأُتي بشرابٍ شديدِ الحمرة حسنِ اللون، فشرب ثم قال: اشرب! فظننتُ أنه الخمر فقلت: لاأشرب من هذا. قال: اشربْ، لا أمَّ لك! فشربت شيئاً لم أشربْ مثله قط فوجدت بَرْدَه في عيني. فقال: هذا عصارة الرمان، وتفاحِ لبنان، وعسلِ إصبهان، وماء المَسْرُقان، وثلج ماسَبَذان، بزعفران. ثم خرجتُ من عنده بغير شيء.

ولما وَلِيَ سليمانُ بن حبيب المهلبي الأهوازَ زاره الخليل، فلم يحمد أمره، فرجع إلى البصرة وكتب إليه "من البسيط":

أبلغْ سليمانَ أني عنه في سَعَةٍ
وفي غِنىً غيرَ أني لستُ ذا مالِ
سَخّى بنفسيَ أنّي لاأرى أحدًا
يموت هَزْلاً ولايبقى على حالِ

وإنّ بين الغِنى والفقرِ منزلةً
مخطومةَ بجديدٍ ليس بالبالي
الرِّزْقُ عن قدرٍ لاالضَّعْفُ ينقصه
ولا يزيدُكَ فيه حَوْلُ مُحْتَالِ
إن كان ضنَّ سليمانٌ بنائِله
فالله أفضلُ مسؤولٍ لسُؤّال

فكتب يعتذر إليه، فلما أتاه الرسول أدخله منزله فأخذ خبزاً يابساً فبله بماء ثم قال للرسول: أبلغ سليمان أنا لاحاجة لنا فيه مادمنا نجد هذا! وقال وَهْبُ بن جرير: خرج أبي والخليل والفضل بن المؤتمن العتكي إلى سليمان بن الحبيب بن المهلب إلى الأهواز، فبدأ بعطاء الإثنين قبل الخليل، فكتب إليه الخليل بأبيات تمثل بها "من الكامل":

وَرَد العُفَاةُ المُعْطِشون فأصدروا
رِياً فطاب لهم لديكَ المَكْرَعُ
ووردتُ حوضَكَ ظامئاً متدفقاً
فرددتَّ دَلْوي شَنُّها يَتَقَعْقَعُ
وأراكَ تُمْطِرُ جانباً عن جانبٍ
وفناءُ أرضي من سمائكِ بَلْقَعُ
أبِحُسْنِ منزلتي تُؤَخِّرُ حاجتي
أم ليس عندك لي بخيرٍ مَطْمَعُ

ورحل عنه، فوّجه إليه بألف دينار، فردّها وقال: هيهات، أفلتت قائبةٌ من قُوبها! وقال: أبلغ سليمان الأبيات. وأنشد أبو هفّان للخليل "من البسيط":

وزلّةٍ يُكْثِرُ الشيطانُ إن ذُكرتْ
منها التعجبَ جاءت من سُليمانا

لاتعجبنّ لخيرٍ زلَّ عن يدِه
فالكوكبُ النّحْسُ يَسْقي الأرضَ أحيانا

وقيل: كان الخليل صديقَ سليمان بن حبيب، وكثُرَ الزوارُ، فتشاغل عنهم، فسألوا الخليلَ يُذكِّره بأمرهم، فكتب إليه "من الكامل":

لاتَقْبلَنَّ الشِّعْرَ ثم تَعُقُّه
وتنامُ والشعراءُ غيرُ نِيامِ
واعلمْ بأنهمُ إذا لم يُنْصَفوا
حكموا لأنفسِهم على الحُكّامِ
وجنايةُ الجاني عليهم تنقضي
وعِتَابُهم يبقى على الأيّامِ

لما دخل الخليل البصرة عزم على مناظرة أبي عمرو بن العلاء، فجلس في حلقته، ثم انصرف ولم ينطق. فقيل له: ماحملك على السكوت عن مناظرته؟ قال: نظرتُ فإذا هو رئيسٌ منذ خمسين سنة، فخفتُ أن ينقطعَ فيُفْتَضَحَ في البلد، فلم أكلِّمْه.

وقيل: أراد بعضُ آلِ المهلب أن يشتري أرضاً، فأشير عليه أن لايشتريها. وأشار عليه الخليل بشرائها، ففعل فرأى مايحب، فقال الخليل يصفها "من البسيط":

ترَفّعَتْ عن نَدَى الأعْماقِ وانْخَفَضَتْ
عن المَعَاطِشِ واسْتَغْنتْ بسُقْياها
فاعْتَمَّ بالطّلْحِ والزيتونِ أسفلُها
ومادَ بالنّخْلِ والرُّمّانِ أعلاها
وصار يَحْسِدُه مَنْ كان يَعْذِلُه
ولائِمٌ لام فيها قد تَمنّاها

أبـا معاويـةَ اشْـكُرْ فَضْـلَ واهبِهـا
وكلّمـا جِئْتَهـا فاعْمُـرْ مُصَلّاهـا

وعن الخليل أنه قال: كلم ابنُ عباس عبدَ الله بن الزبير في محمد بن الحنفية وقال: ماتريد من رجل كفّ لسانَه ويدَه عنك؟ اتقِ الله! فإنك قادمٌ على ربك. فقال له ابنُ الزبير: تكلمني في رجلٍ سخيفِ الرأي ضعيفِ العقل، ليس له بُذْمٌ ولادِين. فقال ابن عباس: رَمَاه الله بداءٍ لاشِفاء له إن كان شَرًّا منك في الدِّين والدنيا! فغضِب ابنُ الزبير وقال: أنت أيضاً تتكلم عندي؟! فقام ابنُ عباس، وندِم ابنُ الزبير على ما قال، وخرج من عند ابن الزبير من وَجْهِه إلى الطائف وقال: العجب من حُنَيْكِلٍ يَتعَجّب من كلامي عنده، وقد تكلمتُ غلاماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكرٍ وعُمَر وعثمانَ وعليٍّ رضي الله عنهم، يروننني أحقَّ مَنْ نَطق، يُسْتَمعُ قولي وتُقبَلُ مشورتي، ليحكَّ حُنَيْكِلٌ جرَبَه، ولا ينقاصَ عليَّ انقياصَ الكثيب! أظنَّ ابنُ الزبير أني مساعدُه على بني عبد المطلب؟! والله لأَنْمِلَةٌ من أنامِلِ ابن الحنفيّة أحبُّ إليَّ من ابن الزبير! والله إنه لأوْفَرُ منه عقلاً وأوفى منه عهداً وأكملُ منه رأياً وأفضلُ دِيناً وأصدقُ وَرَعاً! فمات ابنُ عباس بالطائف، وصلى عليه ابنُ الحنفية، كبّر عليه أربعاً وضرب عليه فُسْطاطاً وقال: دَفَنْتُم اليومَ خيرَ هذه الأمّة. قال ابنُ دريد: رجل بُذْم: إذا كان ذا قُوّة، وحُنَيْكِل تصغير حَنْكَل: وهو الصغير المُجْتمِع الخَلْق، ويَنْقاص: يتهدّم، وانقاصت سِنُّه: إذا انكسرت، وأنشد " من الطويل": :

فـراقٌ كقَيْـص السِّـنِّ فالصَّبْـرُ إنـه
لـكلِّ أُنـاسٍ عَبْـرةٌ وحُبُـورُ

قال الخليل: مرَّ بنا الفرزدق ونحن صِبْيان نلعب، وقد انصرف من المهالبة وهو على بَغْل، وكان قبيحَ الوجه، فجعلنا ننظرُ إليه، فوقف وقال "من الكامل": :

نظـروا إليـكَ بأعيـنٍ مُحْمَـرّةٍ
نظـرَ التيـوسِ إلى مُدى القَصّابِ

فقال له بعضنا: نظرنا إليك أنكَ مَلِيح، كما يُنْظَر إلى القِرْد وهو مليح، فصرف وجه بغلته

وانصرف. قال أبو العيناء: الخليلُ قال له هذه المقالة وهو صبي، ولكنه لم يحب أن يحكيه عن نفسه.

ويُرْوَى أن سَيّار بن هاني أبا إبراهيم بن سيّار النظّام جاء بابنه إبراهيم إلى الخليل، وقال: أحِبُّ أن يكون هذا الصبي بين يديك! فقال الخليل لإبراهيم كالعابث وفي دار الخليل نخلة: صِفْ لي هذه النخلة! قال: بمَدْحٍ أم بذَمّ. قال: بذم! قال: هي صعبة المُرْتَقَى خبيثة المُجْتنَى. قال: فصف زجاجتي هذه! يعني كأساً في يده. فقال: أبمَدْحٍ أم بذمّ؟ قال: بذم! قال: هي سَريعةُ الانكسار بطيئةُ الانجبار. فقال الخليل لأبيه: أنا أحتاجُ أن أتعلمَ من ابنِك هذا.

ومن شعر الخليل "من السريع":

ما أسْمَجَ النُّسْكَ بسَأّالِ
وأقْبَحَ البُخْلَ بذي المالِ
وأقْبَحَ الثروةَ ما لم تكنْ
عندَ أخي جُودٍ وإفْضالِ
والحِرْصُ من شَرِّ أداةِ الفتى
لاخيرَ في الحِرْصِ على حالِ
من بات محتاجاً إلى أهلِه
هانَ على ابنِ العمِّ والخالِ
ما وَقَع الواقِعُ في وَرْطةٍ
أزرى به من رِقّةِ الحالِ

وقال "من البسيط":

رُزِقتُ جوداً ولم أرْزَقْ مروءَتَه
وما المروءةُ إلا كثرةُ المالِ

إذا أردتُ مُسَامَاةً تقاعدني
عمّا يُنوِّه باسمي رِقّةُ الحالِ

وقال "من الوافر":

وهذا المالُ يُرْزَقُه رجالٌ
مناديلٌ إذا اخْتُبِروا فسولُ
ورِزْقُ الخَلْقِ مجلوبٌ إليهم
مقاديرٌ يُقدّرُها الجليلُ
كما تُسقى سِبَاخُ الأرضِ رِيًّا
وتُصرَفُ عن كرائِمِها السيولُ
فلا ذو المالِ يُرْزَقُه بعقلٍ
ولا بالمالِ تُقْتَسَمُ العقولُ

وقال في تفضيل شكر الشاكر على إنعام المنعم "من الطويل":

وما بلغ الإنعامُ في النّفْعِ غايةً
من الفضل إلا مبلغُ الشكرِ أفضلُ
وما بَلَغتْ أيدي المُنيلِينَ بَسْطةً
من الطولِ إلا بَسْطةُ الشكرِ أطولُ
ولا رَجَحتْ بالمرءِ يوماً صَنِيعةٌ
على المرءِ إلا وهي بالشكرِ أثقلُ

وقال "من المجتث":

إنْ لم يكنْ لكَ لَحْمٌ
كَفَاكَ خَلٌّ وزَيْتُ

أو لـم يكـنْ ذا وهـذا
فكِسْـرَةٌ وبُيَيْـتُ
تظـلُّ فيـه وتـأوي
حتـى يَجيئـكَ مَـوْتُ
هـذا عَفَـافٌ وأمْـنٌ
فـلا يَغـرُّكَ لَيْـتُ

وقال يصف قصر عيسى بن جعفر بالخُرَيبة "من البسيط":

زُرْ وادِيَ القَصْـرِ نِعْـم القَصْـرُ والـوادي
لابـدَّ مـن زَوْرةٍ مـن غيـرِ ميعـادِ
زُرْه فليـس لـه شِـبْهٌ يعادلُـه
من منـزِلٍ حاضرٍ إن شـئتَ أو بـادِ
تُرفـى قراقيـرُه والعِيـسُ واقفـةٌ
والنُّـونُ والضّـبُّ والمَـلّاحُ والحادي

القراقير: ضَرْبٌ من السفن، وتُرْفى: أي تُوقَف السفنُ بها، والمعنى أنه مجمع البَرِّ والبحر.

وقال - وقيل: هي لأبي عيينة المهلبي " من المنسرح " :

يـا جَنّـةً فاقـت الجِنَـانَ فمـا
تبلغهـا قيمـةٌ ولا ثَمَـنُ
أَلِفْتُهـا فاتّخذتُهـا وطنـاً
إنّ فـؤادي لأهلِهـا وَطَـنُ
صاهَـرَ حيتانَهـا الضِّبَـابُ بهـا
فهـذه كَنّـةٌ وذا خَتَـنُ

مـن سُـفُنٍ كالنّعَـامِ مقبلـةٍ
ومِـنَ نَعـامٍ كأنهـا سُـفُنُ

سأل الأخفشُ الخليلَ: لم سمّيتَ الطويلَ طويلاً؟ قال: لأنه تمّت أجزاؤه. قال: فالبسيط؟ قال: لأنه انبسط عن مدى الطويل. قال: فالمديد؟ قال: لتمدُّدِ سُبَاعِيِّه حول خُمَاسِيِّه. قال: فالوافر؟ قال: لوفارةِ الأجزاء وَتِدًا بوَتِد. قال: فالكامل؟ قال: لأنّ فيه ثلاثين حركةً لم يجتمع في غيره. قال: فالرَّجَز؟ قال: لاضطرابه كاضطرابِ قوائمِ الناقةِ الرّجْزَاء. قال: فالرَّمَل؟ قال: لأنه يُشْبه رَمَل الحصيرِ بضَمِّ بعضِه إلى بعض. قال: فالهَزَج؟ قال: لأنه يضطرب شِبْهَ هَزَجِ الصوت. قال: فالسريع؟ قال: لأنه يُسْرِع على اللسان. قال: فالمُنْسَرِح؟ قال: لانسراحِه وسهولته. قال: فالخفيف؟ قال: لأنه أخفُّ السُّباعيّات. قال: فالمقتضب؟ قال: لأنه اقْتُضِب من الشِّعْرِ لقِلّتِه. قال: فالمُضارِع؟ قال: لأنه ضارِع المُقْتضَب. قال: فالمُجْتَث؟ قال: لأنه اجْتُثَّ، أي قُطِع من طولِ دائرته. قال: فالمتقارب؟ قال: لتقارُبِ أجزائه، وإنها خُماسيّة كلُّها يُشْبِه بعضُها بعضاً.

وتردّد إلى مجلس الخليل بعضُهم فلم يَحْظَ منه بطائل لقصور فهمه، فقال له الخليل "من الوافر":

إذا لـم تَسْـتَطِعْ أمـراً فدَعْـه
وجـاوِزْه إلـى مـا تسـتطيعُ

وقال: أنا أوّلُ من سمّى الأوعية ظروفاً، وإنما قيل للإنسانِ ظريفٌ لأنه جُعِل ظرفاً لأدب ونظافة. قالت امرأةُ الخليلِ له: لاأراكَ تجلس عندي كثيرا. قال: ما أصنع عندكِ؟ أنتِ تَجِلّين عن دَقيقي وأنا أدِقُّ عن جَليلِك!

ومات الخليلُ سنة ستين ومائة. قال عليُّ بن نصر: رأيتُ الخليلَ في النوم فقلت في نفسي: لاأرى أحداً من أسلافِنا في النوم أعقلَ من الخليل. فقلتُ ما صنع الله بك؟ قال: غَفَر لي ورَحِمني! ثم قال لي: رأيتُ ماكنّا فيه ما انتفعنا بشيءٍ منه، وكلُّه باطلٌ، ولكن سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ما رأينا انفعَ منهن![1]

١. المصدر السابق، ص٥٦-٧٢.

ويرد ذكر عمان أيضا في هذا الكتاب حين يترجم المرزباني للعَلّامة العُماني محمد بن دريد الأزدي. يقول:

ومن أخبار أبي بكر محمّد بن الحسن بن دريد الأزديّ: ولُد بالبصرة وتأدّب بها، وعَلِمَ اللغةَ والأشعارَ والأنساب، وقرأ على علماء البصرة. وهو محمّد بن الحسن بن دُرَيْد بن عَتَاهِيَة بن حَنْتم بن حسن بن حَمَاميّ- وهو منسوبٌ إلى قريةٍ من نواحي عُمَان يقال لها حَمَامي- بن جرؤ بن واسع بنُ وَهْب بنُ سلَمة بن جُشَم بن حاضر بن جُشَم بن ظالِم بن حاضِر بنُ أسَد بن عَدِي بن عمرو بن مالك بن فَهْم بن غانِم بن دَوْس بن عُدْثَان بن عبد الله بن زَهْران بنُ كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نَصْر بن الأزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان. روى عن أبي حاتم.

وقال ابنُ ديد: خرجتُ أريد زَهْرَان بعد دخول البصرة، فمررتُ بدارٍ قد خَرِبتْ، وكتبتُ على حائطها "من الرمل»:

أصبحـوا بعـد جميـعِ فِرَقـاً
وكـذا كُلُّ جميـعٍ مُفتـرِقْ

ومضيتُ، فلمَّا رجعتُ فإذا تحته مكتوبٌ "من الرمل":

ضَحِكـوا والدهـرُ عنهـمُ صامـتٌ
ثُـمّ أبكاهـم دَمـاً حيـن نَطَـقْ

قال ابن دريد: سقطتُ من منزلي بفارسٍ، فانكسرتْ تَرْقُوَتي وسهرتُ ليلتي، فلمّا كان في آخر الليل حملتني عيناي، فرأيتُ في نومي رجلاً ظريفاً أصفرَ الوجه كَوَسَجاً دخل عليَّ فقال: أنشدني أحْسَنَ ماقلتَ في الخَمْر! فقلتُ: ماترك أبو نواس لأحدٍ شيئاً! فقال: أنا أشْعَرُ منه! قلتُ: ومن أنت؟ قال: أبو زاجية الشامي. وأنشدني "من الطويل»:

وحمـراءَ قَبْـلَ المَـزْجِ صفـراءَ بعـده
بَدَتْ بين ثَوبي نَرْجِسٍ وشَـقَائِقِ

حكتْ وجنةَ المعشوقِ صِرْفاً فسلَّطوا
عليها مِزَاجاً فاكتستْ لَوْنَ عاشِقِ

قال أبو بكر: قلتُ له: أسأت! قال: ولمَ؟ قلتُ: لأنك قلت "حمراء" فقدمت الحُمرة، ثمّ قلت "بدت بين ثَوْبي نرجسٍ وشقائقِ" فقدمتَ الصُفرة، فألا قدّمتَها على الأخرى كما قدَّمتَها على الأولى؟! فقال: وما هذا الاستقصاءُ في مثل هذا الوقت، يابَغيضُ؟! وقال ابن دريد «من البسيط»:

عانقتُ منه وقد مال النُعاسُ به
والكأسُ تُقْسَمُ سُكراً بين جُلاَّسي
ريحانةً ضُمِّخَتْ بالمِسْكِ ناضِرةً
تَمُجُّ بَرْدَ الندى في حَرِّ أنفاسي

وقال يرثي عبد الله بن عُمارة "من الطويل»:

بنفسي ثَرى ضاجعتَ في ثِنْيه البِلَى
لقد ضمَّ منكَ الغيثَ والليثَ والبَدْرا
فلو أنّ حَيًّا كان قَبْراً لميّتٍ
لصيَّرتُ أحشائي لأعظُمِه قَبْرا
وما خِلْتُ قَبْراً وهو أربَعُ أذْرُعٍ
يَضُمُّ ثِقَالَ المُزْنِ والطّوْدَ والبَحْرا

وقال من قصيدة انتظم في بيتٍ اسم رجلٍ ونسبه "من الطويل":

لَنِعْم فَتى الجُلَّى ومستنبطُ النَّدَى
وملجأُ محرومٍ ومفزعُ لاهثِ

عياذُ بنُ عمرو بن الجُلَيْسِ بن جابر بن زيدِ بن منظورِ بن زيدِ بن وارِثِ.[1]

١. المصدر السابق، ص٣٤٢-٣٤٤.

كشف الظنون لحَاجّي خليفة

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يعّرف حاجي خليفة ببعض المصادر المتعلقة بعمان، منها:

عُمَانُ الجَوَاهِر، قصيدة فارسية شينية في ست وتسعين بيتاً لعرفي الشيرازي (الشاعر المشهور المتوفى بعد الألف). [١]

ديوان أبي علي أبزمون بن مهمرد العماني (الكافي المجوسي المتوفى سنة ثلاثين وأربعمائة) جمعه (محمد بن أحمد المعروف) أبو الحاجب وذكر أن قصائده أعجبته وهو بفارس ولما نزل بعُمَان وسمع أن مقامه بنَزْوى قصد إليه ليرويه منه فوجده كثير الاشتغال بالأمور السلطانية والأعمال الديوانية، وهو غير معجب بشعر نفسه، وخاصة إذا انضافت على جاهه المعرفة والذكاء والتبحر في العلوم وشعره مع بهائه وصفائه متناسبة الألفاظ متناصرة، المعاني خال عن إيراد ما يمجه السمع والغريب الذي يبعد عن الإفهام، فما تخلو قصيدة من مصانع (مصارع) تجري مجرى أمثال مخترعة، فجمعت ديوانه وبدأت بمدائحه في الأمير الأجل ناصر الدين؛ إذ كانت جل قصائده في نشر محاسن أيامه ولم أجد نسخته عنده.[٢]

المرشد في الوقف والابتداء للإمام الحافظ العماني المتوفى في حدود سنة ٤٠٠.[٣]

١. حاجي خليفة. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق: محمد شرف الدين يالتقايا، ج٢ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ص ١١٦٤.
٢. المصدر السابق، ج١، ص ٧٧٢.
٣. المصدر السابق، ج٢، ص ١٦٥٤.

خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي

مما ورد في خزانة الأدب، وفيه ذكر لعمان، حديث البغدادي عن أزد عمان. يقول:

أزد عُمَانَ، بضم العين المهملة وتخفيف الميم وهو بلد على شاطئ البحر، بين البصرة وعدن، أضيفوا إليه لسكناهم فيه. ولبعض آخر: أزد غَسّان بفتح العين المعجمة وتشديد السين المهملة، وهو اسم ماء بين زبيد ورمع - وهما واديان للأشعريين - فمن شرب منه منهم سمي أزد غسان - وهم أربع قبائل - ومن لم يشرب منه لا يقال له ذلك، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إمّا سألتَ فإنا معشرٌ نجبٌ
الأَزْدُ نسبتنا، والماء غَسّانُ

ومنهم من يقال له: أزد شَنُوءة - على وزن فعولة - وهو اسم أبيهم، سمي به لشنآن وقع بينهم. واسمه الحارث - وقيل: عبد الله بن كعب بن مالك بن نصر ابن الأزد. قال في "الصحاح": "أزد أبو حي من اليمن يقال أزد شنوءة وأزد عُمَان وأزد السراة. قال النجاشي:

وكنت كذي رِجْليْنِ رِجْلٍ صحيحةٍ
ورجلٍ بها رَيْبٌ من الحَدَثَانِ
فأمّا التي صَحّتْ فأَزْدُ شنوءةٍ
وأما التي شلّتْ فأَزْدُ عُمَانِ

ورأيت في "الملحقات" التي ألحقها صاحب المختصر، الذي اختصره من جمهرة الأنساب لابن الكلبي، بعد أن نقل كلام الصحاح ما نصه: "لم أجد في الجمهرة. لابن دريد لذلك ذكراً؛ بل رأيت في العجالة في النسب أن شنوءة اسمه الحارث وقيل عبد الله. فقوله: إنه الحارث، أقرب إلى

الصواب. فالحارث هو الذي ولد هذه البطون والقبائل، من دوس ونصر وغامد وماسخة وغيرهم. وأهْلُ عُمَانَ الآن يقولون: إنهم شنوءة؛ وهم من دوس ثم من مالك بن فهم بن غنم بن دوس.

وهذا الذي ظهر من صحة ذلك، يُبطل تقسيمَ الشاعر في هذا البيت، وقوله: إن أزْدَ عُمَان غير أزد شنوءة، وقول الجوهري: يقال أزد شنوءة وأزد عمان وأزد السراة، إن أراد بهم التقسيم على ثلاث قبائل ففاسد، وذلك: أن أزد السراة أيضاً من أزد شنوءة فيهم من يذكر؛ وهم ثمالة، تحل بلداً بالسراة اسمه قوسى؛ ودوس، منهم مُنْهِب بن دَوْس بالسَّرَاة. والأقرب أن يقال: إن هذا كقولهم غسان والأنصار وخزاعة؛ وكلهم غسان؛ وإنما تجدد للأنصار وخزاعة هذان الوصفان، فبقيت تسمية غسان للشاميين.[1]

ويرد ذكر عمان أيضا حين يفسر البغدادي بيتا من مقصورة الشاعر والعلّامة العماني ابن دريد:

وأنشد بعده، وهو الشاهد الثامن والسبعون بعد المائة، قول ابن دريد:

وَالشَّيخُ إِن قَوَّمتَهُ مِن زَيغِهِ
لَم يُقِمِ التَثقيفُ مِنهُ ما اِلتَوى

على أنه يجوز أن يقال ضربته تقويماً فما استقام، إذ قد يطلق أنه حصل التأثير.

والتقويم: التعديل، يقال: قومته تقويماً فتقوّم، ومثله أقامه أي: عدله. و(الزيغ): الميل، يقال: زاغت الشمس تزيغ زيغاً، وأزاغه إزاغة أي: أماله. والتثقيف: تعديل المعوج. و(منه): متعلق بيَقُم. و(ما): موصولة أو موصوفة، ويجوز أن تكون مصدرية. و(التوى): تعوّج؛ وفاعله ضمير ما على الأول، وضمير الشيخ على الثاني. وجملة الشرط والجزاء في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو الشيخ.

وهذا البيت من مقصورة ابن دريد المشهورة. وقبل هذا البيت:

وَالناسُ كَالنَبتِ فَمِنهُم رائِع
غَضٌّ نَضيرٌ عودهُ مُرُّ الجَنى

١. عبد القادر البغدادي. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، ج٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٤)، ص٣٨٦-٣٨٧.

وَمِنـهُ مـا تَقتَحِـمُ العَيـنُ فَـإِن
ذُقـتَ جَنـاهُ اِنسـاغَ عَذبـاً فـي اللهـا
يُقَـوَّمُ الشـارِخُ مِـن زَيغانِـهِ
فَيَسـتَوي مـا اِنعـاجَ مِنـهُ وَاِنحَنـى

وَالشَيخُ إِن قَوَّمتَهُ مِن زَيغِهِ ... . البيت

كَذَلِـكَ الغُصـنُ يَسـيرٌ عطفُـهُ
لَدنـاً شَـديدٌ غَمـزُهُ إِذا عَسـا
مَـن ظَلَـمَ النـاسَ تَحامَـوا ظُلمَـهُ
وَعَـزَّ عَنهُـم جانِبـاهُ وَاِحتَمـى
وَهُـم لِمَـن لانَ لَهُـم جانِبُـهُ
أَظلَـمُ مِـن حَيّـاتِ أَنبـاثِ السَـفا
وَالنـاسُ كُلّاً إِن فَحَصـتَ عَنهُـم
جَميـعَ أَقطـارِ البِـلادِ وَالقُـرى
عَبيـدُ ذي المـالِ وَإِن لَـم يَطمَعـوا
مِن غَمرِهِ في جَرعَةٍ تَشفي الصَدى
وَهُـم لِمَـن أَملَـقَ أَعـداءٌ وَإِن
شـارَكَهُم فيهـا أَفـادَ وَحَـوى

وتقتحمه العين. تفوته وتزدريه. واللها بالفتح: جمع لهاة، وهي ما بين منقطع اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم. والشارخ: الشاب. والزيغان: العدول عن الحق؛ وانعاج: انعطف. وما: فيه الوجهان.

وقوله: كذلك الغصن، الإشارة راجعة إلى تقويم الشارخ والشيخ. واللدن: اللين، والطريّ.

والغمز: العصر باليد والهزّ. وعسا: صلب واشتد؛ في القاموس: النبث كفلس: النبش، وقيل: التراب المستخرج من البئر. والسفى بسين مهملة مفتوحة وفاء: التراب؛ وهذا من قولهم في المثل: أظلم من حية لأنها لا تحفر جحراً، وإنما تأتي إلى جحر قد احتفره غيرها فتدخل فيه وتغلب عليه؛ فكل بيت قصدت إليه هرب أهله منه وخلّوه لها.

وهذه القصيدة طويلة، عدتها مائتان وتسعة وثلاثون بيتاً، لها شروح لا تحصى كثرة. وأحسن شروحها شرح العلامة الأديب أبي علي محمد بن أحمد بن هشام بن إبراهيم اللخمي السبتي. وقد شرحتها أنا شرحاً موجزاً مع إيضاح واف، وتبيين شاف، في أيام الشبيبة. نفع الله به.

ومدح ابن دريد بهذه المقصورة الشاه وأخاه أبا العباس إسماعيل ابني ميكال يقال: إنها اشتملت على نحو الثلث من المقصور. وفيها كل مثل سائر، وخبر نادر؛ مع سلاسة ألفاظ، ورشاقة أسلوب، وانسجام معان يأخذ بمجامع القلوب.

وهذه نبذة من نسبه وأحواله. وهو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد وينتهي نسبه إلى الأزد بن الغوث، ومنه إلى قحطان، وهو أبو قبائل اليمن.

ولد بالبصرة في سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ونشأ بها، وتعلم فيها؛ ثم ارتحل منها مع عمه عند ظهور الزنج، وسكن عُمَانَ، وأقام اثنتي عشرة سنة؛ ثم عاد إلى البصرة؟، وسكن بها زماناً؛ ثم خرج إلى نواحي فارس، وصحب ابني ميكال - وكانا يومئذ على عمالة فارس - وعمل لهما كتاب الجمهرة، وقلداه ديوان فارس، فكانت الكتب لا تكتب إلا عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه. وكان سخيّاً متلافاً لا يمسك درهماً. ومدحهما بذه القصيدة المقصورة، فوصلاه بعشرة آلاف درهم. ثم انتقل من فارس إلى بغداد، ودخلها سنة ثمان وثلثمائة، بعد عزل ابني ميكال وانتقالهما إلى خراسان. ولما دخل بغداد أنزله علي بن محمد في جواره وأفضل عليه، وعرّف الخليفة المقتدر العباسي مكانه من العلم، فأجرى عليه في كل شهر خمسين ديناراً، ولم تزل جارية عليه إلى حين وفاته. وتوفي يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ببغداد.

وكان مواظباً على شرب الخمر، قال أبو منصور الأزهري: دخلت عليه فرأيتُه سكرانَ فلم أعدل إليه. وقال ابن شاهين: كنا ندخل عليه فنستحي مما نرى عنده من العيدان والشراب

المصفى. وعرض له في رأس التسعين من عمره فالَج وسقي الترياق فبرئ وصحّ ورجع إلى أفضل أحواله. ثم عاوده الفالج بعد عام، لغذاء ضار تناوله، فكان يحرك يديه حركة ضعيفة، وبطل من محزمه إلى قدميه؛ فكان إذا دخل عليه داخل ضج وتألم لدخوله.

قال تلميذه أبو علي القالي: كنت أقول في نفسي: إن الله عز وجلّ عاقبه لقوله في هذه المقصورة، يخاطب الدهر:

مارَسـتُ مَن لَو هَوَتِ الأَفلاكُ مِن
جَوانِبِ الجَوِّ عَلَيهِ ما شَكا

وكان يصيح من الداخل عليه صياح من يُنخس بالمسالِّ - والداخل بعيد - وكان مع هذه الحال ثابتَ الذهن كامل العقل. وعاش مع الفالج عامين. وكنت أسأله عن أشياء في اللغة فيردّ بأسرع من النفس، بالصواب. وقال لي مرة - وقد سألته عن بيت - لئن طفئت شحمتا عينيّ لم تجد من يشفيك من اعلم. وكان ينشد كثيراً:

فواحَزَنـي أن لاحيـاةٌ لذيـذة
ولا عمـلٌ يرضـى بـه الله صالـحُ!

وأشهر مشايخه: أبو حاتم السجستاني، والرياشي، وعبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، والأشناندانى. وسمع الأخبار من عمه الحسن بن دريد، ومن غيره. وله من التآليف: الجمهرة في اللغة، وكتاب السرج واللجام، وكتاب الأنواء، وكتاب المجتنى وهذه الكتب عندي والحمد لله والمنة.. وله كتاب الاشتقاق، وكتاب الخيل الكبير والصغير، وكتاب الملاحن وكتاب روّاد العرب، وكتاب الوشاح وغير ذلك.

وكان واسع الرواية لم ير أحفظ منه؛ وكانوا يقرؤون عليه دواوين العرب فيسابق إلى إتمامها، من حفظه. وله شعر رائق. قال بعض المتقدمين: ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء.

قال المسعوديّ في مروج الذهب: كان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا في الشعر. وانتهى في اللغة؛ وقام مقام الخليل بن أحمد فيها، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين. وشعره أكثر من أن يحصى.[1]

١. المصدر السابق، ج٣، ص١١٧-١٢١.

ويُورد البغدادي اسمَ عمان أيضا حين يعرف الراجز العماني قائلا:

والعماني من مخضرمي الدولتين، عاش مائة وثلاثين سنة. قال ابن قتيبة في كتاب الشعراء: العماني الفقيمي: هو محمد بن ذؤيب، ولم يكن من أهل عمان، ولكن نظر إليه دكين الراجز، فقال: من هذا العماني. وذلك أنه كان مصفراً مطحولاً، وكذلك أهل عمان. وقال الشاعر:

وَمَنْ يَسْكُنِ البَحْرَين يَعظِمْ طِحَالُهُ

وَيُغْبَطْ بِمَا فِي بَطْنِهِ وَهوَ جَائِعُ

ودخل على الرشيد لينشده، وعليه قلنسوة وخف ساذج، فقال: إياك وأن تدخل إلي إلا وعليك خفان دمالقان وعمامة عظيمة الكور. فدخل عليه، وقد تزيا بزي الأعراب، فأنشده وقبل يده، وقال: يا أمير المؤمنين، قد والله أنشدت مروان، ورأيت وجهه، وقبلت يده، وأخذت جائزته. ثم يزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ثم السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي؛ كل هؤلاء رأيت وجههم، وقبلت أيديهم، وأخذت جوائزهم، لا والله ما رأيت فيهم يا أمير المؤمنين أندى كفاً، ولا أبهى منظراً، ولا أحسن وجهاً منك. فأجزل له الرشيد الجائزة، وأضعفها له على كلامه، وأقبل عليه فبسطه، حتى تمنى جميع من حضر أنه قام ذلك المقام. انتهى.

وعزا بعضهم هذا الشعر لأبي نخيلة، وتقدمت ترجمته في الشاهد العشرين من أول الكتاب.

وزعم ابن الملا في شرح المغني أن العماني كنيته أبو نخيلة. وهو خلاف الواقع، بل هما راجزان.

وعُمَان بضم العين وتخفيف الميم: بلد على شاطئ البحرين، بين البصرة وعدن، وإليه يضاف الأزد، فيقال: أزد عمان. كذا بخط مُغُلْطاي على هامش (معجم ما استعجم) للبكري.

وقال البكري: عُمان: مدينة معروفة إليها ينسب العماني الراجز، سميت بعُمان بن سنان بن إبراهيم عليه السلام، كان أول من اختطها، ذكر ذلك الشرقي بن القطامي. وأما عَمّان بفتح العين وتشديد الميم، فهي قرية من عمل دمشق، سميت بعَمّان بن لوط عليه السلام. انتهى.[1]

١. المصدر السابق، ج١٠، ص ٢٤١-٢٤٢.

ومما رواه البغدادي في خزانته، وفيه ذكر لعمان حديثه عن الشاعر الجاهلي قيس بن زهير، الذي هاجر إلى عمان ومات فيها. يقول:

وقيس بن زهير: جاهليٌّ، وهو صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين: داحس والغبراء. وكان فارساً شاعراً داهية، يضرب به المثل، فيقال: "أدهى من قيس».

ولما طال الحرب ومل، أشار على قومه بالرجوع إلى قومهم ومصالحتهم، فقالوا: سر نسر معك. فقال: لا ولله لا نظرتْ في وجهي ذبيانيةٌ قتلتُ أباها أو أخاها، أو زوجها أو ولدها.

ثم خرج على وجهه حتى لحق بالنمر بن قاسط، وتزوج منهم وأقام عندهم مدة، ثم رحل إلى عمان، فأقام بها حتى مات[1].

١. المصدر السابق، ج٨، ص ٣٧٢.

نوادر الخلفاء المشهور لدياب الإتليدي

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب ضمن حكاية يرويها الإتليدي بعنوان "الحسين الخليع والجارية العاشقة":

قال السجستاني: أرِق الرشيدُ ليلة، فوجّه إلى الأصمعي وإلى حسين الخليع فأحضرهما وقال: علِّلاني وابدأ أنت يا حسين.

فقال حسين: نعم يا أمير المؤمنين، خرجت في بعض السنين منحدراً إلى البصرة ممتدحاً محمد بن سليمان الزينبي بقصيدتي، فقبلها وأمرني بالمقام، فخرجتُ ذات يوم إلى المبربد وجعلت المهالبة طريقي فأصابني حر شديد فدنوت من باب دار كبيرة لأستسقي، فإذا أنا بجارية كأنها قضيب ينثني،واسعة العينين، زَجّاء الحاجبين، مفتوحة الجبين، عليها قميص جلناري ورداء عَدَني قد غلب شدةُ بياضِ بدنها على حُمرة قميصها، تتلألأ من تحت القميص بثديين كرُمّانتين، وبطنٍ كطي القباطي، وعكن كالقراطيس، لها جمّة جعدة بالمسك محشوة، وهي يا أمير المؤمنين متقلدة خرزاً من الذهب والجوهر، يزهو بين نهديها وعلى صحن جبينها طرة كالسبج وحاجبان مقرونان وعينان نجلاوان وخدان أسيلان وأنف أقنى تحته ثغر كاللؤلؤ، وأسنان كالدُّر، وقد غلب عليها الطيب، وهي والهة حيرى ذاهبة في الدهليز ورائحة تخطر على أكباد محبيها في مشيتها، وقد خالط أصواتُ نعلها خلاخلَها، فهي كما قال الشاعر فيها:

كلُّ جـزءٍ مـن مَحاسـنِه
كائـنٌ مـن حُسْـنِها مثـلا

فهِبْتُها يا أمير المؤمنين، ثم دنوتُ منها لأسلّم عليها، فإذا الدهليز والدار والشارع قد عبق بالمسك، فسلمتُ عليها فردتْ بلسان منكسرٍ وقلبٍ حزين حريق مسعر. فقلتُ لها: يا سيدتي، إني شيخ غريب أصابني عطش، أفتأمرين بشربة من ماء تؤجرين عليها؟ قالت: إليك عني يا شيخ، فإني مشغولة عن الماء وادخار الزاد.

قلت: لأي عِلّة يا سيدتي؟ قالت: لأني عاشقة لمن لا يُنصفني، وأريد من لا يريدني، ومع ذلك فإني ممتحنة برقباء فوق رقباء.

قلت: وهل يا سيدتي على بسيطة الأرض من تريدينه ولا يريدكِ؟ قالت: نعم، وذلك لفضل ما ركب فيه من الجَمال والكمال والدلال.

قلت: وما وقوفكِ في هذا الدهليز؟ قالت: ههنا طريقُه وهذا أوانُ اجتيازه.

فقلت لها: يا سيدتي، فهل اجتمعتما في وقت من الأوقات ووجد حديث في هذا القرب؟ فتنفست الصعداء وأرخت دموعَها على خدها كطلٍّ سقط على وَرْد، ثم أنشدتْ تقول:

وكنّا كغُصْنَيْ بانَةٍ فوق روضةٍ
نَشَمُّ جَنَى اللذاتِ في عيشةٍ رَغْدِ
فأفْرَدَ هذا الغُصْنَ من ذاك قاطعٌ
فيا مَنْ رأى فَرْداً يَحِنُّ إلى فَرْدِ

قلت: يا هذه، فما بلغ من عشقكِ لهذا الفتى؟ قالت: أرى الشمس على حائطِهم أحسب أنها هو، وربما أراه بَغْتةً فأبهت ويَهْرَب الدمُ والروحُ من جسدي وأبقى الأسبوعَ والأسبوعين بغير عقل.

فقلت لها: فاعذريني، فأنتِ على ما بكِ من الصِّبا وشغلِ البال بالهوى ونحولِ الجسم وضعفِ القوى أرى بكِ من اللون ورقةِ البشرة فكيف لو لم يَمسّكِ الهوى لكنت مَفْتَنةً في أرضِ البصرة.

قالت: والله قبل محبتي هذا الغلام كنت تُحْفةَ الدلالِ والجَمَالِ والكمالِ، ولقد فتنتُ جميعَ ملوكِ البصرة حتى فتنني هذا الغلام.

قلت: يا هذه، فما الذي فرّق بينكما؟ قالت: نوائبُ الدهر ولحديثي وحديثه شأن من الشؤون، وذلك أني كنتُ قعدت في ويم نيروز، ودعوتُ عدةً من مُسْتَظْرَفاتِ البصرة من النساء الجميلات وكانت فيهن الحوراءُ جارية شيرا، وكان شراؤها عليه من عُمَانَ بثمانيةِ آلاف درهم، وكانت بي وَالِعة، فلمّا دخلتُ رَمَتْ بنفسها علي تقطعني قَرْصاً وعَضّاً، ثم خلونا نتمرن القهوة إلى

أن يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا وكانت تلاعبني وألاعبها، فتارة أنا فوقها، وتارة هي فوقي، فحملها السُكْرُ إلى أن ضربتْ يدَها إلى تكّتي فحلّتها من غير ريبةٍ كانت بيننا، وأنزلتْ سراويلَ مُلاعبة، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا حبيبي فرأى ذلك فاشمأزّ لذلك وصدَف عني صدوفَ المُهْرةِ العربية إذا سمعتْ صلاصلَ لِجَامها، فولى خارجاً، فأنا يا شيخ منذ ثلاث سنين أسأل الاجتماع به فلا ينظر إليَّ بطرف ولا يكتب لي بحرف ولا يكلم لي رسولاً ولا يسمع مني قيلاً.

فقلت لها: يا هذه، من العرب هو أم من العجم؟ فقالت: ويحك هو من جملة ملوك البصرة.

فقلت لها: شيخ هو أم شاب؟ فنظرت إلي شزراً وقالت: إنك أحمق، هو مثل القمر ليلة البدر، أجْرَدُ أمْرَدُ له طرّةٌ كحلك الغُراب لا يعيبه شيء غير انحرافه عني.

قلت لها: ما اسمه؟ قالت: ماذا تصنع به؟ أجتهد في لقائه فأتعرف الفضل بينكما.

قالت: على شرط أن تحمل إليه رقعة.

قلت: لا أكره ذلك.

فقالت: اسمه ضَمْرَةُ بنُ المغيرة ويكنى بأبي السَّخَاء، وقصره بالمربد.

ثم صاحت في الدار: يا جواري، الدواةَ والقرطاسَ، وشَمّرتْ عن ساعدين كأنهما طوقان من فضة، وكتبت بعد البسملة: سيدي ترك الدعاء في صدر رقعتي ينبئ عن تقصيري، ودعائي، إن دعوته، هجنة ورعونة، ولولا أن بلوغ المجهود يخرج من حد التقصير لكان لما تكلفته خادمتك من كتابة هذه الرقعة معنى مع يأسها منك لعلمها تركك الجواب.

سيدي، جُدْ بنظرة وَقْتَ اجتيازك في الشارع إلى الدهليز تُحْيي بها نفساً ميتة، واخطط بخط يدك، بسطها الله بكل فضيلة، رقعةً واجعلها عِوَضاً عن تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنت ذاكر لها.

سيدي، ألستُ لك مُحِبّة مدنفةٌ؟ فإن رجعتَ إلى الآنِسَةِ كنتُ لك شاكرة وبَعْدُ خادمة. والسلام.

فتناولتُ الكتاب وخرجتُ فأصبحتُ غدوة إلى باب محمد بن سليمان فوجدتُ مجلساً محتفلاً بالملوك ورأيتُ غلاماً زان المجلسَ وفاق على من فيه جمالاً وبهجة، قد رفعه الأمير

فوقه، فسألت عنه فإذا هو ضمرة بن المغيرة، فقلت في نفسي: يا للحقيقةِ حل بالمسكينة ما حل بها. ثم قمت وقصدت المربد ووقفت على باب داره، فإذا هو قد ورد في موكب فوثبتُ إليه وبالغتُ في الدعاء له وناولته الرقعة، فلما قرأها وفهم معناها قال لي: يا شيخ! قد استبدلنا بها، فهل لك أن تنظر إلى البديل؟ قلت: نعم.

فصاح في الدار أخرجوا الربداء، فإذا أنا بجاريةٍ خابوطية الكمين، ناهدة الثديين تمشي مشية مستوحل من غير وحل، فناولها الرقعة، وقال: أجيبي عنها، فلما قرأتها اصفرت وعرفت وقالت: يا شيخ استغفرْ اللهَ مما جئتَ به.

فخرجتُ يا أمير المؤمنين وأنا أجرُّ رجلي حتى أتيتها واستأذنت عليها فقالت: ما وراءك؟ فقلت: البؤس واليأس.

فقالت: ما عليك منه، فأين الله والقدر؟ ثم أمرت لي بخمسمائة دينار ثم جزتُ بعد أيام ببابها فوجدتُ غلماناً وفرساناً فدخلتُ فإذا أصحاب ضمرة يسألونها الرجوع إليه؟ فقالت: لا والله لا نظرتُ له وجهاً، فسجدت لله يا أمير المؤمنين، شماتةً بضمرة ونفرتِه من الجارية، فأوردت علي منه رقعة فإذا فيها، بعد التسمية، سيدتي، لولا إبقائي عليك، أدام الله حياتك، لوصفت شطراً من غدرك شطر غبني عليك، وسلكت ظلامتي فيك، إذ كنتِ الجانية، على نفسك ونفسي والمظهرةَ لسوء العهد وقلةِ الوفاء والمؤثرةَ علينا غيرَنا، فخالفت هواي، والله المستعان، على ما كان من سوء اختيارك والسلام.

وأوقفتني على ما حمله إليها من الهدايا والتحف العظيمة فإذا هو بمقدار ثلاثين ألف دينار ثم رأيتُها بعد ذلك، وقد تزوج بها ضمرة.[1]

١. دياب الإتليدي. نوادر الخلفاء: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز سالم (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤)، ص١١٨-١٢١.

نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة
لمحمد أمين المُحِبّي

يرد اسم عمان في هذا الكتاب حين يترجم المحبي للشاعر اليمني علي بن إسماعيل بن القاسم الزيدي:

وكتب إلى والده هذه القصيدة، يحثّه فيها على الجهاد، لما أُحْصِر الركبُ اليماني، وصُدّ عن مكة، في سنة ثلاث وثمانين وألف:

لَعَمـرُكَ ليـس يُدرَكُ بالتَّوانِي
ولا بالعجـزِ غايـاتُ الأمانِـي
فمـا نيـلُ المعالِـي قَـطُّ إلاَّ
بِبيضِ الهنـد والسُّـمْرِ اللِّدانِ
وحَـزْمٍ دونـه الشُّـمُّ الرَّواسِـي
وعَـزْمٍ لـم يكـنْ أبـداً يُوانِـي
ونفـسٍ كلَّمـا جشَـأت أرَتْـه
قرى نَعْمان ميلاً من عُمَانِ
تخُوض إلى المَعالي كلَّ هَـوْلٍ
وليس لهـا عن العَلْياءِ ثَانِ
لهـا ثقـةٌ بـربِّ العـرشِ حقّـاً
بـه الأقْصَـى تَـراه وهْـو دانِ
أميـرَ المؤمنيـن وخيـرَ مَلْكٍ
تبوَّأَ في العُلَى أعْلَى مـكانِ

وتـاجَ بَنِـي النبـيِّ ومُنْتَقاهـم
وأكـرمَ مُعْتـلٍ ظهـرَ الحصـانِ
أترْضَى أن نرى في الدهرِ هُوناً
ويثْبُـو رُكنـه فـي ذَا الأوانِ
ويُمنَـعَ وفـدُ بيـت اللهِ منـه
ويُضحِي الخـوفُ فينا كالأمانِ
ويملكَـه العُلـوجُ ويمْنعـوه
ويُصْرَفَ عنـه ذا الوفدُ اليمانِي
وأنـتَ خليفـةُ الرحمـنِ فينـا
وأنتَ حُسامُه في ذا الزمانِ
ونحـن بنُـو البَتُـولِ ونَجْـل طـه
وفينـا أُنْزِلـتْ آيُ القُـرانِ
ونحـنُ بـه لَعَمْـرُ اللهِ أوْلَـى
ونحن الشـائدون بـه المَبانِي
فـلا تركـبْ بنـا ظهـرَ الهُوَيْنـا
ولا تجنَـحْ إلـى ظـلِّ الأمـانِ
وحولَك من بني المَنصورِ أُسْدٌ
علَوْا في المجـدِ هامَ الزِّبْرقانِ
ومـن أبْنـاء حَيْـدرةٍ كُمـاةٌ
لهم في المَكْرُمات أجلُّ شَـانِ
وإنَّ لَديْك من عَدْنانَ حقّاً
ومن قَحْطان فَرْسـانَ الطِّعـانِ

ليـوثٌ إن دعوتهـمُ أجابـوا
بـكلِّ سَـميْدَعٍ رَحْـبِ الجَنانِ
فشـاوِرْهم ولاطِفْهُـم وأحْسِـنْ
إليهـم بالعطـاءِ وباللِّسـانِ
ولا تجعـلْ كتابَـكَ للأعـادِي
سـوى السيفِ المُهنَّدِ والسِّنانِ
فأرْسِـلْ نحـوَ من نَاوالَـكَ جيشـاً
أوائلُـه بـأرضِ القَيْـرُوَانِ
تسـيرُ جِيـادُه فـي كلِّ قُطْـرٍ
إلى الأعداءِ مِرْآبَ العِنانِ
فتعلُـو هـامَ مَـن نَـاوالَـكَ قَسْـراً
وتُرْغِـم بالمَواضِـي كلَّ شَـانِ
فـإنَّ اللهَ ربَّكَ قـد توالـتْ
عوائـدُه بعـاداتٍ حِسـانِ
وعَـوَّدَكَ الجميـلَ بـكلِّ خيـرٍ
وقد شـاهدْتَ ذلكَ بالعِيـانِ[1]

١. محمد أمين المُحِبّي. نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ج٣ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٨)، ص ٢٦١-٢٦٢.

حديقة الأفراح للأنصاري

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يترجم الأنصاري للعَلّامة الشيخ جاعد بن خميس الخروصي:

الشيخ جاعد بن خميس من مبارك الخروصي، أَشْهَدُ أنه العَلَمُ المُفْرَد، وأَجَلُّ مَنْ رَكَعَ وَسَجَد، وهَدَى مَنْ ضَلَّ وأَضَلَّ بعُلومِه وأَرْشَد، فهو اليومَ زعيمُ قَوْمِه، وكبيرُهم الذي صَغُرَتْ أقرانُه لقُصورِهم عَنْ المُقابلَةِ له في صَلاتِه وصَوْمِه، تَصانيفُه دلائلُ الإعْجَاز، وتآليفُه مَحْشوّةٌ بمَحَاسِنِ الحقيقةِ والمَجَاز. فمن لطائفه قوله:

خذ هالك يا ابن الأكرمين كتابا
يُحيي القلوب ويفتح الأبوابا
واظبْ على التعليم درساً بالعشا
واللّيلِ، وافتحْ بالنهار كتابا
وإذا أتيتَ إلى المدارس لا تكن
عند المعلم لاهياً لَعّابا
وكذالك طاعة والديك ففيهما
بِرٌّ تنال من الإله ثوابا

توفي رحمه الله تعالى سنة ألف ومائتين ونيف وثلاثين.[1]

١. أحمد بن محمد بن علي الأنصاري. حديقة الأفراح لإزالة الأتراح، غير محقق (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٩٣٧)، ص٣٥٨.

ويرد أيضا حين يترجم الأنصاري للشاعر العماني راشد بن سعيد الرواحي:

راشد بن سعيد الرواحي، روح جثمان الأدب، ونور عين الفضل والحسب، الشاعر المجيد، البليغ الوحيد، فمن لطائفه قوله:

إني لقيت من الهوى وفنونه
أمراً عجيباً واقفاً في بالي
من ذات خال غضة ميادة
تصمي قلوباً للورى بالخالِ
تُصمي الليوث بلحظها إن أرسلت
سهماً مصيباً من عيون غزالِ

وقوله:

إنّ ظني في سيدي لجميلُ
ورجائي فيه عريض طويلُ
وإليه قد تبتُ من كل ذنب
ومتابي إلى رضاه سبيلُ
وإليه فوضت كل أموري
وهو نعم المولى ونعم الوكيلُ

ويرد أيضا حين يترجم الأنصاري للإمام سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي:

الإمام الأمجد سعيد بن الإمام الأجل أحمد البوسعيدي، ماذا أقول فيمن تفرع من جرثومة السيادة، وترعرع في رياض الحبور والسعادة، وتتوج بتاج العز الأزهر، وحظي في دهره بالعيش

الأخضر، وعم نواله الأسود والأحمر، وأذاق الخوارجَ عن الطاعة له والانقياد، مرارةَ الموت بعَضْبِه وبلغ منهم المُراد :

كَلّت الألسنُ عن أوصافه
وغدا المدحُ به مفتخرا

فمن لطائفه، وبديع طرائفه، ما كتبه إلى أخيه الهمام سلطان ابن أحمد الإمام:

إذا شحّت الخضراءُ بالوبل فالتمسْ
تجد جودَ سلطانٍ على الناس كالمَطرْ
فإن عز مطلوبي فليس شماتة
وإن حصل المطلوب فالفوز بالظفرْ

وقوله يرثي ولده السيد حمد رحمه الله تعالى:

وافى حِمامكَ يا حبيبي بالعجلْ
نارٌ تَلهّب في ضميري تشتعلْ
يا مَنْ له شرفٌ وفضلٌ في الورى
أمسى وحيداً مفرداً دون الأهلْ
الله أكبر من مُصابٍ عَمَّنا
هماً وغماً لا يَبيدُ ولا يُفَلْ
حَمَدٌ حوى المجدَ الشريف تغيرت
أيامُه قد كان يُضرب بالمَثَلْ
صبراً لأولاد الإمام ومن لهم
من إخوة وأقاربٍ فيما نَزَلْ

لا غَـرْوَ هـذا قـد أتـى خيـرَ الـورى
لـم تمنـع الأمـوالُ عنـه ولا الـدُّوَلْ

وقوله رحمه الله:

لَهَفـي علـى زمنٍ مضى
مـا ذقـتُ أحلى منه شَـيْ
لمـا ذكـرت عهـودَه
جـرت الدموعُ وقلت أيْ[1]

ويرد ذكر عمان أيضا حين يترجم الأنصاري للقاضي والشاعر العماني محمد بن سالم الدرمكي:

القاضي سالم بن محمد الدرمكي، القول فيه أنه أشعر أهل مصره، وخاتمة بلغاء قُطْرِه، مَلَكَ أزمة البراعة واللّسَن، وظفر بكل معنى برائق حسن، اجتمعتُ به غيرَ مرة لاستنشاق أَرَجِ أنفاسه، في خميلة أرض هي مسقط رأسه، فوجدته سالماً من الفظاظة كاسمه، متحلياً بحلية الفضل اللامع نورُه من محاسن نثره ونظمه، فمن لطائفه قولُه قصيدة أرسل بها إليَّ متشوقاً وأنا إذ ذاك باليمن الميمون:

فيـا أبيـضَ الأخـلاقِ والوجه إنّ مُذْ
تناءيـتَ، أيامـي غـدتْ كلُهـا سـودا
ولا زلـتُ إنْ اتهمتَ يهـوى تهامةً
فـؤادي، وإن أنجدتَ يوماً هوى نجدا
فمهمـا تَسِـرْ يَشْـفَعْكَ قلبـيَ أينمـا
توجهـتَ لا تسـعى إلى وجهـة فـردا

١. المصدر السابق، ص٣٦٠-٣٦١.

وذِكْـرُكَ فـي قلبي يلذ وفي فمي
كأنـي أحسـو مـن تذكـرك الشُّـهْدا
نأيتَ فعن جفني نأى بعدك الكرى
فهـل كنتمـا وَكّلتمـا للنـوى وَعْـدا
فيـا أحمـدُ المحمـودُ طبعـاً إلـى متـى
بأفعالـكَ الحُسْـنى تُعلمنـي الحَمْدا
لقـد نَـدّ عنـك السـوءُ يـا ابـنَ محمـد
ودمـتَ كريمـاً لا نُصيـب لـه نِـدّا

وقوله في ذكر المحبوب عند الشدة والكروب:

ولقـد ذكرتُـكِ يـا بثينـةُ فـي السَّـفَرْ
والفُلْكُ في البحر المحيـط قـد انكسـرْ
والمـوجُ مـن طوفانـه متلاطـمٌ
والمـوت للأنيـاب منـه قـد كَشَـرْ
والنـاس قـد غرقـوا معـاً إلا أنـا
أرجـو الحِمَـام تجـاه وجهـي مـا اسـتترْ
وبقيـتُ فـي لـوح غريـقٍ كلـه
والمـاء لي كلي إلى رأسـي غَمَـرْ
ومكثـتُ حينـاً مـن طعـام مُعْدِمـاً
فيـه وتـذكاري يقـوم بـه الذِّكَـرْ

ويعجبني قوله من قصيدة مدح بها السيد النبيل، محمد بن خلفان الوكيل، عليهما رحمة

الملك الجليل:

نفسي فدى الإلف الذي صار بي
بَرّاً وما عاينتُ منه جفا
شمائل راقت ورقت له
فمنه ما أحلى وما ألطفا
كأنه في حسن أخلاقه
لنجل خلفان الوكيل اقتفى
محمد مَنْ ما هفا قلبه
لريبة قط وعنها هفا
لم يلكُ بالمُخْلِفِ عهداً ولا
كل امرئ فُوه يُرى مُخْلِفا
يجود بالمال ويسطو فكم
أمّنَ من قومٍ وكم خَوّفا
وما أتاه مذنب تائباً
يطلب منه العفوَ إلاَّ عفا
وما شدد الدهرُ على شيعةٍ
إلاَّ عليهم جودُه خفّفا
وبالنَّدَى منه يُوفّيهمُ
إذا رأى الدهرَ لهم طفّفا
إذا قضى أو جاد أو صال أو
قال حكى في فعله المُصْطفى

يُصلـح مـا اختـلّ بتدبيـره
مارتَقَـتْ دنيـاه إلاَّ رَفَـا[1]

ويرد أيضا حين يترجم الأنصاري للشاعر سليمان بن أحمد المفضلي:

سليمان بن أحمد المفضّلي مفضَّلٌ بكماله، مُجَمَّلٌ بأقواله وأفعاله، فاق الأنداد والأقران، بعظيم ملك علومه، ونفائس خزائن منثوره ومنظومه، فللّٰه دَرُّ سليمان، فمن لطائفه قوله مرثيا السيد حمد بن الإمام سعيد رحمهما الله تعالى:

سـطـت الهمومُ وصالـت الأتراحُ
ونأى السـرور وشطـت الأفراحُ
والأرض حالكة الأديم فلا يُرى
شـمسٌ ولا قمـرٌ ولا مصبـاحُ
لرَزِيّـةٍ دهـت الـورى فلأجلِها
صُـمّ السّـمَاعُ وألكـن الإفصـاحُ
يـا بِئْـسَ يومـا قمطريـرا مُفجعـا
شـاهـت عشـيته وسـاء صبـاحُ
شَـقُّ الجيـوبِ محـرَّمٌ لكنما
في مثله شَـقُّ القلوبِ مُبَاحُ[2]

١. المصدر السابق، ص٣٦١-٣٦٣.
٢. المصدر السابق، ص٣٦٣.

حماسة القرشي للقرشي الجبعي

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يورد الجبعي شعرا لبنت عمرو بن يَثْرِبي، ترثي أباها:

يـا ضبُّ إنكَ قـد فُجعتِ بفارسٍ
حامـي الحقيقـةِ قاتـلِ الأقـرانِ
عَمْـرِو بنِ يَثْربيَ الذي فُجِعتْ به
كلُّ القبائـلِ مـن بنـي عَدْنـانِ
لـم يحمِـه وسـطَ العَجَاجـة قومُـه
وحَنَـتْ عليـه الأزدُ أزدُ عُمَـانِ
فلهـم علـيَّ بـذاكَ حـادثُ نِعْمـةٍ
ولحُبِّهـمْ أحببـتُ كُلَّ يَمـانِ
لـو كان يَدْفـعُ عـن مَنِـيٍّ هالِكٌ
طـولُ الأكـفِّ بذابـلِ المُـرَّانِ
أو معشـرٌ وَصَلـوا الخُطـا بسـيوفِهم
وسـطَ العَجَاجـةِ والحُتـوفُ دوانِ
مـا نِيـلَ عمـروٌ والحـوادثُ جمّـةٌ
حتـى يُنـال النجـمُ والقمـرانِ[1]

١.عباس بن محمد القرشي. حماسة القرشي، تحقيق: خير الدين محمود قبلاوي (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٥)، ص١٦١-١٦٢.

النصرانية وآدابها للويس شيخو

يرد ذكر عمان في هذا الكتاب حين يؤرخ لويس شيخو للنصرانية في عمان:

عُمَان: شمالي حضرموت واقعة على شواطئ بحري الهند والعجم، وحاضرتها صحار، وكانت النصرانية دخلت إليها بواسطة دعاة أتوها من العراق. وفي التواريخ الكلدانية أسماء أساقفة كانوا في عُمان منذ القرن الخامس وهم يدعونها مزون كما دعاها أيضاً العرب، ونبه إليه ياقوت في معجم البلدان (٤: ٥٢١) فممن ذكروه يوحنان سنة ٤٢٤ وداود (٥٤٤) وشمويل (٥٧٦) واسطفان (٦٧٦).

وفي جملة الرسائل التي بعث بها رسول الإسلام إلى الملوك رسالة وجهها إلى ملك عُمان المسمى جيفر بن الجُلندي من أزد عمان، كان نصرانياً هو وأخوه عَبّاد، ويقال عبد وعبيد. فنصرانية الملك تشير إلى نصرانية البلاد الخاضعة له.

وكان في عُمان أديرة للنصارى يشير إليها صاحب الأغاني. وجاء في تاريخ ابن الأثير (١: ٢٣٤) أن قيس بن زهير "لما تنصر ساح في الأرض حتى انتهى إلى عمان فترهب بها".[1]

ويرد أيضا حين يتحدث لويس شيخو عن أسواق العرب:

وكان للعرب عدة أسواق يجتمعون فيها للمقايضات وضروب المبايعات قد ذكرها في المشرق (١ [١٨٩٨]: ٨٦٧) جنابُ الأديب محمود شكري أفندي الألوسي. وكان معظم هذه الأسواق في جهات الجزيرة العربية التي يغلب فيها عدد النصارى في الجاهلية وأكثرهم من الحضر يرتزقون بالتجارة كأسواق البحرين في عمان وهجر والمشقّر وصحار وكأسواق حضرموت والشحر وكأسواق اليمن مثل سوق صنعاء وكسوق دومة الجندل وكسوق عكاظ في الحجاز التي كان يقوم فيها قس بن ساعدة واعظاً وخطيباً مصقعاً.

ومما لم يذكره هناك من الأسواق العربية النصرانية سوق الحيرة وقد ذكره أبو الفرج في

١.لويس شيخو. النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، الطبعة القانية (بيروت: دار المشرق، ١٩٨٩)، ص٧٠.

الأغاني قال (١٦: ٩٩) قال: "وكان بالحيرة سوق يجتمع إليه الناس كل سنةٍ" وروى هناك خروج الحكم بن أبي العاصي إليه ومعه عطر يريد بيعه وأخذ حسان بن جبلة الخير على نفسه أن يقدم للقوم "كل خمر أو لحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة". وقصد حاتم الطائي هذه السوق أيضاً وأظهر فيها شيئاً من كرمه الذي ضرب به المثل بنحره الجزور وإطعام الناس.

وما لا ينكر أن أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر والحيرة كانت تجارتهم واسعة رابحة ومعائشهم رغدة والخصب والرخاء غالبين على أطرافهم مع ما فيها من وفرة الغلات والذخائر وصنوف المعادن والأرفاق بخلاف عرب نجد والحجاز فكانت بلادهم مجدبة قاحلة كثيرة الرمال والصحارى. وقد جاء في سيرة نبي الإسلام أنه تعاطى التجارة في شبابه استأجرته خديجة بنت خويلد في مالها فكان يخرج به إلى الشام تاجراً فرأى أهلها النصارى ودخل صوامع رهبانها وكان محظوظاً في تجارته فدعا ذلك خديجة إلى أن تقترن به.[1]

ويرد ذكر عمان في هذا الكتاب أيضا حين يتحدث لويس شيخو عن الملاحة البحرية في الجزيرة العربية:

كما اشتهر نصارى العرب بالتجارة البرية كذلك أصابوا في التجارة البحرية سهماً فائزاً، وقد بينا سابقاً انتشار النصرانية في سواحل جزيرة العرب في اليمن وعُمان والبحرين فوجدوا في مجاورة البحار وسائل جديدة لتنمية ثروتهم وزيادة أرباحهم، فكان الحميريون وأهل البحرين يحسنون اصطناع السفن وعمارتها فيقطعون بها خليج العرب إلى الحبشة وبحر عُمان إلى الهند وخليج فارس إلى جهات العجم، وقد أشاروا إلى ذلك في شعرهم. قال عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته يفتخر بكثرة سفن قبيلته تغلب النصرانية:

ملأتـا البـرَّ حتَّـى ضـاق عنَّا

وظهـر البحـرِ نمـلأهُ سـفينا

وقد أحسن طرفة في وصفه لسفن قومه في البحرين؛ فذكر بعض أشكالها العظيمة وهي الخلايا والعَدُوليّة من سفن البحرين، وذكر أحدَ رؤساء البحر المدعو ابن يامن ومَخْرَ سفينته غمرَ المياه فقال:

١.المصدر السابق، ص٣٧٩-٣٨٠.

كأنَّ حدوجَ المالكيَّة غدوةً
خلايا سفينٍ بالنواصف من ددِ
عَدُوليَّة أو من سفين ابنِ يامنٍ
يجورُ بها الملاَّحُ طوراً ويهتدي
يشقُّ حبابَ الماء حيزومُها بها
كما قسّم التُّربَ المُفائلُ باليدِ

وذكر الأعشى النوتيَّ السائرَ بسفنه على الفرات عند طغيانه:

مثل الفُراتيّ إذا ما طما
يقذفُ بالوصيّ والماهرِ

وأشار أمرؤ القيس إلى طلي السفن بالقير:

فشَّبهتم في الآلِ حين زهاهمُ
عصائبَ دوم أو سفيناً مقيَّرا

وقال الشماخ يذكر سفن البحرين وغواربَها الكبيرة:

رماحُ رُدَيْنةٍ وبحار لُجٍّ
غواربُها تقاذفُ بالسفينِ

وكانوا يدعون النوتي ملاحاً وصراريّا جمعه صَراري أيضاً وصُرّاء قال ربيعة ابن مقروم:

وأعرضَ واسطٌ فعدلنَ عنهُ
كما عدلَ الصراريُّ السفينا

وقال الممزق العبدي:

ألا ابنَ المعلّى خلتنا وحسبتَنا
صراريَّ نعطي الماكسينا مكوسا

على أن فن الملاحة الذي كان يعرفه ويزاوله عرب الحضر في سواحل الجزيرة كان في الغالب مجهولاً لدى عرب الحجاز ونجد، بل كانوا يعدون ركوب البحر كالطامة العظمى فبعد انتشار الإسلام وثبوت قدمه إذ رأووا في سواحل الشام ومصر سفن الروم أرادوا أن يعبروا البحر ليغزوا الجزيرة كقيرس أو سواحل اليونان وآسيا الصغرى فالتجأوا إلى من كان في حوزتهم من الروم في الشام والأقباط في مصر ومن نصارى العرب في جهات البحرين فتعلموا منهم صناعة السفن كما أخذوا صناعة التجارة لأن إنشاء السفن يُحتاج إليها لما يدخلها من الألواح والدُّسُر والصواري والمجاديف مع هندسة أجزائها فعمروا لهم السفن وجهزوها لحروبهم في أيام معاوية ودولة بني أمية. وفي اللغة ما يدل على أصل فن الملاحة الأجنبي فترى فيها ألفاظاً متعددة إما رومية وإما آرامية أو حبشية تثبت حدوث الملاحة في الحقبة الأولى من الإسلام وقد تقلدوا في صنعها صورة مراكب الروم واليونان في هيئاتها المختلفة وأجرامها المتباينة، فمما استعاروه من اليونانية: أسطول،أنجر، نوتي، ومن السريانية أو الآرامية: سفينة، قارب، قرقور، دقل، ربان، ملاح، سكان، قلع، مجذاف، صار، ومن الحبشية: بحر، شراع، مرسى.[1]

١.المصدر السابق، ص٣٨٢-٣٨٣.

ألف ليلة و ليلة

ورد ذكر عمان في الليالي ضمن حكاية طويلة عنوانها "من نوادر هارون الرشيد مع الشاب العماني":

ومما يحكى أيضاً أن الخليفة هارون الرشيد أرِق ذات ليلة أرقاً شديداً فاستدعى مسروراً فحضر فقال له: ائتني بجعفرٍ بسرعةٍ فمضى وأحضره، فلما حضر ووقف بين يديه قال له: يا جعفر قد اعتراني في هذه الليلة أرقٌ فمنع عني النومَ ولا أعلم ما يزيله عني قال: يا أمير المؤمنين قد قالت الحكماء: النظر إلى المرآة ودخول الحمام واستعمال الغناء يزيل الهم والفكر فقال: يا جعفر إني قد فعلت هذا كله فلم يُزل عني شيئاً وأنا أقسم بآبائي الطاهرين إنْ لم تتسبب فيما يزيل عني ذلك لأضربن عنقك قال: يا أمير المؤمنين هل تفعل ما أشير به عليك؟ قال الخليفة: وما الذي تشير به علي؟ قال: أن تنزل بنا في زورقٍ وننحدرَ به في بحر دِجْلة مع الماء إلى محلٍ يسمى قرنُ الصراط لعلنا نسمع أو ننظر ما لم ننظر فإنه قد قُبِل تفريجُ الهم بواحدٍ من ثلاثة أمور: أن يرى الإنسانُ ما لم يكن رآه، أو يسمعَ ما لم يكن سمعه، أو يطأَ أرضاً ما لم يكن وطئها؛ فلعل ذلك يكون سبباً في زوال القلق عنك يا أمير المؤمنين. فعند ذلك قام الرشيد من موضعه وصحبه جعفر وأخوه الفضل وأبو اسحق النديم وأبو نواس وأبو دلف ومسرور والصياد.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الرابعة والأربعين بعد التسعمائة

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الخليفة لما قام من موضعه وصحبه جعفر وباقي جماعته دخلوا حُجْرة الثياب ولبسوا كلهم ملابسَ التجّار وتوجهوا إلى دجلة ونزلوا في زورقٍ مزركشٍ بالذهب وانحدروا مع الماء حتى وصلوا إلى الموضع الذي يريدونه فسمعوا أصواتَ جاريةٍ تغني على العود وتنشد هذه الأبيات:

أقـولُ لـه وقـد حضـر العُقـار

أفِـقْ مـا العُمْـرُ إلا مسـتعارُ

إلى كم ذا التأني عن سرورٍ
وقد غنى على الأيك الهَزَارُ
فخُذْها من يدي ظبيٍ غريرٍ
بجفنيه فتورٌ وانكسارُ
زرعتُ بخده ورداً طرياً
فأثمر في السوالفِ جُلّنَارُ
وتحسب موضع التخميس فيه
رمادا خامداً، والخدُّ نارُ
يقول لي العذول تسل عنه
فما عذري وقد تم العِذار

فلما سمع الخليفة هذا الصوت قال: يا جعفر ما أحسن هذا الصوت قال جعفر: يا مولانا ما طرق سمعي أطيبُ ولا أحسنُ من هذا الغناء، ولكن يا سيدي إن السماع من وراء جدارٍ نصف سماعٍ فكيف بالسماع من خلف سترٍ فقال: انهض بنا يا جعفر حتى نتطفل على صاحب هذه الدار لعلنا نرى المغنية عَياناً، قال جعفر: سمعاً وطاعةً فصعدوا من الكوكب واستأذنوا في الدخول وإذا بشابٍ مليح المنظر عذبِ الكلام فصيحِ اللسان خرج إليهم وقال: أهلاً وسهلاً يا سادتي المنعّمين علي ادخلوا بالرحب والسعة، فدخلوا وهو بين أيديهم فرأوا الدار بأربعة أوجهٍ وسقفَها بالذهب وحيطانَها منقوشةٌ باللازورد وفيها إيوانٌ به سدنةٌ جميلةٌ وعليها مائة جاريةٍ كأنهن أقمار فصاح عليهن، فنزلن عن أسرّتهن، ثم التفت ربُّ المنزل إلى جعفر وقال: يا سيدي أنا ما أعرف منكم الجليل من الأجل، بسم الله ليتفضل منكم من هو أعلى في الصدر ويُجلس إخوانه كلَّ واحد في مرتبته، فجلس كل واحدٍ في منزلته، وقام مسرورٌ في الخدمة بين أيديهم، ثم قال لهم صاحب المنزل عن إذنكم هل أحضر لكم شيئاً من المأكول؟ قالوا له: نعم. فأمر الجواري بإحضار الطعام فأقبل أربع جوارٍ مشدوداتِ الأوساط بين أيديهن مائدةٌ وعليها من غرائب الألوان مما درج وطار وسبح في البحار من قطاً وسماني وأفراخ وحمام، ومكتوبٌ على

حواشي السفرة من الأشعار ما يناسب المجلس فأكلوا على قدر كفايتهم ثم غسلوا أيديهم، فقال الشاب: يا سادتي إن كان لكم حاجةٌ فأخبرونا بها حتى نتشرف بقضائها قالوا: نعم فإننا ما جئنا منزلك إلا لأجل صوت سمعناه من وراء حائط دارك، فاشتهينا أن نسمعَه ونعرفَ صاحبتَه فإن رأيتَ أن تُنعم علينا بذلك كان من مكارم أخلاقك ثم نعود من حيث جئنا. فقال: مرحبا بكم. ثم التفت إلى جاريةٍ سوداءٍ وقال: أحضري سيدتكِ فلانةٌ. فذهبت الجارية ثم جاءت ومعها كرسي فوضعته ثم ذهبت ثانيةً وأتتْ جاريةٌ كأنها البدر في تمامه فجلستْ على الكرسي أمام الجارية السوداء وناولتها خِرقة من أطلسٍ فأخرجتْ منها عوداً مرصعاً بالجواهر واليواقيت ومليئا بالذهب.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الخامسة والأربعين بعد التسعمائة

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما أقبلت جلستْ على كرسي وأخرجت العودَ من الخريطة فإذا هو مرصع بالجوهر واليواقيت وملاويه من الذهب فشدت أوتاره لرناتٍ المزاهر وهي كما قال فيها وفي عودها الشاعر:

حضنتــه كالأم الشـفيقة بابنهـا
في حِجرها وجلتْ عليه ملاويهْ
ما حركتْ يدها اليمين لجسـه
إلا وأصلحـتْ اليسـار مُداويـهْ

ثم ضمت العود إلى صدرها وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها وجست أوتاره فاستغاث كما يستغيث الصبي بأمه، ثم ضربت عليه وجعلت تنشد هذه الأبيات:

جـاد الزمان بمن أحـب فأعتبا
يا صاحبي فأدرْ كؤوسَـكَ واشربا
من خمرةٍ ما مازجتْ قلبَ امريءٍ
إلا وأصبـح بالمسـرّةِ مُطْرَبـا

قـام النسـيمُ بحملهـا فـي كأسـها
أرأيـت بـدرَ التـم يحمـل كوكبـا
كـم ليلـةٍ سـامرتُ فيهـا بدرَهـا
من فوق دجلة قد أضاء الغيهبا
والبـدر يجنـح للغـروب كأنمـا
قـد مـد فوق المـاء سـيفاً مُذْهَبا

فلما فرغت من شعرها بكت بكاءً شديداً وصاح كل من في الدار من البكاء حتى كادوا أن يهلكوا وما منهم أحدٌ إلا وغاب عن وجوده ومزق أثوابه ولطم على وجهه لحسن غنائها فقال الرشيد: إن غناء هذه الجارية يدل على أنها عاشقةٌ مفارقةٌ فقال سيدُها: إنها ثاكلةٌ لأمها وأبيها فقال الرشيد: ما هذا بكاء من فقد أباه وأمَّه وإنما هو شجوُ من فقد محبوبَه، وطرِب الرشيد من غنائها وقال لأبي إسحق: والله ما رأيتُ مثلها فقال أبو اسحق: يا سيدي إني لأعجب منها غايةَ العجب ولا أملك نفسي من الطرب، وكان الرشيد مع ذلك كله ينظر إلى صاحب الدار ويتأمل في محاسنه وظرْف شمائلِه فرأى في وجهه اصفرارا فالتفتْ إليه وقال: يا فتى فقال: لبيك يا سيدي فقال له: هل تعلم من نحن؟ قال: لا فقال له جعفر: أتحب أن نخبرَك عن كل واحدٍ باسمه؟ فقال: نعم فقال جعفر: هذا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين وذكر له بقية أسماء الجماعة وبعد ذلك قال الرشيد: أشتهي أن تخبرني عن هذا الاصفرار الذي في وجهك هل هو مكتسبٌ أو أصلي من حين ولادتك؟ قال: يا أمير المؤمنين إن حديثي غريب وأمري عجيب لو كتب بالإبر على أماق البصر لكان عبرةً لمن اعتبر.

قال: أعلمني به لعل شفاءك يكون على يدي قال: يا أمير المؤمنين أعرني سمعك، وأخلي لي ذرعك قال: هات فحدثني فقد شوقتني إلى سماعه.

فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أني رجلٌ تاجرٌ من تجار البحر، وأصلي من مدينة عُمان وكان أبي تاجرا كثيرَ المال وكان له ثلاثون مركباً تعمل في البحر أُجْرتها في كل عام ثلاثون ألفَ دينارٍ وكان رجلاً كريماً وعلمني الخط وجميعَ ما يحتاج إليه الشخص فلما حضرته الوفاة دعاني

وأوصاني بما جرت به العادة ثم توفاه الله تعالى إلى رحمته وأبقى الله أمير المؤمنين وكان لأبي شركاءٌ يَتّجرون في ماله ويسافرون في البحر فاتفق في بعض الأيام أني كنتُ قاعداً في منزلي مع جماعةٍ من التجار إذ دخل علي غلامٌ من غلماني وقال: يا سيدي إن بالباب رجلاً يطلب الإذن في الدخول عليك فأذن له فدخل وهو حامل على رأسه شيئاً مغطى فوضعه بين يدي وكشفه فإذا فيه فواكه بغير أوانٍ ومِلَحٌ وطرائف ليست في بلادنا فشكرتُه على ذلك وأعطيتُه مائة دينارٍ وانصرف شاكراً، ثم فرقتُ ذلك على كل من كان حاضراً من الأصحاب.

ثم سألت التجار: من أين هذا؟ فقالوا: إنه من البصرة وأثنوا عليه وصاروا يصفون حسن البصرة وأجمعوا على أنه ليس في البلاد أحسنُ من مدينة بغداد ومن أهلها وصاروا يصفون بغداد وحسن أخلاقها وأهلهَا وطيبَ هوائها وحسنَ تركيبها فاشتاقت نفسي إليها وتعلقت آمالي برؤيتها فقمت وبعتُ العَقار والأملاكَ وبعتُ المراكبَ بمائة ألف دينارٍ وبعتُ العبيدَ والجواري وجمعتُ مالي فصار ألفَ ألفَ دينارٍ غيرَ المعادن والجواهر واكتريتُ مركباً وشحنتُها بأموالي وسائر متاعي وسافرت بها أياماً ولياليَ حتى جئتُ إلى البصرة فأقمتُ بها مدةً ثم استأجرت سفينةً وأنزلتُ مالي فيها وسرنا منحدرين أياماً قلائل حتى وصلنا إلى بغدادَ فسألتُ أين تسكن التجار وأي موضعٍ أطيب للسكان؟ فقالوا: في حارة الكرخ فجئتُ إليها واستأجرتُ داراً في درب يسمى درب الزعفران ونقلتُ جميع مالي إلى تلك الدار وأقمت بها مدةً.

ثم توجهتُ في بعض الأيام إلى الفرجة ومعي شيءٌ من المال وكان ذلك اليوم يومَ الجمعة فأتيتُ إلى جامعٍ يسمى جامعَ المنصور تقام فيه الجمعة وبعد أن خلَصنا من الصلاة خرجتُ مع الناس إلى موضعٍ يسمى قَرْنَ الصراط فرأيتُ في ذلك المكان موضعاً عالياً جميلاً وله روشنٌ مطلٌ على الشاطئ وهناك شباك فذهبتُ من جملة الناس إلى ذلك المكان فرأيتُ شيخاً جالساً وعليه ثيابٌ جميلةٌ وتفوح منه رائحةٌ طيبةٌ وقد شرح لحيتَه فافترقت على صدره فرقتين كأنها قضيبٌ من لجين وحوله أربع جوارٍ وخمسة غلمانٍ فقلت لشخصٍ ما اسم هذا الشيخ وما صنعته؟ فقال: هذا طاهر ابن العلاء وهو صاحب الفتيان وكل من دخل عنده يأكل ويشرب وينظر إلى الملاح فقلت له: والله إن لي زماناً وأنا أدور على مثل هذا.

وأدرك شهرزادَ الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السادسة والأربعين بعد التسعمائة

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الشاب لما قال: والله إن لي زماناً وأنا أدوّر على مثل هذا، ثم قال: فتقدمت إليه يا أمير المؤمنين وسلمتُ عليه، وقلت له: يا سيدي إن لي عندك حاجة، فقال: ما حاجتك؟ قلت: أشتهي أن أكون ضيفك في هذه الليلة فقال: حباً وكرامةً ثم قال: يا ولدي عندي جوارٍ كثيرة منهن من ليلتُها بعشرة دنانيرٍ ومنهن من ليلتها بأكثر فاختر من تريد فقلت: أختار التي ليلتها بعشرة دنانيرٍ، ثم وزنتُ له ثلثمائة دينارٍ عن شهرٍ فسلمني لغلامٍ فأخذني ذلك الغلام وذهب بي إلى حمّام القصر وخدمني خدمةً حسنةً فخرجتُ من الحمام وأتى بي إلى مقصورةٍ وطرق الباب فخرجت له جاريةٌ فقال له: خذي ضيفك فتلقتني بالرحب والسعة ضاحكةً مستبشرةً وأدخلتني داراً عجيبةً مزركشةً بالذهب فتأملتُ في تلك الجارية فرأيتُها كالبدر ليلة تمامه وفي خدمتها جاريتان كأنهما كوكبان ثم أجلستني وجلست بجانبي ثم أشارت إلى الجواري فأتين بمائدةٍ فيها من أنواع اللحوم من دجاجٍ وسماني وقطاً وحمامٍ فأكلنا حتى اكتفينا وما رأيتُ في عمري ألذَّ من ذلك الطعام، فلما أكلنا رُفعتْ تلك المائدة وأحضرت مائدة الشراب والمشموم والحلوى والفواكه وأقمتُ عندها شهراً على هذا الحال.

فلما فرغ الشهر دخلت الحمام وجئتُ إلى الشيخ وقلت له: يا سيدي أريد التي ليلتُها بعشرين ديناراً فقال: أرني الذهب فمضيتُ وأحضرتُ الذهب فوزنت له ستمائة دينارٍ عن شهرٍ فنادى غلاماً وقال له: خذ سيدك فأخذني وأدخلني الحمام فلما خرجت أتى بي إلى باب مقصورةٍ وطرقه فخرجت جارية، فقال لها: خذي ضيفك فتلقتني بأحسن ملتقى وإذا حولها أربع جوارٍ ثم أمرت بإحضار الطعام فحضرت مائدة عليها من سائر الأطعمة فأكلت ولما فرغت من الأكل ورفعت المائدة أخذت العود وغنت بهذه الأبيات:

أيا نفحات المسك من أرض بابلٍ
بحق غرامي أن تؤدي رسائلي
عهدت بهاتيك الأراضي منازلاً
لأحبابنا أكرم بها من منازل
وفيها التي ما حبها كل عاشقٍ
تغني ولم يرتدَّ منها بطائلٍ

فأقمت عندها شهراً ثم جئت إلى الشيخ وقلت: أريد صاحبة الأربعين ديناراً فقال: أزن لي الذهب فوزنت له عن شهرٍ ألفا ومائتي دينارٍ ومكثت عندها شهراً كأنه يومٌ واحدٌ لِمَا رأيتُ من حسن المنظر وحسن العشرة.

ثم جئتُ إلى الشيخ وكنا قد أمسينا فسمعت ضجةً عظيمةً وأصواتاً عاليةً فقلت له: ما الخبر؟ فقال لي الشيخ: إن هذه الليلة عندنا أشهر الليالي وجميع الخلائق يتفرجون على بعضهم فيها فهل لك أن تصعد على السطح وتتفرج على الناس فقلت: نعم وطلعت على السطح فرأيتُ ستارةً حسنةً ووراء الستارة محلٌ عظيمٌ وفيه سدلة وعليها فرْشٌ مليحٌ وهناك صبيّةٌ تُدهش الناظرين حسناً وجمالاً وقداً واعتدالاً وبجانبها غلام يده على عنقها وهو يقبلها فلما رأيتُهما يا أمير المؤمنين لم أملك نفسي ولم أعرف أين أنا لما بهرني من حسن صورتها فلما نزلت الجارية التي أنا عندها وأخبرتها بصفتها فقالت: ما لك وما لها؟ فقلت: والله إنها أخذت عقلي فتبسمت وقالت: يا أبا الحسن ألك فيها غرضٌ؟ فقلت: أي والله فإنها تملكت قلبي ولبي فقالت: هذه ابنة طاهر بن العلاء وهي سيدتنا وكلنا جواريها أتعرف يا أبا الحسن بكم ليلتها ويومها: قلت: لا قالت: بخمسمائة دينارٍ وهي حسرةٌ في قلوب الملوك فقلت: والله لأذهبن مالي كله على هذه الجارية وبت أكابد الغرام طولَ ليلي فلما أصبحت دخلت الحمّام ولبست أفخر ملبوس من ملابس الملوك وجئتُ إلى أبيها وقلت: يا سيدي أريد التي ليلتها بخمسمائة دينارٍ فقال: زن الذهب فوزنتُ له عن كل شهرٍ عشرة آلاف دينارٍ فأخذها ثم قال للغلام: اعمد به إلى سيدتك فلانة فأخذني وأتى بي إلى دارٍ لم تر عيني أظرفَ منها على وجه الأرض.

فلما دخلت رأيت الصبية جالسةً فلما رأيتها اندهش عقلي بحسنها يا أمير المؤمنين وهي كالبدر في ليلة أربعة عشر ذاتُ حسنٍ وجمالٍ وقدٍ واعتدالٍ وألفاظ تُفضح رنات المزاهر.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السابعة والأربعين بعد التسعمائة

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الشاب لما حدث أمير المؤمنين بصفات الجارية وأنشد في حسنها الأبيات المتقدمة ثم أنشد هذه الأبيات:

ولـو أنهـا للمشـركين تعرضت

لكانت لهم من دون أصنامهم ربا

ولو تفلت في البحر و البحـر مالح

لأصبح ماء البحر من ريقهـا عذبا

ولو أنها في الشـرق لاحت لراهبٍ

لخلى سـبيل الشـرق واتبع الغربا

وما أحسن قولَ الآخر:

نظـرتُ إليهـا نظـرةً فتغيـرت

دقائق فكري في بديـع صفاتها

فأوحى إليهـا الوهم أني أحبها

فأثّـر ذالـك الوهـم فـي وجناتهـا

فسلمت عليها فقالت: أهلاً وسهلاً ومرحباً وأخذت بيدي يا أمير المؤمنين وأجلستني إلى جانبها فمن فرط الاشتياق بكيتُ حماقة الفراق وأسبلتُ دمع العين وأنشدت هذين البيتين:

أحب ليالي الهجر لا فرحـاً بها

عسـى الدهر يأتي بعدهـا بوصال

وأكـره أيـام الوصـال لأننـي

أرى كل شـيءٍ معقبـاً بـزوال

ثم إنها صارت تؤانسني بلطف وأنا غريقٌ في بحر الغرام خائف في القرب ألم الفراق من فرط الوجد والاشتياق وتذكرت لوعة النوى والبين فأنشدت هذين البيتين:

فكرت ساعة وصلها في هجرها

فجرت مدامعُ مقلتي كالعنـدمِ

فطفقت أمسـح مقلتي في جيدها

من عادة الكافور إمسـاكُ الدمِ

ثم أمرتْ بإحضار الأطعمة فأقبلت أربعُ جوارٍ نواهدُ أبكار فوضعن بين أيدينا من الأطعمة والفاكهة والحلوى والمشموم والمُدام ما يصلح للملوك فأكلنا يا أمير المؤمنين وجلسنا على المُدام وحولنا الرياحين في مجلسٍ لا يصلح إلا للملك ثم جاءتها يا أمير المؤمنين جاريةٌ بخريطةٍ من الابرسيم فأخذتها وأخرجت منها عوداً فوضعته في حجرها وجست أوتاره فاستغاث كما يستغيث الصبي بأمه وأنشدت هذين البيتين:

لا تشـربِ الراحَ إلا من يَدَيْ رَشَـأٍ

تَحْكيه في رِقّـةِ المعنـى ويَحيكها

إن المُدامـةَ لا يلتـذُّ شـاربُها

حتى يكوَن نقيَّ الخد سـاقيها

وأدرك شهرزادَ الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثامنة والأربعين بعد التسعمائة

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الشاب قال: لما أنشدت هذين البيتين فأقمت يا أمير المؤمنين عندها على هذه الحالة مدةً من الزمان حتى نفِد جميعُ مالي فتذكرت وأنا جالسٌ معها مفارقتَها فنزلت دموعي على خدي كالأنهار وصرت لا أعرف الليل من النهار فقالت: لأي شيءٍ تبكي؟ فقلت لها: يا سيدتي من حين جئت إليك وأبوك يأخذ مني في كل ليلةٍ خمسمائة دينارٍ وما بقي عندي شيءٌ من المال وقد صدق قول الشاعر حيث قال:

الفقـر فـي أوطاننـا غربـةٌ

والمـالُ فـي الغربـة أوطـانُ

فقالت: اعلم أن أبي من عادته أنه إذا كان عنده تاجرٌ وافتقر فإنه يضيفه ثلاثة أيامٍ ثم بعد ذلك يخرجه فلا يعود إلينا أبداً ولكن اكتم سرك واخفِ أمرك وأنا أعمل حيلةً في اجتماعي

بك إلى ما شاء الله فإن لك في قلبي محبةً عظيمةً واعلم أن جميع مال أبي تحت يدي وهو لا يعرف قدره فأنا أعطيك في كل يوم كيساً فيه خمسمائة دينارٍ وأنت تعطيه لأبي وتقول له: ما بقيت أعطي الدراهم إلا يوماً بيومٍ وكل ما دفعته إليه فإنه يدفعه إلي وأنا أعطيه لك وتستمر هكذا إلى أن شاء الله فشكرتها على ذلك وقبلت يدها.

ثم أقمت عندها يا أمير المؤمنين على هذه الحالة مدة سنةٍ كاملةٍ فاتفق في بعض الأيام أنها ضربت جاريتها ضرباً وجيعاً فقالت لها: والله لأوجعن قلبك كما أوجعتِني ثم مضت تلك الجارية إلى أبيها وأعلمته بأمرنا من أوله إلى آخره فلما سمع طاهر بن العلاء كلامَ الجارية قام من وقته وساعته ودخل علي وأنا جالسٌ مع ابنته وقال لي: فلان قلت له: لبيك قال: عادتنا أنه إذا كان عندنا تاجر وافتقر أننا نضيفه عندنا ثلاثة أيامٍ وأنت لك عندنا سنةً تأكل وتشرب وتفعل ما تشاء.

ثم التفت إلى غلمانه وقال: اخلعوا ثيابه ففعلوا وأعطوني ثياباً رديئةً قيمتها خمسة دراهمٍ ودفعوا إلي عشرة دراهمٍ ثم قال لي: اخرج فأنا لا أضربك ولا أشتمك واذهب إلى حال سبيلك وإن أقمت في هذه البلدة كان دمك هدرا فخرجتُ يا أمير المؤمنين رغم أنفي ولا أعلم أين أذهب وحل بقلبي كلُّ همٍ في الدنيا وشغلني الوسواس وقلت في نفسي كيف أجيء في البحر بألف ألف من جملتها ثمن ثلاثين مركباً ويذهب هذا كله في دار هذا الشيخ النحس وبعد ذلك أخرج من عنده عُريانا مكسورَ القلب؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم أقمتُ في بغداد ثلاثة أيامٍ لم أذق طعاماً ولا شراباً وفي اليوم الرابع رأيتُ سفينةً متوجهةً إلى البصرة فنزلتُ واستكريت مع صاحبها إلى أن وصلتُ إلى البصرة فدخلت السوق وأنا في شدة الجوع فرآني رجل بقّال فقام إلي وعانقني لأنه كان صاحباً لي ولأبي من قبلي وسألني عن حالي فأخبرته بجميع ما جرى لي فقال لي: والله ما فعال عاقلٍ ومع هذا الذي جرى لك فأي شيءٌ في ضميرك تريد أن تفعله؟ فقلت له: لا أدري ماذا أفعل فقال: أتجلس عندي وتكتب خرجي ودخلي ولك في كل يومٍ درهم زيادةً على أكلك وشربك؟ فأجبته وأقمت عنده يا أمير المؤمنين سنةً كاملةً أبيع واشتري إلى أن صار معي مائة دينارٍ فاستأجرت غرفةً على شاطئ البحر لعل مركباً تأتي ببضاعةٍ فاشتري بالدنانير بضاعةً وأتوجه إلى بغداد فاتفق في بعض الأيام أن المراكب جاءت وتوجهتْ إليها جميعُ التجار يشترون فرحت معهم وإذا برجلين قد خرجا من بطن المركب ونصبا

لهما كرسيين وجلسا عليهما ثم أقبل التجار عليهما لأجل الشراء فقالا لبعض الغلمان: أحضروا البساط فأحضروه وجاء واحدٌ بخُرْجٍ به جراب وفتحه وكبه على البساط وإذا به يخطف البصر لما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان والعقيق من سائر الألوان.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة التاسعة والأربعين بعد التسعمائة

قالت شهرزاد: بلغني أيها الملك السعيد أن الشاب لما أخبر الخليفة بقضية التجار وبالجراب وما فيه من سائر أنواع الجواهر قال: يا أمير المؤمنين ثم أن واحداً من الرجلين الجالسين على الكراسي التفت إلى التجار وقال لهم: يا معشر التجار أنا ما أبيع في يومي هذا لأني تعبان فتزايدت التجار في الثمن حتى بلغ مقداره أربعمائة دينارٍ فقال لي صاحب الجراب وكان بيني وبينه معرفة قديمة لماذا لم تتكلم ولم تزود مثل التجار؟ فقلت له: والله يا سيدي ما بقي عندي شيءٌ من الدنيا سوى مائة دينارٍ واستحيت منه ودمعت عيناي فنظر إلي وقد عسر عليه حالي، ثم قال للتجار: أشهدوا على أني بعت جميع ما في الجراب من أنواع الجواهر والمعادن لهذا الرجل بمائة دينار وأنا أعرف أنه يساوي كذا وكذا ألف دينارٍ وهو هديةٌ مني إليه فأعطاني الخُرْج والجراب والبساط وجميعَ ما عليه من الجواهر فشكرته على ذلك، وجميعُ من حضر من التجار أثنوا عليه ثم أخذت ذلك ومضيت به إلى سوق الجواهر وقعدت أبيع واشتري وكان من جملة هذه المعادن قرص تعويذ صنعه المعلمون و زنته نصف رطلٍ وكان أحمرَ شديد الحمرة وعليه أسطر مثل دبيب النمل من الجانبين ولم أعرف منفعته فبعت واشتريت مدة سنةٍ كاملةٍ ثم أخذت قرص التعويذ وقلت: هذا له عندي مدة لا أعرفه ولا أعرف منفعته فدفعته إلى الدلال فأخذه ودار به ثم عاد وقال: ما دفع واحدٌ من التجار سوى عشرة دراهمٍ فقلت له: ما أبيعه بهذا القدر فرماه في وجهي وانصرف.

فعرضته للبيع يوماً آخر فبلغ ثمنه خمسة عشر درهماً فأخذته من الدلال مغضباً ورميته عندي فبينما أنا جالس يوماً إذ أقبل علي رجل فسلم علي وقال لي: عن إذنك هل أقلّب ما عندك من البضائع؟ قلت: نعم وأنا يا أمير المؤمنين مغتاظٌ من كساد قرص التعويذ فقلّب الرجلُ البضاعة ولم يأخذ منها سوى قرص التعويذ فلما رآه يا أمير المؤمنين قبل يده وقال: الحمد لله ثم قال: يا

سيدي أتبيع هذا؟ فازداد غيظي وقلت له: نعم فقال لي: كم ثمنه؟ فقلت له: كم تدفع فيه أنت؟ قال عشرين ديناراً، فتوهمتُ أنه يستهزئ بي فقلت: اذهب إلى حال سبيلك فقال لي هو: أبخمسين ديناراً فلم أخاطبه فقال: ألف دينارٍ هذا كله يا أمير المؤمنين وأنا ساكتٌ ولم أجبه وهو يضحك من سكوتي ويقول: لأي شيءٍ لم ترد علي؟ فقلت له: اذهب إلى حال سبيلك وأردت أن أخاصمه وهو يزيد ألفاً بعد ألفٍ ولم أرد عليه حتى قال: أتبيعه بعشرين ألف دينارٍ؟ وأنا أظن أنه يستهزئ بي فاجتمع علينا الناس كلٌ منهم يقول بعد وإن لم يشتر فنحن الكل عليه ونضربه ونخرجه من البلد فقلت له: هل أنت تشتري أو تستهزئ؟ قلت له: أبيع قال: هو بثلاثين ألف دينارٍ وخذها وأمضي البيع وأنا أخبرك بفائدته ونفعه فقلت: بعتك فقال: الله على ما نقول وكيل. ثم أخرج الذهب وأقبضني إياه وأخذ قرص التعويذ ووضعه في جيبه ثم قال لي: هل رضيت؟ قلت: نعم فقال اشهدوا عليه أنه أمضى البيع وقبض الثمن ثلاثين ألف دينارٍ ثم إنه التفت إلي وقال: يا مسكين والله لو أخرت البيع لزدناك إلى مائة ألف دينارٍ بل إلى مائة ألف ألف دينارٍ، فلما سمعتُ يا أمير المؤمنين هذا الكلام نفر الدم من وجهي وعلا عليه هذا الاصفرار الذي أنت تنظره من ذلك اليوم ثم قلت له: أخبرني ما سبب ذلك وما نفع هذا القرص؟ فقال: اعلم أن ملك الهند له بنت لم يُر أحسنُ منها وبها داء الصداع فأحضر الملك أرباب الأقلام وأهل العلوم والكهان فلم يرفعوا عنها ذلك فقلتُ له وكنت حاضراً بالمجلس: أيها الملك أنا أعرف رجلاً يسمى سعد الله البابلي ما على وجه الأرض أعرف منه بهذه الأمور فإن رأيتَ أن ترسلني إليه فافعل فقال: اذهب إليه فقلت له: أحضر إلي قطعةً كبيرةً من العقيق ومعها ألف دينارٍ وهدية، فأخذت ذلك وتوجهتُ إلى بلاد بابلٍ فسألتُ عن الشيخ فدلوني عليه ودفعتُ له المائة ألف دينارٍ والهدية فأخذ ذلك مني ثم أخذ قطعة العقيق وأحضر حكاكاً فعمل هذا التعويذ ومكث الشيخ سبعة أشهرٍ يرصد النجم حتى اختار وقتاً لكتابته وكتب عليه هذه الطلاسم التي تنظرها ثم جئتُ به إلى الملك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الخمسين بعد التسعمائة

قالت شهرزاد: بلغني أيها الملك السعيد أن الشاب قال لأمير المؤمنين: إن الرجل قال لي: أخذت هذا التعويذ وجئتُ به إلى الملك فلما وضعه على ابنته برئت من ساعتها وكانت مربوطةً في أربع سلاسلٍ، وكلَّ ليلةٍ تبيت عندها جاريةٌ فتصبح مذبوحةً، فمن حين وُضع

عليها هذا التعويذ برئت لوقتها، ففرح الملك فرحاً شديداً وخلع علي وتصدق بمالٍ كثيرٍ ثم وضعه في عقدها فاتفق أنها نزلت يوماً في مركب هي وجواريها تتنزه في البحر فمدت جاريةٌ يدها إليها لتلاعبها فانقطع العقد وسقط في البحر فعاد من ذلك الوقت العارض لابنة الملك فحصل ما حصل للملك من الحزن فأعطاني مالاً كثيراً وقال لي: اذهب إلى الشيخ ليعمل لها تعويذةً عوضاً عنها فسافرت إليه فوجدته قد مات فرجعت إلى الملك وأخبرته فبعثني أنا وعشرة أنفسٍ نطوف في البلاد لعلنا نجد لها دواء فأوقعني الله به عندك فأخذه مني يا أمير المؤمنين وانصرف فكان ذلك الأمر سبباً للاصفرار الذي في وجهي ثم أني توجهت إلى بغداد ومعي جميع مالي وسكنت في الدار التي كنت فيها فلما أصبح الصباح لبستُ ثيابي وجئت إلى بيت طاهر بن العلاء لعلي أرى من أحبها فإن حبها لم يزل يتزايد في قلبي فلما وصلتُ إلى داره رأيت الشباك قد انهدم فسألت غلاماً وقلت له: ما فعل الله بالشيخ؟ فقال: يا أخي إنه قدِم عليه في سنة من السنين رجلٌ تاجرٌ يقال له أبو الحسن العماني فأقام مع ابنته مدةً من الزمان ثم بعد أن ذهب ماله أخرجه الشيخ من عنده مكسورَ الخاطر وكانت الصبية تحبه حباً شديداً فلما فارقها مرضت مرضاً شديداً حتى بلغت الموت وعرف أباها بذلك فأرسل خلفه في البلاد وقد ضمن لمن يأتي به مائة ألف دينارٍ فلم يره أحد ولم يقع له على أثرٍ وهي الآن مشرفة على الموت قلت: وكيف حال أبيها؟ قال: باع الجواري من عظم ما أصابه فقلت له: هل أدلك على أبي الحسن العماني؟ فقال: وبالله عليك يا أخي أن تدلني عليه فقلت له: اذهب إلى أبيها وقل له: لي البشارة عندك فإن أبا الحسن العماني واقفٌ على الباب. فذهب الرجل يهرول كأنه بغلٌ انطلق من طاحونٍ ثم غاب ساعة وجاء وصحبته الشيخ فلما رآني رجع إلى داره وأعطى الرجل مائة ألف دينارٍ فأخذها وانصرف وهو يدعو لي ثم أقبل الشيخ وعانقني وبكى وقال: يا سيدي أين كنت في هذه الغيبة هلكت ابنتي من أجل فراقك فادخل معي إلى المنزل فلما دخلت سجد شكراً لله تعالى وقال الحمد لله الذي جمعنا بك ثم دخل لابنته وقال لها شفاك الله من هذا المرض فقالت يا أبت ما أبرا من مرضي إلا إذا نظرت وجه أبي الحسن فقال إذا أكلت أكلة ودخلت الحمام جمعتُ بينكما فلما سمعت كلامه قالت أصحيحٌ ما تقول قال لها والله العظيم إن الذي قلته صحيحٌ فقالت والله إن نظرتُ وجهه ما أحتاج إلى أكلٍ فقال لغلامه: أحضر سيدك فدخلت فلما نظرت إليّ أمير المؤمنين وقعت مغشياً عليها فلما

أفاقت أنشدت هذا البيت:

وقـد يجمـع الله الشـتيتين بعدما

يظنـان كلَّ الظـن أن لا تلاقيا

ثم استوت جالسةً وقالت: يا سيدي ما كنت أظن أني أرى وجهك إلا إن كان مناماً، ثم أنها عانقتني وبكت وقالت يا أبا الحسن الآن آكل وأشرب فأحضروا الطعام والشراب، ثم صرت عندهم يا أمير المؤمنين مدةً من الزمان وعادت كما كانت عليه من الجمال، ثم إن أباها استدعى بالقاضي والشهود وكتب كتابها علي وعمل وليمةً عظيمةً وهي زوجتي إلى الآن. ثم إن ذلك الفتى قام من عند الخليفة ورجع إليه بغلامٍ بديع الجمال بقدٍ ذي رشاقةٍ واعتدالٍ وقال له قبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين فقبل الأرض بين يدي الخليفة فتعجب الخليفة من حسنه وسبح خالقه، ثم إن الرشيد انصرف هو وجماعته وقال يا جعفر ما هذا إلا شيءٌ عجيبٌ ما رأيت ولا سمعت بأغرب منه. فلما جلس الرشيد في دار الخلافة قال: يا مسرور قال: لبيك يا سيدي قال اجمع في هذا الإيوان خراج البصرة وخراج بغداد وخراج خراسان فجمعه فصار مالاً عظيماً لا يُحصي عدده إلا الله تعالى.

ثم قال الخليفة: يا جعفر قال لبيك قال أحضر لي أبا الحسن قال سمعاً وطاعةً ثم أحضره فلما حضر قبل الأرض بين يدي الخليفة وهو خائفٌ أن يكون طلبه بسبب خطأ وقع منه وهو عنده بمنزله فقال الرشيد: يا عماني قال له لبيك يا أمير المؤمنين خلد الله نعمه عليك، فقال له اكشف هذه الستارة، وكان الخليفة أمرهم أن يضعوا مال الأقاليم ويسدلوا عليه الستارة، فلما كشف العماني الستارة عن الإيوان اندهش عقله من كثرة المال فقال الخليفة يا أبا الحسن أهذا المال أكثر أم الذي فاتك من قرص التعويذ فقال له بل هذا يا أمير المؤمنين أكثر بأضعافٍ كثيرة. قال الرشيد: اشهدوا يا من حضر أني وهبت هذا المال لهذا الشاب، فقبل الأرض واستحى وبكى من شدة الفرح بين يدي الرشيد، فلما بكى جرى الدمع من عينيه على خده فرجع الدم إلى محله فصار وجهه كالبدر ليلة تمامه، فقال الخليفة لا إله إلا الله سبحان من يغير حالاً بعد حال وهو باقٍ لا يتغير، ثم أتى بمرآة وأراه وجهه فيها فلما رآه سجد شكراً لله تعالى، ثم أمر الخليفة يحمل إليه المال وسأله أنه لا ينقطع عنه لأجل المنادمة فصار يتردد إليه إلى أن توفى الخليفة إلى رحمة الله تعالى، فسبحان الحي الذي لا يموت ذي الملك والملكوت.[1]

١.ألف ليلة وليلة، ج٤ (القاهرة: المطبعة السعيدية ومكتبتها، ١٩٣٠)، ص ٢٠٨-٢١٩.

مَجْمَعُ البَحْرَيْن لناصيف اليازجي

خصص اليازجي المقامة الثانية والخمسين من كتابه هذا و سماها "بالعُمَانية". يقول فيها:

قال سُهيلُ بنُ عَبّاد: ألقتني صُروفُ الزمانِ إلى عُمَان. فدخلتُها وقد آذَنتْ بَرَاحِ بالبِرَاح، وهتف داعي الفلاح. حتى إذا مررتُ بفِناء الجامع، إذا الخُزاميُّ هناك راتع. والناس حوله كالحجيج في المُزْدَلِفة، أو في موقف عَرَفة. فابتدرتُ إليه العُبور، وقد اسْتُطيرَ فؤادي من الحُبور. وجلستُ للسمر بين تلك الزُّمَر. فقضيناها ليلةً أبهجَ من زَهْرِ الرُّبَى، وأنْفَجَ من نشْر الكِبَا. والشيخ يتلو علينا أساطيرَ الأوّلِين والآخِرين، ويُطرِفُنا بحديثِ العابرين والغابرين. حتى هَوّمَ الكَرَى المُفارِق، وكِدْنا نستقبلُ غُرّةَ الطارِق. فهَجَعْنا هنالك، غُبَّرَ الليل ذلك. ولمّا كانت الغَدَاة، وقد انقضت الصلاة. هجم علينا شيخٌ أرْمَشُ أغْفَش، كأنه أبو الحَسَن الأخْفَش. فحَيّا من حَضَر، وقال: أرى عَمَائمَ البَدْو على وُجوهِ الحَضَر، فقال الشيخ: بل ترى تِيجَانَ العَرَب على أعْيَانِ مُضَر. فمن أنتَ يا مَنْ يَسْلُبُ السَّيْفَ فِرِنْدَه، والصَّريفَ زُبْدَه؟ قال: إن كنتَ من أهلِ تلك الأماكن، فما قيودُ المَساكن باعتبار الساكن؟ فتفكّرَ ريثما تذكّر. ثم أنشد:

لمَسْكَنِ النّاسِ يُقالُ الوَطَنُ
ومِثْلُ ذاكَ للجِمَالِ العَطَنُ
إصْطَبْلُ خَيْلٍ زَرْبُ شاءٍ ووَرَدْ
وِجَارُ ضَبْعٍ والعَرِينُ للأسَدْ
ونَفَقُ الخُلْدِ كِنَاسٌ للظِّبَا
والنَّافِقَاءُ لليَرابيعِ خِبَا
جُحْرُ الضِّبَابِ قَرْيةٌ للنّمْلِ
وهكذا خَليّةٌ للنّحْلِ

والوَكْـرُ للطيـرْ وأُفْحُـوصُ القَطَـا
منـه، وأُدْحِـيُّ النَّعَـامِ ارْتَبطـا
والكـور للزُّنْبـورِ، والعَنَاكِـبُ
لهـا البيـوتُ فادْرِها يا صاحِبُ

قال: حُيِّيتَ وحَيَيت، وأعْيَيْتَ ولا عَييت. فما قيودُ السَّعَة، إن كنتَ من شُوسِ المَعْمَعَة؟ فأهْنَفَ كوَلّادَة، وأنْشَد كأبي عُبَادَة:

بيـتٌ فَسِيحٌ دارُه قَـوْرَاءُ
صَـدْرٌ رَحيـبٌ مُقْلَـةٌ نَجْـلاءُ
بطْـنٌ رغيبٌ وطريـقٌ مَهْيَعُ
والثّـوْبُ فَضْفَاضٌ كَـدِرْعٍ تَمْنَعُ
وأرْضُنـا واسِـعَةٌ، والقَـدَحُ
يُوصَفُ بالرَّحْـرَاحِ فيمـا اصْطلَحُوا

قال: سُقيتَ الغَرِيض، يا كَعْبةَ القَرِيض! فما قيودُ الامتلاء، عند أهلِ الجَلاء؟ فقال: جَرْيُ المُذْكِيَات غِلَاء. وأنشد:

يُقـالُ عَيْـنٌ ثَـرّةٌ، والبَحْـرُ
طـامٍ، وطافِـحٌ لدينـا النّهْـرُ
كأسٌ دِهَـاقٌ، وجِفَانٌ رُذُمُ
وزاخِـرُ الـوادي إنـاءٌ مُفْعَـمُ
وجَفْنُـكَ المُتْـرَعُ، والسـفينهْ
بـكلِّ كِيـسٍ أعْجَـرٍ مَشْـحونَهْ
وقِرْبـةٌ مُتْأقّـةٌ والطَّـرْفُ
مُغْرَوْرِقٌ إذْ غَصّ نادٍ فاقْفُ

قال: لا شَلّتْ أنامِلُك، ولا كَلّتْ عوامِلُك. فهل تعرفُ قيودَ الخَلاء، وتجعلها خاتمةَ الإملاء؟ قال: سِيّانِ الخاتمة والفاتحة، فما أشبهَ الليلةَ بالبارحة. وأنشد:

أرضٌ من النّاسِ يُقالُ قَفْرُ
جُزْزٌ من الزرعِ إنَاءٌ صِفْرُ
ودارُنا من الأهالي خاويهْ
مثلُ البُطونِ من طعامٍ طاويهْ
والمَرْءُ من كلِّ سِلاحٍ أعْزَلُ
ورَجُلٌ من دونِ سَيفٍ أمْيَلُ
أجَمُّ من رُمْحٍ، ومن قَوْسٍ رَمَى
أنْكَبُ، والأكشفُ من تُرْسٍ حَمَى
حافٍ بلا نَعْلٍ، وحاسِرٌ بلا
عِمَامَةٍ، عارٍ من الثوبِ خَلا
وقَلْبُ زَيْدٍ فارِغٌ من شُغْلِ
وخَطُّه غُفْلٌ بغيرِ شَكْلِ
وحاجِبٌ أمرطُ جَفْنٌ أمْعَط
وأصْلَعُ الرأسِ وجِسْمٌ أمْلَطُ
وهكذا غَيْمٌ جَهَامٌ من مَطَرْ
وقيل: خَدٌّ أمْرَدٌ من الشَّعَرْ
ولَبَنٌ من زُبْدِه جَهِيرُ
وطَلِقٌ من قَيْده الأسَيرُ

وامْـرأةٌ مـن الحُلـيِّ عُطُـلُ
زَلّاءُ لا يَشْـخَصُ منهـا الكَفَـلُ
وعُلُـطٌ مـن وَسْـمِه البعيـرُ
ونُـزُحٌ مـن المِيـاه البِيـرُ
وشَـجَراتٌ سُـلُبٌ من وَرَقِ
فاقنـعْ بما ذكرتُ واتْرُكْ مـا بَقِي

قال: فلما رأى القومُ من رَيِّ شرَارِه، وفَرْي غِرَارِه، قالوا: نُعيذ لكَ باللهِ من نَفْسٍ حَرّى، وعَيْنٍ شُرّى! فهل لك أن تكونَ لنا خطيباً؟ وكفى باللهِ حسيباً. قال: نحن في المَشْرَبِ شَرَع، والطيور على أشكالِها تقع. فإن رأيتُ ما يَسدُّ الخَلّة ويردُّ الغُلّة، فأنا منكم نسباً وحِلّة. ورُبَّ ظِئْرٍ رَؤُم، خيرٌ من أمٍّ سَؤوم. فرضخوا له باحتلاب شَطْر، وقالوا: أول الغيثِ قَطْر. فارتفق على مُصلّاة، وقرأ: إذا عزمتَ فتوكّلْ على اللهِ. قال سُهَيْل: ولم يكن إلا بعضُ خُذْمَة، حتى وفَدَتْ امرأة حَسَنة اللثْمَة، فقالت للشيخ: هلُمّ بأبي عُبَادة، فقد كُلِّفْتُ الشهادة. قال: علي أن أشهدَ بالحق، كما أشهدُ للحق، ونهض بي كالسارية، في أثَرِ الجارية. والقومُ إليه ينظرون، وله ينتظرون. فلما انتهينا إلى بعض المناصِع، سَفَرَتْ كليمتُه، وإذا هي كريمتُه. فوقفتُ مُتَدَهْدِهاً فزجرني مقهقهاً. وأنشد:

لـم أرْجُ سَـدَّ خَلّتـي من النَّفَرْ
فقـد عزمتُ بغتَةً على السَّـفَرْ
مُتّـكِلاً فيـه علـى رَدْءِ القَـدَرْ
فلم أكنْ في أمْرِهمْ مِمّنْ غَـدَرْ
وأنـتْ يـا بُنَـيَّ كـنْ مِمّـنْ عَـذَرْ!

ثم قال: إن كنتَ الرفيق، فهذه الطريق. وإلا فعليك السلام ولا مَلام. فخرجتُ بين الحَيّة والحُيَيّة، ولم نفترقْ إلى دِيارِ طُهَيّة.[1]

١.ناصيف اليازجي. مجمع البحرين (بيروت: دار صادر، ١٩٢٤)، ص ٢٨٤-٢٨٩.

قائمة المصادر

- إبراهيم، حافظ، ديوان حافظ إبراهيم، ط ٣ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧).
- أبزون. ديوان أبزون العماني، تحقيق: هلال ناجي، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، عدد٧، ١٩٨٤، ص ١١٩.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ج١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧).
- ابن الدمينة، عبدالله. ديوان ابن الدّمينة، تحقيق: أحمد راتب النفاخ (القاهرة: مكتبة دار العروبة، ١٩٥٩).
- ابن المبارك، محمد. منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق: محمد نبيل طريفي، ج٤ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٩).
- ابن خلكان، أبو العباس أحمد. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج٤ (بيروت: دار صادر، ١٩٧٨).
- ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد. العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ج٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣).
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨).
- أبو بكر، عبد الله بن أبي قحافة. ديوان أبي بكر الصديق، تحقيق: راجي الأسمر (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٧).
- الآبي، أبو سعد منصور بن الحسين. نثر الدر، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، ج٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤).
- الإتليدي، دياب. نوادر الخلفاء: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز سالم (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤).
- الأخرس، عبد الوهاب. الطراز الأنفس في شعر الأخرس (إستنبول: مطبعة الشركة المرتبية، ١٨٨٧).
- الأخفش الأصغر. كتاب الاختيارين المفضليات والأصمعيات، تحقيق: فخر الدين قباوة (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٩).
- الأصفهاني، أبو الفرج. الأغاني، تحقيق سمير جابر، ط ٢، ج ٧، (بيروت: دار الفكر،).
- الأصفهاني، أبو الفرج. كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، ج١٨ (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٨).
- الأصمعي، أبو سعيد. الأصمعيات. تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ).
- الأعشى، ميمون بن قيس. ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: محمود الرضواني، ج٢ (قطر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، ٢٠١٠).

- ألف ليلة وليلة، ج٤ (القاهرة: المطبعة السعيدية ومكتبتها، ١٩٣٠).
- الآمدي، أبو القاسم. المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، تحقيق: فريتس كرنكو (بيروت: دار الجيل، ١٩٩١).
- الأنصاري، أحمد بن محمد بن علي. حديقة الأفراح لإزالة الأتراح، غير محقق (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٩٣٧).
- الباخرزي، علي بن الحسن. دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق: محمد التونجي، ج١ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣).
- باقر، محمد. ديوان أبي العباس الأعمى التطيلي (بيروت: مكتبة الرائد العلمية، ٢٠٠٤).
- البغدادي، عبد القادر. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، ج٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٤).
- التنوخي، القاضي. الفرَج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، ج٤ (بيروت: دار صادر، ١٩٧٨).
- التوحيدي، أبو حيان. البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، ج٩ (بيروت: دار صادر، ١٩٨٨).
- التوحيدي، أبوحيّان. الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، ج١ (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت).
- الثعالبي، أبو منصور. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ج٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣).
- الجاحظ، أبو عثمان. التبصرة بالتجارة، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب (القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٩٣٥).
- الجاحظ، أبو عثمان. رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ج١ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٤).
- الجاحظ، أبو عثمان. كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ج١ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٦٥).
- الجارم، علي. ديوان علي الجارم (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٠).
- الجمحي، محمد بن سلام. طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، ج١ (جدة: مطبعة المدني، ١٩٨٠).
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق: محمد شرف الدين يالتقايا، ج٢ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).
- الحارثي، النجاشي. ديوان النجاشي الحارثي، تحقيق صالح البكار وآخرين (بيروت: مؤسسة المواهب، ١٩٩٩).
- الحكمي، الحسن بن هانئ. ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي، تحقيق إيفالد فاغنر، ط ١، ج ٣ (بيروت: دار صادر، ١٩٨٨).
- الحموي، ياقوت. معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، ج٣ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣).

- الخزاعي، دعبل. وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود، تحقيق: نزار أباظة (دمشق: دار البشائر، ١٩٩٧).
- الديلمي، مهيار. ديوان مهيار الديلمي، تحقيق أحمد نسيم، ط ١، ج ١ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٥).
- ذو الرمة. ديوان ذي الرمة، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٦).
- الزجاجي، أبو القاسم. أمالي الزجاجي، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧).
- الزجاجي، أبو القاسم. أخبار أبي القاسم الزجاجي، تحقيق: عبد الحسين المبارك (دمشق: دار الرشيد للنشر ١٩٨٠).
- الزمخشري. أساس البلاغة. تحقيق: محمد باسل عيون السود. ج١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨).
- الزمخشري، محمود بن عمر. المستقصى في أمثال العرب، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ج١ (الهند: دائرة المعاراف العثمانية، ١٩٦٢).
- الزمخشري، محمود بن عمر. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: عبد الأمير مهنا، ج٢ (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٢).
- شُبّر، جواد. أدب الطفّ: شعراء الحسين عليه السلام، ج٧ (بيروت: دار المرتضى، ١٩٨٨).
- الشقروي، محمد ولد ابن ولد أحميدا. ديوان الشاعر الموريتاني محمد ولد ابن ولد أحميدا. رسالة ماجستير غير منشورة،تحقيق: أحمد ولد حبيب الله (القاهرة: كلية دار العلوم، ١٩٨٨).
- شوقي، أحمد. الشوقيات، الجزء الثاني (بيروت: دار العودة، ١٩٨٨).
- شيخو، لويس. النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، الطبعة القانية (بيروت: دار المشرق، ١٩٨٩).
- الصاوي، محمد إسماعيل. شرح ديوان جرير، ط ١ (القاهرة: مطبعة الصاوي).
- الصفدي، صلاح الدين. الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤط وتركي مصطفى، ج٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠).
- الضُّبَعي، عمرو بن قَمِيئة. ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق: الصيرفي، حسن كامل (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ١٩٦٥).
- الطالوي، درويش محمد بن أحمد. سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر، تحقيق: محمد مرسي الخولي، ج١ (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٣).
- الطائية، م. م. سعد هاشم. شعر ابن شبرين الجذامي الأندلسي جمع ودراسة وتحقيق، مجلة كلية التربية، واسط، العدد ١٣ (نيسان، ٢٠١٣).
- الطبطبائي، عبد الجليل. روض الخل والخليل ديوان السيد عبد الجليل، تحقيق: ياسين الشريف (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، ١٩٦٤).
- طعمة، إلياس عبدالله. ديوان أبي الفضل الوليد (بيروت: دار الثقافة للطباعة والنشر).
- العيوني، علي بن المقرب. ديوان جمال الدين أبي عبد الله علي بن المقرب العيوني (بومبي: مطبعة دير ساد، ١٨٩٢).

- القالي، أبو علي. كتاب الأمالي، تحقيق: صلاح بن فتحي هلل و سيد بن عباس الجليمي (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ٢٠٠١).
- القرشي، عباس بن محمد. حماسة القرشي، تحقيق: خير الدين محمود قبلاوي (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٥).
- القفطي، علي بن يوسف. المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تحقيق: حسن معمري وحمد الجاسر (جامعة باريس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٧٠).
- القلقشندي، أبو العباس. صبح الأعشى، د.ت (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٣).
- القيرواني، ابن رشيق. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج٢ (بيروت: دار الجيل، ١٩٨١).
- القيسي، أحمد بن عبد المؤمن. شرح مقامات الحريري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٤ (بيروت :المطبعة العصرية، ١٩٩١).
- الكلابي، القتّال. ديوان القتّال الكلابي، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٩).
- المبرد، أبو العباس. الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ج٣ (المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والإرشاد، ١٩٩٨).
- المُحِبّي، محمد أمين. نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ج٣ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٨).
- المرزباني، أبو عبيد الله. معجم الشعراء، تحقيق: فاروق أسليم (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٥).
- المرزباني، أبو عبيد الله. نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء، تحقيق: رودلف زلهايم (ألمانيا: فرانتس شتاينر بفيسبادن، ١٩٦٤).
- المرزوقي، أبو علي. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق: غريد الشيخ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣).
- المعري، أبو العلاء. الفصول والغايات، تحقيق: محمود حسن زناتي، ج١ (القاهرة: مطبعة حجازي، ١٩٣٨).
- المعري، أبو العلاء. رسالة الملائكة، تحقيق: محمد سليم الجندي (بيروت: دار صادر، ١٩٩٢).
- المكي، محمد بن إسماعيل، ديوان محمد شهاب الدين (القاهرة: مطبعة محمد جاهين، ١٨٦٦).
- الميداني، أبو الفضل. مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج١ (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥).
- النويري، شهاب الدين. نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قميحة وآخرون، ج ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤).
- الهمذاني، بديع الزمان. مقامات بديع الزمان الهمذاني، تحقيق: محمد عبده (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥).
- اليازجي، ناصيف. مجمع البحرين (بيروت: دار صادر، ١٩٢٤).

الفهرس

تمهيد..... ٥
مقدمة صورة عُمان في الشعر العربي..... ٧
الأصمعيات للأصمعي.....٣٩
وصايا الملوك لدعبل الخزاعي.....٤٤
طبقات فحول الشعراء لابن سَلّام الجمحي..... ٥٠
التبصرة بالتجارة للجاحظ.....٥٤
الحيوان للجاحظ.....٥٥
رسائل الجاحظ ٥٩
الشعر والشعراء لابن قتيبة..... ٦٣
الكامل في اللغة والأدب للمُبَرِّد..... ٦٨
كتاب الاختيارين للأخفش الأصغر..... ٧٤
العِقْد الفريد لابن عَبْد ربه..... ٧٩
أخبار أبي القاسم الزجاجي..... ٨٢
الأمالي للزجاجي..... ٨٥
الأغاني لأبي الفرَج الأصفهاني.....٨٧
الأمالي لأبي علي القالي..... ١٨٧
المؤتلف و المختلف في أسماء الشعراء للآمدي..... ١٩٠
الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي.....١٩٢
مقامات بديع الزمان الهمذاني.....١٩٥
الإمتاع و المؤانسة لأبي حيان التوحيدي ١٩٩
البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي..... ٢٠١
شرح ديوان الحماسة للمرزوقي..... ٢٠٢
نثر الدر لأبي سعد منصور بن الحسين الآبي..... ٢٠٥
يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي..... ٢١١
الفصول والغايات لأبي العلاء المعري..... ٢١٣
رسالة الملائكة لأبي العلاء المَعرّي..... ٢١٤

العُمْدَة في مَحاسِن الشِّعْر وآدابِه لابن رشيق القيرواني.....٢١٥
دُمْيَة القَصْر للباخَرْزي..... ٢١٨
مقامات الحريري..... ٢٢٥
مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني.....٢٣٠
المُسْتَقْصى في أمثال العرب للزمخشري..... ٢٣٢
أساس البلاغة للزمخشري.....٢٣٤
ربيع الأبرار للزمخشري..... ٢٣٦
منتهى الطلب من أشعار العرب لابن المبارك..... ٢٣٧
معجم الأدباء لياقوت الحموي..... ٢٦٠
المُحَمّدون من الشعراء للقفطي..... ٢٨٢
وفيات الأعيان لابن خلكان..... ٢٨٧
نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري..... ٢٩٧
الوافي بالوفيات للصفدي..... ٣١١
صبح الأعشى للقلقشندي ٣٢٠
معجم الشعراء للمرزباني..... ٣٢٤
نور القبس للمرزباني.....٣٢٦
كشف الظنون لحَاجّي خليفة..... ٣٤٩
خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي..... ٣٥٠
نوادر الخلفاء المشهور لدياب الإتليدي.....٣٥٧
نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة لمحمد أمين المُحِبّي..... ٣٦١
حديقة الأفراح للأنصاري.....٣٦٤
حماسة القرشي للقرشي الجبعي..... ٣٧١
النصرانية وآدابها للويس شيخو..... ٣٧٢
ألف ليلة و ليلة..... ٣٧٦
مَجْمَعُ البَحْرَيْن لناصيف اليازجي.....٣٩٠
قائمة المصادر.....٣٩٤

هلال الحجري
hilalalhajri@hotmail.com

صدر للمؤلف حتى الآن:

- هذا الليل لي (ديوان شعر) (مسقط: مؤسسة عمان للصحافة و النشر و الإعلان، ٢٠٠٦).
- غَوَاية المجهول: عُمان في الأدب الإنجليزي (بيروت: دار الانتشار، ٢٠١٠)
- كطائر جبلي يرقب انهيار العالم (ديوان شعر) (عمّان: دار فضاءات، ٢٠١٣).
- حداثة الأسلاف: إضاءات من الشعر العماني القديم (مسقط: مؤسسة عمان للصحافة و النشر و الإعلان، ٢٠١٣).
- بلاد الشمس: قصائد حول العرب وبلادهم (بيروت: دار الانتشار، ٢٠١٦).